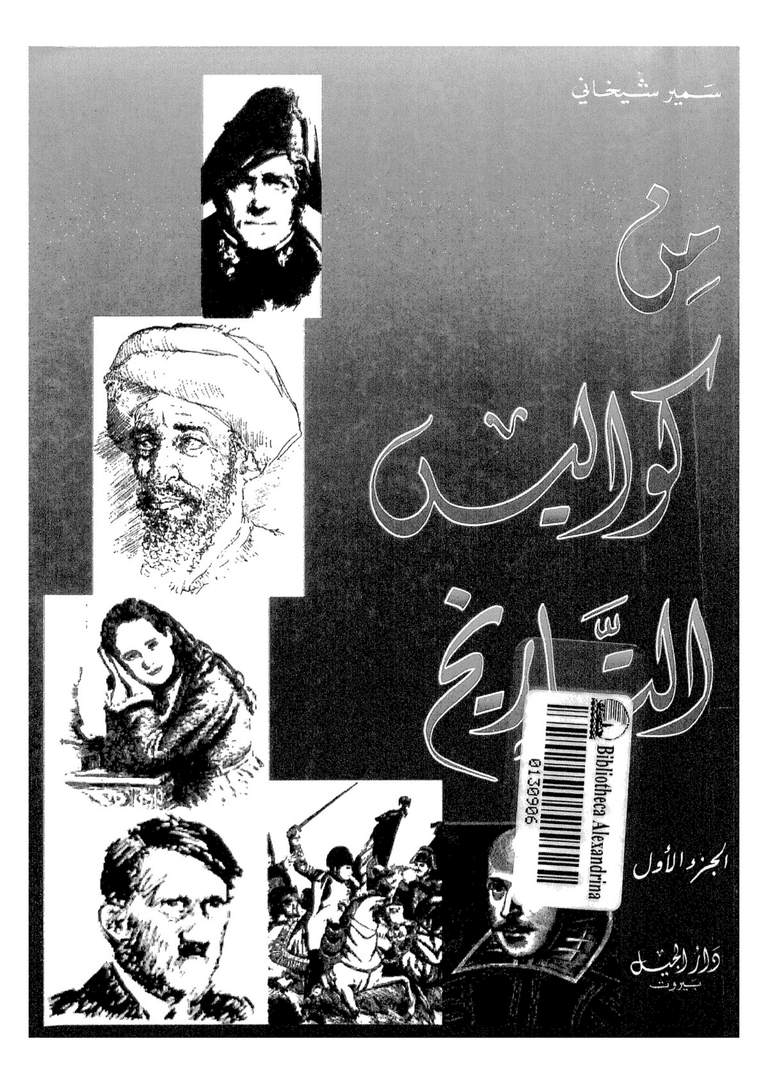


سمير شيخاني
من كواليس التاريخ
الجزء الأول
دار الجيل
بيروت
Bibliotheca Alexandrina
0130906

مِن كواليس التَّاريخ

سمير شيخاني

من كواليس التاريخ

الجزء الأول

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

الجزء الأول

١ - من التاريخ الفرنسي

٢- من التاريخ الانكليزي

تقديم

في حقل التاريخ الاكاديمي ، يندر التجرد المدقّق ، ذلك بأن المؤرخين يُغْرَون حتماً على الكتابة بدرجة معينة من التحيّز أو الهوى . وإنه لمن الصعب بالنسبة الى مؤرخ ذي ميول يسارية ، ان يكون منصفًا عندما يكتب عن النظام الاقطاعي ، وليس أقلّ صعوبة على البروتستانتي الورع أن يضع رواية غير متحيِّزة عن الانشقاق الكبير في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . ويصبح ذلك مفهومًا اذا ما وُضع وجها الرواية بوضوح ، ولا نكون مضطرين للموافقة على النتائج التي توصّل إليها الكاتب .

من المؤسف أن الأمر لا يقتصر على ذلك ، فمن حين الى آخر شُوهّت شخصية بعض الملوك ، أو السياسيين ، أو القادة الروحيين ، أو الجنود ، لكي يتطابق ذلك مع خط تم تصوّره مقدمًا للفترة موضوع الدراسة . وقد قُلّل من شأن الفضائل والنجاح كيلا يُحطّم عدم التحيُّز الصورة . وهكذا تكوّن الاجيال المتعاقبة فكرة ناقصة ، وربما غير منصفة عن شخصيته ، ودوافعه ، وحتى الاحداث التي مثّل فيها دورًا رئيسيًا . والعكس ، أيضًا ، غالبًا ما كان الوضع ، وقد عُزِّزت سمعة الأبطال وشهرتهم اللتان وطّدهما تكرار الفضائل والمنجزات البعيدة الاحتمال ، على حساب اولئك المسؤولين حقاً عن هذه الأمجاد .

إن ذلك لهو نتيجة تفضيل تشويه الوقائع لكي تتناسب مع النظريات ، وهو أمر أسوأ من تشويه النظريات لمطابقة الوقائع . وليس ثمة سوى خطوة واحدة من ذلك الى عالم الاسطورة ، وقد اعتُبرت ، احيانًا ، الدعاوة الناجمة عن ذلك تاريخًا جديًا . والأسوأ من ذلك كله ان هذه الدعاوة كرّرها مؤرخون آخرون .

وليس قليلاً من تاريخ العالم الذي كُتب ، على ما يبدو ، بهذه الطريقة المتحيزة ، وقد نجم عن ذلك عدد من الأساطير والاسرار الغريبة . وربما كان ، إذاً ، المثل القديم السائر «ان التاريخ يعيد نفسه» غير صحيح بقدر صحة الملاحظة التي أطلقها بعضهم وهي : «ان المؤرخين يكرر بعضهم بعضاً !»

ان هذا التكرار الذي غالبًا ما يحدث في كتب التاريخ المدرسية ، والمصنفات الدراسية بألوان جديدة ، طبعًا ، وخيال خصب يتجدد جيلاً بعد جيل ، قد جعل تناول الاسطورة والتاريخ المحيطين بهذه الاسرار أشد تعقيداً .

وهذه غوامض تاريخية لا بد ان تثير جدلاً بالنسبة إلى الحلول التي ترافقها ، الا انها ، على أي حال ، تبعث المتعة في نفس القارئ اذ تكشف له حلولاً كتلك التي تزخر بها الروايات البوليسية . . .

ويتناول هذا الكتاب عدداً من الأسرار التاريخية ، علماً بأن الاقتراحات المقدمة فيها ، على الرغم من أنها مختلفة ، وربما مثيرة للجدل ، هي نتيجة النظر الى القضية من وجهيها . وهي حلول ، وليست الحلول ، ويُترك للقارئ أن يقرر ما اذا كان يود قبولها أو نبذها .

بيروت ، في ٢٥/ ٥/ ١٩٩٢

سمير شيخاني

١ - من التاريخ الفرنسي

من كان الرجل ذو القناع الحديدي؟

ان هوية الرجل ذي القناع الحديدي لهي أشهر أسرار التاريخ . فكل واحد منا تقريباً قد سمع به ، ولكن القليلين يعرفون الكثير عنه ، وما يحسبون انهم يعرفونه هو غالباً خطأ . إنها موضوع احدى أشهر روايات الكسندر دوما ، الأب ، التاريخية ، وقد استُخدمت هذه القصة ، في ما بعد ، لوضع عدد من المسرحيات ، فضلاً عن أنها صوّرت فيلماً سينمائياً . وقد أُعيد تمثيل كل قصص القرن السابع عشر ، وقوامها المغامرات الفروسية والحب الشريف ، ولم يوفَّر اي خيال في خلق قصة مغامرات رائعة . غير ان تبسيط هذا السر الشهير وجعله في متناول مدارك الجمهور زاد من إلقاء الحقيقة في غياهب النسيان وخمول الذكر .

ماذا نعرف عن الرجل والشكل الغريب للقناع الذي يُعتقد أنه كان يضعه بكل شغف؟ في كتب المراجع ، عادة ما يوصف بأنه « سياسي فرنسي مجهول سجين على عهد الملك لويس الرابع عشر» ، ويحدَّد العام ١٧٠٣ موعداً لوفاته .

من حسن الحظ أنه من السهل الآن التخلّص من الاسطورة القائلة إن القناع الذي كان يخفي وجه هذا السجين البائس كان حديدياً . على أي حال ، فإن مثل هذا القناع كان يمكن ان يكون نوعاً من اللباس غير مريح ، ومن غير الممكن استمرارالحياة طويلاً مع وجود هذا العائق . وقد وجُدت مفكرة كان يدوِّن فيها أحد الضباط في سجن الباستيل مذكراته ، حيث كان ذو القناع الحديدي سجيناً ، وقد جاءت فيها عبارة توضح أن القناع كان مصنوعاً من المخمل الأسود . ولن يعرف ما اذا كانت دعائم القناع قد صنعت من الفولاذ الرقيق أو من البلّين (عظم فك الحوت) . ولكن كانت الغاية هي اخفاء هوية السجين ، لا القضاء عليه خنقاً ، فليس من المهم معرفة من اي مادة

صُنعت الدعائم . فالأكثر اهمية هو من كان ذو القناع الحديدي ، وما كانت التهمة الملصقة به ، وكم من الوقت قضى في السجن وهو يضع على وجهه هذا القناع الغريب؟

بالوسع أن نستخلص عدداً كبيراً من الاقتراحات من الأساطير والروايات الرومنطيقية ، وحتى من التخمينات المعاصرة . ولعلَّ أفضل طريقة للاقتراب من الحقيقة هي في إزالة الحلول غير الممكنة ، وهناك جملة منها . ومن أشهر النظريات ، التي استُخدمت أساساً لرواية ألكسندر دوما ، النظرية القائلة ان ذا القناع الحديدي كان الأخ التوأم الشرعي للملك لويس الرابع عشر . وتروي القصة أن الملك لويس الثالث عشر كاد ييأس من أن يُرزق وارثاً للعرش ،وكان في سبيل مناقشة أمر خلافته مع رجال البلاط عندما هرع اليه أحد الرسُل ، وهمس شيئاً في أذنه ، فانتقل الملك من فوره إلى غرفة مجاورة ، وعاد بعد دقائق حاملاً طفلاً ذكراً وضعته الملكة لساعتها . فلقد انجبت زوجته الملكة آنّ النمساوية (= آنّ دوتريش) أخيراً وارثاً ، فطار قلب البلاط فرحاً لمثل هذا الحل المناسب لمشكلة معقدة .

ولكن لسوء الحظ ، وبعد بضع ساعات ، صدرت عن غرفة الملكة صيحات ألم وأنين شديد ، فهرع الملك لويس الثالث عشر لاستطلاع الخبر ، وسرعان ما علم ، لفرط رعبه ، ان زوجته وضعت الطفل التوأم الثاني – وكان ذكراً . ويُعتقد أن الملك راح يتخيَّل حدوث حرب أهلية في فرنسا بسبب التنافس بين الاخوين التوأمين المطالبين بالعرش لدى وفاته . واستدعي الأطباء ، وسئلوا من هو في عرفهم ، وفي الواقع ، يجب ان يكون صاحب الحق بالخلافة . فأجابوا ان التوأم الثاني الذي أبصر النور هو الذي حُبل به أولاً ، ولذا فإن المولود الأول ليس الوارث . غير أن لويس شعر ، وقد سبق أن حمل الطفل الأول الى رجال البلاط المعجبين على أنه الوارث المنتظر ، أنه ليس بوسعه العودة عن كلامه ، ولذا أُرسل التوأم الثاني الى مربية في القصر الملكي لتُعنى به . وقد حدث ذلك في السنة ١٦٣٨ . وبعد عشرين سنة ، دبّر الطفل الأول ، وقد اضحى اليوم الملك لويس الرابع عشر ، امر سجن أخيه التوأم مدى الحياة ، مع التعليمات المشددة بأن يظلّ مقنّعاً على الدوام إخفاءً لهويته .

ان هذه حبكة رائعة لرواية ، وقد استغلّها دوما أفضل استغلال ، ولكنها لا ترتدي اي تأكيد تاريخي . ذلك بأنه كان من الأسهل إما القضاء على الطفل الثاني ، أو إرساله الى الخارج . وهذه النظرية البارعة هي بالضبط ما يتوقّعه المرء من روائي كبير أن ينسج خيوطها ، غير أنه يصعب قبولها كتاريخ .

وثمة نظرية اخرى تقول ان السجين كان ابن الملكة آنّ النمساوية من دوق بكنغهام ، الذي زار فرنسا السنة ١٦٢٥ ، وقد اعتنى بالطفل الوزير الاول الفرنسي الكاردينال مازاران ، الذي يزعمون أنه كان عشيق الملكة آنّ ، ولكن لويس الرابع عشر سجنه لدى وفاة مازاران السنة ١٦٦١ . إن هذه النظرية لا تستند الى أي أساس صحيح ، فضلاً عن أنها تجعل السجين يقضي في الثمانين من عمره ، وليس هذا هو الواقع ، بكل تأكيد . والنظرية الأخرى حول الدم الملكي المزعوم الذي يجري في عروق السجين ، فهي أنه كان ابن آنّ النمساوية والكاردينال مازاران ، وأنه أبصر النور السنة ١٦٤٤ .

إن اسطورة الدم الملكي في عروق الرجل ذي القناع الحديدي ما تزال حيّة ، ومن أهم متفرعاتها الغريبة أنه قد تزوج في السجن ، واستقر ابنه في كورسيكا باسم دو بونابارته ، وكان جدّ نابوليون بونابرت : إن ذلك كان يمكن أن يشبع غرور نابوليون ، بكل تأكيد !

والاقتراحات الاخرى حول هوية ذي القناع الحديدي هي أنه كان دوق بوفور ، الذي توفي السنة ١٦٦٩ ، أو الكونت دو فرماندوى المتوفى السنة ١٦٨٣ ، او موليير ، الروائي المسرحي الكبير ، المتوفى السنة ١٦٧٣ . حتى أنه زُعم أنه دوق مونموث الذي قُطع رأسه السنة ١٦٨٥ . وكل هذه الاقتراحات يسهل تكذيبها .

كان دوق بوفور الإبن الثاني للدوق دو فوندوم ، وهو ابن غير شرعي للملك هنري الرابع ، وقد وُلد السنة ١٦١١ ، وقد قُتل في نهاية حصار السنوات العشرين لكانديا ، على يد الاتراك العثمانيين ، في ٢٥ حزيران ١٦٦٩ . وقد أكّد ذلك المركيز دو سانت أندريه مونبران الذي كان حاضراً . ولكن لما لم يُستعد قط جثمان الدوق ، فقد ساد الاعتقاد ، ردحاً من الزمن ، انه كان ذا القناع الحديدي ، وقد سُجن لأنه قاد ثورة

الفروند السنة ١٦٤٩ . واذا كان دوق بوفور هو ذا القناع الحديدي ، إذاً لكان قضى في سن الرابعة والتسعين – وهو أمر خاطىء تماماً . أما ثورة الفروند فهي الاسم الذي عرفت به الحرب الاهلية التي حدثت خلال فترة قصور الملك لويس الرابع عشر . وقد تسبَّبت ، بصورة خاصة عن سياسة مازاران المالية . وكانت ذات مرحلتين : المرحلة الاولى ، وتُعرف باسم الفروند العجوز ، أو الفروند البرلمانية ، والفروند الثانية ، أو فروند الامراء ، وهي التي نحن بصددها ، وفيها شن كونده ، وبوفور ، ومدام دو لونغفيل ، بمساندة اسبانيا حملة عسكرية حقيقية على القوات الملكية التي كانت بقيادة تورين . وقد دامت هذه الحرب من السنة ١٦٤٨ إلى ١٦٥٣ ، في حين ان الفروند الاولى استمرت من السنة ١٦٤٨ إلى ١٦٤٩ .

كان الكونت دو فرماندوى ابن الملك لويس الرابع عشر وعشيقته مدام دو لا فاليير ، وقد أبصر النور السنة ١٦٦٧ . وتوفي السنة ١٦٨٣ . وقد احبه والده كثيراً ، على الرغم من انه كان في بعض الاوقات يوبخه على أعمال غير لائقة كان يقوم بها . ولكننا نجهل ما كانت طبيعة هذه الاعمال ، إلا أنها لا يمكن أن تبرّر الحكم الجائر الذي صدر بحق ذي القناع الحديدي .

وموليير توفي السنة ١٦٧٣ ، ولما كان ذو القناع الحديدي لم يقضِ إلا بعد ذلك بثلاثين سنة ، فمن الصعب معرفة اين هو منشأ هذه الفكرة الغريبة .

اما النظرية القائلة بأن ذا القناع الحديدي كان دوق مونموث ، فمن الصعب جداً تكذيبها او تسفيهها لأنها هي الاعتقاد السائد بين الكثيرين من الفرنسيين طوال فترة غير قصيرة من الزمن . وقد شاطر هذا الاعتقاد بعض أنصار مونموث في انكلترا ـ اولئك القلة الذين نجوا من غضبة القاضي دجيفريز شبه القضائية . وحسب سان ـ فوى ، فإن الملك تشارلز الثاني طلب وهو على فراش الموت ، وكان على اطلاع واسع على مطامح ابنه وتهوره وعداً من أخيه دجيمس ، دوق يورك ، ألا يكون الموت عقاب مونموث مهما ارتكب من اساءات او جرائم .

ووافق دجيمس على ذلك ، لأنه كان مولعاً بهذا الشاب ، ولكن حرصاً منه على منعه من إقلاق السلام في انكلترا ، طلب إلى الملك لويس الرابع عشر أن يسجنه سرآ

في فرنسا . وعندها يروى أن مونموث حُمل الى فرنسا ، بينما وُضع جسم بديل على خشبة الاعدام في تاور هل ، إثر معركة سدجمور ، السنة ١٦٨٥ . ولدعم هذا الرأي ، يزعمون ان سيدة هي اللايدي ونتويرث استحصلت على اذن بفتح ضريح مونموث ، ولدى التفحّص ، هتفت : «آه هذا ليس هو !» وفضلاً عن ذلك ، زعموا ، كذلك ، ان حاكم برج لندن قال للايرل اوف دانبي ان الملك دجيمس الثاني وثلاثة اصدقاء أتوا الى البرج بعد سدجمور ، وحملوا مونموث . وأخيراً ، زعم طبيب جرّاح انكليزي اسمه نيليتن ، أنه استدعي الى سجن الباستيل ، خلال زيارة له الى فرنسا ، وقابل ذا القناع الحديدي الذي تكلم كامرئ انكليزي .

في «تاريخ انكلترا» لهيوم ، نقرأ أن الشعور الودي لدى الشعب ما زال يتبع مونموث في كل خطوة . حتى بعد اعدامه ، كان البعض يتعلّق بالأمل بأنه سيعود لقيادتهم ضد دجيمس الثاني ، وقد صدّق ضمناً قصة الاستبدال في تاور هل .

اعتقد سان - فوى ان مونموث حُمل الى سجن بنييرول (حيث أمضى ذو القناع الحديدي بضع سنوات) ، خلال غياب الحاكم سان - مارس . ولكن ذا القناع الحديدي كان في السجن قبل السنة ١٦٨٥ ، ولذا فلا يمكن أن يكون مونموث .

ليس ثمة اي شك على الاطلاق في إعدام دوق مونموث ، ذلك بأن شاهداً عياناً معاصراً دوّن التفاصيل ، فقد روي أن الجلاد أخطأ عنق مونموث لدى الضربة الأولى ، ويزعمون ان مونموث نهض من على خشبة الاعدام وطلب اليه أن يصوّب بطريقة أفضل ! وفي السنة ١٧٠٣ ، لما توفي ذو القناع الحديدي ، كان الملك دجيمس الثاني قد توفي ، وتربّعت على العرش الملكة آنّ ، ولم يعد ثمة اي سبب يجعل البلاط الفرنسي يحتفظ بسر واقعة ، إذا ما كشفت ، تبرّئ ذكرى دجيمس من اللوم لأنه نقض وعداً قطعه لأخيه تشارلز الثاني وهو على سرير الموت . واذا كان ذو القناع الحديدي حقاً ، وفي الواقع ، دوق مونموث ، لكان الوزراء الفرنسيون أرضوا الفضول العام بإثباتهم ذلك .

وهناك اقتراحات اخرى كثيرة حول هوية ذي القناع الحديدي من السخف بحيث لا تستحق أن يُشار إليها ، ولكن اقتراحاً واحداً آخر يمكن أن يكون ذا أهمية ، لأنه يُظهر

كم هي بعيدة عن التصديق بعض النظريات المثيرة . فقد أعلن الكابيتين بازيير ، من الجيش الفرنسي ، السنة ١٨٨٣ ، وكان خبيراً بالشيفرة أنه فك رموز رسالة مكتوبة ، على ما يزعمون ، بيد لوفوى ، وزير الحربية لدى الملك لويس الرابع عشر ، وموجهة الى الماريشال كاتينا ، وهو قائد عسكري في ميدان القتال ، يطلب اليه فيها القبض على الجنرال دو بولوند بتهمة الجبن ، وسجنه في سجن بنييرول . وقد أمر الجنرال بوضع قناع حديدي على وجهه . ولما نُشرت هذه الرسالة ، أحدثت دوياً . واعتُبر أن السر قد حُلَّ أخيراً !

ولكن ذلك كان من الواقعية بحيث لا يصدّق ! وكانت دقة فك الرموز مثاراً للجدل والتساؤل ، فضلاً عن برهان لا يدحض وهو أن الجنرال دو بولوند كان ما يزال حياً السنة ١٧٠٥ ، بينما توفي ذو القناع الحديدي السنة ١٧٠٣ .

ان الرجل ذا القناع الحديدي الأكثر احتمالاً ، إذاً ، ولم يُذكر بعد اسمه ، كان الكونت الايطالي إركولي ماتيولي ، المولود السنة ١٦٤٠ . كان سياسياً ودبلوماسياً إيطالياً استقر في مانتوى ، وشغل منصب وزير الخارجية لدى دوق مانتوى . أما لماذا استحق مصير الرجل ذي القناع الحديدي ، فسنرى في ما بعد . إلاّ أنه من المهم في هذه المرحلة ان نُظهر اي بيّنة لدينا حول الوقائع التاريخية الحقيقية المتعلقة بذي القناع الحديدي ، لا فرق من يكون .

يبدو ان ثمة ندرة في المصادر التي يمكننا الرجوع اليها ، ولكن في السنة ١٧٦٩ ، نُشرت مفكرة احد ضباط سجن الباستيل ، القلعة الحصينة في العاصمة باريس ، وقد كان الهجوم عليها السنة ١٧٨٩ إشارة لنشوب الثورة الفرنسية . وكان الضابط يدعى إيتيين دو جونكا ، وقد بدأت خدمته في السجن قبل وصول ذي القناع الحديدي ، ولم تتوقّف إلاّ بوفاته شخصياً ، بعد سنوات ثلاث من وفاة ذي القناع الحديدي . والمفكرة كناية عن تسجيل بسيط يومي للأحداث ، بعيد عن التحيّز ، وصادق مكتوب عن معرفة مباشرة ومن المصدر الاصلي . والاشارتان الاكثر أهمية المتعلّقتان بهذا السر كُتبتا يوم وصول ذي القناع الحديدي ، ويوم وفاته ، ويمكننا اقتباسهما كلياً ، حسب ترجمة الرائد البحري روبرت غولد :

«يوم الخميس الموافق ١٨ أيلول ١٦٩٨ ، وفي الساعة الثالثة من بعد الظهر ، وصل السيد دو سان ـ مارس ، حاكم حصن الباستيل من جزيرة سانت ـ مارغريت . وقد حمل معه في محفّة احد سجنائه السابقين في بنييرول (حيث كان حاكماً من السنة ١٦٦٤ الى السنة ١٦٨١) ، لم يُذكر اسمه ، وكان مقنَّعاً على الدوام . ولدى وصوله ، وُضع في برج لا باسينيير ، حتى هبوط الليل . وفي التاسعة مساءً قدته شخصياً الى الغرفة الثالثة في برج لا برتوديير ، وكنت قد اهتممت بحسن تجهيزه قبل وصوله ، بناءً على أمر تلقيته من السيد سان ـ مارس . وقد رافقني أثناء نقله السيد دو روزارج ، الذي أقبل مع سان ـ مارس ، واعتنى بالسجين ، وقام على خدمته ، وكان الحاكم قد وفّر له طاولة .»

أما الاشارة الثانية الهامة في المفكرة ، فقد كُتبت بعد خمس سنوات ، وهذا نصّها :

«يوم الإثنين في ١٩ تشرين الثاني ١٧٠٣ ، السجين المجهول ، الذي حمله السيد دو سان ـ مارس من جزيرة سانت ـ مرغريت حيث كان خلال فترة طويلة من الزمن تحت عنايته ، وكان مقنّعاً دوماً بقناع من المخمل الأسود ، وجد نفسه أسوأ أمس ، بعد عودته من حضور القداس ، وتوفي هذا المساء الساعة العاشرة ، دون أن يعاني مرضاً خطيراً . وقد تلقّى السيد جيرو ، القسيس الملحق بالسجن ، أمس اعترافه . ولما كانت وفاته مفاجئة ، فإنه لم يستطع التزوّد بالسر المقدّس ، غير أن قسيسنا وعظه قبل دقائق قليلة من لفظه أنفاسه .وقد دُفن يوم الثلاثاء ، في ٢٠ تشرين الثاني ، في مدفن ابرشيتنا ، أبرشية القديس بولس ، وكلفت جنازته اربعين ليرة .»

هذه المقتطفات دقيقة وواضحة المعالم ، وبلا تزويق . وهنا يمكننا اقتباس كلامٍ سجِّل في ابرشية القديس بولس لتأكيد ملاحظات دو جونكا الختامية :

«في السنة ١٧٠٣ ، وفي ١٩ تشرين الثاني ، توفي ماركيالي ، البالغ من العمر خمساً وأربعين سنة ، او حوالى ذلك ، في الباستيل . وقد دُفن جثمانه في مدفن هذه الابرشية ،أبرشية القديس بولس ، في اليوم العشرين من الشهر المذكور ، بحضور السيد دو روزارج ، الرائد في سجن الباستيل ، والسيد ريل ، الجرَّاح الذي يوقِّع هذا وفقاً لذلك .»

من كل ما قيل عن السجين ذي القناع الحديدي ، لا شيء يمكن أن يتجاوز الاعتماد الذي يمكن أن يوضع على يوميات دو جونكا . إنها الكتابة الحقيقية لشاهد عيان ، كان يكتب في كل يوم بيده شخصياً وفي يومياته الأحداث كما كانت تحدث تماماً ،بكل دقة . وليس ثمة اي سبب إطلاقاً لكي يكون الحال غير ذلك .

الآن بات معروفاً ، بكل تأكيد ، متى سُجن ذو القناع الحديدي أصلاً ، ولكننا نعرف أنه أُرسل ، أولاً ، الى بنييرول . ويبدو أنه وُضع تحت عناية سان ـ مارس الخاصة ، وكان حاكماً لأربعة سجون في فرنسا هي : بنييرول من السنة ١٦٦٤ الى ١٦٨١ ، وإكزيل من السنة ١٦٨١ الى ١٦٨٧ ، وسانت ـ مرغريت من السنة ١٦٨٧ الى ١٦٩٨ ، ثم سجن الباستيل من السنة ١٦٩٨ حتى وفاته . ومن حسن الطالع أن الكثير من مراسلاته ظلت سليمة ، إلاّ أنه من الصعب جداً معرفة من سُجن خلال مدة حاكميته للسجون الأربعة ، ذلك بأن معظم السجناء كان يشار اليهم باسماء زائفة ، أو بعبارات مبهمة من مثل «ذو القناع الحديدي» . ولكن من الممكن وضع لائحة بأولئك السجناء الذين كانوا في سجن بنييرول ، وبعد أن يشطب اولئك الذين أُطلق سراحهم ، واولئك الذين قضوا ، يبقى معنا سجينان . أحدهما ، إذاً ، يمكن إن يكون ذا القناع الحديدي . والسجينان كانا ، واحداً يُدعى دوجه ، وقد أُوقف السنة ١٦٦٩ بتهمة ربما لن تُعرف ، والآخر ماتيولي . وتخبرنا مقتطفات مفكرة دو جونكا ان السجين المقنَّع حمله الى الباستيل سان ـ مارس الذي كان مكلّفاً الاشراف عليه في بنييرول وسانت ـ مرغريت . وسنرى في ما بعد أن ماتيولي أُرسل اولاً الى بنييرول عندما أوقف السنة ١٦٧٩ .

قال السيد دو لاغرانج شانسيل ، وهو كاتب سُجن في سانت ـ مرغريت بسبب نظمه قصيدة هجائية بحق الوصي على العرش ، دوق اورليان ، إنه سمع ان سان ـ مارس كان يتصرّف باحترام تجاه السجين المقنّع . وكان الطعام يقدّم إليه دوماً على صينية فضية ، وكان يزوَّد بالملابس الثمينة حسب رغبته . وأضاف شانسيل الى ذلك قوله إنه تحدَّث الى شاهد عيان رأى ذا القناع الحديدي ، وهو امرؤ طويل القامة ، رمادي الشعر . وزعم الأب لانغليه دوفينوى ، الذي سُجن في الباستيل لفترات

قصيرة متعددة ، أنه قابل السجين ذا القناع . وأعلن انه كان حادّ الذكاء ، ومهذباً ، وبدا من حديثه أنه قام بأسفار في مختلف أرجاء أوروبا . والسيد لانغله ، الذي سُجن في الباستيل من السنة ١٧٨٠ الى ١٧٨٢ ، قال له الخدم الذين قام آباؤهم على خدمة ذي القناع ، إن الحاكم كان يقوم على خدمته شخصياً أثناء تناول وجبات الطعام . وبعد وفاة ذي القناع الحديدي ، انتُزع من حجرته كل أثر يمكن أن يدلّ على أنه عاش فيها . وقد كشطت الجدران ، وانتُزعت الأرضية الخشبية ، وأُحرقت ، وأُنزل السقف وسحق تماماً . وأزيل كل أثر ممكن منه وأُحرقت كل قطعة من الرياش حتى الرماد ، وصُهرت كل الآنية المعدنية . وقد أثبتت ذلك مذكرة كتبها احد ضباط قلعة الباستيل ، ويدعى شوفالييه ، كما أكد أن القناع كان مصنوعاً من المخمل الاسود .

كان السيد دو شاميار آخر وزراء فرنسا ، يموت ومعه السر . وكان الى سرير موته صهره الماريشال فوياد ، فحاول انتزاع الحقيقة من الرجل المشرف على الموت ، ولكن شاميار رفض . وكان اعتاد القول غالباً للذين كانوا يزعجونه بالسؤال ان ذا القناع الحديدي كان امرأ مطلعاً على أسرار نيكولا فوكيه ، وزير المالية في عهد مازاران . وقد أوقف فوكيه السنة ١٦٦١ بتهمة اختلاس بضعة ملايين من الليرات الفرنسية ، وقد تكللت محاكمته التي استغرقت عدة سنوات ، بالحكم عليه بالسجن مدى الحياة ، وقد سُجن في بنييرول . وقد نجم عن هذه الواقعة الاعتقاد الذي دام بضع سنين ، بأن ذا القناع الحديدي ليس إلاّ فوكيه ، وأنه الأخ غير الشقيق وغير الشرعي للويس الرابع عشر . وبالإمكان صرف النظر عن هذه النظرية واعتبارها غير ذات قيمة . غير انه يبدو أكيداً نوعاً ما أن يعرف فوكيه السجين ذا القناع ، لأن هذا الأخير وصل الى بنييرول خلال محكومية فوكيه . ويمكن أن يكون قد عرف كل شيء عن فوكيه ، مما يُظهر هكذا صحة أقوال شاميار .

سُئل الماريشال دوق ريشيليو ، حفيد أخي الكاردينال والسياسي الداهية الشهير ريشيليو ، من كاتب ترجمته سولافي ، اذا كان الرجل ذو القناع الحديدي هو الأخ الاكبر للويس الرابع عشر ، وقد وُلد دون علم لويس الثالث عشر . فأجاب إن ذا القناع هذا لم يكن الأخ غير الشرعي للويس الرابع عشر ، ولا دوق مونموث ، ولا الكونت دو

فرماندوى ، ولا دوق بوفور . ولكنه أضاف ان تفاصيل كثيرة حول ذي القناع كما يرويها مقال لفولتير هي صحيحة . ويقتبس كاتب سيرة ريشيليو عبارة من ريشيليو ، على النحو التالي : «كل ما يمكنني قوله ان السجين لم يكن من الاهمية لدى وفاته في مطلع القرن الحالي ، كما كان لدى زجه في السجن في بادئ الأمر . فقد سُجن لأسباب سياسية هامة . لماذا لا تقرأ ما نشره فولتير مؤخراً حول هذا الموضوع ، وبخاصة في الختام ، وتتأمل فيه؟»

بوسعنا اقتباس الجزء الأخير من مقال فولتير ، ولكن قبل القيام بذلك ، تقضي الضرورة بتلخيص قصة ماتيولي ، والأسباب المحتملة لسجنه مقنّعاً بالقناع المخملي الأسود .

سبق أن ذكرنا أن ماتيولي وُلد في ايطاليا ، السنة ١٦٤٠ ، وأنه كان وزير الخارجية لدى دوق مانتوى . وخلال مدة ولايته ، تورّط في مفاوضات سرية أدّت الى ما يمكن تسميته «حياة مزدوجة» . ساوم الفرنسيين لكي يسمح للقلعة الحدودية كازاله ، في مانتوى ، بأن تنتقل الى يديّ الملك لويس الرابع عشر ، لقاء ١٠٠ ألف كراون ، على ما يزعمون . إلاّ انه في الوقت نفسه ، كان دوق مانتوى يهتم بطرد الفرنسيين من ايطاليا ، فاستخدم ماتيولي للقيام بمفاوضات مع مختلف البلاطات في ايطاليا ، لحملها على الانضمام الى عصبة ضد الفرنسيين . فنجح مع كثير منها حتى وصل الى تورينو لفصل دوق سافوى عن المصالح الفرنسية . وخلال قيامه بهذه المهمات الدبلوماسية ألغى الصفقة مع فرنسا الخاصة بقلعة كازاله ، وكان من عدم الفطنة بحيث راح يتحدث عن ذلك .

وكان من الخطر تماماً خداع لويس بهذه الطريقة و«اللعب معه على الحبلين» ، وعرف قصر فرساي بالأمر . فأرسل الملك الشمس تعليمات الى عملاء للقبض على ماتيولي في تورينو ، وحمله سرّاً الى فرنسا . ونُفّذ الأمر ، وسُجن ماتيولي على الفور في بنييرول (١٦٧٩) .

صحيح أن جرائم من هذا النوع لم تكن غير مألوفة في القرن السابع عشر ، إلا أن اختفاء وزير خارجية في مثل هذه الظروف الغريبة ، كان يمكن أن يُحدث احتجاجاً

من قبل دوق مانتوى . إلا أنه ليس ثمة ، مع الأسف ، اي مراسلة معاصرة تؤكد هذا الاحتجاج ، ولم يُحفظ طويلاً سر مصير ماتيولي . فبعد ثلاث سنوات ، نُشر في مدينة كولونيا الالمانية كتاب نعرف منه ان ماتيولي قُنّع بعد القبض عليه مباشرة . وتعطي رسائل سان ـ مارس والوثائق إشارات الى أنه ينبغي اتخاذ كل التدابير الآيلة الى الاهتمام بعدم افتضاح هوية السجين .

أما لماذا لم تُحفظ أي مراسلة من دوق مانتوى حول هذا الموضوع ، فبالإمكان الآن توضيحها بأن الامير اوجين ، الذي استولى على مانتوى السنة ١٧٠٧ ، ارسل كل المحفوظات الرسمية (الارشيف) الى فيينا ، حيث اختفى مذ ذاك ، الكثير منها . وأظهر تدقيق مضاعف في محفوظات تورينو أن الرسائل والوثائق التي كتبت بين السنة ١٦٦٠ و ١٧٠٠ قد فقدت . وقد احتج دوق مانتوى ، بالفعل ، بشدة ، ولكن لويس الرابع عشر أنكر معرفته بانتهاك حرمة القانون ، ذلك بأنه فيما لو اعترف بذلك ، لاعتُبر عمله خرقاً للقانون الدولي .

زمن الثورة الفرنسية ، قال امرؤ يبلغ التاسعة والسبعين من العمر ، ويُدعى سوشون ، ان والده كان مستودع أسرار سان ـ مارس ، وقد أخبر الأب ابنه ان ذا القناع كان وزيراً في الامبراطورية ، في بلاط تورينو . وكان دوق مونتوى أميراً في الامبراطورية . ولطالما كان الملك لويس الخامس عشر يُسأل بإلحاح لاعطاء معلومات عن هوية ذي القناع ، فكان يتملص دوماً من كشف الحقيقة . غير أنه ، في مناسبة وحيدة ، أسرّ الى دوق شوازول ، صديقه المفضل ، الذي كان يدير السياسة الفرنسية خلال حرب السنوات السبع ، ان السجين كان وزير احد الأمراء في ايطاليا . وكان فولتير يعرف ، بلا ريب ، إلا أن اهتمامه بسلامته الشخصية ، وبقاءه في قيد الحياة ، حالا دون اعطاء جواب مباشر .

عندما هوجمت قلعة الباستيل السنة ١٧٨٩ ، أُجري تفتيش دقيق في الغرفة الثالثة من برج برتوديير ، حيث أقام ذو القناع . إلاّ أنه بسبب الاحتياطات التي اتُخذت إثر وفاته ـ وقد سبق وصفها ـ لم يكتشف اي شيء يمكن ان يشكّل أي دليل . وقضي على السر أن يبقى بلا حلّ الى الأبد ، وحتى أن الاقتراح القائل بأن ذا القناع كان ماتيولي لم يُبرهن عليه برهاناً « لا يكتنفه اي شك . »

إذا عدنا الى ما ذكره دوق ريشيليو لواضع سيرة حياته ، نرى ان مقالاً لفولتير يمكن أن يقدّم الجواب . فبعد التخلّص من النظريات التي سادت طويلاً وكثيراً ، مع أنها لا تقوم على اي أساس ثابت ، وهي أن ذا القناع كان إما دوق بوفور ، أو دوق مونموث ، او فرماندوى ، او شقيق الملك لويس الرابع عشر التوأم ، او اي شخص آخر مما كانت ترجحه التخمينات السخيفة ، يكتب هذا الأديب الفرنسي فولتير ، قائلاً :

«بعد ان تبدّدت كل هذه الأوهام ، لم يبقَ إلا أن نعرف من كان هذا السجين ، وفي أي سن توفي . . . هو قال شخصياً لصيدلي الباستيل قبيل وفاته انه يعتقد انه في حوالى الستين من العمر . وكان يردد عليّ ذلك ، غالباً ، السيد مارسوبان ، الذي كان صهر الصيدلي ، والجرّاح الخاص للماريشال دوق ريشيليو ، ثم للوصي على العرش دوق اورليان . لماذا أُطلق عليه اسم ايطالي؟ كانوا دائماً يسمّونه مارشيالي . وكاتب هذا المقال يعرف أكثر مما يعرف الأب غريفه (المسؤول عن نشر يوميات دو جونكا) ، ولكنه لا يرغب في قول شيء» .

إذاً ، فإن كل القرائن تشير إلى أن ماتيولي هو ذو القناع الحديدي ؛ وثمة دليل واحد أخير يُعزّز ذلك . فقد كان دوجه ، زميل ذي القناع في السجن ـ وقد ذكرناه من قبل ـ كان ، بلا ريب ، يقوم على خدمة سجين آخر يُدعى فوكيه . ومن هنا يبدو مستحيلاً أن يعامل رجل من هذه الطبقة باحترام كبير من قبل سان ـ مارس ، ويُخدم على المائدة من قبله ومن مساعده في القيادة روزارج . وهذا يدع جانباً السجين الآخر ، ذَا القناع ، وينبغي ان يكون ماتيولي ، والى هذا الحدّ سنصل في عملية حل هذا السرّ ـ سرّ الرجل ذي القناع الحديدي !

* * *

مارسيل بانيول يرفع واقية الوجه في القناع الحديدي...

بعد الكثيرين ، وأحدثهم هم المؤرخون جورج مونغريديان ، وموريس دوفيفييه ، وفرانتس فونك برنتانو ، انكبّ مارسيل بانيول ، المسرحي الفرنسي ، على لغز «ذي

القناع الحديدي» . لماذا؟ إنه لا يفصح عن السبب ، ولكن كل شيء يحمل على الاعتقاد ان قسماً من أسر السجين الغامض انقضى في جزيرة سانت ـ مرغريت ، التي تُتخذ إطاراً كل سنة ، للمأدبة ـ الرحلة البحرية التي تُقام للمدعوين الى مهرجان كانّ السينمائي . ومن هنا تحدّث بانيول بصفته كاتباً سينمائياً ، وبصفته جنوبي المزاج . . .

وهو يدافع عن نفسه لكونه قام بعمل مؤرخ ، مع أنه أهدى كتابه الى صديقه أندريه شامسون الروائي ، وكان في الوقت نفسه مديراً للمحفوظات الوطنية . ولكن اذا ما كان صاحب مسرحية «ماريوس» يدفع بعدم اختصاصه كمؤرخ ، فذلك لا يعني ان عمله هو سلسلة مزحات أو دعابات . . .

كان رنفيل ، السجين السابق في قلعة الباستيل ، من نشر للمرة الاولى الرواية الاولى المطبوعة لقصة «ذي القناع الحديدي» . بالنسبة اليه ، كان ذلك شخصاً محكوماً عليه بالسجن المؤبد «لنظمه ،وهو تلميذ ، في الثانية او الثالثة عشرة ، بيتين من الشعر في حقّ اليسوعيين» .

بالطبع ، هذا كلام مختلق لا يقوم على اي أساس من الواقع . والمؤلَف الثاني المطبوع هو رواية بعنوان «مذكرات سرية لخدمة تاريخ فارس» ، يفترض ان ذا القناع الحديدي كان فرماندوى ، ابن لا فاليير والملك لويس الرابع عشر ، الذي اتُهم بأنه صفع ولي العهد . وهذه فرضية غير مقبولة أيضاً ، ذلك بأن لدينا البراهين على موت الابن السفاح (في السنة ١٦٨٣ ، في حين أن ذا القناع أُلقي القبض عليه السنة ١٦٦٩) ، وعلى جنازته ، والقداديس السنوية التي أمر بإقامتها والده الملك الذي كان يحبه حتى العبادة .

وحسب رأي الاميرة بالاتين ، دوقة اورليان ، وشقيقة زوجة الملك ، كان ذو القناع انكليزياً ، هو دوق مونموث ، ابن الملك تشارلز الثاني ولوسي ولترز ، المدبّر البائس لمؤامرة ضد وليام الثاني الانكليزي ، بهدف استعادة عرش والده . غير أن وجهه غير المعروف في فرنسا لم يكن بحاجة إلى قناع لإخفائه .

في جملة الذين حُشروا في عداد من زُعم انهم كانوا «ذا القناع الحديدي» ينبغي ذكر انكليزي آخر هو ابن كرومويل ، الذي عاش ، بالفعل ، في فرنسا ، ولكنه ظهر

مجدداً فيما بعد في انكلترا حيث قضى في تشيشانت السنة ١٧١٢ . وتحدثوا كذلك عن البطريرك الأرمني آفيداك ، الذي اختطفه اليسوعيون . ولكنه لم يُسجن في سانت-مارغريت ، بل في جبل سان ـ ميشيل . وفضلاً عن ذلك ، أُطلق سراحه .

ويصبح ترشيح (بعد الوفاة) دوق بوفور أكثر قبولاً ، أحد زعماء ثورة الفروند ، والشخصية البعيدة الشعبية الملقّب «ملك الهال» (سوق الخضر) ، الذي أُعلن اختفاؤه رسمياً في معركة كاندي . ولكن سان ـ مارس حاكم الجزيرة ، ذكر في رسالة الى لوفوى انه تنتشر شائعة في سانت ـ مرغريت أن ذا القناع هو دوق بوفور ، فإن المؤرخين يقدّرون انه لا يمكن ان يقدّم هكذا ، وبهذه السهولة ، مفتاح السرّ ، إذا ما كان ذلك المفتاح الصحيح ، وخصوصاً في رسالة موجهة الى رئيس الوزراء ، الذي لا بدّ أنه يعرف ذلك حتماً !

وهناك «مرشحون» جدّيون آخرون : فوكيه مراقب النظّار العسكريين ، وقد توفي مسموماً في سجن بنييرول السنة ١٦٨٠ ؛ ومارك دو موريلي ، صهر باردو - غوندينه ، طبيب الملكة آنّ دوتريش الذي قام بتشريح جثمان الملك لويس الثالث عشر ، وتبيّن له أنه لا يمكن أن يكون والد الملك لويس الرابع عشر ، بسبب عيب خلْقي يمنعه من كل أمل بالأبوة . ولدى اكتشافه سرّ الدولة هذا في أوراق حميه ، خطرت لدو موريلي فكرة غريبة هي الاسراع في ابلاغ الشرطة بذلك ! ولكن ، مع ذلك ، لا يمكن ان يكون ذا القناع لأنه توفي بهدوء في سريره السنة ١٦٨٠ .

تبقى أخيراً النظرية التي يقول بها المؤرخ ميشله ، والمتعلّقة بابن سفاح للملكة آنّ دوتريش . وكذلك النظرية القائلة بأن ذا القناع الحديدي كان موليير - ولكن بانيول لا يشير الى ذلك - لأن شخصية الكاتب الكلاسيكي الكبير ، وحياته تبقيان ، من وجوه عدة غامضة (فنحن لا نملك أي مخطوطة منه) .

ولكن ، من هو في رأي بانيول ذو القناع الحديدي؟

قبل ان يعيّن ذا القناع الحديدي ، يحرص بانيول على تحطيم الفرضية التي تحظى ، عموماً ، بقبول المؤرخين : فرضية الكونت ماتيولي .

كان اركولي انطونان ماتيولي رجل قانون من حيث المهنة ، ومتآمراً في طبيعته .

وكان أثيراً لدى شارل الرابع دو غونزاغ ، دوق مانتوى ، في ايطاليا . وبسبب حاجته الدائمة الى المال ، علم هذا الدوق أن في نية الملك لويس الرابع عشر شراء موقع كازاله المحصّن ، فكلّف ماتيولي التفاوض في هذه الصفقة لقاء ١٠٠ ألف ريال فرنسي .

وهبط ماتيولي مرسيليا ، فاستقبله الملك الذي قدّم اليه ألماسة مكافأة له على مساعيه الحميدة . ولم يدر لويس الرابع عشر ان ماتيولي قد وشى بذلك لكل الذين يخشون رؤية فرنسا تستقرّ في مدينة تُعتبر المفتاح لايطاليا . فلما علم الملك الشمس أن البندقيين (أهل فينيسيا أو البندقية في ايطاليا) ، والاسبان على علم بذلك ، اختطف الخائن وارسله الى سجن بنييرول .

بالنسبة الى مارسيل بانيول ، سُجن ماتيولي ، فعلاً ، مع ذي القناع الحديدي ، ولكنه لم يكن هو إياه : كان أخاً توأماً للملك لويس الرابع عشر ، أُوقف وسُجن حتى موته ، طوال ٣٤ سنة باسم اوستاش دوجه .

دوجه هذا ليس فكرة بالنسبة إلى الذين اهتمّوا بقصة ذي القناع . ولكن هل كان حقاً الأخ التوأم للملك ، الذي أُبقي مولده سراً لتفادي أخطار قسمة التاج ، وقد قُبض عليه لدى عودته من انكلترا في اللحظة التي كان فيها على أهبة إظهار حقوقه؟

ويؤكد مارسيل بانيول ذلك بحرارة جنوبية ، حتى أنه يجد تبريراً لإقامته في انكلترا لأنه كان من الخطر تربيته في فرنسا بسبب شبهه الشديد للملك .

بالطبع ، المؤرخون ليسوا متفقين ، وقد ردّ جورج مونغريديان بحيوية في جريدة «له نوفيل ليتيرير» : «من هو اوستاش دوجه ، وماذا فعل؟ ماذا نعرف عنه؟ فنحن لا نعرف ، فضلاً عن مكان القبض عليه وتاريخه ، والقصة المعروفة جيداً عن أسره ، سوى اشارة واحدة وحسب . ففي الرسالة التي أعلن فيها لوفوى انه يرسل هذا السجين الى السيد سان ـ مارس لكي يشدّد الحراسة عليه في زنزانة بنييرول ، مكلّفاً إياه شخصياً بحمل الطعام الى «هذا البائس» ، فضلاً عن أنه ليس من المناسب تزيين زنزانته بأي رياش «كثير» لأنه «ليس إلا خادماً .» هذا كل شيء !

وينوي بانيول ان يثبت أن دوجه لم يكن خادماً ، بل «كان على ، النقيض ، شخصية كبيرة الأهمية» .

من هو المصيب؟ لا أحد يسعه تعيين ذلك ، ولكن كل واحد يمكنه أن يجد من الغريب حقاً ان يكلف لوفوى حاكم سجن بنييرول ، وهو من النبلاء ، أن يخدم بنفسه هذا «الخادم» دوجه بتقديم الطعام اليه . . .

علاوة على ذلك ، يكتشف بانيول في إحدى رسائل سان ـ مارس الى لوفوى عبارة فريدة في نوعها . فهو يكتب متحدثاً عن ماتيولي : «ولكي يحقق جنونه ، يردد أن له الشرف بأن يكون من أنسباء الملك القريبين وأنه يود الكتابة اليه والشكوى من معاملتي له . . .»

ويسأل بانيول : «هل من الأكيد أن ماتيولي هو من قال «من أنسباء الملك القريبين»؟ وقد أعلمونا أنه جنَّ ، ذلك ممكن . ولكن اذا كان ذو القناع الحديدي قال ذلك في سورة يأس ، فمن المؤكد أن سان ـ مارس لم يعزُ اليه هذا القول خشية ان تُفقد الرسالة في الطريق ، أو أن يقرأها أحد موظفي الوزارة . واذا كان ذو القناع حقاً نسيباً قريباً للملك ، فإنه يعلم ان لوفوى سيتعرّف من فوره الى المذنب .»

بالاختصار ، كان هناك ظل من الشك يحيط بحياة الملك الشمس . والجدال ، كما نرى ، لم يُحسم ، ولن يُحسم في وقت قريب !

لقاء مع القدر: ٢٠ حزيران ١٨١٠
الكونت دو فرسن يقضي اغتيالاً !

ان القدرالذي يلذّ له الحدس والتخمين الغريبان واللقاءات السرية ، احتفظ لنفسه بمنح الكونت دو فرسن الموت البطولي الذي كان يطلبه بكل قواه .ففي الواقع ، لم يغفر الكونت قط لنفسه أنه أطاع أوامر الملك لويس السادس عشر الذي عارض في أن يرافق الضابط الشاب الاسرة المالكة في ذلك الهرب الذي كانت نتيجته على أسوأ ما يكون في فارّين ، في ٢٢ حزيران ١٧٩١ .

غالباً ما رويت قصة «ميْل» ماري ـ انطوانيت إلى «السويدي ، الوسيم كالملاك ، ذي الروح المشتعلة تحت قشرة من الجليد» ،وحُلّلت ، وفُحصت ، بحيث أصبح من الصعب جداً على المرء أن يمارس حدة الذهن في محاولته إلقاء ضوء كاشف على القضية الحساسة التي تتطلّب الاعلان عما اذا كان «مع او ضد» ! وليُسمح لنا أن نعرض ، مع ذلك ، الخطوط الكبرى لهذه المأساة التي بدأت ، طائشة وخفيفة ، في الحفلة الراقصة في دار الاوبرا . كانت الدوفينة ـ زوجة ولي العهد الفرنسي ـ تعشق الرقص الذي كان ينسجم تماماً مع قدّها الليّن الدقيق ، المتنكرة بلباس دومينو وقناع للعينين ـ وهو قناع نصفي من مخمل . وقد هرعت الى الحفلة الراقصة التنكرية في ذلك الاحد ٣٠ كانون الثاني ١٧٧٤ . ولعلّها تعرّفت بين الحشد الذي أحاط بها الى هذا الغريب الذي سبق أن قُدِّم الى البلاط . ولعلَّ احتفاءَها به اجتذب اليها اهتمامه . كان طويل القامة ،ممشوقها رهيفاً ، وشديد الأناقة ، دون ان يتمتع ، مع ذلك ، بشيء مما يميّز «السيد الصغير» . وجهه عادي الامارات ، هادىء ، ورزين ، ونظراته عميقة وكثيبة ، تحت أهداب كثيفة قاتمة . ولقد أبصر اكسيل دو فرسن النور في ٤ أيلول

١٧٥٥ ، في أسرة عريقة من أُسر المقاطعات البلطيقية ، وهو يقوم ، برعاية معلّمه ، بجولته في اوروبا تبعاً للعادة الرسمية السائدة آنذاك ، وتقضي بأن يصبح الشاب مؤهلاً لشغل كل المناصب التي يمكن أن يقوده اليها مقامه ويسعه المطالبة بها . وتمّت بين الاثنين - زوجة ولي العهد ودو فرسن ، محادثة رشيقة ، حاذقة ، بشوش ، الى اللحظة التي فوجىء فيها ، وشعر ، بلا ريب ، بالخيبة ، إذ شاهد عدداً من السيدات يُحطن بالمجهولة الفاتنة ، ويقدنها بعيداً عنه . وسرعان ما عرفها الجمهور ، وتمتم بذهول : «زوجة ولي العهد ! . . . إنها الدوفينة ! . . .» واختفت .

بعد إقامة في لندن عاد دو فرسن الى السويد ،ولم يعد الى فرنسا إلا بعد ذلك بأربعة أعوام ، بعد أن فاض قلبه حبوراً وجذلاً . ولما قدَّمه الوزير دو كروتز الى العاهلين ، هتفت الملكة :«آه !إنه صديق قديم !» ذلك بأنها لم تحرص على نسيان هذا النبيل الوسيم الذي افتتن بتلك التي كانت أجمل النساء في بلاطها ، والتي سمحت بكل طيب خاطر أن تستمع اليه يقول لها ذلك . أكان ذلك هوى عاشقة؟ !لقد رجت أكسيل دو فرسن ان يأتي ليشاهدها مرتدية زي الخيّالة الخفيفة لدى ملك السويد . واستسلم برضا الى هذا الطلب ، وللمناسبة فُتحت له الاجنحة الصغيرة الخاصة للمرة الاولى . بالطبع ، إنها لا تحبه حقاً ، بعد . أما قدره هو ، المسكين ، فقد تحدّد . كان متيماً ، ويجنون ، بحيث فضّل الهرب . وسارع الى التوقيع على الالتحاق بإحدى الحملات العسكرية التي كانت تُجهّز باتجاه أميركا . فلما عرفت بذلك الدوقة فيتز - دجيمس ، قالت له :«ماذا ، يا سيدي؟ ! أتتخلّى عمّن أسرها قلبك؟» فأجابها السويدي الوسيم برزانة : «أنا لو كنت أسرت قلباً ، لما تخليت عنه ، إنني أذهب حراً ،ومع الأسف دون أن أخلّف أي ندم .»ومع ذلك ، لما أقبل يستأذن للسفر ، أمكن كل واحد أن يرى أن الملكة «لم تستطع تحويل عينيها عنه ، وانهما ، لدى تأمله ، أغرورقتا بالدموع» ، الأمر الذي أثار ألف تعليق ، وألف تأويل ،وألف افتراض !وعقب هذا السفرالذي لم يتم ، عُيِّن دو فرسن عقيداً بناءعلى طلب فوج روايال - دو - بون .وخشيت الزمرة المحيطة بالملكة من نفوذ الضابط الذي كتب الى والده يقول : «إن الإيناس الذي تبديه نحوي ، وهذه الرتبة العسكرية ، ومنصبي - كل ذلك قد جرَّ عليَّ

الحسد من جانب كل الشبان في البلاط» ،في حين كانت ماري ـ انطوانيت ، في قصر تريانون ، تنشد ، بالمشاعر التي لا تخفى على أحد ، هذين البيتين من اوبرا «ديدون» :

آه! لكم أُلهمت جيداً

عندما استقبلته في بلاطي . . .

في الحقيقة ، ينبغي أن يكون المرء أعمى لكي لا يرى ، والله وحده يعلم ، ما اذا كانت نظرات «الجوار» تتعطش لاكتشاف أحاسيس الملكة وميول قلبها السرية اواذا كان لنا أن نصدّق الكونت دو سان ـ برييه ، «فإن السيدة دو بولينياك لم تُعارض قط ذوق صديقتها .»

غير أن دو فرسن ، لم يصرف النظر كلياً عن مشروعه القاضي بابتعاده . ففي آذار ١٧٨٠ ، وبدعم من بروتوي وفرغين ، عُيّن مرافقاً للجنرال روشامبو . ولم يعد الى فرنساإلا السنة ١٧٨٣ ، عقب انتهاء الحرب الاميركية ـ البريطانية ، وبعد أن اكتسب الشهرة بأنه «أحد الضباط ممن كان يرتاح الجنرال الى مواهبه اكثر من سواه» . إذاً ، وسط كل نضارة شبابها ، دندنت ماري ـ انطوانيت ، بمصاحبة قيثارها الذهبي ، بعد ظهر احد أيام حزيران ، ربما هذا البيت التنبؤي :

آه! إذا ما انتُزعت مني الحرية . . .

وقرع أحد الحجّاب باب الصالون ، فاذا دو فرسن امامها ، وقدتغيّر ، «كبر عشر سنين» ، وقد اضنته متاعب حياة المخيمات والمعارك . وإذاكانت ماري ـ انطوانيت قد انزعجت لدى رؤيتهامجدداً «العزيز رينيون» ، فهو ، شخصياً قد أُسر : فعلى الرغم من الجبين العريض جداً ، والأنف الضخم نوعاً ما ، والعينين القصيرتي النظر ،والذقن الثقيل ، والشفة النمساوية الشهيرة ،لم يرَ سوى عنق يوناني لم يفتأ يحرك شعورنا عندما نتأمل رسماً للملكة ، ذات القدّ المشيق ، والمشية «المداعبة» ، والجلالة المفعمة بالنبل ، والنظرة اللطيفة والرقيقة ، والبشرة الشقراء ، ولون الوجه المشرق الذي كانت تشكو منه السيدة فيجه ـ لوبران التي لم تستطع إبرازه .

إن طموحه اقتصر مذ ذاك على البقاء في فرنسا . فطلب إلى والده أن يساعده في تسديد المائة ألف ليرة التي كان يطلبها الكونت ألكسندر دو سبار لكي يتنازل له عن

قيادة «الفوج الملكي السويدي» ، متوسلاً إليه أن يوافق على«الشيء الوحيد الذي يمكن أن يجعله سعيداً الى الأبد» ، مضيفاً ان ثمةبعد «ألف سبب آخر لا يجرؤ ان يسجّله على الورق» . وأخيراً ، تدخّل الملك غوستاف الثالث شخصياً ، راجياً الملك لويس السادس عشر ان يمنح الكونت دو فرسن شهادة «بأنه خدم تحت لواء جلالتك في أميركا بموافقة عامة ، وأثبت بذلك أنه جدير بحسن التفاتك .» وقد تم كل شيء على خير ما يرام . وبتأثير من زوجته ، تلطّف ملك فرنسا بمنح موافقته على هذا الطلب ، وكتبت ماري ـ انطوانيت التي «شاءَت الاهتمام بذلك» بخطّ يدها على الرغم من كل العادات أنها لن تنسى شيئاً «من اجل مساعدة شقيقها وابن عمها في آرائه .»

وواجه دو فرسن البؤس بطيب خاطر ، وألفى نفسه مضطراً الى مرافقة مليكه ، تحت اسم الكونت دو هاغا ، في تجواله عبر اوروبا . وأخيراً ، ها هو ذا يعود الى فرساي . إنه ليوم سعيد . وتقول السيدة دو بواني «لم يعد ثمة اي ريب ، بالنسبة الى الاصدقاء الحميمين ، أنها استسلمت الى حب دو فرسن . وقد تبرِّر هذه التضحية بإخلاص لا حدود له ، وحب صادق بقدر ما هو محترم وحذر . فهو لم يكن يتنفّس إلا من أجلها .»

وجعلت قضية العقد (عقد الملكة الشهير) الملكة جديرة بقدرها . فقد افتري عليها ، وسوِّدت صفحتها ، وأُهينت ، وشُتِمت ، ولكن دو فرسن ازداد لها حباً : «إنها بائسة كثيراً ، كذلك ، وشجاعتها هي فوق كل شيء ، وتجعلها مهمة اكثر فأكثر . . .» ويعترف بأن حزنه الوحيد هو في عدم استطاعته تعزيتها كلياً عن كل مصائبها .

وكانت الثورة قد بدأت تبدو سراً . وخلال أيام تشرين الاول ، لازم دو فرسن الأسرة المالكة . ويؤكدون أنه أمضى ليلة في جناح الملكة . ماذا ينبغي ان نصدّق من ذلك ، وفضلاً عن ذلك ، ماذا يمكن أن نستنتج من ذلك؟ على أي حال ، كتب دو فرسن ، وهو يفيض سعادة ، في ٢٧ كانون الاول١٧٨٩ :«أخيراً ، قضيت يوماً كاملاً معها : كان ذلك الاول . . .»

رأى دو فرسن ، وهو صلة الوصل بين ملك السويد والملكين الفرنسيين السيئي الطالع ، نفسه مكلّفاً ، بالتعاون مع الكونت دو بوييه ، تدبير أمر هرب العاهلين . وكان التنظيم طويلاً ودقيقاً . وأخيراً ، تمّ الذهاب في الظروف التي نعرفها جميعاً . ولكن في ٢٣ حزيران ، ولدى بلوغ آرلون ، عرف الشاب ان الكثير من الجهود كانت بلا اي طائل . وكتب الى والده يقول : «كل شيء فُقد ، لقد فقدت الأمل !» وفور العودة الرهيبة الى قصر التويلري ، كتبت ماري ـ انطوانيت الى «الصديق» هذه الرسالة المرموزة : «أعلمني الى من استطيع توجيه الانباء التي يمكنني ان اكتب بها اليك ، ذلك بأنه لا يسعني أن أحيا دون ذلك . الوداع ، ايها المحبوب اكثر من سواه ، والمُحبّ الأول بين الرجال . إني أعانقك من كل قلبي .» وأرسلت الى الجنرال دو جارجيس ، أحد الأصدقاء المشتركين ، خاتمين «لكم يباع من خواتم بكثرة هنا» ؛ وقد حُفرت على أحد الوجهين ثلاث زهرات زنبق ، وعلى الوجه الآخر يُقرأ هذا النقش : «جبان من يتخلّى عنهما» . وقد أضافت : «الخاتم الملفوف بورقة هو له ؛ إجعله يحمله من قِبلي ،إنه على قياس إصبعه تماماً .لقد حملته طوال يومين قبل أن ألفّه . أعلمه أنه من قِبلي . لست أدري أين هو .إنه لعذاب فظيع عدم وجود أي نبأ عنه ، وحتى عدم معرفة أين يقيم اولئك الذين نحبّهم .» وفي هذه الأثناء ، كان دو فرسن يضاعف الأمل ، الذي سرعان ما اختفى ، في إنشاء تكتّل قادر على التدخّل لتحرير الأسيرين . ولما تبيّن انه لن يتوصّل الى تحقيق غاياته ، درس ، اذ ذاك ، محاولة جديدة للهرب . وعلى الرغم من أنه غريب ، ومن صدور مذكرة بالقبض عليه ، تسلّل إلى باريس ، متنكراً بزي ناقل بريد . مغامرة بطولية ، ولكنها مجنونة ايضاً ! واستطاع دخول القصر «من طريقه المعتاد» ، ولبث يوماً بكامله في جناح الملكة . ورفض الملك سماع شيء عن اقتراحه «بعد أن وُعد غالباً جداً بالبقاء» ، ولاحظ أكسيل ، وهو يتنهّد ، أنه «كان امرأً شريفاً» . وتمكّن الكونت من الفرار بلا أي حادث من قصر التويلري .

لولا دروويه ، لتغيّر تاريخ فرنسا!

تعرّف إلى شخصيّة الملك لويس السادس عشر فقاده إلى المقصلة

كُشف النقاب في ماسون (فرنسا) سنة ١٨٢٤ عن ان الراهب مرجيه الذي توفي في ١١ نيسان هو الاسم المستعار لجان ـ باتيست دروويه ، الذي لولاه لتغيّر تاريخ فرنسا ، باعتباره الشاهد الذي كشف هوية الملك لويس السادس عشر الفارّ مع اسرته ، الذي قُدِّم الى محكمة الثورة وحُكم عليه بالاعدام .

وبعد هذه الحادثة التي غيّرت مجرى التاريخ الفرنسي ، اضطر دروويه الى مغادرتها بعد عودة الملكية اليها .

وفي التفاصيل ان دروويه (٦١ سنة) كان من ابرز الثوار الفرنسيين ، وكان والده مديراً لمحطة لتزويد المسافرين بجياد البريد . وقد توقفت العربات التي كانت تنقل الملك لويس السادس عشر وأفراد اسرته في رحلة الهرب الى الحدود الفرنسية بعد الثورة لدى بابه ليلة ٢ حزيران ١٧٩١ ، فتعرّف دروويه الى الركّاب ، وعمد من فوره الى اتخاذ الخطوات الكفيلة باعتقالهم ، وفضح هويتهم لدى بلوغهم بلدة فارين .

وهكذا كان ، ورفض دروويه تسلّم اي مكافأة على عمله هذا . وفي ايلول ١٧٩٢ ، انتُخب نائباً في الجمعية الثورية التي حلّت المجلسَ التشريعي السابق ، وحكمت فرنسا حتى ٢٦ تشرين الاول ١٧٩٥ . واقترع على اعدام الملك دونما استئناف ، وأظهر عداوة شديدة للجيرونديين الذين ناهضوا مذابح ايلول ، واقترح القضاء على كل الانكليز المقيمين في فرنسا . وقد قُبض عليه في حصار جوبوج ، وسُجن في سبيلبرغ حتى نهاية ١٧٩٥ . وبعد الافراج عنه اصبح عضواً في مجلس الخمسمائة وعُيِّن اميناً فيه .

ومن المعروف ان دروويه قد تورّط في مؤامرة بابوف ـ أول من اقترح الاشتراكية كسياسة عملية ـ وسُجن ، ولكنه تمكّن من الفرار الى سويسرا ، ثم الى تينيريف ، حيث اشترك في المقاومة الناجحة ضد الاميرال نلسون الانكليزي ، الذي حاول الاستيلاء على هذه الجزيرة سنة ١٧٩٧ . وزار في ما بعد الهند . ولكنه اضطر على اثر عودة الملكية الى مغادرة فرنسا ، الى ان عاد اليها سراً ، متنكراً ليقضي فيها ايامه الاخيرة .

اعدام الملك لويس السادس عشر

في الحادي والعشرين من كانون الثاني من سنة ١٧٩٣ ، جرى في فرنسا حدث على جانب كبير من الخطورة سنحاول تصويره في ما يأتي بحيث تمر دقائقه امامكم الآن كما لو كانت شريطاً سينمائياً ، فتعيشونها لحظة لحظة كما لو كنتم شهوداً عياناً لها . وصحيح أنها ليست دعوة مستحبة الدعوة الى حضور عملية اعدام ، ولكنها مناسبة تاريخية جديرة بالتسجيل .

في الليلة السابقة نام الملك لويس السادس عشر نوماً عميقاً واستيقظ قبل طلوع النهار ، فاستمع الى القداس ، ولكنه رفض رؤية زوجته الملكة ماري ـ انطوانيت ، خشية ان يرقق ذاك قلبه ، مع انه كان قد وعدها ، في العشية بأن يودّعها الوداع الاخير . . .

وفي الثامنة صباحاً دخل الملك القاعة التي كان ينتظره فيها الجنود المكلفون نقله الى «ساحة الثورة» حيث سيتم اعدامه . فلما وقع نظره على الحضور ، وعلى رؤوسهم القبعات ، طلب قبعته ، فناوله اياها خادمه الخاص كليري ، فوضعها على رأسه .

وقال الملك لخادمه كليري :

– هوذا خاتم الزواج ، سلمّه الى زوجتي ، وقل لها انني افارقها والألم يعصرني عصراً . وأعطاه كذلك طابعاً معدنياً محفورة عليه شعارات الشرف الفرنسية لكي يسلّمها الى ابنه ، وبعدها اقترب من قائد الجند ، وكان يدعى جاك رو ، وسأله :

– اتريد ان تتلقى وصيتي؟

فتراجع القائد قائلاً :

– انا هنا لكي اقودك الى المقصلة فحسب !

وعندها قال احد الحرس :

– هاتِ وصيتك فأنا اتكفل بها .

وحانت الساعة المحتومة ، فاخترق الموكب بصمت عميق رهيب ، ممرات سجن «التامبل» المظلمة وكان يسير الى جانب الملك المحكوم بالاعدام معرّفه الخاص الأب

إدجويرث الايرلندي .

وكانت هناك عربة بانتظاره ، فصعد اليها الملك لويس السادس عشر وجلس بقربه معرّفه . وجلس قبالتهما جنديان . وكان بيد الملك كتاب القداس فراح يقرأ فيه الصلوات .

وكانت الشوارع خالية ، والابواب والنوافذ مغلقة : لا احد على الطرقات ، ولا احد وراء الابواب والنوافذ . . . . على نقيض ساحة الثورة (وهي ساحة الملك لويس الخامس عشر سابقاً ، وساحة الكونكورد اليوم) التي كانت تغص بالناس . ووصلت العربة في تمام الساعة العاشرة والدقيقة العاشرة .

وحول خشبة الاعدام التي أُقيمت على بعد خطوتين من قاعدة تمثال الملك لويس الخامس عشر الخالية ، لم تكن العين ترى غير الجنود ، ذلك انه كان يخشى من مؤامرة لاختطاف الملك الاسير .

وقبل المقصلة بخطوات ، ترجّل لويس السادس عشر من العربة بكل جرأة وشجاعة . وتقدّم مساعدو الجلاد منه لكي يحضّروه ، ولكنه تراجع خطوة ونزع بنفسه سترته ، وربطة عنقه والقاهما ارضاً . ولما رأى الجلاد سامسون ، وهو الخادم الملكي القديم ، ان الملك يرفض تكبيل يديه بالحبل ، سحب من جيبه منديلاً من النسيج الناعم .

ووافق لويس السادس عشر على ربط يديه بالمنديل بعد ان رجاه الجلاد قائلاً له :

- بهذا المنديل ، يا صاحب الجلالة !

وقد تأثر كثيراً بعبارة «يا صاحب الجلالة» التي لم يكن قد سمعها من زمن غير قصير .وارتقى درجات المقصلة بمساعدة الكاهن الايرلندي الذي كان يردد على مسامعه الاقوال المشجعة . وقفز الملك ، اذ ذاك ، الى وسط خشبة الاعدام ، وصاح مخاطباً الجماهير الغفيرة :

- ايها الفرنسيون ، إني اموت بريئاً من الجرائم التي أُلصقت بي . واني اغفر لأعدائي . . .

في تلك اللحظة غطّى صوت عشرين طبلاً صوت الملك فاحمرّ وجهه ، وصاح

بصوت رهيب وهو يضرب الارض بقدمه :
- اخرسوا !
ولكن بلا جدوى . وعندها تمتم :
- لقد انتهيت ، لقد انتهيت ! . . . . واستسلم الى الجلاد ! . . .

* * *

من بروكسيل ، وبقلب محطم ، تابع دو فرسن بقراءة الصحف محنة «صديقته» ، «آخذاً على نفسه حتى الهواء الذي يتنفّسه» . وعلى الرغم من أنه لم يهنّئ نفسه قط على ان الدعوى كان يمكن ان تعرف نهاية أفضل ، فان نبأ الإعدام ألقاه في وهدة اليأس . وبعد موت ماري - انطوانيت بأربعة اشهر ، تلقّى علامة طابع يحمل شعار أكسيل ، وهو حمامة محلقة ، تعلوها هذه العبارة «كل شيء يقودني نحوك» .

ومرّت سبع عشرة سنة . . . وكتب دو فرسن «لن تغيب صورتها المعبودة مطلقاً عن ذاكرتي .» وكانت تلك الحقيقة . فقد قسم دو فرسن حياته - وقد بات مدير جامعة اوبسالا ، وعضواً في سلك الملائكة ، والماريشال الاكبر في المملكة ، وثرياً جداً - بين البلاط وواجبات منصبه الاداري ، وممتلكاته . وبقي العازب العنيد ، وازدادت توثقاً العلاقات العاطفية التي كان تشدّه الى شقيقته على مرّ الزمن . وفي ٦ حزيران ١٨٠٩ ، اصبح الدوق شارل دو سودرمانيا ملكاً باسم شارل الثالث عشر ، ورفّع الامير الدانمركي شارل- اوغست الى مرتبة امير وارث لعرش السويد . وفي ٢٨ أيار ١٨١٠ ، كان هذا الامير الشاب يعرض الجنود ، فسقط أرضاً جثة هامدة ، وقيل إنه ذهب ضحية سكتة دماغية . وسرعان ما انتشرت الشائعات الاشد وحشية وخطأ : فلقد أراد الرأي العام ان يلصق بدو فرسن تهمة دسّ السم للامير بمعاونة شقيقه فابيان ، وشقيقته ، والكونت اوغلاس ، وهم جميعاً من أنصار غوستاف الرابع أدولف ، الذي سبق أن اعتُقل في السنة السابقة وأُبعد عن البلاد .

وحُذّر دو فرسن من الخطر الذي يحيق به ، ولكنه لم يتخلَّ عن قراره بالاشتراك

في تشييع جنازة الامير الوارث ، لأن ذلك كان من واجبه . وفي صباح يوم ٢٠ حزيران ١٨١٠ ، خفَّ ماريشال المملكة الى ملاقاة جثمان شارل ـ اوغست . وبينما كان الملك يرأس مجلس الوزراء في قصر هاغا ، تحرك الموكب الجنائزي . وكان الجنود يشكلّون سياجاً . وحده جلس دو فرسن في عربته مرتدياً بزته العسكرية البيضاء ، المزينة بالاوسمة ، وهو يسترجع تلك الذكرى المشؤومة ، ذكرى ٢٠ حزيران ١٧٩١ . . . وكان يسبق عربته ويتبعها جنود يسيرون ببطء على وقع الطبول والمارشات الجنائزية . وكانت الجماهير تلزم صمتاً مخيفاً . وبالقرب من هورنشتول ، راحت البصقات تنهال على نوافذ العربة ، وقد أُلقيت حجارة حطمت الزجاج الذي تطاير في كل مكان . وبالقرب من ريدردهوسترغ ، راح بحَّارة زائفون يتكلمون اللغة الفنلندية ، يحلّون قيود الخيل التي تجرّ العربة . فصاح الماريشال بالضراة الصاخبين : «رباه ! لماذا تعاملونني هكذا ، ايها الاصدقاء؟ أنا لم أمسكم بأذى . . . » فكان جواب الشعب : «مت ، أيها الكلب ، مت ملعوناً !»

وجُرح دو فرسن في رأسه ، وحُمل الى حجرة صغيرة في الطبقة الاولى من المسكن الأصفر في هولتغرين ، الذي ما يزال قائماً الى اليوم ، حسب قول فالوتون . وأقبل الجنرال سلفغررسبار الذي ظل دوره مبهماً في هذه القضية ، بسرعة ، فهلّل له الجمهور . ودخل بعض العملاء القاعة التي كان دو فرسن يحاول ان يستعيد فيها قواه ، فتعالى صوت : «سيُصفَّى !» وعلى الرغم من آلامه ، حافظ الكونت على برودة أعصابه . وقرّر ، على الرغم مما ناله من ضرب ، ومن جريان الدم من وجهه ويديه ، ومن صيحات الحقد التي كانت تبلغه حيث هو ، الخروج مردداً بكل بساطة : «أرى أن ساعتي الاخيرة حانت .» وهبط السلّم وهو يُشبَع لكماً بقبضات الايدي ، والرفسات ، وضرب العصي ، وأُلقي لدى أسفل الدرجات ، ووطىء بالاقدام . وانتُزعت أُذناه ، ولكنه استطاع الوصول الى دار البلدية . ولم يكن الجمهور ليسمح بأن تُفلت منه فريسته ، فراح البعض يركله على رأسه وصدره ، وبطنه ، حتى سُحق تماماً ، وبات كتلة مدمّاة . وقضى المسكين اكثر من ساعة ليلفظ النفس الأخير .

« ان كل شيء يقودني نحوك . . .» أجل ، «آخر فارس مغامر لآخر ملكة» ،

العاشق المبهم سيلتقي «صديقته» ، وسيلقى موتاً أشد فظاعة مما خُبّىء لابنة ماري ـ تيريز . . . وشاء سحر التواريخ ، ان يسمح القدر الرحيم بأن يكون عذاب الواحد قد حدث في اليوم نفسه الذي بدأ فيه استشهاد الآخر - ١٠ حزيران ! . . .

«قضية زولا»: هل مات الكاتب الكبير مقتولاً؟!
«إني أتهم» جديدة، في كتاب من ٤٠٠ صفحة...

بعد نصف قرن من وفاته ، وبعد ستين سنة من انفجار قضية دريفوس الشهيرة التي جعلت منه بطل «إني أتّهم» ، يجد إميل زولا نفسه على حين غرّة متّهماً بسبب «قضية» اخرى تحمل اسْمه «قضية زولا» .

أبصرت النور ذات صباح بارد من شهر أيلول سنة ١٩٠٢ ، عندما فُتح باب الطبقة الاولى من المنزل القائم في شارع بروكسيل ، رقم ١ مكرر ، بعد الجهد الذي بذله قفّال استدعاه الخدم القلقون . وهرع الجميع الى داخل الحجرة .

بين النافذة المزخرفة الزجاج ، المغلقة ، والسرير الكبير من طراز عصر النهضة ، الذي يتبوأ دكّة ، رقد جثمان امرئ ضخم ، في العقد السادس من العمر ، وقد انتُزعت نظارتاه (بلا ماسكتين) عن عينيه القصيرتي النظر ، المثبتتين في الفراغ : إنه زولا ! وعلى السرير ، كانت السيدة زولا ـ وكان يدعوها «كوكو» تحببًا ـ تحشرج . ووصل رجال الشرطة . وتفحّص احدهم المدخنة ، فوجدها مسدودة بالحصى . وسرعان ما دوّت الشائعات في العاصمة : «زولا انتحر ! . . اغتاله المكتب الثاني !» ولكن ، بعد أربعة أيام ، توصّل قاضي التحقيق الى الاستنتاج بأن ما حدث لم يكن بسبب اي سوء نية : «التسمّم بأوكسيد الكربون المنبعث من نار الفحم» .

بعد اكثر من خمسين سنة ، وللمرة الاولى طُرح لغز هذا الموت في كتاب بعبارات واضحة جلية . ويحمل هذا الكتاب عنوان «مرحبًا ، يا سيد زولا» ، أما مؤلفه فهو أرمان لانو ، وهو شاعر وروائي ، في الاربعين من عمره ، اسمر اللون ، متدفق الحيوية ، له شاربان من طراز شاربيّ كلارك غيبل . . وقد استغرق وضعه الكتاب ـ السيرة ، سنتين اثنتين ، في مسكنه الصغير في شل ، فإذا به مؤلف من ٤٠٠ صفحة

تشوق قراءته كثيرًا .

في إيكس ، قفز على عاتق سيزان

في فتحه ملفّ «قضية زولا» ، تعرّض لانو الى السر المزدوج الذي يكتنف حياة الكاتب الكبير : موته ، وكذلك حياته ! زولا؟ امرؤ غير محكم الصنع ، ومع ذلك جبان ، منحصر (من تستبد به فكرة على نحو غير سويّ) ، «عقدة من المركّبات» ـ على حد قول المحللين النفسانيين اليوم .

لعل تناقضات سلوكه هي إرث من والده الذي توفي وهو بعد في السابعة من عمره : مغامر بندقي (من فينيسيا ، في إيطاليا) وملازم لدى الأمير أوجين ـ نابوليون ، ثم ضابط في الفرقة الاجنبية ، ومخترع ، وبنّاء ، ومهندس . وسيحتفظ اميل زولا طوال حياته بصورة هذا الأب المهووس بالمثالية ، والمضطرب أبدًا . إن مأساة انسان هو فريسة لظلاله لم تحل بينه وبين أن يكون رجل الصداقة الواحدة ، والحب الواحد الكبير ، والطموح الواحد .

تعرّف زولا الى الرسام بول سيزان ، وهو شاب جريء قوي ، مفعم بالحياة ، في كلية بوربون (اصبحت في ما بعد الليسه مينييه) ، في ايكس ـ اون ـ بروفانس . ولعل أروع ذكريات هذه الصداقة ما جرى على ملعب ميرابو ، وهو في الرابعة عشرة من عمره . فقد اعتلى منكبي سيزان ، وكان يكبره بسنة واحدة ، وهو يصهل كالفرس ، لكي يحيي الجنود المدرّعين في بزّاتهم الزرقاء والمعتمرين الخوذ الفولاذية ، وهم يُستعرضون قبل إبحارهم من مرسيليا الى شبه جزيرة القرم للاشتراك في الحرب المستعرة هناك . وقد شمله سيزان بحمايته ، وجعل الحياة محتملة بالنسبة اليه في الكلية وسط ابناء الطبقة البورجوازية الذين كانوا يضطهدون ابن الأرملة زولا الفقير ، ذا اللهجة الجافة (إنه مولود في باريس) ، الذي كان يفوز بالجوائز المدرسية .

غير أن نوعًا من سوء الفهم لدى عبقرية سيزان التصويرية تغلّب على صداقة التلميذين زمن الدراسة ، فكانت الفرقة بينهما .

كان اميل قد «صعد» الى باريس برفقة أُمه . فاشتغل في إدارة الجمارك ، ثم أمضى

فترة من البطالة ، فكان في العشرين يذرع بلاط الشوارع جيئة وذهوبًا ، مغتذيًا بعصافير الدوري التي كان يلتقطها بالفخاخ ، بعد أن يلوي أعناقها وهو دامع العينين . وقد كتب يقول في هذا الصدد : «ان جوفي والمستقبل يقلقانني !»

ولكن ، مع ذلك ، فإن وجهيّ نجاحه يتخذان شكلاً من هذه السنوات الرهيبة : الرجل المغمور بالحب في الثامنة والأربعين ، والمؤلف المغمور بالنجاح والشهرة بعد ذلك بعشر سنين .

كان يكتب مقالات لجريدة «فيغارو» ، ويختلط بالكتّاب ، والفنانين الذين يترددون على البولفارات . وقد نشر وهو في السابعة والعشرين روايته ، بل رائعته الأولى «تيريز راكان» .

إلا أنه بعد عشر سنين ، ومع روايته «الصرّاعة» (أداة للصرع او القتل كالدّبوس ، مثلاً) ، تحققت أحلامه في الشهرة والمجد الادبيين ، والثروة . فعقب نشرها في شباط ١٨٧٧ ، بيع منها ٣٠ ألف نسخة : وقد قبض زولا ما قيمته ٤٠ مليون فرنك ، بالنسبة إلى عملة اليوم . وفي خلال اربع سنوات ، من سن السادسة والثلاثين إلى الأربعين ، سيجمع ثروة تقدّر بأكثر من ٦٠ مليونًا . بعد «الصرّاعة» ، كانت الصحف تدفع له لقاء رواياته المتسلسلة فيها ٣٠ ألف فرنك (ما قيمته ٦ ملايين اليوم) . وقد بيع من روايته «نانا» التي اطلقتها دعاية إعلانية مفرطة يوم صدورها ٥٥ ألف نسخة .

وكان زولا الذي ابتاع منزلاً فخمًا في ميدان ، وراح يستقبل كل يوم خميس ، قد اعتاد على الحياة الميسورة ، والوجبات الشهية السخية . ويُذكر هنا ان زولا ، يوم أصدر روايه «جرمينال» كان يزن ٩٥ كيلوغرامًا . وكان طوله مترًا و ٧٠ سنتيمترًا ، واستدارة وسطه ١١٤ سنتيمتراً . لقد جعله النجاح سمينًا ، وهو يهدد بالقضاء عليه . غير ان الحب سيعمل على جعله يولد مجدداً في هذه الحياة ، إذ يفقده ٣٠ رطلاً في مدى عشرة أشهر .

«كانت جذّابة ، طويلة القامة ، رشيقة القدّ ، ساقاها طويلتان مغزليتان ، وجيدها ورقبتها مستديران» . وكان أحرى به أن يضيف : «وكانت تصغرني بسبع وعشرين سنة» !

كانت تدعى جانّ روزيرو ، وهي عاملة متواضعة ، كانت تتردد على منزل زولا

لكي تقوم بشؤون الغسيل . وكان صوتها الصافي يسحر اميل وقت القيلولة في قاعة مكتبه . وبعد ثمانية عشر شهراً ، بات زولا رجلاً غير ما كان ، إذ تحوَّل كليًا ، فراح يتنزه مع جانّ على الدرّاجة ، ويمارس على هذا النموذج العشريني مهارته في التصوير الفوتوغرافي .

ربما قضى نتيجة «مقلب» سيّىء!

في أيلول ١٨٩١ ، قام زولا برحلة . فنشر أحد أصدقائه في جريدة «فيغارو» ، لأجله ، إعلانًا هذا نصه : «التدرّج وصل على ما يرام .» (والتدرّج نوع طير) . أما ترجمة ذلك فهي «جانّ رُزقت منك بثاني مولود ، ذكر» ! بعد دنيز ، وُلد جاك . فاستأجر لهؤلاء الأعزاء الثلاثة – منزلاً بالقرب من منزله في ميدان . ومن النافذة في غرفته ومن خلال نظارتيه بلا ماسكتين ، كان يتابع من بعيد مرح الصغيرين ولهوهما .

ولم تكن كوكو ، زوجته ، جاهلة المأساة . لم تستطع أن تُنجب له اولادًا . وكما لو كان ذلك في احدى روايات زولا الميلودرامية المنادية بالمذهب الطبيعي ، فاجأت نظرات زوجها المتورطة ، وهو مسمّر أمام النافذة . فقالت له : « إحملها إلى هنا ،هيا !» وقد رضيت ، بعد وفاة الكاتب ، بأن يحملا اسم أبيهما .

كانت الهزّة الكبيرة في حياة زولا تنتظره مع قضية دريفوس . إن مناخ الحقد الذي أثارته ، هو الذي سمح اليوم (في الخمسينات ، لدى وضع الكتاب) للانو أن يتحدث عن «قضية زولا» ، في ما يتعلّق بسرّ موته .

فقبل سنة ـ يقول الكاتب ـ كشفت حملة صحفية عن اعتراف متعهد سابق لصيانة المداخن لأحد أصدقائه : زولا تسمّم اختناقًا طوعًا . فقد سُدَّت المدخنة في ليلة ٢٨ أيلول ، ثم نُظِّفت مما سدَّت به في اليوم التالي ، وسط المجيء والذهاب حول الجثمان .

انطلاقًا من هذه الشهادة يدلي بها امرؤ ، هو ميت اليوم ، بنى أرنو فرضية جديدة يرغب في تطويرها في الطبعة الجديدة لكتابه المذكور «مرحبًا ، يا سيد زولا» – وهي أن زولا اغتيل ، ولكن نتيجة مقلب محزن . «النسوّد بالدخان ، هذا الخنزير ، فيكون

ذلك درسًا له !» ودّخنوه جيدًا الى درجة قضى معها من جرّاء ذلك . وتُصحح هذه الفرضية ، وستسمح بالقول : «مات زولا نتيجة مزاح سيّء .» وسيكون ذلك من سخريات القدر الذي شاء هذه النهاية لأحد نوابغ القرن التاسع عشر ، الأقل سخرية من سواه .

طوال حياته ، لم يطلق زولا إلا قولاً ظريفًا واحدًا ، في نهاية احدى المآدب ، السنة ١٨٩٣ . فقد رفع جنرال ممن اشتركوا في حرب السنة ١٨٧٠ كأسه وهو يردد :«أرجو أن يمنحنا صديقي الشهير بعد «النكبة» ، «النصر» . فأجاب زولا ببرودة : «هذا يتوقف عليك ، أيها الجنرال !»

و«النكبة» هي احدى روايات زولا الشهيرة . . .

وهذه الآن تفاصيل قضية دريفوس التي مثّل فيها زولا دورًا كبيرًا ، وأدّى دفاعه فيها الى استدعائه للمحاكمة . فرحل الى انكلترا ولم يعد منها الا بعد صدور العفو عن كل الذين لهم علاقة بالقضية . وتتلخص هذه القضية بما يلي :

ألفرد دريفوس (١٨٥٩ – ١٩٣٥) جندي فرنسي اصاب شهرة لأنه ذهب ضحية خطأ قضائي اثار صدى عميقًا في مختلف ارجاء المعمورة . نال رتبة كابيتين في الجيش الفرنسي سنة ١٨٨٩ . وفي سنة ١٨٩٤ وقعت بيد السلطات رسالة غفل من التوقيع تفيد ان ضابطًا فرنسيًا يخون وطنه . فاتُّهم دريفوس لان الخط كان شديد الشبه بخطه . ودافع عن براءته كثيراً ولكنه وُجد مذنباً ، ونفي الى جزيرة الشيطان سنة ١٨٩٥ .

واتفق ان اكتشف احد المسؤولين في وزارة الحربية ان كاتب هذه الرسالة هو ضابط برتبة ميجور يدعى اشترهازي ، كان مثقلاً بالديون . فلم تتحمس الحكومة للإقرار بخطئها واعادة المحاكمة . وفي هذه الاثناء جرت محاولات عديدة لتبرئة ساحة دريفوس المسكين يتوجها جميعًا كتاب مفتوح ارسله الروائي اميل زولا الى رئيس الجمهورية بعنوان «إني اتّهم» . . وقد أُطلق سراح دريفوس سنة ١٨٩٩ ولكن شرفه لم يُردّ اليه الا سنة ١٩٠٦ . وخلال الحرب العالمية الاولى عاد فانخرط في الجيش الفرنسي ، وحاز رتبة ليوتنان كولونيل ووسام جوقة الشرف . وقد توفي في باريس في ١٢ تموز سنة ١٩٣٥ .

فييشي: اخترع «قذائف ستالين» قبل قرن من ظهورها، لاغتيال الملك لوي ـ فيليب!

متآمر ، لص ، جاسوس ، مزوّر ، وفضلاً عن ذلك إرهابي : هذا كثير بالنسبة إلى رجل فرد ، ولكن تلك هي ، مع ذلك ، صفات المجد ـ المجد المشؤوم ـ بالنسبة الى جوزف فييشي .

دخل التاريخ بالجريمة ، وكذلك الكتب المدرسية الفرنسية ، على طريقة بطل من أبطال إيبينال المصورة ، وقد رُبط اسمه بطريقة لا فكاك منها باليوم المأساوي ، يوم ٢٨ تموز ١٨٣٥ ،ورُبط بالآلة الجهنمية التي تصوّرها لاغتيال الملك لوي ـ فيليب . وقد جسّد كلمة اغتيال بصورة حاسمة .

في الواقع ، كاد ملك الفرنسيين يُقتل في ذلك النهار لفرط الاهتمام الدقيق الذي احاط به جوزف فييشي استعداداته . وكانت آلته من البراعة وذات التأثير القاتل بحيث أنه بعد مائة وسبع سنوات ، عادت إلى الظهور في ساحات القتال في روسيا ، في شكل مختلف بعض الشيء ، وتحت اسم آخر هو «آرغن ستالين» ـ أي قذائف ستالين . . .

تلقّى المهندس السوفياتي كوتشو جائزة قدرها ١٠٠ ألف روبل مكافأة له على مهارته ، وقد اعترف بصراحة ونزاهة بأنه إنما وجد فكرة آلته الرهيبة في آلة ١٨٣٥ .

واذا كانت هذه الآلة معروفة ، فإن الكثيرين لا يعرفون شيئًا عن شخصية مخترعها .

لم يكن جوزف فييشي ، في نهاية المطاف ، إلا امرأ مسكينًا ، وطامحًا فاشلاً ، دُفع الى الجريمة بسبب الكبرياء الخائبة والحقد الاجتماعي على حدّ سواء .

هذا المواطن المقيت لبونابرت ، ولد في ٣ كانون الأول ١٧٩٠ ، في موراتو ، بالقرب من باستيا ، في أسرة من الرعاة ، وفي حقبة كانت المغامرة فيها تمدّ ذراعيها إلى كل راغب في الارتماء بينهما ، وعندما كانت ريح المغامرات الثورية تعصف فوق جبال سيرنوس القديمة . انخرط في سنّ السادسة عشرة في الجيش النابوليتاني ، وفي الثامنة عشرة كان رقيبًا في الحرس الملكي التابع لمورا ، صهر نابوليون ، ونال صليب الصقليتين (على الاقل هذا ما كان يؤكده) مكافأة له على بسالته في حملتي كالبريا وروسيا . وهو يفخر بأنه أسر بمفرده ٥٢ أسيرًا .

ولدى عودته الى كورسيكا ، حُكم عليه بالسجن بتهمة السرقة ،وزُجَّ في سجن اومبران حيث كان سبقه والده بجرم السرقة كذلك . وكان هذا السجن ، إجمالاً ، بمثابة منزل عائلي . فيه تعرّف إلى لورانس بوتي التي أصبحت عشيقته . ولم يكتفِ بالأم ، فتعشّق الإبنة نينا الملقبة «نينا العوراء» ، التي أغواها عندما كانت في الخامسة عشرة ، لكأن الحب الذي غالبًا ما يكون أعمى ، ربما كان أحيانًا أعور .

وعقب خروجه من السجن ، عمل فييشي في مدن عدة من منطقة الميدي الفرنسية باسم لويس جيرار ، قبل أن يهبط باريس سنة ١٨٣٠ .

وكان زوّر اوراقه الرسمية ، واتخذ لنفسه دونما حياء هوية سميّ له يدعى انطوان مارتان فييشي ، سبق أن حارب في صفوف مورا ، وزعم أنه محكوم سياسي ، وعمل في دائرة الشرطة السرية ، وتولى منصب حارس مولان دو كرولبارب .

وكان يمكن أن يحيا حياة هادئة وبلا مشاكل ، لو لم تكتشف دوائر الشرطة أن هذا الجاسوس لم يكن إلا مزورًا ، ومحكومًا مبتذلاً من الحق العام . الوداع ، يا مولان دو كرولبارب ! ولكي يتهرّب من مذكرة جلب ، غيرّ اسمه ، ومسكنه ، وراح ينام تحت الجسور . وقد قادته هذه اللعبة من الاستغماية مع رجال الشرطة الى سمكري يدعى بوارو . وكانت محنه تجعله يغذّي حقدًا شرسًا ضد المجتمع والملكية ، وقد دفعته كبرياؤه المثارة بسبب مغامراته المزعجة غير اللامعة الى مشاريع جنونية . وكان يعلن : «سأحدث مصيبة ! سأقوم بعمل ، وسيتحدّثون عني !»

في البدء لم تكن هذه الأقوال سوى كلام طائش ، واجترارات غامضة تصدر عن شخص ساخط ، ولكن هذا الهذيان لم يلبث أن وجد الفرصة لكي يترجَم أفعالاً .
فقد ساقته أقدار التجوُّل إلى العثور على ملجأ في حانوت قذر في شارع سان فكتور ، لدى الاسكافي وصانع السروج بيير موري ، اللا مسترول السابق (اللا مسترول هو لقب الثوار الفرنسيين عام ١٧٩٣) ، عضو جمعية حقوق الانسان الذي يتغذّى بالحنين الى أيام عهد الإرهاب المشؤومة . وكان يتعطش الى استعادة طعم الدم ، ويقلّب على وجوهه مشروع اغتيال الملك لوي ـ فيليب .

مشروع ضخم وجهنمي : نبتاع منزلاً بالقرب من قصر البوربون ، (مقر مجلس النواب) ،ونحفر دهليزاً يبلغ منتصف البناء نصف الدائري ، ونملأه ببراميل البارود ، ويوم يُقبل الملك لحضور الجلسة ،يُنسف كل شيء .

أما التعاسة بالنسبة الى بيير موري فهي افتقاره الى المال الضروري لنجاح خاتمة هذا المهرجان المرعب . وقد اغتمَّ إذ تبيّن له ان فرص تحقيق أهدافه قليلة ، لكن عندها ارسل اليه ابليس رسولاً غير متوقّع ، جوزف فييشي هذا المطارَد دومًا ، والباحث أبدًا عن مأوى آمن .

واستضافه موري الذي سرّه كثيرًا أن يعلم ان الكورسيكي يشاطره الضغائن والأحقاد ، وأنه تصوَّر المشاريع نفسها لقتل الملك . والأفضل بعد : ان لديه مخططًا جاهزًا ، وأسهل تحقيقًا من تفجير قصر البوربون .

قال له فييشي بزأزأة ونبرة ايطالية :

– لقد اخترعت آلة ستكون رهيبة . . .

ما هي هذه الآلة؟

تركيب ٨٠ بندقية على قاعدة ، وحشوها بالبارود والشظايا ، وبفضل جهاز بسيط بقدر ما هو مبتكر ، يتم تفجير كل البنادق دفعة واحدة .وسيكون مفعول «الآلة» أقوى كثيرًا من مفعول بطارية مدفعية . وسيكون الأمر هائلاً !

وأُغري بيير موري ، وذهل ، وأخذته الحماسة . وفي ظُليل الحانوت الحقير كان الرجلان ينتشيان لدى ذكرهما المشهد الجهنمي الذي يستشفّانه .

أجل ، ولكن من أين المال لصنع هذه الترسانة؟

وتذكّر بيير موري تاجر الاصباغ تيودور بيبان ،في شارع فوبور سانت أنطوان ، وكان هو الآخر يريد الموت للملك البورجوازي . ولطالما ردّد :

- ألن نعثر على الشخص الذي يصوّب نار بندقيته الى لوي - فيليب؟ هناك كثيرون مستعدون لقاء ورقة نقدية بألف فرنك أن يذهبوا إلى السجن مع الاشغال الشاقة .

قسمًا ، لقد وجد هذا الشخص . وقدّم موري إلى بيبان رسمًا لفييشي يمثّل الآلة . وطلب بيبان الى موري أن يعرّفه الى المخترع . ويتحدّثون ، ويقلّبون المشاريع . وضع فييشي نموذجًا مصغرًا لاختراعه . وبعد التفكير ، قدّروا أن ٢٥ بندقية وحسب تكفي للحصول على النتيجة الحاسمة . ووضع فييشي كشفه : ٥٠٠ فرنك .

ولم يجد بيبان الثمن غاليًا للتخلّص من الملك . ففتح حقيبته ، وفتح حسابًا باسم فييشي يتيح له تأمين لوازمه .

بولفار التامبل ، بولفار الجريمة

لقد وُجد الشريك الذي قدّم المال ، وبقي الاهتمام بتفاصيل القضية : زمان الاغتيال ومكانه !

سيكون الزمان يوم ذكرى ثورة تموز ، حين يعرض لوي - فيليب ، على متن جواده ، الحرس الوطني ، في بولفار التامبل . أما المكان فسيكون منزلاً تسمح نوافذه بتصويب البنادق بكل هدوء وكل تأكيد من حيث النجاح . وقد ذهب فييشي الى هذا المنزل القائم في الرقم ٥٠ ، في بولفار التامبل للتعرف اليه ، ثم استأجره في ٨ آذار ١٨٣٥ من صاحبه باسم لوي جيرار لمدة سنة ، ودفع نصف قيمة الايجار مقدمًا .

كان المسكن في الطبقة الثالثة ، ويتألف من اربع غرف ، واحدة منها تطلّ نافذتها ذات المشربية على البولفار . ومن ناحية الفناء ، تضيء المطبخ نافذة يمكن أن تسمح مع اسخدام حبل بالقفز على سطح قليل الارتفاع ، ومن هناك بلوغ مبناه في شارع فوسه دو تامبل .

ولما استأجر فييشي المنزل ، ابتاع بستة فرنكات مخزونًا من الخشب ، وعكف على تركيب آلته ، تحت عين نينا العوراء المذهولة التي تساءلت عما يصنع . فقال لها :

– هذا نول لصنع الحبال .

وغضبت نينا وقالت :

– لقد اعتدت ان تبتاع انوالاً تعود وتبيعها بأرخص مما ابتعتها !

– اطمئني ، لن يكون الحال هكذا هذه المرة !

وابتاع قذائف البنادق من الخردة لدى مرتزق في شارع الشجرة الجافة ، لقاء ستة فرنكات كل قذيفة ، ولكنه قدَّم الفاتورة الى بييان بسبعة فرنكات ونصف ، على سبيل تحقيق كسب صغير : إنه دفعة على الحساب مؤقتة . ونقل هذه الخردة الثقيلة في حقيبة من جلد الخنزير ، اشتراها لهذه الغاية ، وكاد حملها يسحق الوسيط .

بانتظار يوم الصفر – ٢٨ تموز ١٨٣٥ ، الذكرى الخامسة لـ «الأيام المجيدة الثلاثة» ، أنجز فييشي وشريكاه الاستعدادات في كروم شارونّ . فقد قاما بتجربة إشعال بنثرهم على الأرض خطاً من البارود أشعلوه .

وعشية اليوم العظيم ، عمد بيير موري الى حشو البنادق بالبارود والخردق الغليظ . ثم كُلّف السبّاك بوارو مهمة تمثيل شخصية لوي – فيليب . فمرّ على جواد ، فصوِّبت البنادق إليه «على مستوى الصدر» . ثم تمّ تجهيز خط البارود الذي سيتولى فييشي ، في اللحظة المؤاتية ، إشعاله بواسطة جذوة يتناولها من الموقد .

وأقبل يوم ٢٨ تموز ١٨٣٥ : استيقظ فييشي عند الفجر ، فعلّق حبلاً بنافذة المطبخ لكي يهرب بواسطته . وعمد الى إخفاء الحقيبة التي استخدمها في نقل البنادق . فأرسلها الى شريك له في شارع بواسي هو صانع الرخام نولان .

وخرج الى احدى الحانات ، وراح ينتظر .

ومرَّ الوقت بطيئًا ؛ وكاد صبر فييشي ينفد . أما الملك ، فإذا كان يجهل تماماً ما يهدده ، فإنه لا يشك في ما ينتظره .

كان الملك يعرف أنه مقصود!

لم تكن محاولة اغتيال اكثر أو اقلّ لتفاجئه؛ كان يعلم أنه مستهدف وبقي على هذه الحال طوال حكمه.

كان صهره ملك بلجيكا يقول عن مثل هذه الاستعراضات التذكارية: «إنه لمن الجنون ان يستدعي المرء كل سفّاحي العالم للمبارزة في يوم معيّن.»

لقد عزم لوي ـ فيليب أخيراً على ان يجابه الخطر الذي يتهدده ويحدق به. حتى أنه استشار استاذًا في فن الصيانة ليتعلم أفضل طريقة في التحية بالسلام في حال استهدافه لنار قاتل الملوك.

وقال لابنه البكر:

– اسمع، لقد حانت لحظة التنبّه الى مقامنا. قد اسقط صريعاً في أثناء الاستعراض.

والى وزيره الاول تيير قال:

– ربما استطعنا الخلاص هذه المرة ايضًا.

ذلك بأنه في صبيحة يوم ٢٨ تموز، خفّ تيير الى قصر التويلري مذعورًا، فانفرد بالامراء جانبًا ـ دوقَي اورليان وليمور، وأمير جوانفيل لاطلاعهم على ما يُدبّر «من جهة الغامض». فقد بلغ دوائر الشرطة أن ثمة مؤامرة تُدبّر، ويتحدثون عن آلة جهنمية. الحكمة تفرض نفسها؛ وقد استحلفهم بالسهر على والدهم.

وسار الموكب الباهر، الملك يواكبه ابناؤه الثلاثة، والماريشالان مورتييه وميزون.

وعلى جانبَي الشوارع والبولفارات كان أفراد الحرس الوطني يقيمون سياجًا، ويقدّمون السلاح. وكانت الطبول تُقرع، والأبواق تُنفخ. وفي الساعة العاشرة والنصف وصل الموكب الى أمام المبنى الجهنمي. وفجأة دوّت طلقة، وانبعث الدخان من نافذة الطبقة الثالثة. ولمح الملك ذلك. فقال لأمير جوانفيل لحظة قعقعت رشقة الرصاص: هذه تخصّني!

ريبورتاج مباشر

حول ما حدث ، هناك ريبورتاج «مباشر» ، هو ريبورتاج أمير جوانفيل الماهر في معالجة القلم مهارته في معالجة ريشة الرسم . وهذا ما سجله : «لم أرَ إلاَّ والدي وقد امسك بذراعه اليسرى وهو يقول لي من فوق كتفه : لقد أُصبت . وكان ، في الواقع ، مصابًا ، فقد خدشت رصاصة بشرة جبينه ، وسببّت له رصاصة باردة الرضة التي كان يشكو منها ؛ واخترقت رصاصة اخرى عنق جواده .

«لم نعلم بذلك إلا بعد الحدث ، ولم نعلم كذلك بعد الحدث أن أداة الجريمة كانت آلة . كان اعتقادنا الأَول أن إطلاق النار يستمر : لذا همزت جانبيّ جوادي ، وأمسكت بلجام جواد أبي . بينما كان شقيقاي يضربانه من الخلف بسيفيهما ، وجررناه بسرعة عبر الفوضى العارمة التي حدثت :جياد بلا فرسان او حاملات جرحى مترنحين ؛ صفوف مبعثرة ؛ أناس في قمصان يلقون انفسهم على أبي للمسه هو شخصيًا او جواده هاتفين مسعورين : ليحيي الملك !»

«وشاهدت ، بعد ، ونحن نبتعد الهجوم على المنزل الذي انطلقت منه النيران : وقد ترجّل الضباط الشبان المرافقون ، وتركوا الأعنة لجيادهم ، ومع أفراد الحرس البلديين ورقباء المدينة تسلقوا درجات السلّم في المنزل المقصود والمنزل المجاور له ، ومقهى « الألف عمود» ، وتسلقوا الشرفات ، وحطّموا النوافذ .»

تسبّبت الآلة الجهنمية بمقتل اثنين واربعين شخصًا ، منهم تسعة عشر ، في جملتهم الماريشال مورتييه ، توفوا على الفور أو جرحوا جراحًا مميتة .

خادع الموت

وفييشي؟ آلته لم توفّره ، ولم تخطئه : جُرح جراحًا بليغة من جرّاء انفجار بضع بنادق ، فحاول الهرب كما تحسَّب لذلك ، عبر النافذة الخلفية ، فانزلق على طول الحبل ، وهرب على أحد السطوح ، ودخل مطبخًا ، فقلب امرأة مذعورة مزَّق لها مئزرها ، وعبر راكضًا فناء مقهى «الألف عمود» ، ومن هناك بات في فناء آخر . غير أن الدم الذي كان ينزف منه أتاح تتبُّع أثره : وعندما قُبض عليه ، كان منظره مرعبًا :

جمجمته مفتوحة ، دماغه ظاهر ، وجلدة جبينه تسقط فوق عينيه .

كان فييشي قد اعلن عن نيته في إلهاب دماغه بالرصاص إذا أخفق في محاولته اغتيال الملك . غير أن موري الخؤون الذي كان يرتاب بهذا القرار ، عمد وهو يحشو البنادق الى ترتيبها بطريقة تسمح لعدد منها غير قليل بالتصويب شطر قاتل الملك .

وكان موري شديد الحذر ، فأبعد نينا العوراء المذعورة التي لم تعرف إلا متأخرة نوعًا ما الغاية من آلة عشيقها الغريبة . وأسكنها في المسكن الواقع في الرقم ١١ من شارع لون ـ بون ، حيث وضع الحقيبة المعرّضة للشبهة . ولكن الجهد ذهب سدى ، إذ عقب استجواب حشد من الحوذيين والعملاء ، تابع رجال الشرطة الآثار حتى مسكن نينا . واقتحموا المكان على حين غرّة ، فروت العوراء ، وقد انهارت قواها ، واجهشت بالبكاء ، كل ما تعرف .

وأُلقي القبض على موري ، ثم على بيبان الذي كان اختبأ في احدى المزارع ، بالقرب من لانيي .

أما فييشي فقد عانى عذاب الحياة . فقاوم آلام جراحه الرهيبة ـ انتُزع من جرح جمجمته ٢٤ قطعة من العظام ! ـ وكان رجلاً «مرَّمًا» تمامًا عندما مثل مع شركائه في ٣٠ كانون الثاني ١٨٣٦ أمام محكمة النبلاء في قصر لوكسمبور .

وكانت محكمة أقلّ ابتذالاً من محكمة الجنايات ، ومسرحاً ممتازًا بالنسبة اليه لكي يتعجرف ، ويتكبّر أمام مثل المجمع النبيل هذا ، وتمثيل دور الشخصية التاريخية ، معلنًا : «سأكون في نظر العالم مجرمًا كبيراً وليس سفّاحًا !»

تاليران مشمئز

وقد جعلت حقارة فييشي السياسي الداهية تاليران ، أحد أعضاء المحكمة ، والخبير بالنفوس الهالكة وهو أُسقف اوتان سابقًا ، يشمئز عقب الجلسة الاولى ، ويعتبر أن العودة الى الاجتماع أمر غير مناسب . واستخلص فييشي من هذا التغيّب نتيجة :

- لقد تأثّر كثيرًا بنبرة صوتي التي جعلته يخلط بينها وبين نبرة الامبراطور !

واتهم فييشي موري بأنه حشا الآلة بطريقة تفجره هو شخصيًا . وقال :

- لقد خدعني . لم أكن حكيمًا ، أعرف ذلك . وضعي قادني الى أناس جعلوني أكدّ وأتعب لمنفعة غيري ، وأوكد أن موري قام بتلقيم الاسلحة للقضاء عليّ . إنه نذل ، ولذا ، بدوري لا أوفّره !

وأصدرت محكمة النبلاء ثلاثة أحكام بالموت بحق فييشي ، وبيبان ، وموري ، وحكمت على بوارو بالسجن عشرين سنة مع الاشغال الشاقة . وفي اللحظة الأخيرة ، مع ذلك ، حاول فييشي إنقاذ رأس موري . وببلاغته الدائمة ، أعلن :

- لا يسعني البقاء في هذا العالم بعد جريمتي . لقد تغذّيت مع الموت : وإني لأحبه كما لو كان عشيقة . ولكنني أطلب الحياة لهذا العجوز الموجود هناك . . .

واستقبل «العجوز» الحكم بفلسفة :

- قبل الأوان بقليل ، وبعده . . .

وكان ميل لوي ـ فيليب الى العفو عن الذين لم ينجحوا في قتله . ولكن كان هناك هذا العدد الكبير من الضحايا ، وداعي المصلحة العليا . . . ولدى موافقته على عقوبة الاعدام الصادرة بحق المجرمين ، كتب على هامش الوثيقة : «ليس الشعور بالواجب الكبير ما يجعلني أُوافق عل أحد الأعمال الاكثر ألمًا في حياتي . ولكنني ، ارجو ، نظرًا لصراحة فييشي في اعترافاته وتصرُّفه أثناء المحاكمة ، أن يُعفى من الجزء الملحق بالعقوبة ، وآسف أسفًا عميقًا لأن ضميري لا يسمح لي بأكثر من ذلك .»

كان ذلك يعني أن فييشي لن يُعدم مثل قاتلي الوالدين ، وقد قُنّع بالسواد .

وفي ١٩ شباط ١٨٣٦ ، وعند الثالثة صباحًا ، قرع كاهن السجن باب زنزانة فييشي . فطلب هذا الأخير سيكارًا ، ومثّل دور السخيّ ، إرضاءً لنفسه :

- ينبغي ألا أذهب الى العالم الآخر وأنا على نزاع مع الآخرين . فعندما يستاء المرء ، ليس من المستحب كثيرًا السفر معًا . أرجو أن تسرّني بابلاغهما أنني أُسامحهما . خذ ، تكرَّم بحمل هذا السيكار الذي بدأت بتدخينه ، لكي يدخّنا معي ، وينتهي كل شيء .

وقال موري :

- أنا لا أودّ أن أسمع شيئًا عن فييشي . إنه حقير جدًا !

إنها مأدبتي الخاصة

عندما أنهى الجلّاد سامسون الاستعدادات التي تسبق الاعدام في ما يتعلق بزينة فييشي ، أعلن هذا الأخير بسخرية ، وقد ساءه رفض زميليه عرضه :

- آلان ، أنا مستعد . بالوسع المجيء بالآخَرين : إنها مأدبتي الخاصة !

وعند أسفل منصة الإعدام المقامة عند حاجز سان ـ جاك ، تقدم احد مفوضي الشرطة من المحكومين ، وقال :

- اكشفوا لنا الحقيقة ، الحقيقة دون تحفُّظ ، فيؤخر تنفيذ الحكم .

لماذا هذه الخطوة في اللحظة الأخيرة؟ لأن العدالة كانت تحرص على معرفة ما اذا كان ثمة متآمرون آخرون . إن شكوكها كانت تستند إلى واقع ، ذلك بأنها عرفت ـ منذ أعلم موري كلاً من الزعماء الجمهوريين بلانكي ، وباربيس ، وكافينياك ـ الذين كانوا ينتظرون اللحظة المؤاتية ـ أي موت الملك ، للتحرك ـ بكل ما يُخطط ويحاك . . .

قُطع رأس بيبان أولاً ، وتبعه رأس موري ، وكان فييشي آخر من أُعدم . وقد عانق الصليب . وقال :

- أُقسم على أنني قلت الحقيقة أمام اللّه الذي أقبّله . أنا نادم على ضحاياي أكثر من ندمي على حياتي . وأرجو أن يكون الحكم بموتي أُمثولة لسواي .

وهمس في أذن الكاهن :

- أودّ ، بعد خمس دقائق من موتي ، أن يكون بالوسع إذاعة انباء عني !

- منه لم يبقَ ، كدليل على أحد أرهب الاغتيالات التي أدمت بلاط باريس ، إلا آلته الجهنمية المحفوظة في دار المحفوظات الوطنية .

الحب والنكبة
أمزجة سان - مارس

في شهر تموز من سنة ١٦٤٢ ، وفي قلعة مونبولييه ، كان سجين في الثانية والعشرين من عمره ، في غاية الوسامة ، يصرخ بأعلى صوته ، ويرفض الاعتراف بأخطائه .

- تعلّمت أغنية «أُفضّل الموت على الكلام» . ليس ثمة اي دليل ضدي . يريدون مني أن أحكم على نفسي بنفسي !

كان يقال له :

- أيها السيد ، ينبغي الاعتراف بالحقيقة .

- ألا تعلمونَ ان المرء يُشنق اذا ما باح بالحقيقة؟ ليضمنوا لي العفو عني ، فأكشف عن أُمور لا أُفصح عنها إلا على هذا الاساس .

كان هذا السجين هنري ديفيا ، المركيز دو سان ـ مارس ، السيد حامل السلاح الكبير ، الذي كان يعيش في زنزانة «قلما كان يرى فيها نور النهار» ،ساعاته الاخيرة ، وينتظر قطع رأسه لأنه كان محبوبًا من الملك لويس الثالث عشر . . .

لقد صوّر فيليب إرلنجه ، في مؤلفه المتفوّق «سان مارس ، أو الحب والنكبة» ، بالمهارة المأثورة عنه ، هذه الصداقة الملكية . وإننا لنحس بالانزعاج عندما نطالع الرسائل التي كان يوجهها الملك الى ريشليو ، وفيها يصف العاهل الإهانات التي كان يُنزلها به والآلام التي كان يسبّبها له هذا الولد المدلّل ، هذا الغرّ الأنيق الذي يُدهش غروره الشاذ . ويخيّل الى المرء أنه يقرأ ، لا رسالة من ملكَ فرنسا ذي السلطان المطلق ، ولكن شكاوى امرئ ناضج ، وضعيف ، وأعزل ، بخاصة ، أمام مكر امرئ

فتيّ ، وتغيرات مزاجه المفاجئة ، ونزواته . فقد كتب الملك الى وزيره الاول ، الكاردينال دو ريشليو نجيّه ، يقول :

«ارجوك أن تعذرني اذا لم تكن الرسالة مكتوبة بإدراك وعقل سليم ، لأنني استشطت غضباً أمس ، في الساعة الواحدة بعد الظهر ، إذ حلا للسيد حامل السلاح الكبير ، ان يخاصمني ، ويقطّب وجهه . الحمد للّه ، إن لديَّ شهوداً ، وهو لا يسعه أن ينكر شيئاً . بقدر ما نظهر له المحبة ونتملّقه ، تراه يتسامى ويحتدّ . . . أنا لم أنم طوال الليل لفرط الغضب ، وانفعلت قليلاً . لم يعد بوسعي أن أحتمل أطول عجرفته التي بلغت حداً كبيراً .»

وكانت المصالحات تلي ، وأحياناً في اليوم نفسه الذي يبدو فيه حامل السلاح الكبير على جانب من الوقاحة نادر :

«أكتب اليك هذه البطاقة لأنني أخشى ان تكون قلقاً عليّ بالنسبة إلى ما كتبته هذا الصباح . ما إن شاء السيد حامل السلاح الكبير أن يعود ، حتى استقبلته أحسن استقبال ، ونحن الآن معاً .»

عندما لم تكن «أمزجة» او نزوات سان ـ مارس على ما يرام ، كان بالوسع مشاهدة الملك يتنازل الى حد الذهاب الى غرفة حظيه «لكي أرجوه ـ على ما يروي الملك البائس ـ أن يتكرم بنسيان أي شيء أكون قد قمت به أو قلته وتسبّب في غضبه ؛ وهو يقول إنني لم أعد أُحبه لأنني أرفض أن أُنفِّذ له اي مطلب ينافي العدالة أو الأصول ، . . . لم يعد بوسعي احتمال تكبّره ، إنه يحسب كل شيء تحت مستواه ، وأنه لا يحتاج إلى أحد .»

كان هنري ذا مزاج لا يُحتمل مطلقاً ، وكانت مطامحه تلقى معارضة من جانب الكاردينال دو ريشليو . وكان ، في الواقع يحب الأميرة ماري دو غونزاغ ، التي تكبره بتسع سنوات . ولكي يستطيع الاقتران بها ، وهو من أُسرة متواضعة ، كان ينبغي الحصول على إقطاعة للنبلاء أو الاشراف أو دوقية .

رأى سان ـ مارس أن من اللباقة أن يكلّم الكاردينال في الأمر ، ما دام هو الذي كان في أساس حظوته لدى الملك . ولكنه فوجئ لما غضب صاحب النيافة وهتف

قائلاً إنه «لا يعتقد أن الاميرة ماري قد نسيت أهلها الى هذا الحدّ ، وأنها تودّ أن تنحطّ الى مستوى رفيق وضيع مثله .»

ثم إنه زاد قائلاً :

– ينبغي لك أن تتذكّر أنك نسيب رُفع مقامه بالحظوة ، وأن المركيز دو سوردي قد شرّف أخاك مارتان كثيرًا لما زوّجه ابنته . أنا لا أدري كيف تجرؤ على أن تطمح الى هذا الزواج !

فغمغم هنري :

– إن والدتي توافق على هذا الزواج .

فصاح الكاردينال وقد خرج عن طوره :

– اذا كنت صادقاً في ما تقول ، فتكون والدتك مجنونة ، وإذا كانت الاميرة ماري تفكّر في هذا الزواج ، فتكون اكثر جنوناًمن والدتك !

كان السيد حامل السلاح في حالة لاحظ معها أصدقاؤه لدى عودته الى مقره ، أن كل أزرار صديريته كانت مقطوعة .

ولما شاء الملك ، بعد بضعة أيام ، أن يؤنب حظيه العزيز ، اختار الوقت غير المناسب ، واستُقبل بفتور . وينبغي قراءَة تَفاصيل المشهد كما رواه لويس الثالث عشر لصاحب النيافة .

قال الملك لسان ـ مارس :

– أعلمني السيد الكاردينال أنك أبديت له رغبة كبيرة في أن ترضيني في كل الأمور ؛ ولكنك ، مع ذلك ، فأنت لا تفعل ذلك إلاّ في الموضوع الذي رجوته أن يكّلمك فيه : إنه كسلك !

عندها استشاط هنري غضبًا ، وأجاب بحرد الولد :

– لقد كلّمني نيافته في ذلك ، ولكنني من هذه الناحية لا يسعني أن أتغيّر ، ولن اتصرّف أفضل من السابق .

وتمتم لويس بحياء ، وهو منذهل نوعاً ما :

– بالنسبة الى رجل في مثل وضعك ينبغي له أن يفكّر في قيادة الجيوش ، وقد

سبق أن ابدى لي رغبته في ذلك ، فإن الكسل هو حتمًا عائق .

فقال سان ـ مارس بغضب شديد ، وهو ما يزال متشبثاً برأيه :

- أنا لم تخطر ببالي قط هذه الفكرة ، ولم أرغب بها في يوم من الأيام .

ومضى الملك في رواية ما حدث للكاردينال : «علىّ ذلك ، رددت بكلمة بلى ، ولم أشأ التعمق في الحديث . أنت تدري ما هي القضية . . . واستأنفت بعد ذلك الحديث عن الكسل ، قائلاً له إن هذا العيب يجعل المرء عاجزاً عن القيام بكل شيء حسن ، وإنه مختص بصورة خاصة بجماعة «الماريه» حيث أرضع ، وهم أناس غارقون تماماً في الملذّات .»

لذا ، إذا شئت ان تواصل مثل هذه الحياة ، ينبغي لك العودة الى هناك .

- إني على أتم استعداد لذلك !

فأجاب لويس الثالث عشر :

- لو لم اكن اكثر حكمة منك ، لكنت عرفت بماذا ينبغي لي ان أردّ عليك . ونظراً للموجبات المترتبة عليك نحوي ، ما كان يجدر بك ان تكلّمني على هذه الصورة .

فأجاب هنري وهو يرفع نبرة صوته :

- لا ادري ما أفعل بجميلك ، وأنا مستعد لإعادته اليك ، فأنا استغني عنه تماماً ! على أي حال سأكون مسروراً جداً أيضاً لكوني سان ـ مارس بدلاً من السيد حامل السلاح الكبير ، وفي ما يتعلّق بتغيير نمط حياتي ، لا يسعني أن أحيا بطريقة اخرى !

هذه المرة ، نفد صبر الملك ، وغادر جناحه . ولحق به سان ـ مارس ، وأكملت المشاحنة في حديقة القصر . وسمع كل رجال الحاشية ـ مذهولين ـ لويس يصارح صديقه بقوله :

- لما كنتَ بمثل هذا المزاج ، فأسعدني بعدم رؤيتك اياي بعد الأن !

واستدار ، اذ ذاك ، سان ـ مارس ، وردّد :

- سأفعل ذلك بكل طيب خاطر !

وأنهى الملك التعس رسالته بهذا التنهُّد : «ولم أره قط مذ ذاك .»

ولكن الملك عاد فرآه . . . ذلك ، بأن المصالحة المحتومة ، بالطبع ، تلت ذلك بعد

بضعة أيام ، وكان الملك ، كما في السابق ، وكما هو دوماً ، من خطا الخطوة الاولى .

* * *

في تلك الحقبة حين كانت تولد كل يوم مؤامرة ضد الكاردينال وسلطانه ـ لم يكن من المستحيل ألا «يُفاتَح» سان ـ مارس من جانب أعداء ريشليو . ولم يكن أحد يجهل أن هنري الشاب كان يلقي «النار واللهب» ضد صاحب النيافة الكلّي القدرة الذي قصّ جناحيه ، ومنعه من الاقتران بحبيبته ماري .

وبحسب ما يقوله بصواب فيليب إرلنجه ، «في هذه الحالة النفسية ، لم يقاوم السيد حامل السلاح الكبير الإصغاء الى أعداء مضطهده . لقد كان ، مع ذلك معجبًا بنفسه ، وبخاصة بعد الاهانات التي تلقّاها مؤخرًا ، لكونه عومل كما لو كان دولة . واي فتى في سنّه لا تسرّه المحادثات الليلية ، وأسرار المؤامرة؟»

خصوصاً وأننا استطعنا أن نرى ، في سنة ١٦٤٠ ، دوق دو بويّون الشهير يسعى الى حماية سان ـ مارس له . غير أنه ، في البداية ، كان كل شيء يجري بلطف ، وبرفع القبعات ذات الريشات ، والرسائل الودودة بين فرنسيين ؛ ولم يكن الأمر قد بلغ بعد استدعاء الاجنبي ـ والعدو ـ للمساعدة . وسرعان ما تبدّل كل شيء ، لما دخل على الخط غاستون دورليان ، شقيق الملك ، إمّعة الخيانة الذي تلبّد في الظل المتنامي لحظيّ الملك ، واستغلّه مع احتمال تركه يسقط عندما يفسد كل شيء ، حسب عادته . ولم تكن تلك المرة الاولى يتصرّف فيها هذا النذل على هذه الصورة .

وقد انطلق شقيق لويس الثالث عشر بحماسة كبيرة في المؤامرة ، لاسيما وأن زوجة أخيه ، الملكة آنّ دوتريش ، كانت موافقة على نياته الشريرة ، ووجدت فكرة توريط هذا الحَدِث سان ـ مارس في القضية حلاً ممتازاً . كل شيء كان حسناً لهدم الريشليو ! حتى ـ ولاسيما ـ ضمّ اسبانيا الى المؤامرة . ولم يتردد غاستون ثانية واحدة في دعوة العدو .

أما في ما يتعلّق بالسيد حامل السلاح الكبير ، فلم يكن يرى إلا شيئًا واحداً :

امتلاك أميرته الفاتنة . وللحصول عليها ، كان هذا الفتى الطائش البالغ العشرين ، مستعداً لبيع روحه من الشيطان .

وقد تاه بحق ، إذ اعتقد أنه سينقذ كل شيء ما دام لويس الثالث عشر كان يبدو غالبًا ثائر الأعصاب بسبب وصاية ريشليو . وقد أشهد الملك سان ـ مارس . كان «يتمرّد تحت هذا النير الباهظ ، ويجترّ شكاواه .» وحرص هنري تمامًا ، بكل مهارة ، في البدء ، على مشاركة الملك في الرأي ؛ وحاول الدفاع ـ بحجج سيئة ـ عن المحسن اليه السابق ، ولكنه لم يكن إلاّ ليزيده توريطاً .

قال له الملك ذات يوم :

– لكم أودّ أن أتنازل عن نصف مملكتي مقابل انفصالك عن الكاردينال . لقد أضاع كل أصدقائي ، وحاول أن يطردك أنت شخصيًا ! . . وفوق ذلك ، فهو يجعلني تحت ضغط لا يُحتَمل . لكم أرغب في أن يكون ثمة حزب ضده في فرنسا ، كما كان في وقت مضى حزب الماريشال دانكر ! . . وذهل هنري . هل كان يجب الأقدام على كل شيء؟ وكان يدرك ، مع ذلك ، اكثر من أي شخص آخر سلطة الكاردينال ، وتقلّب الملك ، وضعفه ، ورخاوته ، وعزمه ، بخاصة ، على الانحناء امام إرادة وزيره ، مهما تكن قاسية ، وذلك من أجل مصلحة المملكة الكبرى . ومع ذلك ، في اليوم التالي ، اعتقد السيد حامل السلاح الكبير ان الملك إنما يفكّر في سكينته اكثر من تفكيره في فرنسا ، وتجرّأ على أن يقترح عليه :

– مولاي ، أنت السيد . لماذا لا تطرد الكاردينال؟

وهتف لويس :

– مهلاً ، لا تتسرع ! . . الكاردينال هو أكبر خادم عرفته فرنسا . لا يسعني الاستغناء عنه . ويوم يعلن صراحة أنه ضدك ، لن يسعني حتى الاحتفاظ بك .

وكما يقول بوضوح مترجمه الأخير «إن اي انسان غير العاشق ذي الواحد والعشرين عاماً ، الوسيم مثل ادونيس ، الواثق تمامًا من سحره ، كان تعلّم من الحادث درساً ملائمًا . وما دامت متطلبات ماري لم تكن تسمح بأي تراجع ، فقد كانت الحكمة تقضي بتبديل عدّة المؤامرة التي كان نفوذ الحظي يمثل فيها القطعة الرئيسية .

كان ينبغي انتظار حدث ملائم ، وعند الحاجة موت الملك . غير أن سان ـ مارس لم يكن يريد الانتظار ، فضلاً عن ان غروره الساذج منعه من الاعتقاد أنه على المدى الطويل ، لن يسيطر كليًا على رجل ما يزال يخضع لنزواته الصبيانية .»

ووجد سان ـ مارس نفسه غارقًا أكثر فأكثر في الخطأ ، بقدر ما كانت حظوته تتخذ أحجاماً مذهلة . وهكذا ، في يوم كان فيه الملك ، بحضرة دو تريفيّ ، قائد الفرسان ، يجترّ بكثير من المرارة شكاواه ضد طغيان السيد الكلّي السلطة ، والعبودية التي دفعه اليها ، هو ابن الملك هنري الرابع ، والملك ، هتف هنري بثوران يتلاءَم مع سنّه :

– أطرده ، إذًا !

هنا يكمن اعتذار سان ـ مارس الكبير . فبدلاً من أن يردّ لويس على حظيّه بالنبرة السابقة نفسها ، اكتفى بالتحدُّث عن صعوبة العملية . وتجاسر هنري :

– إن أقصر طريق هي اغتيال ريشليو ، عندما يُقبل الى جناح الملك ، ما دام حرسه لا يتبعونه حتى هذا المكان .

أخذت الدهشة ، أولاً ، لويس الثالث عشر ، ثم ، انه بعد صمت طويل ، همس :

– إنه كاردينال وكاهن ، وسأُحرم كنسيًا !

وهتف دو تريفيّ :

– شرط الحصول على إقرار جلالتك ، فلن أهتمّ ، وسأذهب الى روما لكي أبرّأ ؛ وأنا واثق من أن أستقبل فيها استقبالاً حسناً .

ولم يجب الملك . . . فهل كان يمكن أن يفسّر سان ـ مارس هذا الصمت على أنّه توقيع على بياض؟ إن القضية تبقى بلا جواب . مع ذلك ـ والحدث جوهري ـ رضي الملك ، للمرة الاولى ، بأن يتصرّف بالسر عن وزيره . وإذ كرّر سان ـ مارس على الملك ان إرادة الكاردينال وحدها هي العائق في سبيل الصلح مع اسبانيا ، حاول لويس الدفاع برخاوة عن «جلاّده» .

ومضى هنري يقول :

– حسناً ! إن الوسيلة الوحيدة لاكتشاف الحقيقة في قضية بهذه الاهمية ، هي

تكليف شخص موثوق به الكتابة الى اسبانيا ، من دون علم الكاردينال والوزراء الآخرين ، والاستفسار عن حالة المفاوضات . ومن الردود التي سترد ،سيتبيّن لك بوضوح أن الكاردينال وحده يعارض في الصلح .

وسأل الملك ، وقد اقتنع نوعًا ما :

- ومن يمكننا تكليفه بهذه المهمة دونما أي خطر؟

وأطلق سان ـ مارس اسم صديقه .

- فرنسوى دو تو . . إنه لا ينتظر إلا شيئاً واحداً للعمل : أمراً كتابيًا من جلالتك .

ويكشف لنا الأب غريفه «ان الملك اعطى أمرين اثنين ، واحداً كان لحظيّه ، والآخر لدو تو ، بالسماح لهما بالكتابة الى روما ومدريد للتوصل الى عقد معاهدة صلح .»

ولكن دو تو لم يستطع تحقيق مبتغاه .

* * *

كانت المؤامرة التي ستتسبب في ضياع سان ـ مارس ، قد انطلقت بعجلة ، عجلة عدو فرس فونتراي ، الأحدب ، والمشوّه فونتراي ، المحرك الاساسي للتركيبة ، الذي نجح ، عقب مقابلة بويون في ليموج ، في دخول اسبانيا حيث كان على موعد مع الكونت اوليفاريس ، الريشليو الاسباني .

لقد ذهب ليقرأ له مذكرة ستبدي لنا بضعة أسطر منها مدى الخيانة وخطورتها ، هذه الخيانة التي تورّط فيها هذا المجنون حامل السلاح الكبير لحقده على الكاردينال : «ان صاحب السمو دوق اورليان او اولئك الذين هم في حزبه ، يتعهدون بتسلم موقع محصَّن أو موقع منيع بعدد تلك التي بوسعهم اختيارها لجيشهم أو لجيش صاحب الجلالة الكاثوليكية ، بحيث أن الجيش الاجنبي ، الذي سيدخل الاراضي الفرنسية بموجب هذه المعاهدة ، في حال التقهقر ، يسعه أن يلجأ إليها . . . ان السيد دوق اورليان يتعهد بأن يشرع في الحركة حال اجتياز قوات صاحب الجلالة الكاثوليكية وصاحب الجلالة الامبراطورية نهر الراين لدخول فرنسا .»

وعندما ذكر فونتراي اسماء الضالعين في حزب دوق اورليان هذا ومنهم اسم سان ـ مارس ـ ذُهل اوليفاريس .

ثم إن الاحدب عاد الى فرنسا ، حاملاً تحت بطانة صديريه رسالة من ملك اسبانيا الى غاستون دورليان . وكان كل شيء يجري على غاية ما يرام بالنسبة الى المتآمرين . . . وبدا الكاردينال بالاحرى ، مرة جديدة ، ميتًا .

غير أن غبطة غاستون راحت تكمدّ عندما علم أن الصداقة بين الملك وحظيّه لم يوضع لها حدّ ، ولكنها بدت هذه المرة تعنف بصورة جدية .

في أثناء ذلك ، مرض الملك الذي كان سقيمًا واهن الصحة دومًا ، مرضًا على شكل أشد ، وزاد حالته سوءًا عدم إظهار سان ـ مارس اي شعور بالرأفة او الحنان .

وقد تجرأ على القول لأحدهم وقد جاء يستفسر عن صحة الملك : إنه ينسحب ! بيد أن الاسرار أُذيعت ، ويزعمون حتى أن نسخًا من المعاهدة الشهيرة كانت توَّزع سراً . وكتبت الاميرة ماري الى عاشقها تقول : «ان قضيتك عُرفت عامة في باريس مثلما يُعرف ان نهر السين يمر تحت البون نوف .»

من اي قناة عرف ريشليو بالحقيقة الرهيبة؟ لا ندري بالضبط . يقول احد الشهود في ذلك الزمان «يزعمون ان رسولاً لم يجد قط الكاردينال ريشليو في ناربون ، وصل حاملاً رزمة من الماريشال دو بريزه ، نائب الملك في كتالونيا ، يعلمه فيها ، في سطور أربعة ، ان مركبًا غرق لدى الساحل ، ووجدت فيه معاهدة السيد حامل السلاح الكبير ، او بالاحرى معاهدة دوق اورليان مع اسبانيا ، وأنه ، إنما يرسلها اليه . هذه هي الشائعة التي رُوِّجت ، ولكنها ليست الحقيقة ، واولئك الذين صدّقوها هم أناس سريعو التصديق .»

ويميل فيليب إرلنجه الى هذا التفسير فيقول ان آنّ دوتريش ، ضحّت ، على الأرجح ، ظنًا منها ان القضية فُضحت ، بشركائها ، وأوفدت رسولاً الى الكاردينال الذي كان طريح الفراش في آرل .

وطلب ريشليو عقب قراءَته نسخة المعاهدة :

– آتوني بحساء ، فأنا مضطرب جدًا !

وشعر فونتراي بالخطر ،ودونما ان يضيع الوقت في تناول أي حساء ، صمَّم على الهرب شطر سيدان ، متنكراً بزي راهب كبوّشي .

وقال لسان ـ مارس الذي لم يكن يرتاب بالخطر المحدق :

– بالنسبة اليك ، ستبقى مديد القامة بعد أن يُقطع رأسك من فوق كتفيك أأنا ، في الحقيقة ، قصير جداً بالنسبة الى ذلك !

وما هي إلا بضعة أيام ، وبناء لأمر صادر عن الكاردينال ، حتى كشف امين سرّ الدولة شافينيي للملك الذي كان في ناربون خيانة عزيزه هنري .

وبالوسع تصور شك لويس الثالث عشر ، ثم إنه بعد خضوعه للبراهين الدامغة التي قدّمها ريشليو ، أصابه الحزن والاشمئزاز وهو يجابَه بهذا الافشاء المرعب . ولم يسعه سوى إصدار مرسوم بالقبض على عزيزه هنري ، ودوق دو بويون ، ودو تو ، وهذا الأخير كان متهمًا باطّلاعه على خطط المتآمرين ولم يفضحها .

هل أن الملك هو الذي حذّر حظيّه السابق من «انهم يستهدفون شخصه؟» لا أحد يدري . غير أنَ هذا الضعف الأخير جعله في نظر التاريخ أكثر جاذباً . . . ألم يُصغِ الى حظيه يحدّثه عن اغتيال الكاردينال؟ يبدو محتملاً «أن يكون خادمًا لا يعرفه سان ـ مارس ، قد جاء الى المنزل الذي كان فيه ، ليُخطره بالأمر الذي أصدره الملك .»

غير أن هنري لم يعرف كيف يفيد من النصيحة ، ورقد ثانية . واختبأ لدى امرأة تدعى السيدة سيوزاك قد يكون له أفضال عليها . ولكنها ، مع ذلك ، تناست هذه «الأفضال» ، ذلك بأنها أُصيبت بالخوف لدى سماعها صبيحة يوم ١٣ حزيران المنادين يتوعدون بالموت كل الذين يؤوون المجرم .

وأعلمت زوجها بالأمر ، وما هي إلا لحظات قليلة حتى ، استيقظ هنري مذعوراً على قعقعة الشكة (مجموع آلات الوقاية المعدنية كالدرع والخوذة الخ . . .) والسلاح ، فنهض من سريره ، واستسلم الى الجنود . وسُمح له بالاحتفاظ بسيفه ، وسُمع يتمتم وهو يجتاز قلعة مونبولييه حيث اقتيد :

– آه ! هل ينبغي الموت في سن الثانية والعشرين؟ ! هل ينبغي التآمر على الوطن في هذه الساعة المبكرة؟ !

قدّم بويون ، مقابل حياته ، سيدان ، ووافق على اتهام سان ـ مارس بحضرته . وأُربك هنري وخارت عزيمته . وقال :

- أنا لم أتوقّع قط مثل هذا العمل من جانبك ، أنت من كنت تقرّظ وتوصف بأنك جد شجاع وجد كريم ! بعد كل الوعود والأيمان ، كنت أُفضل الموت وسط العذابات على خيانة صديق ، ولكن ، ما دمت قد أبديت القليل من الصلابة ، فلن أُنازع عبثًا بالنسبة الى حياتي .

أما في ما يتعلّق بموقف غاستون دورليان ، فإنه يبعث على التقزُّز . ففي ١٧ حزيران ، وبعد إخطار الملك نفسه له بالقبض على سان ـ مارس ، كتب هذه الرسالة الى الكاردينال :

«ابن عمي ـ الملك سيدي ، شرَّفني بالكتابة اليّ عمّا كان في نهاية المطاف ، تأثير سلوك هذا الناكر السيد حامل السلاح الكبير . إنه رجل المجتمع الاكثر اتهامًا الذي اسخطك بعد الكثير من الالتزامات . إن النعَم التي كان يتلقاها من جلالته جعلتني احترس دومًا منه ومن حيله . . . لذا ، لك ، يا ابن عمّي ، احتفظ بتقديري وصداقتي الكلية .»

بعد بضعة أيام ، سمح ريشليو لنفسه بأن يوفد شافينيي الى مولان ليحمل الى غاستون دورليان البراهين على خيانته .

- ان خطأ سموك لمن الكبر بحيث أن صاحب النيافة لا يسعه أن يضمن شيئًا . إن حياتك نفسها مهددة لأنك اقترفت جريمة لا يمكن الحِلم البشري غفرانها .

وجعل غاستون يرتعش من الخوف :

- شافينيي ، ينبغي أن تخلّصني من الألم الذي أعانيه ! لقد قمتَ بذلك مرتين حتى الآن تجاه نيافته . أرجوك ، ستكون هذه المرة الاخيرة أكلفك فيها مثل هذه الاعمال .

- إن السبيل الوحيد لإنقاذ نفسك هو في تقديم اعتراف صادق بالنسبة الى الخطأ الذي اقترفته .

إلا أن سان ـ مارس ودو تو ظلا يعاندان وينكران ، ولم يكن بين يديَّ ريشليو

سوى نسخة من المعاهدة . ولكي يسعه الحكم على محميّه السابق الذي غدا عدوه ، كان ينبغي له تصديق هذه الوثيقة بشهادة احد أبناء الأسرة المالكة في فرنسا . . .

ولكي يستعيد غاستون إقطاعته ، تسربل بالعار حتى الخزي . كشف كل شيء ، واتهم سان ـ مارس ، ولكنه أخفى دور الملكة ، ورفض كل مواجهة مع الحظي السابق . وقبل غاستون كذلك باتهام دو تو ، الذي كان أُعلم بالاتحاد في ما بينه وبين السيد حامل السلاح الكبير ، وبويون .

كان الصديقان اللذان نُقلا الى تاراسكون ، سيحاكمان في ليون . ولم يذكر ريشليو أمر نقلهما الى احد . وكانت السفينة الصغيرة التي أقّلت السجينين ، محاطين بالحرس ، يجرّها المركب ـ السفينة الحقيقي لصاحب النيافة حيث كان الكاردينال يرقد فوق سرير من التفتا الارجواني موضوع في حجرة مغطّاة بالمخمل المذهب او القرمزي . وكانت فرقاطات تقلّ حاملي القربينات تفتح الطريق وعلى متن عربة مكشوفة ، يُحيط بها ٦٠٠ من حرس الكاردينال و ٢٠٠ كتالوني ، دخل سان ـ مارس مرتديًا معطفًا قرمزيًا ، مزينًا بالدانتيلا المذهبة ، ليون . واضطر الى امتطاء حصان لتسلُّق الساحل المؤدي الى قصر بيير – أنسيز . وقال :

– هذه هي ، إذًا ، آخر نزهة أقوم بها !

* * *

والملك؟

في البدء ، انتقل من الحلم الى «التأوهات» . وسُمع يتنهد :

– يا له من مجنون السيد حامل السلاح الكبير !

ثم ، لما ردّدوا على مسامع الملك عبارة حظيّه «إنه ينسحب» الشهيرة ، أعلن لكل غادٍ :

– الخبيث ! كان يودّ أن اموت !

مع ذلك كانت الدعوى تسير ببطء ، وصبر ريشليو ينفد «عندها – على ما يكتب

فيليب إرلنجه - وصلت رسالة غريبة ينحطّ فيها ملك فرنسا ، المنصف الاسمي ، باتخاذه أمام مستشاره نبرة المتهم لكي يحمّل حظيّه السابق الوزر بطريقة أفضل . إننا نجهل كيف أقنع لويس الثالث عشر الفخور ، المتشكك باتخاذ هذه الخطوة التي لا مثيل لها . إن ضميره ينبغي أن يبكّته بقسوة ، وموقفه في ليون ، وبقايا حنان اضطر أن يمنحهما ألوان الحقد . ولكن هل هذا نفسه كان كافيًا؟ ألم يكن الملك يخشى كشف بعض الاسرار الحميمة التي لا تتعلق بالشأن العام؟»

كتب لويس الى رئيس القضاء سيغييه يقول : «السيد رئيس القضاء ، لما بلغني ان السيد دو سان ـ مارس تصنّع القول ، وألمع ، وحمل على الاعتقاد أن الأفكار والخطط الشريرة التي غذّاها ضد ابن عمي الكاردينال دو ريشليو ، كانت معلومة وموافق عليها مني ، شئت أن أرسل اليك هذا الكتاب لأعلمك أنني عرفت منذ أمد ، وليس الآن ، أن السيد دو سان ـ مارس هو مخادع كبير ونمّام ، ولطالما سمعني المحيطون بي أشكو من ذلك وأتذمّر . ولقد رأيته مراراً يساند الكذب بمثل ما يساند به الحقيقة ، وغالبًا ما كان يجاهر بأنه ينبغي التصرّف هكذا . صحيح أن السيد دو سان ـ مارس لم ينسَ شيئًا ممّا استطاع أن يثيرني به ضد ابن عمي المذكور ، ولكم تألمت عندما كانت مساعيه السيئة باقية ضمن حدود الاعتدال .

«ولكنه عندما تجاوز هذا الحدّ وهو أن يقترح عليّ أنه ينبغي لي التخلّص من ابن عمي المذكور ، وتقدَّم للقيام بذلك ، تملكني الرعب من أفكاره الشريرة ، وكرهتها ، بحيث أنني اكتفي بترداد ذلك لكي تصدّق ؛ وليس ثمة شخص لا يعتقد ان الأمر لا يمكن أن يكون غير ذلك إذا ما اعتبر أن السيد دو سان ـ مارس المذكور لو حصل مني على الموافقة على مشاريعه الشريرة ، لما كان اتصل بملك اسبانيا ضد شخصي ودولتي ، كما فعل نتيجة اليأس من استطاعته انتزاع ما كان يرغب فيه . وأرغب أن تطلع كل أعضاء الجماعة التي ترئس على مضمون هذه الرسالة الآن ، لكي يطّلعوا على الحقيقة .»

بعد ذلك ، استطاع سيغييه ، رئيس القضاء في فرنسا ، أن يهتف :

- بالنسبة الى السيد حامل السلاح الكبير ، هذا أمر حسن . . . . ولكن بالنسبة

الى فرنسوى دو تو ، لا أدري كيف ستتصرّف .

عندها تسربلت العدالة بالعار في شخص سيغييه الذي جاء يقول لسان ـ مارس :

- إن حبّ الملك لكبير بحيث أنه لا يودّ أن يهلكك ، سيرأف بشبابك ، ولكن ينبغي ان تستحق العفو عنك باعترافك بكل ما حدث . ان الملك والكاردينال يرغبان في ذلك حتماً . إذا أنت أرضيتهما فلن تندم على ذلك مطلقًا .

وباستمالته هكذا ثقة المحكوم عليه بالموت العتيد ، أوفد إليه قاضيًا آخر هو المستشار لوباردومون ، الذي أكد له :

- في الحالة التي وصلت اليها قضيتك ، لا يبقى أمامك اي وسيلة غير الحصول على العفو عنك بالاعتراف الصادق . فدو تو قد كشف كل ما يعرفه . وسيكون من المدهش أن ترغب في بقائك وفيًا لرجل لم يكن وفياً تجاهك على حساب حياتك . إن اعترافاتك امام السيد رئيس القضاء لا يُعتدّ بها أمام العدالة . إن الملك والكاردينال يتطلبان منك إقرارًا حسب الأصول . فإذا ما رفضت ايضاً ، فإنك لن تموت ، وحسب ، بل إنَك ستتعذّب ؛ في حين أنك بقولك الحقيقة كاملة غير منقوصة ، ستكون واثقًا من تفادي العذابات والموت . . . وإني اعدك بأنك اذا ما فعلت ذلك ، لن يصيبك مكروه .

ولم يُخفِ هنري شيئاً عن المحققّين ظنًا منه أن صديقه دو تو خانه ، في حين ان هذا الأخير ، بالطبع ، لم يكشف شيئاً . فذكر أن دو تو كان على علم بالمؤامرة . وبهذا الإفشاء أرسله الى خشبة الإعدام .

ينبغي قراءَة هذا المقتطف من «تقرير الدعوى» الذي كتبه ريشليو ووقّعه لوباردومون :

«في ما يتعلّق بالسيد حامل السلاح الكبير ، إنه متّهم ، ليس بضلوعه في هذه المؤامرة ، بل بعد ذلك بكونه مدبّرها ورأسها . سمَّ السيد حامل السلاح الكبير غاستون دورليان ، بمخاوف خيالية يتوهمها هو . هذه جريمة . ولكي يتقّي أهواله ، حمله على تأليف حزب في الدولة : هاتان جريمتان . وحمله على الاتحاد مع اسبانيا : هذه جريمة ثالثة . وحمله على إهلاك السيد الكاردينال ، وطرده من الشؤون : هذه

جريمة رابعة . وحمله على شن الحرب في فرنسا خلال حصار بربينيان لوقف مجرى سعادة هذه الدولة : هذه جريمة خامسة . وصاغ شخصيًا معاهدة اسبانيا : هذه جريمة سادسة . وقدّم فونتراي الى غاستون دورليان لكي يوُفَد من أجل المعاهدة ، ويوفد الى السيد الكونت دوبيجو . هذه التتمات يمكن اعتبارها جريمة سابعة ، أو على الاقلّ إكمال كل الجرائم الأخرى . وكلها جرائم قدح في الذات الملكية .»

وكان لوباردومون من عُهد اليه بإبلاغ ضحيتيه الحكم بالموت . وعندما علم سان ـ مارس خلال المداولات انه كان السبب في ضياع صديقه ، تلاشى . وشجعه دو تو بقوله :

– حسنًا ! يمكنني يا سيدي ، أن ألومك ! . . لقد اتهمتني ، وحكمت عليَّ بالموت ، ولكن اللّه عزّ وجل يعلم كم أنا أُحبك ! لنقضِ ، يا سيدي ، لنقضِ بشجاعة ونكسب الجنة !

وبعد الاسئلة الصورية ، جُمع ما بين المحكوم عليهما . فقال هنري والدموع تسيل من عينيه :

– يا صديقي ! يا صديقي ! لكم أنا نادم على موتك !

فأجاب دو تو :

– إننا سعيدان لأننا نقضي على هذه الصورة .

شاء هنري ان يموت هو اولاً . ألم يكن المتهم الاول ، وقال :

– إنك تجعلني اقضي مرتين فيما لو مت بعدك !

واضطر دو تو الى التسليم بهذه الرغبة .

ولدى وصولهما الى ساحة تيرو ، حيث نُصبت منصة الإعدام ، وكان دو تو فريسة تحميس مسعور ، قال :

– هو ذا فراق جسدينا ، واتحاد روحينا ! . . هيا ، يا سيدي ! . . . لحظة واحدة ستفصل في ما بيننا ، إلا أننا سنلتقي قريبًا في حضرة اللّه تعالى الى الأبد . . . كنتَ كبيرًا على الأرض ، وستكون أكبر بعد في السماء ، ولن تزول عظمتك أبدًا ! . . . أظهر أنك تعرف كيف تموت .

وترجلّ سان ـ مارس . وبينما كانوا يجزّون شعره ، تمتم :

– آه ! رباه !

ورؤي يلتفت الى الجلاد . وكان حمّالاً متقدماً في السن لم يسبق له أن أعدم احدًا من قبل . فسأله هنري :

– ماذا تفعل ههنا؟ ماذا تنتظر؟

«فأخرج الرجل من كيس ساطوراً شبيهًا بساطور الجزّار ، ولكنه أضخم ومربّع أكثر .»

عندها تمتم كذلك سان ـ مارس :

– هيا ! ينبغي ان أموت ! رباه ، إرأف بي !

وروى احد الشهود العيان ، قال ان السيد حامل السلاح الكبير «وضع بثبات لا يُصدَّق عنقه بكل دقة على عمود الاعدام ، جاعلاً وجهه مستقيمًا وباتجاه مقدمة المنصة . وعانق بقوة العمود ، وأغمض عينيه ، وأقفل فمه . وانتظر الضربة التي أنزلها به الجلّاد ببطء وبتثاقل نوعًا ما ، بعد أن وقف الى يساره حاملاً الساطور بكلتا يديه . فلما اصابته الضربة صاح بصوت جهوري صيحة بدت مثل «آه !» خُنقت بالدم . ورفع ساقيه كما لو كان يبغي النهوض ، وعاد فسقط في الوضع الذي كان فيه . ولما لم يكن الرأس قد فُصل تمامًا عن الجسد بهذه الضربة ، انتقل الجلّاد الى يمينه من الخلف ، وأمسك بيده اليمنى بالشعر ، وباليد اليسرى نشر بساطوره جزءاً من الرغاص (قصبة الرئة) وجلد الرقبة الذي لم يكن قد قُطع .»

وتدحرج الرأس ـ هذا الوجه الذي أحبّه الملك ـ على منصة الاعدام ، وبصوت مرعب ، سقط أرضًا . . .

* * *

يزعمون ، دون دليل ، أن لويس الثالث عشر كان في تلك الساعة نفسها ، يلعب الشطرنج . ومن دون أن يقطع الشوط ، قيل إنه صرّح ، وعلى شفتيه ابتسامة شرسة :

– أودّ كثيراً أن أرى التكشيرة التي ينبغي للسيد حامل السلاح الكبير أن يرسمها في هذه الساعة !

كان القتل صناعته!
ولكن، في النهاية، طالبت المقصلة بفوكييه ـ تانفيل لنفسها

قد لا يبدو أن ثمة شيئاً غريباً فيه . كان رجلاً في الثامنة والأربعين ، ذا ملامح بارزة ولكن غير مميزة ، وكان زوجاً وأباً طيباً ، وموظفاً حيّ الضمير ، جلوداً على العمل .

لا ، لم يكن فيه اي شيء استثنائي اللهمّ إلا أنه في ذلك اليوم ، التاسع من ترميدور من السنة الثانية (من التقويم الجمهوري الفرنسي) ، الموافق ٢٧ تموز ١٧٩٤ ، وقّع على الحكم الألف بالموت في أربعة اسابيع . كان اسمه أنطوان كونتان فوكييه ـ تانفيل ، المدّعي العام في الجمهورية الفرنسية .

لولا الثورة لكان ، ربما ، أنهى حياته العملية كما بدأها ـ محامياً ناجحاً نوعاً ما ، في ظروف ميسورة تقريباً ، مكتفياً بهذا الاعتدال . مع الثورة ، بات مشهوراً بأنه الوحش المذموم والمرذول الذي لطّخ ـ حتى السنوات الحديثة ـ صفحات التاريخ .

ولكن ، من بعض النواحي ، ظل معتدلاً . ففي منصب منحه السلطة المطلقة على الحياة والموت بالنسبة الى مواطنيه وأبناء جلدته ، كان يمكن أن يغدو شخصية عامة كبيرة فيما لو فعل ما فعله ، محام مغمور آخر هو روبسبيير . غير أنه كان مجرداً من المطامح السياسية ، وفي الشؤون المالية كان غير قابل للرشوة مثل روبسبيير غير القابل للرشوة شخصياً . كل ما كان يطمح اليه دخل مضمون ، يؤمن له ، مهما يكن متواضعاً ، الأمان المالي . باختصار ، كان يودّ الحفاظ على منصبه .

من أجل ذلك كان يعمل ليل نهار لارضاء رؤسائه ، أرهابيي لجنة السلامة العامة المرعبة . ومن أجل هذه الغاية ، كان هذا الرجل العائلي المخلص ، يفتك يومياً بالوالدين ، وييتّم الاولاد ، وبصفته محامياً ، لم يكن ليرضى ، وحسب ، بقانون

بريريال (الشهر التاسع من الروزنامة الجمهورية من ٢٠ أيار الى ١٨ حزيران) الرهيب ، بل كان يرحّب به ، حارماً المشبوهين من حق توكيل محامين للدفاع عنهم ، أو أن يدافعوا هم شخصياً عن أنفسهم ، او أن يُستمع الى شهود ، أو أن تُستأنف الاحكام الصادرة بحقهم .

ومكّنه سلاح القانون هذا بلا عدالة ، والحكم بلا محاكمة ، من القيام بعمله المرعب من دون اي معوقات في الاجراءات القانونية من أي نوع كان ، باستثناء الاتهام غير المعيّن ، والاعتراف من قبل المهتمين بهويتهم .

يومياً كان يزوّد المقصلة بالرؤوس بلامبالاة مثلما يزوّد المزارع السوق بالملفوف ، ويكون انفعاله الوحيد التوتر عندما يقصّر في تسليماته ، والرضا عندما يعوّض ما هناك من متأخرات .

هكذا كان يُقاد بالسباق الذي لا نهاية له بين العرض والطلب ، بحيث أنه لما دخل موفدون من الكونفونسيون في ٩ ترميدور (الشهر الحادي عشر من الروزنامة الجمهورية ، من ١٩ أو ٢٠ تموز الى ١٧ أو ١٨ آب) محكمته حاملين مذكرة تقضي بتوقيف رئيسها رينه - فرنسوى دوما ، أزعجتة هذه المقاطعة .

كان اداة اللجنة ، ولا اهتمام له بالسياسة التي تنتهجها الكونفونسيون على الضفة الاخرى للنهر ، ولكن إذا شاءَت أن تزّوده برأس أضافي ، حتى لو كان رأس رئيسه نفسه ، فلا بأس في ذلك .

والكونفونسيون هي الجمعية الثورية التي خلفت الجمعية التشريعية في ٢١ ايلول ١٧٩٢ ، وانشأت اول جمهورية فرنسية ، وحكمت فرنسا حتى تشرين الاول ١٧٩٥ .

وعلى ذلك ، عيّن بسرعة أحد القضاة الثلاثة في المقعد الرئاسي الشاغر ، واستطاع أن يصل بعدد الرؤوس التي أمر بفصلها عن اجسادها ، على المقصلة ، الى الألف رأس في عمل شهر واحد وحسب !

ألف رأس في أربعة أسابيع ! ١٣٦٧ رأساً خلال الاسابيع الستة من وضع قانون بريريال موضع التنفيذ ! فلا عجب ، إذاً ، إن هو شعر بأنه يستحق أن يقتطع ساعة من

الوقت لتناول العشاء مع الأصدقاء ، هو من كان يمنح نفسه غالباً جداً ثلاث ساعات وحسب من أجل راحته الليلية .

غير أن رئيس المحكمة لم يكن الوحيد الذي انهمكت الكونفونسيون في ذلك اليوم في توقيفه ، بل هناك رؤساؤه ومستخدموه روبسبيير وارهابيو اللجنة ، كذلك . ذلك بأن قانون بريريال ـ قانون الارهاب ـ قد التّف حول صانعيه .في الكونفونسيون ، التحم الارهاب الضعيف لـ ٧٥٠ شخصاً مهددين ، فجأة ، مع الارهاب الجماعي المميت للقطيع المهدد ، فرمى بعنف كرة الاتهام الى ملعب روبسبيير نفسه . وجرّه الى المحاكمة العلنية ، وهناك أعلن أن القانون لا يطاله ، حتى قانون بريريال .

ويلغ النبأ مسامع فوكييه ، وكان في حفلة عشائه ، بشيء من القلق ، ولكنه لم يكترث له إلا قليلاً .

لم يكن ذلك ، في حال من الأحوال أمراً يهمه . فاذا ما قُطع رأس الحكومة ، فإن رأساً جديداً سينبت بدلاً منه ، ويظل هو ، فوكييه ، يتلقّى أوامره ، ويظل يطيعها بحذافيرها ، ويظل محتفظاً بمنصبه .

في اليوم التالي أصدر أمراً جازماً الى جلّاده المتردد «بوجوب المضيّ في عمله» ، في حين مضى ، هو من جهته ، في عمله ـ وهو إرسال رؤسائه بالامس الى المقصلة ، روبسبيير وواحد وعشرين من زملائه الإرهابيين .

ثم إنه أنجز في مدى نصف ساعة ارسال رأس الى المقصلة في أقل من دقيقة ونصف بالنسبة بين الرأس والرأس . إن كل من سيتولى زمام الحكم بعد روبسبيير سيجد مدّعيه العام مجتهداً وغير متحيّز ، ويستحق منصبه بحقّ وحقيق .

وفي تلك الفترة ، تناهى اليه ، وهو في المقصف التابع للمحكمة يحتسي الشراب الذي كان يتناوله ، لا لتعزيز ضميره بل لتقوية جَلَده واحتماله الجسديين ، انه هو شخصياً اتُهم في الكونفونسيون بأنه إرهابي . ولكنه ، مع ذلك ، وضع جانباً الخوف ، مجدداً . وقال بينه وبين نفسه : «ليس هناك ما يقلقني ، فأنا بريء ، وسأنتظر حتى يقبضوا عليّ .»

ولكنه لم ينتظر . خفّ الى منزله من احد أبراج قصر العدل ، وهو جزيرة غريبة

من الهدوء المنزلي لم تمسّ في بحر ارهاب هائج ، حيث يتحوّل الوحش الملطخ بالدم الى زوج وأب رقيق لطيف . وهناك أطلع زوجته على ما حدث ، وطمأنها الى انه ليس هناك ما يُخشى ، ثم هرع الى سجن الكونسييرجري حيث سلّم نفسه للعدالة .

إن فأل فوكييه سيخيب فيما اذا كان يتوّقع الخدمة السريعة التي اعتاد هو عليها من حيث تزويد المقصلة بالرؤوس . ذلك بأنه انتظر سبعة أشهر قبل أن يمثل امام قضاته للمحاكمة ـ أشهر راح فيها مستوى فعلية المحكمة ينخفض اكثر فأكثر ، حتى باتت في الشهر السابع لا تفخر إلا بارسال رأس بائس واحد الى المقصلة . وهي أشهر كذلك أتاحت له ان يجهّز دفاعه الشخصي بنفسه ، عن ضعف لم يكن قط فيه مذنباً .

يومياً كان يملأ الصفحة تلو الصفحة بالحجج التي كان بالوسع تكثيفها بعبارتين اثنتين ، وحسب : « لم اكن سوى اداة القانون ، أنا لم أقم إلا بتنفيذ أوامر رؤسائي .»

وكتب ، كذلك الى زوجته ، الرسائل التي يكتبها اي زوج مهموم قلق يجد نفسه في مثل هذا الوضع . شكرها على وجبات الطعام التي كانت ترسلها اليه في السجن ـ «السبانخ كان شهياً» ـ ونصح لها بأن تضع ما تملكه من أشياء ثمينة في مأمن ـ «على الرغم من ان القانون يمنحك الآنية المنزلية ، فإن الاختام ستوضع . تأكدي من بياضاتك وملابسك ، واحرصي على ألا تؤخذي على حين غرة وأنت غير متأهبة» وأكدّ براءته ـ «اذا كانت هيئة المحلّفين نزيهة ، فإن براءتي ستنتصر» ـ سوى أنه تكهّن بأنه سيُحكم عليه «لأنني خدمت وطني بالمزيد من الحماسة والطاقة ، ولأنني عملت وفق ارادة الحكومة ، محتفظاً بنظافة يديّ وقلبي .»

بهذه القناعة بالطهارة في العمل والنية ، واجه فوكييه في نهاية المطاف المحكمة في آذار ١٧٩٥ . وقد مثل أمامها ٤٥ مرة قبل النهاية ، هو من أرسل في مثل هذا العدد من الأيام ١٢٨٥ ضحية الى العالم الآخر . ويوماً بعد يوم ، كان الشهود يمرون أرتالاً بلا نهاية عبر المحكمة : السجّانون من سجونه ، والكتّاب من مكتبه ، ومحضّرو لوائحه المرعبة ، وأنسباء ضحاياه المساكين .

وذُهل أهل باريس الذين أخرسهم هول ما كانوا يسمعون . حتى اولئك الذين تفهموا قانون بريريال ، لم يتصّوروا قط أن بالوسع اساءَة استعمال هذه القوة على هذه

الصورة . حسبوا انه كان موجَّهاً ، وحسب ، ضد الأرستقراطيين والخونة الخطرين ؛ إلا أنهم الآن تبيّنوا ان كل سبعة من كل عشرة من ضحاياه كانوا من عامة الشعب مثلهم ؛ كتّاب ، وأصحاب حوانيت ، وخياطون ، وعمال ؛ أناس بلغوا الثمانين من العمر ، وصبيان ، وبنات تحت العشرين ، حُكموا بالموت ليس لأي دليل غير التسليم بهويتهم .

وفي أحيان لم تكن الحال كذلك . فمثلاً احتج أحدهم ان الاسم الذي نودي به ليس اسمه ، ولكنه حُكم عليه بالموت مع عبارة «حسناً ، ما دمت هنا . . .»

وآخر لم يردّ بأي جواب على الاطلاق لأنه أصمّ ، مضى الى حتفه دون أن يدري ما هي التهمة الموجهة اليه . وكان هناك أبكم تلقّى صمته وحسب ، التوبيخ السافر القاسي : «نحن لا نريد لسانك ، بل رأسك» . وأنكر رابع التهمة الموجهة اليه ، أرسل إلى المقصلة لأنه «إن لم تكن أنت ، فقد كان أخوك أو أبوك .»

وهناك أيضاً مثال مرعب اكثر على أساليب فوكييه في تصريف أعماله . كان هناك تهم مجهزة سلفاً ، مع فسحات بيضاء لملئها باسماء من اتفق من السجناء الذين يصادف وجودهم في متناول اليد .

وهكذا مضى العرض المروّع لمئات الصور الزائفة البشعة والشائنة ، التي لم يحرّك المدعي العام ساكناً للاحتجاج عليها ، بل انه كان يتلقّى إلحاح المحكمة من اجل بذل جهود اكبر .

صاح أحد المتهمين : «عشرون ، أربعون ، ستون شخصاً حُكموا في ساعة واحدة ! لم يكن ثمة متسع من الوقت لتلاوة أسمائهم !

واحتج فوكييه بقوله :

– تلومونني على الأحكام ، فقد كنت في منصبي لمعاقبة المذنبين وفقاً للقانون !

ومع ذلك ، ويوماً بعد يوم ، ألحَّ على الحجة نفسها : لقد أطاع رؤساءَه ، ونفّذ قانوناً لم يشترك في سنّه . «إذا كان جرماً تنفيذ مراسيم اللجنة ، فأنا ، إذًا ، مذنب . وكنت مذنباً أكثر فيما لو لم أنفذّها . ماذا كان عليّ أن أفعل ؟»

«ماذا تفعل ؟ كان بوسعك ان تطلع الكونفونسيون عما كان يجري . ولو انك

أُعدمت من اجل ذلك ، لكنت أعطيت مثلاً نبيلاً في العدالة والشجاعة ، ولكنت أنقذت وطنك من سيل الدماء والدموع !»

غير أن فوكييه لم يكن يتناول مرتباً لكي يكون نبيلاً ، ولم يكن سيل الدماء والدموع من شأنه في شيء . لقد أطاع أوامر اللجنة ؛ ونفّذ المهمة التي كان يقبض مرتبه على أساسها . والمسؤولية عن النتائج ليست مسؤوليته .

لم يكن القضاة الذين دافع عن نفسه أمامهم من الدهماء أو الرعاع الذين عرفتهم محكمته شخصياً ، ولكنهم كانوا قضاة من المدرسة القديمة ، متضلعين من كل أنواع اللطف في القانون . سوى أنهم مع ذلك ، لم يستطيعوا ـ او أنهم لم يريدوا ـ ان يروا قوة حجته : ليس ثمة قضية تدينه . «لقد كنت اداة في يد القانون ، دونما أي مسؤولية .»

في الاول من أيار أوضح هذا الواقع الجلي لقضاته طوال اربع ساعات من دون توقّف ، وفي الخامس منه طوال ساعتين ، كذلك .

ولكن ، على الرغم من أن أحداً لم يقاطع بالعبارة الساخرة «ليس لسانك ما ننشده ، بل رأسك» ، أيقن ان لا أمل هناك ، وأنه محكوم عليه بالموت من جانب «أناس متعطشين دوماً للعثور على ضحايا .» وخلال تلاوة القاضي خلاصة ما تكوّن لديه من عناصر الادانة ، تظاهر فوكييه بالنوم ، لكأنه لا يتنازل لسماع ما يعتبره طلباً للانتقام من كبش محرقة بريء . ولم يُبد ، كذلك ، انفعالاً لـمّا سمع حكم هيئة المحلفين بأنه مذنب ، وإصدار الحكم بالموتَ . ولدى سؤاله عما اذا كان لديه ما يقول ، ردّ بايجاز :

– إني أطلب بأن أعدم على الفور ، وأن تُظهروا من الشجاعة بقدر ما أظهرت . وإني أوصي بزوجتي واولادي للذين هم وطنيون حقيقيون .

وقضى بطريقة بعيدة جداً عن الانفعالية مثلما أرسل الآخرين الى حتفهم ، وعلى ما يظهر ، بضمير صافٍ ، تاركاً قصاصة ورق كتب عليها : «ليس لديّ ما أؤاخذ نفسي عليه . لقد أطعت القانون دوماً . إني أقضي في سبيل وطني منزّهاً عن الملامة ، وأنا راضٍ . ان الخلف سيعترف ببرءاتي ويقرّبها .»

لقد جرّمه الخلف بصورة كلية ، ومن دون تمييز ، ليس من اجل ارتكابه القتل الجماعي ، بقدر ما هو من أجل قيامه بذلك لا خوفاً او حقداً ، أو حتى وسط جنون السادية ، ولكن من اجل الاقتناع المنطقي بأن ذلك هو السبيل المبرر لكسب الرجل الشريف معاشه .

من ذيول مؤامرة ماله
شَعْر مدام سيلّان المستَعار

لو لم تنتهِ مؤامرة الجنرال مالِه بمجزرة جنود اتهموا وحسب ، بالنسبة الى معظمهم ، بسذاجة سلبية ، لكانت اعتُبرت اروع مسرحية هزلية خفيفة (فودفيل) في التاريخ .

وهذه هي تفاصيل المؤامرة بايجاز كلّي لنضع القراء في جو هذه القصة التاريخية التي سنسردها عليهم .

الجنرال ماله رجل مغمور ،وسجين ،ليس في جيبه لويسية (ليرة ذهبية فرنسية)ـ وقيل كان يحمل في حافظة نقوده ١٢ فرنكاً ساعة تمكّن من الهرب من المنزل الذي سُجن فيه في ٢٢ تشرين الاول ١٨١٢ ، لكي يقوم بقلب النظام الامبراطوري ، بينما كان نابوليون بونابرت في روسيا خلال حملته العسكرية الشهيرة . وكل ما فعله لكي ينفّذ الفكرة التي ستقلب العالم ـ في نظره ـ هو أنه تلا على مسامع بعض العسكريين قراراً مشيخياً يعلن وفاة نابوليون ، واقامة حكومة جديدة سيكون هو ، المجهول ، رئيساً لها . إنه لأمر في منتهى الجرأة والتحدّي . ولكن أن يقع موظفون كبار في الفخ وفقاً لمزاعم ، دون أن يخامرهم أي شك في صحة القرار المشيخي ، وأن يسمحوا بأن يلقى عليهم القبض ويُسجنوا دون اي احتجاج ، ودون المطالبة بأي دليل ، وحتى دون أن يستفسروا عن تفاصيل الكارثة ـ هوذا ما يعطي فكرة مؤلمة عن سرعة عطب احدى أمتن المؤسسات البشرية .

لم يحرّك احد من هؤلاء ساكناً ، وقد سمحوا بأن يُلقى القبض عليهم لدى استيقاظهم ، ويقادوا الى السجن بانقياد مفاجىء ، وبخضوع يحيّران : وزير الشرطة

سافاري ، وسكرتيره العام ديماريه ـ الرجل الأكثر ذكاء وحذراً في الامبراطورية ـ ، ومدير الشرطة باسكييه . وياسكييه في مذكراته ، المكتوبة عموماً بطريقة رصينة يملأه السرور كثيراً لدى سرد الحوادث المزعجة التي تعرّض لها زميله فروشو ووزير الشرطة . وهو يروي مغامراته بأسلوب أقلّ مزاحاً وهزءاً . واذا كان علينا أن نصدّقه ، فهو لم يؤخذ لحظة واحدة بخداع المتآمرين وكذبهم . ومع أنه استسلم تجاه العنف ، دون أن يفقد شيئاً من كرامته ورباطة جأشه ، يؤكد انه صرّح للضابط الذي كان يقوده الى السجن بـ «أن الامبراطور لم يمت ، وأن القرار المشيخي مزوّر» ، ويزعم أنه فكّر طويلاً ، في أن هذا «التضليل غير المتقن لن يلبث ان يفتضح عما قريب .»

ومع اعترافه بأن انفعاله كان شديداً ، وأنه قضى وقتاً حرجاً ، فإنه ينكر بعناد أنه وُضع في زنزانة ، خلال الدقائق القليلة التي أقام فيها في سجن لا فورس ، ولم يغادر قلم الكتّاب ، وقد أُحيط بكل مراعاة من جانب حارس المبنى لوبو . وعلى هذه الصورة ، فإن الملحمة الهزلية لا تبعث مطلقاً على الضحك . . . ولكن كم هم غير متحفظين البحّاثة والمنقّبون ! فالاسهامات الأخيرة التي أُضيفت الى قصة قضية ماله ، قاسية بالنسبة الى كرامة مدير الشرطة باسكييه ، وهي تؤلف دون اي مراعاة او مجاملة الموقف الحقيقي الأقل فخراً وأُبهّة مما زعم هو شخصياً بعد ما حدث !

في الواقع ، ما كاد يُطلق سراح باسكييه ، حتى هرع من فوره الى دائرة الشرطة ، رغبة منه في استعادة مركزه قبل أن يحتله شخص آخر . وكان المبنى ما يزال تحت حراسة الجنود . فلما عرفه الجنود الذين سبق أن اعتقلوه قبل ساعتين ، استُقبل المسكين بضربات بأعقاب البنادق ، وعومل بشراسة وأهين . وقد كتب يقول : «وقد لحقوا بي ، شاهرين حرابهم ، فلم أرَ بداً من اللجوء الى أحد الحوانيت .»

وما لم يقله هو أن هذا الحانوت كان صيدلية صاحبها يدعى سيلّان ، وقد استقبله في حالة يرثى لها . فقد كان مدير الشرطة أقرب الى الموت منه الى الحياة . وقد احتاج إلى كل المنشطات لدى الصيدلي لكي ينتعش ، و«بقي نصف ساعة تقريباً قبل ان يستعيد رشده .»

ويروي بكل تحفظ : «هأنذا سجين مجدداً ، بقيت حوالى الساعة مجمَّداً

هكذا . . . لم ينتهِ الصخب إلا لما عُلم أن مفرزة من الحرس الامبراطوري في طريقها الى مقر دائرة الشرطة .»

وعن العودة الى مكتبه ، ليس هناك اي إشارة . ومن هنا يستأنف السرد ، مواصلاً بنبرة التاريخ الرزين .

ولكن يبدو أن السيدة سيلّان ، زوجة الصيدلي المفضال كانت امرأة «قصيرة القامة وكبيرة البطن ، وعلى جانب كبير من الدلال والتأنق» ، تحاول أن تخفي شعرها ، الاشقر طبيعياً ، بشعر مستعار أشقر مجّعد وعلى طريقة تيتوس (قصّ الشعر قصيراً من أمام ومن خلف كما يبدو في بعض تماثيل الامبراطور تيتوس الروماني) . وقد ألهم هذا التفصيل الموظف المسكين فكرة حصيفة . فقد توسل الى الصيدلي قائلاً بينما كان الجنود يحاصرون باب الصيدلية : ارجوك ، اعطني ما اتنكّر به !

وسرّح الصيدلي نظره في أرجاء المكان ، وتناول شعر زوجته المستعار ، ووضعه على رأس مدير الشرطة ، ومسح وجهه بطبقة من الزعفران ، وألقى على كتفيه معطفاً نسائياً ذا ياقات عدة . وقال له ، وقد سرّ كثيراً من عمله المتقن هذا :

– الآن ، يا سيدي مدير الشرطة ، غدوت إنساناً آخر !

في الواقع أن باسكييه لم يعد من السهل التعرّف إليه ، فتسلّل الى خارج المختبر حيث جرى التحوّل هذا ، ومرّ من بين الجنود دون أن يلاحظوا شيئاً ، وتمكّن من دخول منزله حيث احتشد على عجل مفوضو الشرطة وضباط الأمن . واضطر المدير الى اجتياز صفوفهم ، منزعجاً كثيراً من شعره الاشقر ، ولون وجهه البرتقالي . وعلى الرغم من المظهر الوقور الذي تظاهر به ، كان ينبغي أن يكون الحاضرون من حجر لكي لا ينفجروا بالضحك ، ولم يحرموا أنفسهم ذلك . وحده باسكييه احتفظ بالجدية الصارمة . وانتزع الشعر المستعار عن رأسه ، وألقاه في النار ، ثم هرع الى حجرة الزينة ، وتمكن بعد قليل من الظهور مجدداً في ملابس لائقة أمام مرؤوسيه .

ولكن ، مع ذلك ، لم ينتهِ كل شيء . فامرأة الصيدلي الجميلة طالبت مدير الشرطة باعادة شعرها المستعار اليها شخصياً ، ليس لأنها تحرص عليه من دون سائر لمم الشعر المستعار ، ولكنها كانت تودّ أن تُبدي للسيد باسكييه أنه اذا كان رأى شعراً

مستعاراً ، فليس ذلك لأنها تفتقر الى الشعر الطبيعي ، بل لأنه مختلف . ولما كانت قد زارت مدير الشرطة حوالى عشر مرات دون ان تتمكن من مقابلته ، فقد عوّلت على الكتابة اليه ، وهدّدته باللجوء الى العدالة .

ولم يدرِ باسكييه كيف السبيل الى التخلُّص من هذا الفصل السخيف ـ ولا سيما أن الباريسيين شرعوا في التلهّي على نطاق واسع بالرعب الذي استولى على الحكومة ، وفي الترنّم بأغنية «التغلّب على العقبة» التي فرضها المتآمرون على السلطات . وكلّف باسكييه كاتب المسرحيات الهزلية الخفيفة بييس ، وكان آنذاك سكرتيراً عاماً لمديرية الشرطة ، أن يقنع السيدة سيلّان ، زوجة الصيدلي . ولم يكن بييس شاباً ، ولكنه كان أنيق المظهر . وكان تردّده على الممثلات يمنحه ، تجاه البورجوازيات اعتباراً كبيراً . فاهتم من فوره بالأمر ، وعرض عليها اولاً ثمن الشعر المستعار ، ثم جعل الثمن ثلاثة أضعاف ، ثم عشرة أضعاف ، دون ان ينجح في عقد الصفقة . وسرًّ «الصيدلية» ان تُرى في لقاءَات مستمرة مع موظف رفيع المستوى ، محبوب وحائز على وسام ! فلم تتظاهر بأنها ستقبل بسرعة أي عرض ، لكي تطيل المتعة . وتضاعفت الوجوه ، وعلم الصيدلي بالأمر ، و«كادت الأمور تصل إلى تقديم رفع دعوى زنا » . . .

ولكن ذلك انتهى على غير هذا الوجه . . . لم يسع الحكومة أن تستمر تحت وطأة هذه الوزن من الضحك ، وهذا ما استوجب ، ولا ريب ، عقاباً لا يعرف الشفقة . وسقط لدى سور غرونيل متهم وأحد عشر بريئاً ، وجريمة هؤلاء الآخرين كانت أنهم يصدّقون ان الامبراطور خالد لا يموت ! . . . وكان إعدامهم في ٢٩ تشرين الاول ١٨٨٢ ، رمياً بالرصاص . . .

والآن ما هي تفاصيل مؤامرة الجنرال ماله؟

بُعيد ليل ٢٢ ـ ٢٣ تشرين الأول ١٨١٢ ، وفي الثالثة صباحاً ، تقدّم ثلاثة رجال من الخفير الواقف لدى ثكنة بوبانكور ، وطلبوا إليه مقابلة الكولونيل سولييه . وقادهم الخفير إلى رئيسه دون إبداء أي اعتراض ـ وكان أحد الثلاثة يرتدي بزة لواء .

وما أن مثل اللواء أمام الكولونيل سولييه حتى قدّم نفسه إليه بقوله :

ـ أنا اللواء ماله . وهذان ، مرافقاي ، وأحد مفوضي الشرطة . أبلغك أن الامبراطور نابوليون قُتل تحت أسوار موسكو . وقد اسقط مجلس الشيوخ الأسرة الامبراطورية ، وعيّنني حاكماً عسكرياً على باريس . آمرك باحتلال دار البلدية .

وقدّم اللواء ماله إلى الكولونيل رزمة أوراق رسمية ، في جملتها مرسوم بتعيين الكولونيل برتبة جنرال . ولم يفكر سولييه قط بمناقشة الأمر . فجمع رجاله ، وهرع إلى احتلال دار البلدية .

لقد نجحت المرحلة الأولى من الخطة التي أحكم وضعها القائد العسكري الجمهوري لقلب نظام نابوليون الذي كان آنذاك في موسكو !

الامبراطور لم يمت ! الأوامر زائفة ! مجلس الشيوخ لم يقرر شيئاً ، ولم يعيّن ماله حاكماً على باريس . كل ما في الأمر أن ماله نجح في الهرب من السجن الذي ألقاه فيه نابوليون . فلقد كان جمهورياً متحمساً ومتعصباً ، ألقي القبض عليه قبل أربع سنوات لتآمره على الامبراطورية . ولكنه في سجنه كان يتخيل باستمرار مؤامرات جديدة ، فوضع خطة جهنمية جديدة وجريئة مع كونها في غاية البساطة : فنابوليون موجود في روسيا ، والفرنسيون تعبوا من الحرب . يكفي نشر خبر موت الامبراطور ، وتزوير أوامر واعلانات غير صحيحة ، وتحويل كل أنصار نابوليون إلى شركاء بالإكراه ، ثم دعوة الجمهوريين إلى تأليف الحكومة المؤقتة . وقد رضي شابان هما الكابورال راتو ، والطالب بوترو ، بمساعدة ماله الذي قرر أن يتحرك في تلك الليلة من تشرين الأول .

وفي حين ذهب الجنرال الجديد سولييه على رأس جنوده لاحتلال دار البلدية في العاصمة الفرنسية ، هرع ماله إلى سجن لا فورس ، وبفضل أوراق ووثائق مزورة ، أطلق سراح جنرالين جمهوريين هما غيدال ولاهوري .

فعيّن أحدهما وزيراً للداخلية ، والآخر رئيساً للشرطة . وقاما من فورهما ، يساندهما بعض الجنود ، بالتوجه إلى مقر الوزارة ورئاسة الشرطة ، حيث ألقيا القبض على أنصار نابوليون الذين لم يفكروا في الشك في موت امبراطورهم .

وفي غضون ثلاث ساعات ، تطورت المؤامرة تطوراً مجنوناً وسريعاً .

فاحتل رجال الشرطة النابوليونيون مكان المتآمرين في السجون ، أو انضموا إلى الحكومة المؤقتة . وكان انعدام الإيمان بمصير الامبراطورية قد بلغ حداً لم يفكر فيه أي انسان بالمقاومة . وهكذا ، فإن رجلاً واحداً ، بلا أصدقاء ، ولا شركاء في الجيش والادارة كنس في بضع ساعات الحكومة الامبراطورية ! ولم يبقَ أمامه سوى الاستيلاء على القيادة العسكرية لمدينة باريس لكي يصبح سيد العاصمة وفرنسا معاً !

وتوجه ماله وعدد من الجنود إلى ساحة فاندوم حيث مقر القائد العسكري الجنرال هولان . وقد دهش لعدم إعلامه بموت نابوليون ، وبجلسة مجلس الشيوخ . فطلب مراجعة الأوامر التي مع ماله . ولما كانت الدقائق ثمينة في حساب مالة فقد أفرغ مسدساً حطّم به فك الجنرال هولان . وعلى الضجة التي تعالت هرع اثنان من مساعديه ، وهما شرطيان أُلحقا بجيش نابوليون . وتعرّفا من فورهما إلى ماله الذي كانا أوقفاه قبل سنوات . فأيقنا أن في الأمر مؤامرة . فانقضّا عليه ، وطوّقاه وأنقذا الجنود من خطأهم . وفي دقائق معدودة أُحبطت المؤامرة . وأوفد الرسل إلى أربعة أركان باريس . وأُلقي القبض على الجنرالين غيدال ولاهوري ، مع حوالى عشرين شخصاً . وأُخرج الوزير ورئيس الشرطة الحقيقيان من السجن .

وما هي إلا بضعة أيام حتى حُكم على ماله وثلاثة عشر من شركائه في المؤامرة بالموت . ولما سأل رئيس المحكمة ماله من كان شركاؤه ، أجاب :

– فرنسا بأسرها ، وأنت نفسك ، ياسيدي الرئيس ، فيما لو نجحت !

وتناهى إلى سمع نابوليون خبر المؤامرة هذه وهو يتأهب للعودة من روسيا . فصُعق اذ تبينّ له أن الحكومة التي أوجدها كانت عاجزة عن الدفاع عن نفسها ضد محاولات متآمر لم يكن له من سلاح سوى الجرأة والشجاعة !

التاريخ لم يَجْلُ هذا السر!
هل أعدم حقًا أم ظل حياً؟

القصة التي نرويها ههنا هي قصة معلم مدرسة ثيرد كريك ، وامرأة كانت تعيش في شارع بابل ، في باريس . وثيرد كريك هي بلدة في ولاية كارولاينا الشمالية (الولايات المتحدة الاميركية) ، وهناك توفي منذ أقلّ من ١٥٠ سنة معلم المدرسة . غير ان القصة تبدأ في باريس ، في صباح احد أيام كانون الاول المكفهرة من السنة ١٨١٥ ، الساعة التاسعة صباحاً ، في ذلك الجزء من شارع آساس الذي يحاذي حدائق لوكسمبور ، بالقرب من مستشفى التوليد .

وصل الى شارع أسّاس متسول وحيد الساق ، يظلع على عكازيه . إنه غارق في تأملاته ولا يلحظ ماذا يدور في الساحة المكشوفة ، الى اليسار . إلا أن صدور امر موجز ، بصوت جافّ لفت انتباهه بغتة ، فتوقّف امام الحاجز المشبّك الذي يفصل الحدائق عن الرصيف . وكان قد تسمّر امام هذا الحاجز ، وعلى طوله ، بعض المشاة ، وراحوا يتأملون المشهد الذي يجري على الجانب الآخر . وذهل المتسول الوحيد الساق مما رأه . فتمتم :

– أشجع الشجعان ، المنتصر في الموسكوفا !

غير أنه ، على ما يبدو ، كان يجد صعوبة في تصديق ما تراه عيناه . ليس الأمر ممكناً ، ولا يمكن ان يكون الواقف هناك مديراً ظهره الى جدارحدائق لوكسمبور ، مواجهاً الجنود ، ميشيل ناي ، أشجع الشجعان . ومع ذلك ، إنه هو حقاً ، الماريشال العظيم . ان صاحبنا لا يمكن ان يشك في ذلك . ألم يخدم ، في ما مضى ، تحت إمرته؟ وهؤلاء الجنود ، إنهم من فرقة الاعدام . وقد ركع الى اليسار كاهن ، وبقربه ،

نقّالة غطيت بشرشف . وخلف الكاهن توقفت عربة مقفلة .

وتوقّفت عربة بالكراء بالقرب من الحاجز ، وكانت من القرب بحيث تعرّف المتسول الى من في داخلها . لقد تعرّف اليها على الفور على الرغم من ارتدائها الملابس الرجالية . مرّات عدة ، في الماضي ، شاهد هذا المرأة الشقراء برفقة أشجع الشجعان ، وكانت دائماً ترتدي سترة زرقاء ، وسراويل الشبان . وكان يتردد في الجيش أنها بزينتها النسائية ، كانت قادرة ، بحسنها وحده وحسب ، أن توقع فارساً عن مطيته .

كانت هناك في ذلك اليوم ، الى الجانب الآخر من الحاجز ، وكان هناك الرجل المدير ظهره الى الجدار ، مواجهاً فرقة الإعدام . كانت النهاية قريبة ، نهايةأعظم فرسان نابوليون . سيقضي عليه هؤلاء «الملكيون القذرون» ، هنا في حدائق لوكسمبور ، في ساعة لم يتناول بعد فيها الكثيرون طعام الصباح ، وقبل أن يستطيع جنود الشجاع القدامى ، وقد بات معظمهم متسولين ، أن يمدوا اليه يد النجدة .

وقف أشجع الشجعان متنصباً تماماً ، امام الجدار ، شامخ الرأس ، وكانت قبعته ـ وقد ارتدى الملابس المدنية ـ تبديه أكبر بعد . وكان معطفه الازرق الداكن مزرراً فوق جذعه القوي . وكشف عن رأسه ، وتقدّم بضع خطوات ، وخاطب الجنود . غير ان الوحيد الساق لم يسعه سماع ما قال . وفجأة رفع أشجع الشجعان يده اليمنى ، وتلفّظ ببعض الكلمات ، ثم أشار الى صدره . كما لو كان في ذلك إشارة ، وانطلقت النار !

وتعالى الدخان ببطء . ومن خلاله رأى المتسول أربعة جنود يرفعون جثمان الماريشال ، ويضعونه فوق النقالة ، وينقلونه الى العربة المقفلة التي انطلقت على الفور . واتجهت عربة الكراء التي تحمل المرأة الشقراء شطر بولفار سان ـ ميشيل . وتحوّل المتسول بنشاط عن الحاجز . على وجه الشجاع وصدره شاهد بقعاً كبيرة قرمزية .

ولكن هوذا أحد المشاهدين من الحاضرين يقوم ببادرة غريبة . إنه امرؤ قصير القامة ، أحمر الوجه ، النموذج الحقيقي للتاجر الباريسي نوعاً ما . وبصوت مرتفع ، بحيث يسمعه الجميع ، قال كمن يود الاعتذار : « أيها الاصدقاء ، لا تحسبوا انني مجنون . ان لي هواية غير مؤذية : فأنا اجمع الطرف والغرائب .» قال ذلك ، وتسلّق الحاجز ، ودخل حدائق لوكسمبور .

وتوجّه الجنود ، والكاهن والعربة المقفلة التي وُضع فيها جثمان اشجع الشجعان صوب مستشفى التوليد . وتقدّم الرجل الاحمر الوجه بسرعة نحو المكان الذي سقط فيه الجثمان ، وتأمل لحظة البقعة القرمزية على الارض ، وقرفص ، ثم عاد بخطى حثيثة نحو شارع آسّاس ، وهو يصفر .

ان المفتش كلافو ، من الشرطة السرية ، الذي حرص على أن يكون في شارع آسّاس في ساعة مبكرة من ذلك الصباح ، يعرف جيداً عادات جامعي الطرف . لذا ما كان تصرّف هذا الرجل أذهله لو لم يلفته تفصيل واحد : اللحن الذي كان يصفره لم يكن فرنسياً ، إنه لحن انكليزي قديم اسمه «دجولي غود إيل» ، وقد اتفق ان كلافو ، المحب للموسيقى ، كان يعرفه .

وقطّب المفتش كلافو ما بين حاجبيه . انكليزي يزعم أنه تاجر فرنسي صغير ، وفي غمرة إثارته يصفر ، دون ان ينتبه ، لحن اغنية انكليزية ، انكليزي يكابد من اجل الحصول على بعض الحصى الصغير الملطخ بدم أشجع الشجعان . ان في ذلك ، ولا ريب ، أمراً غير عادي . وتحرّك دماغ كلافو بسرعة . ودون أن يبدو عليه أنه يهتم للأمر اهتماماً غير عادي ، رأى المفتش الرجل الاحمر الوجه يتجاوز الحاجز ، ويصعد في شارع آسّاس متجهاً شطر بولفار سان ـ ميشيل . وغدا عدد المشاة الآن اكثر ، وبات في وسع كلافو اللحاق برجله دون ان يلفت اليه الانظار . على الأقلّ هذا ما اعتقده . ولكن ، لدى المفترق ، انعطف الرجل الى بولفار سان ـ ميشيل ، وعندما بلغ المفتش كلافو ركن الشارع ، بعد ذلك بدقيقة واحدة ، كان جامع الطُرف القصير القامة قد تمدّد ، دون أن يُرى ، فوق أرضية عربة يحتلّها شاب وسيم أشقر .

في ما بعد ، في حجرة مرتفعة السقف ، وبحضور امرئ قاسي الوجه ، يُزين صدره وسام ربطة الساق ، وقد جلس وراء مائدة كبيرة ، أخرج جامع الطرف القصير القامة ، من جيب ملابسه التي ما تزال مدعوكة ، منديله . وأخرج منه ست حصاة حمراء صفّها على المائدة . ثم تناول قنينتين صغيرتين من احد الأدراج ، وصبّ بضع قطرات من كل منهما على الحصى . ولم تفارق نظرات الرجلين المنحنيين فوق المائدة الحصى الأحمر . وما لبث الرجل ، حامل وسام الساق ان انتصب في وقفته ومدّ يده الى الآخر الذي اربكته هذه الحركة قليلاً . وقال له :

– حسناً ، لقد تمّ الإثبات !

– في الوقت الحاضر ، كل شيء على ما يرام ، أيها الكابتن هتشنسون !

ووافق الآخر .

– لقد قامت بعمل جيّد ، يا صاحب السمو . إني أُحيي هذه السيدة . أما أنا ، فقد ارتكبت حماقة ، في النهاية تماماً ، وكلافو هذا ـ وقد حذّرتني من أنه خبيث ـ تبعني على الأثر . ولو لم تنتظرني عربة الآنسة في ركن الشارع . . . على أي حال ، ما همّ ، لقد انتهيت ، يا صاحب السمو ، حتى هذا المساء . إيليستر سيساعد الأخت تيريز في المستشى . وكروفرد بروس سيهتم بالدفن في مقبرة بير ـ لاشيز .

وتساءل صاحب السمو دوق ولنغتون ، الرجل الحديدي :

– ماذا كان رجاله يسمونه؟ آه ، إني أتذكر . . . أشجع الشجعان . . .

أما الكابتن هتشنسون ، من فرقة حرس انكلترا ، فقد كان امرأ حذراً رزيناً ، ويقرأ ما يجول في خاطر الدوق الحديدي ، كما يقرأ في كتاب . فابتسم في سرّه . وكما لو كان تذكرّ فجأة شيئاً ما ، نظر في ساعته ، واقترب من النافذة ، ومرّ بيده بالشعرات القليلة المتبقية في رأسه . ومن نافذة عربة كانت تمرّ ببطء في الشارع ، تحت ، امتدت يد بيضاء ، ورسمت إشارة دلالة الردّ .

الممثلة الحسناء رتّبت كل شيء

ثيرد كريك هي ناحية في منطقة رووان ، في ولاية كارولاينا الشمالية . والتلال

الحمر في رووان بعيدة جداً عن باريس ، ولا احد كان يعتقد ان ثمة صلة بين هذين الموضعين . ولكن في مقبرة الكنيسة الكلفانية في ثيرد كريك ، ضريح نُقش عليه اسم «بيتر ستيوارت ناي» .

بيتر ستيوارت ناي - هكذا كان يكتب اسمه شخصياً - هو معلّم توفي في ١٥ تشرين الثاني ١٨٤٦ ، عن عمر ناهز السابعة والسبعين ، في منطقة رووان ، وحول ضريحه في مقبرة ثيرد كريك ، يحوم اكثر الأسرار إغراء !

يزعمون أنه ، في الحقيقة ، ليس ، الا ميشيل ناي العظيم ، ماريشال فرنسا ، دوق دانغيان ، وأمير الموسكوفا ، أحد أشهر قادة نابوليون ، والجندي الذي أثار الاعجاب أكثر من سواه في زمنه . الماريشال ناي ، أشجع الشجعان - كما كان يلقّبه جنوده - أُعدم رمياً بالرصاص على يد فرقة إعدام في حدائق لوكسمبور (كان ذلك احد اعمال الانتقام الذي مارسه آل بوربون عقب معركة وترلو) ، وقد دُفن جثمانه المثقب بالرصاص صبيحة اليوم التالي في مقبرة بير- لاشيز ، في باريس . هذا ، على الأقلّ ، ما تؤكده كتب التاريخ .

ولكن ، هل تقول كتب التاريخ دائماً الحقيقة؟ أوَ لا يمكن أن تكون عملية الاعدام في حدائق لوكسمبور مسرحية ليس إلاّ؟ ! لماذا إذاً ، لا يسع الماريشال ناي ، بمساعدة المرأة الصبية الشقراء المرتدية ملابس رجالية ، ومساعدة الضابط الانكليزي ، الرحيل الى اميركا حيث يمكنهما الحياة طوال احدى وثلاثين سنة؟

هذه المرأة الغامضة التي شاهدت المشهد المنبىء من إحدى عربات الكراء ، كانت إيدا سانت - إلم . شخصية فذة في الحقيقة . ابنة الكونت ليوبولد فرديناند تولستوي ، ربة قصر فربورن ، في المجر . هبطت باريس لغزوها ، ونجحت نجاحاً عظيماً بفضل جمالها الفتّان . ولم يبخل تاليران رجل الدولة ، الداهية الملقب «الشيطان الاعرج» بإغداق المديح والثناء على هذه الغريبة التي توصّلت الى أن تصبح إحدى أشهر ممثلات المسرح الفرنسي . ولقد أخضعت الجنرال مورو لإرادتها فترة من الزمن طويلة ، كما كانت تلك حالها مع عدد كبير من أصحاب المقامات الرفيعة في الامبراطورية . حتى انها أثارت غيرة جوزفين ، زوجة نابوليون ، ثم إنها وقعت في غرام الماريشال ناي ،

ولكن ميشيل ناي الذي غالباً ما كان يتردد عليها في منزلها في شارع بابل ، أبدى نحوها برودة رهيبة .

هل ستنجح إيدا ، بتدبيرها عملية الهرب ، في استعادة قلب الشجاع؟ ذلك كان السؤال الذي شغل تفكيرها وهي تنتظر هتشنسون في عربتها ، في ركن بولفار سان ـ ميشيل ، حتى اللحظة التي أقبل فيها يلتجىء اليها ، ويلاحقه كلافو .

طوال ساعة كاملة ، راح كروفرد بروس الذي ارتدى ملابس الحوذي ، يدور ويدور بالعربة لكي يضلّل الجواسيس المحتملين . ونزل هتشنسون أخيراً أمام المقر العام لقيادة صاحب السمو دوق ولنغتون ، قائد القوات البريطانية في باريس .

كانت إيدا حسبت أن القيام بالاختبار الكيميائي على الحصى الذي التقطه هتشنسون من حدائق لوكسبور ، يستغرق ربع ساعة . وكان هذا الاخير أدعى انه واثق تماماً من نتيجة هذا الاختبار ، ولكن المرأة الشابة كانت ترتعش خوفاً . فتلك اللطخات الكبيرة القرمزية على وجه ميشال وصدره كان مظهرها مخيفاً . ففي اللحظة الاخيرة يمكن أن تسوء الأمور . وبعد ربع ساعة من إنزالها هشنسون ، جعلت كروفرد بروس يمرّ مجدداً بالعربة امام منزل الدوق . وندت منها تنهدة انفراج عندما شاهدت من خلال النافذة مرّ اليد في الشعر – العلامة المتفق عليها لإعلان ان كل شيء على خير ما يرام .

عندها عادت أفكار المرأة الشابة الى ميشيل ، الذي نُقل الى مستشفى التوليد . ولما كان هذا المكان لا يبعد إلّا ٢٠٠ متر عن مكان الاعدام ، فقد قررت الحكومة لحسن الطالع ، أن يُنقل الجثمان اليه بانتظار دفنه في مقبرة بير ـ لاشيز ،في صبيحة اليوم التالي . وكان رجال شرطة باريس السرية من ادهى الدهاة في العالم ، غير ان الحكومة كانت ،إما حمقاء بصورة خاصة ،او مهملة غاية الاهمال .

لقد جهل هؤلاء الأشخاص ، ظاهرياً ، ان شقيق الأخت ماري ـ تيريز ،مديرة المستشفى المذكور ، كان جندياً برتبة كابورال في جيش ميشال ناي . وكانت الأخت ماري ـ تيريز ، يعاونها إيليستر ، هي التي ستسهر على ألا يحدث اي عرقلة في المستشفى .

الدوق الحديدي يتراخى

ودّعت إيدا كروفرد بروس لدى باب منزلها ، في شارع بابل . وقد شاءت الاستسلام الى النوم وقتها ، لكي تبدو اجمل ماتكون في ذلك المساء . وكان الهدوء مسيطراً على المنزل ، بعد ان أعطي الخدم الثلاثة عطلة في ذلك اليوم . غير ان النوم عصى المرأة الشابة . فبقيت في سريرها متوترة الأعصاب ، تصغي الى الضجيج المتعالي من الشارع ، وتخشى في كل لحظة ما يمكن أن تسمعه ، ولكن ، مع انقضاء النهار هدأت إيدا . فاسترخت ، وارتاحت تماماً . وكانت تتمتع بالقدر الكافي من المقاومة لكي تستطيع الاستغناء عن النوم ، كما كانت حالها أيام كانت تتبع ميشيل في حملاته العسكرية . وابتسمت ، فقد بدت لها سخرية الموقف على حين غرّة : الأخت تيريز وإيدا سنت ـ إيلم ، «المغامرة» متحالفتان في العملية نفسها !

مذ ذاك لم تكلّم ميشيل ناي ، ليس منذ اضحت ممثلة . ولكنها لم تتوقف قط عن الاعتقاد أن ميشيل ما يزال يحبها ، وأنه لم يقترن بأغلايه لويز ، وصيفة الشرف لدى الملكة جوزفين ، الا لأن نابوليون أجبره على ذلك . وتساءلت ما كان يمكن ان يفكّر فيه ميشيل فيما لو رآها مع ولنغتون؟ لقد كان هتشنسون من أقبل اليها ليقترح عليها عقد هذا اللقاء . فلقد حُكم على ناي بالموت رمياً بالرصاص ، عقب القاء القبض عليه من قِبل آل بوربون إثر هزيمة وترلو . واعملت إيدا فكرها كثيراً لإيجاد وسيلة لإنقاذه . غير ان اصدقاءها لم يعودوا في السلطة ، ولم تكن تملك أي تأثير او نفوذ لدى اي كان من الملكيين . وقد بدا انه قُضي على ميشيل .

سوى ان أمراً لم تفكّر فيه قط ظهر لنجدتها . فأشجع الشجعان كان بطلاً في عيون الضباط الانكليز الصغار في جيش ولنغتون الذي يحتل باريس . وعندما عرض الكابتن هتشنسون ، من فرقة حرس انكلترا ، أن يقدمّها الى ولنغتون ، سارعت الى القبول . لقد كان الدوق سيّد باريس الحقيقي . فاذا ما شاء أمكنه انقاذ ميشيل . ولكن لم يطلق عليه لقب «الدوق الحديدي» اعتباطاً . لقد حذّر هتشنسون إيدا : إنه امرؤ ، عادل ومنصف ، ولكنه أقسى من الصوّان .

بين يديّ إيدا لم يكن قط من حديد . لعلّ هذا القائد الانكليزي القاسي ،

الصلب ، النسري النظرة ، كان في قرارة نفسه يرغب رغبة لا تقلّ عن رغبة هتشنسون ، وكرو فرد بروس ، وإيليستر وضباطه الصغار ، في انقاذ الشجاع .

يبقى انها حصلت منه على ما تبغي . ميشيل سيُنقذ ! سيُنتزع من الملكيين ، ويوضع على متن سفينة تقوده الى أميركا . ولكن ،من اجل ذلك ، ينبغي لها أن تمثّل هي شخصياً دورها بإتقان . لقد صارحها ولنغتون بأنه لا يسعه التحرك علناً . فذلك يعني التدخّل في الشؤون الداخلية الفرنسية . سوى أنه سيمدّها بالعون السري من قبل بعض الشخصيات الرسمية الفرنسية ، بينما سيساعدها الكابتن هتشنسون واصدقاؤه لكي تنجح في تنفيذ خطتها الانقاذية . فلو انهم اخفقوا وقبض عليهم ، لكانت وجدت نفسها ، ربما ، مع ناي أمام فرقة الإعدام .

في الوقت الحاضر ، على اي حال ، جرى كل شيء دون صعوبة ، وبات الأخطرُ شأناً من شؤون الماضي . واللحظة الحرجة كانت عندما رفع ميشيل ، امام جدار حدائق لوكسمبور ، يده ، ثم قرّبها الى صدره . لو ان غلطة واحدة في الترتيبات ارتُكبت ، لكانت حدثت إذ ذاك الكارثة . فجاء الاختبارالكيميائي على الحصى الاحمر يثبت ذلك . والآن ، وعندما يهبط الظلام ، سيغادر هتشنسون وميشيل ، متنكرين ويتوجهان الى منزل السيدة ناي ، من اجل الوداع المختصر ، ثم الى شارع بابل .

ونهضت إيدا قبل حلول الليل بكثير . وارتدت الملابس الرجالية التي كانت ترتديها في الحملات برفقة ميشيل : البنطلون ، والقميص الابيض ، والسترة القصيرة الزرقاء ، والقبعة العالية الطرف التي كانت تخفي بها خصلاتها الشقراء . وبلباسها هذا كانت إيدا سنت ـ إيلم التي عرفها ميشيل . كانت تلك التي ينبغي أن يراها هذا المساء ، عندما سيصل الى منزل المرأة التي يدين لها بالنجاة من الموت . وبهذا اللباس ، ستكون إيدا مستعدة للسفر . وعقب لقائهما بعشر دقائق ، يمكنهما أن يمتطيا جوادين ويتجها نحو الشاطئ ، نحو الحياة الجديدة التي سيبدآنها معاً في اميركا .

توقّف قلبها عن النبض

طرق سمعها وقع خطى على السلّم ، وقرع الباب قرعاً أصمّ . فتوقّف قلبها عن الخفقان ، واتجهت نحو الباب وفتحته . فدخل هتشنسون ، وعلى ملامحه تعبير قلق . وسرَّحت نظرها في الممشى المعتم خلفه ، ولكنها كانت تعلم أن الكابتن كان وحده . وتشبّثت بكرسي لكي لا تسقط أرضاً . قال هتشنسون :

– جئنا من المستشفى الى منزل السيدة ناي . انتظرت في الخارج مع الخيل ، ودخل الماريشال . وبقي مع زوجته اكثر من ساعة ، واكثر من الوقت المتفق عليه بكثير . وحالما خرج ناي ، وصل كروفرد حاملاً أمراً من الدوق ، طواه على التوجّه فوراً الى الشاطىء ، لأن الهرب قد اكتُشف . فكلافو ، بعد أن فقد كل أثر لنا ، عاد الى حدائق لوكسمبور ، حيث أخذ ، على ما يبدو ، الحصى الاحمر الذي فحصه .

وتجنَّب هتشنسون النظر الى إيدا .

وقال لها :

– إني آسف ، يا آنستي ، ألاّ يستطيع الماريشال المجيء الى هنا ليشكرك على إنقاذك حياته . . . وقد عهد إليّ بأن أقول لك . . .

وملأ الطنين أذنيها . . . ميشال ناي اتجه نحو الشاطىء ، تمهيداً للسفر الى أميركا ، وفي قلبه رسم زوجته . أما هي . . . فقد بدا بعيداً جداً الزمن الذي كانت فيه ، أشبه ما يكون بالمراهق الاشقر في سترتها الزرقاء وبنطلونها ، تتبع ميشيل عبر اوروبا ، وتشاهده يخوض غمار معارك ملحمية ، ويصعد الى قمة المجد والشهرة . كان ينبغي لقلبها أن يُعلمها أنها لن تستطيع ان تتبع ثانية ميشيل ، الى اميركا هذه المرة . كان يحبّ أغلايه ، زوجته ، وهي . . . لم تكن إلا المرأة من شارع بابل . لقد سمعت الآن جيداً الأقوال التي ردّدها هتشنسون :

– ان صاحب السمو يهديك احترامه ، ويرجوك ان تسعديه بتناول العشاء معه !

* * *

عندما بدأ جمالها يشحب ، تناولت إيدا سنت-إيلم الريشة ، وفي كتابها الاول ـ «مذكرات سيدة معاصرة» بقلم إيدا سنت ـ إيلم ، المغامرة ، باريس ١٨٢٨ـ روت قصة الحب البائس الذي كانت تكنّه لميشيل ناي . فيه روت تفاصيل الزيارة الاولى التي قام بها أشجع الشجعان الى منزلها في شارع بابل ، وكيف تبعته مرتدية ملابس الرجال عبر نصف أوروبا ، وكيف مدّت شباكها ، بعد فتور الحب الذي كان يكنّه لها ، الى أرفع المقامات ، وسحرت العديد من الشخصيات الكبيرة ، وفي جملتهم الأمير تاليران ، وحتى الامبراطور نفسه ، دون أن تتوقف عن حبّ ميشيل ، وكيف دبّرت المؤامرة التي أنقذت ميشيل ناي لمّا حُكم عليه بالموت ، وكيف شاهدت عملية التنفيذ في حدائق لوكسمبور .

غير أن إيدا ، في كتابها المنشور بعد ١٣ سنة من «الاعدام» ، لم تذكر أن المؤامرة نجحت . على العكس - ولكن لعلّها أرادت تحويل الشكوك؟ - بكت غياب حبيبها .

ومع ذلك ، في الغداة ، شاع في باريس أن الماريشال قد هرب . والدم؟ بالطبع كان هناك دم . ولكنه ربما لم يكن دم أشجع الشجعان ! لعله كان دم امرئ رُمي بالنار ، وكان ، في الواقع ، احد المحكومين بالموت لكي يجعلوه يشبه ناي؟ وأطلق العنان للألسنة ، وكانوا يؤكدون في الحانات ان النعش الذي ووري في اليوم التالي في مدفن أسرة ناي ، في مقبرة بير ـ لاشيز ، كان فارغاً ، أو على الأقلّ ، لم يكن يحتوي ألا على بعض الآجرّ العتيق .

وراجت قصص اخرى كذلك ، ولكن رويداً رويداً ، ولما لم يحدث ما يؤكد هذه الشائعات ، فقد تبخّرت ، وبدا مؤكداً أن ميشيل ناي قد مات بحق وحقيق .

الظهور من جديد في المحيط الاطلسي

بعد ٥٩ سنة ، قابل مخبر صحفي في دايتون ، في ولاية أوهايو الاميركية على مسافة ٨ آلاف كيلومتر من هناك ، امرأً عجوزاً يدعى فيليب بتري ، روى له قصة غريبة .

بتري هذا ، وهو فرنسي سبق ان حارب في قوات نابوليون ، كان قد غادر بوردو

عقب معركة وترلو بستة أشهر ، بصفة بحّار على متن سفينة هجرة الى أميركا . وبعد بضعة أيام من الإبحار ، لمح بين الركّاب الماريشال ناي . وكانت دهشته عظيمة لأن المارشال كان قد أُعدم قبل ذلك بأيام ، وها هو يذرع جسر السفينة جيئة وذهوباً !

كان بيتر واثقاً مما يقول ، ذلك بأنه ، في الجيش ، شاهد أشجع الشجعان عشرات المرات . ونزل بتري وهذا الميت الذي كان الماريشال ناي ، الى اليابسة معاً في تشارلزتون . ودخل الميت مخزناً لبيع الادوات الموسيقية حيث اشترى فلوتاً ، الأمر الذي جعل شعر رأس بيتري ينتصب ، الجميع يعلمون ان الماريشال ناي ، كان في الواقع ، يهوى العزف بالفلوت . ثم إنه اختفى كالشبح !

في هذا الخريف من السنة ١٨٧٤ ، عندما روى بتري قصته للصحفي ، كان رجلاً متقدماً في السن ، ولكنه كان يتذكر جيداً التاريخ الذي بلغت فيه السفينة الشاطئ الاميركي : كان ذلك ٢٩ كانون الثاني ١٨١٦ .

لا ندري أين أمضى الرجل الذي حسبه بتري المارشال ناي (او ليمه ، أي الشخص المشابه له كل الشبه) ، السنوات القليلة التالية . هناك اشارة الى مروره في ولاية إنديانا حوالى تلك الفترة ، وفي ما بعد ، روى هو شخصياً أنه فور وصوله ، قضى عدة سنوات في العزلة ، يستعد لممارسة مهنة التدريس ، وذلك بدراسة الكلاسيكيات والرياضيات . وفي ذات يوم ، في خريف السنة ١٨١٩ ، توقّف فجأة ثلاثة لاجئين فرنسين ـ وكانت أميركا تعجّ بهم ـ في جورجتاون ، احدى قرى ولاية كارولاينا الجنوبية ، كما لو كانوا شاهدوا غائباً يعود بعد غياب طويل .

كان ذلك ما حسبوه للحظة واحدة : وبقوا حيث هم متسمرين في مكانهم ، وقد تعلّقت عيونهم بالرجل الطويل القامة الذي كان يمرّ تحت أشجار السنديان ، على الجانب الآخر من الطريق الماريشال ناي ! دعك من ذلك ، هذا مستحيل ! وتذكروا إذذاك ، فجأة ، الشائعات التي راجت في باريس عقب الاعدام مباشرة . وصحيح ان هذه الشائعات كُذبّت .

في هذه الأثناء كان الرجل القوي الذي لمحوه قبل قليل قد انعطف لدى ركن الشارع ، ولما هرع الفرنسيون الثلاثة للحاق به ، كان قد اختفى .

قال احدهم :

- لا ، يا موريس ، لا يمكن أن يكون هو . لقد تحدّثت الى رجل رأى الدم : يبدو أن الماريشال كان مغطى به من رأسه الى حزامه ، وعلى الأرض كان هناك بقعة كبيرة .

غير أن الباريسيّيْن الآخرَيْن ، عادا بالذاكرة الى سنين خلت ، واسترجعا على حين غرّة بعض التفاصيل التي ترتدي الآن أهمية غريبة .

قال احدهما :

- الا تذكر كيف أنحوا باللوم على السيدة ناي لأنها لم تشهد مراسم الدفن في مقبرة بير ـ لا شيز؟ ولكن أسألك لماذا تذهب اذا كان النعش فارغاً أو يضمّ جثمان مجرم مجهول ، في حين أن زوجها كان في اللحظة نفسها يسلك الطريق نحو الشاطئ؟

وقال الثالث بنفاد صبر :

- أيها السيدان ، لقد شاهدنا قبل قليل ميشيل ناي أو شبحه ، وأنا لا اعتقد بالأشباح ، فضلاً عن أنني قوي الذاكرة . أنا واثق من أنه بعد أقل من شهر على اعدام ناي المزعوم ، حُكم على الجنرال لا فاليت ، كذلك ، بالموت رمياً بالرصاص ، ولكنه هرب . وقد افتضح الأمر ، واتهمت الحكومة الفرنسية ، كما تذكرون ولا ريب ، ضباطاً من المحيطين بدوق ولنغتون . وإني لأذكر حتى اسم أحدهم ، الكابتن هتشنسون ، وأعتقد أنه كان هناك امرؤ آخر باسم برايس ، أو بالاحرى بروس . وقد أحدثت القضية آنذاك ضجة كبرى . ولكن ، اذا كان الانكليز هم الذين هرّبوا لا فاليت ـ ولقد اعترفوا بذلك ـ أحسب أن بوسعي أن ادرك كيف تسنّى لنا ان نشاهد اليوم الماريشال ناي !

«أنا لاجئ فرنسي»

لم يكن قط شبحاً من أوقف نزاعاً ، ومنع حصول جريمة قتل في موكسفيل ! ففي هذه الضيعة ، في ولاية كارولاينا الشمالية ، الضائعة وسط الغابات ، كان يعيش ايرلندي شكس جداً يدعى سكولز ، هو طبيب القرية . وفي ذات يوم ، وبينما كان

جماعة من الناس يتناقشون في السياسة أمام إحدى الحانات ، شتم أحد المزارعين السكارى سكولز هذا . ولم يدُر الدم في جسد سكولز الإدورة واحدة ، فاذا به ينتضي سكينه ، ويهمّ بطعن شاتمه ، عندما أمسك أحدهم بذراعه . والتفت سكولز فألفى نفسه وجهاً لوجه أمام رجل لم تسبق له رؤيته من قبل : طويل القامة ، قوي ، بارز الذقن ، أصهب الشعر ، عيناه بزرقة الفولاذ .

قال له الغريب :

– إيه ، حسناً ، يا سيدي ! لن تقضي على أعزل دون أن تتيح له الفرصة للدفاع عن نفسه؟ !

وتفرّس سكولز والغريب أحدهما في الآخر دون أن يتبادلا اي كلام ، ثم أعاد الطبيب السكين الى غمده . لقد فتنه هذا الرجل ، الغريب ، ذلك بأنه لم يسبق له أن شاهد رجلاً بمثل هذا الجلال . قال القادم الغريب بلغة انكليزية صحيحة ، ولكن بنبرة خفيفة :

– أيها السادة ، إسمحوا لي أن أقدّم نفسي . اسمي بيت ستيوارت ناي ، أنا لاجئ فرنسي ، وأرغب في تأسيس مدرسة في قريتكم .

وهتف سكولز :

– ولكن ، ايها السيد ، هوذا حقاً ما نحتاج إليه !

وعكف بيت ستيوارت ناي على العمل في موطن التلال الحمر في ثيرد كريك ، في كارولاينا الشمالية ، حيث ما عتمّ أن غدا شخصية أسطورية . وقد غادر جورجتاون فور لقائه الفرنسيين الثلاثة . وطوال ثلاث سنوات ، درّس في مدرسة صغيرة في قرية براونزفيل ، في كارولاينا الجنوبية . ثم إنه غادرها على حين غرّة . وما هي الإ فترة قصيرة ، حتى وصل الى موكسفيل . وهناك استقرّ منذ ذلك الحين على الرغم من أنه قام بالتدريس خلال فترات قصيرة في فرجينيا ، وكارولاينا الجنوبية ، وإنديانا .

وأيّان ذهب ، ـ وقد درّس ، في وقت من الاوقات ، في خمس مناطق دفعة واحدةـ كان يحظى باحترام الجميع من فوره . وكانوا يدركون على الفور أنه لم يكن

معلّماً عادياً ، بل إنه رجل عظيم ، على الرغم من ضعف خطير نوعاً ما ، ما لبث أن ظهر جلياً عليه .

كان في قاعة التدريس في بروانزفيل عندما بلغه نبأ وفاة نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة ، فوقع مغمىً عليه من فوره ، وفي مساء اليوم نفسه حاول الانتحار بسكّين انكسرت شفرته ، لحسن الطالع . ولم يشفَ تماماً من هذه الصدمة . كان يمنّي النفس دوماً بأنْ يشهد عودة بونابرت التي تتيح له العودة الى أسرته وامرأته ـ ذلك بأنه كان يديم التفكير في زوجته ، وليس في الممثلة الحسناء القاطنة في شارع بابل . وكان أحياناً ، في غمرة يأسه ، يتكلم .

كان يقول إنه ميشيل ناي ، ماريشال الامبراطورية . ويروي أنه بعد الحكم عليه بالموت ، وُضعت خطة لإنقاذه ، وأن دوق ولنغتون جعل تحقيق ذلك ممكناً . وقد كان جنود فرقة الاعدام من الناقمين ، وقد تلقّوا الأوامر باطلاق النار فوق رأسه . وأعطوه كييساً (= جراب صغير) ، فيه سائل يشبه الدم أخفاه تحت قميصه . وعند اصدار الأمر باطلاق النار ، قرع صدره ، ممزقاً بالضربة نفسها الكيُيس ، بحيث انتشر فوراً السائل الأحمر . وعندها حملوه ، ونقلوه الى مستشفى مجاور حيث تنكّر . وفي تلك الليلة نفسها ، وبعد زيارة أخيرة وداعية لزوجته ، ارتحل الى بوردو ، ومنها ابحر الى أميركا . وخلال الرحلة ـ على ما روى ـ عرفه ذات يوم احد البحارة ، وكان سبق له أن خدم في الجيش تحت إمرته .

لم يكن يتحدَّث هذا الحديث إلا لماماً ، وعلى مسمع من عدد من الاشخاص ممن غدوا اصدقاءَه الذين كان يروي لهم ، ذكريات حملاته العسكرية .

كان جسمه مثخناً بالجراح الملتئمة التي لا يمكن أن تكون إلا جراحاً تلقّاها الماريشال ناي . ومما لا يقبل الجدل ان بيتر ناي تشبه ملامحه كلها ملامح الماريشال . وكان ناي يشتهر بأنه من أفضل لاعبي السيف في اوروبا ، وكان المعلم في مدرسة ثيرد كريك سيَّافاً ماهراً ! واستنتج خبراء في الخط قارنوا بين خط الماريشال وخط بيتر ستيوارت ناي ، انه خط الشخص الواحد نفسه .

كان العالم الخارجي يجهل كل شيء عنه ، ولكن في موطن التلال الحمر ، في رووان ، كانت اسطورة معلم المدرسة الغامض تكبر مع تقدمّه في السنّ . فقد جُمعت طائفة من الشهادات المقنعة ، لا يتسع المجال ههنا إلا لإيراد بعضها .

في ستيتسفيل ، ذات يوم ، شاهد امرؤ اسمه دجون سنايدر ، المولود في ضواحي براغ (تشيكوسلوفاكيا) ، وكان جندياً من جنود نابوليون ، بيت ستيوارت ناي ، وهتف رافعاً ذراعيه الى العلاء : «يا للطيبة الإلهية ، الماريشال ناي !»

الكولونل ج .ج . لهما نوفسكي ، الضابط البولوني الذي تبع نابوليون ، وكان سيُعدم غداة إعدام الماريشال ناي ، نجح في الهرب ، وهبط أميركا . وكان يقيم في إنديانا عندما تلقّى ذات يوم ، لفرط دهشته ، زيارة رجل طويل القامة ، مشيته عسكرية ، رفض الكشف عن هويّته أمام أفراد أسرته . وقُبيل وفاته ، أسرّ الى ابنتة أن الزائر الغامض كان الماريشال ناي .

عقب وفاة بيت ستيوارت ناي ، في ١٥ تشرين الثاني ١٨٤٦ ، هبط ثيرد كريك ، من إنديانا ، امرؤ يدعى الدكتور أ . م . س . نايمان ادعى انه إبن الماريشال ناي وقد أوفدته والدته أغلايه الى أميركا السنة ١٨٢١ بنيّة حمل جثمان «والده» الى إنديانا . غير أن الحب الذي كان يكنّه أهالي القرية للمعلّم العجوز حمل نايمان على القبول بترك جثمان بيت ستيوارت ناي في ثيرد كريك .

كان مئات التلاميذ الذين درّسهم بيت ستيوارت ناي ، وعشرات الرجال والنساء الذين عرفوه جيداً خلال السنوات الخمس والعشرين التي قضاها بين ظهرانيهم ، مقتنعين جميعاً بأنه كان حقاً الماريشال ناي ، ليس لأن البراهين بدت دامغة لا تقبل الجدل ، ولكن لأنهم لم يسمعوه يوماً ينطق بغير الحقيقة . وعلى سرير موته ، وكان في السابعة والسبعين من العمر ، حادثه في الموضوع صديقه القديم الدكتور لوك الذي صارحه بأن النهاية باتت وشيكة وسأله عن حقيقة هويته . فنظر اليه المحتضر محدّقاً في عينيه ، وأجاب : «أنا ميشيل ناي ، ماريشال الامبراطورية .»

ومع ذلك ، فإن التاريخ يرفض الاعتراف بهذا الاعلان . والتاريخ يؤكد ان هذا

الرجل ، الذي احتُرم بحق ، لم يكن سوى محتال ، وأن ميشيل ناي توفي برصاص فرقة إعدام في باريس ، في حدائق لوكسمبور . زد على ذلك ، ان معلم المدرسة في ثيرد كريك ، لو كان حقاً الماريشال الفرنسي العظيم ، فلماذا لم يعد الى فرنسا ـ حسب تساؤل المؤرخين ـ من المنفى مثل العدد الكبير من ضباط نابوليون الآخرين ، بعد أن سكن حقد الملكيين؟ إنه ولا شك ، سؤال ملائم ووثيق الصلة بالموضوع ، ولكنه لا يسمح ، مع ذلك ، بالوصول الى نتيجة . ذلك بأنه عندما تنتظر امرأتان ، من يسعه أن يقرأ ماذا يدور في قلب الفارس ؟ !

ملك السكّر وامبراطور الصحراء
جاك لوبودي وعرشه الشائك!

مالي بارز، وملاّح جوي، وخليع عيّن نفسه امبراطوراً،
وغزا لونغ آيلاند بجيشه الذي لا يُصدَّق.
سوريالي قبل الأوان، عاش حلماً عظيماً وقضى بسببه . . .

عيد الميلاد في السنة ١٨٨٠ يقترب . ينحني جول لوبودي على ابنه جاك الجالس على السجادة غارقاً في التفكير، ليسأله :

- وأنت، ماذا تأمل أن تجد في حذائك هذه السنة؟

فأجاب الصبي ذو الخمسة أعوام دون تردُّد :

- عرشاً !

هذه الكلمة الصبيانية تذوّقتها كثيراً الاسرة التي عاشت، ولا ريب في التفتّح المبكر لهذا الذكاء الذي جمع بفضله جيلان من أُسرة لوبودي، في أقل من نصف قرن، إحدى أضخم الثروات المعروفة .

بدأ كل شيء عندما خطرت لجان - غوستاف لوبودي السنة ١٨٥٠، فكرة انشاء مصفاة متواضعة لتكرير السكّر، في شارع فلاندر، في باريس . وكانت لحظة الاختيار ممتازة، ذلك بأن سكّر الشمندر كان على وشك الحلول محل سكّر القصَب، وستعرف صناعة السكّر انطلاقة هائلة .

إذاً، ورث جول لوبودي، احد ولدَي غوستاف، من والده ثروة محترمة عمل على زيادتها ببعض الصفقات في البورصة تركت في نفوس معاصريه ذكريات مؤلمة . فقد كان هكذا، في السنة ١٨٨٢، في أصل انهيار الاتحاد العام المالي، وكان

أحد أول المصارف التجارية الدولية الكبرى . كان جول لوبودي قد اشترى سراً كمية كبيرة من اسهم قناة السويس ، طرحها ذات يوم بكثافة في السوق ، محدثاً بذلك هبوط الاسعار ، وواضعاً الاتحاد العام في وضع يستحيل معه مواجهة التزاماته . وبينما كان يُلقى القبض على المديرين بونتو وفيدير ، كان لوبودي يبتاع مجدداً وبهدوء بأسعار منخفضة اسهم قناة السويس . مع اسهم اخرى كثيرة . . .

الخلاصة ترك جول لوبودي لدى وفاته السنة ١٨٩٠ ، ثروة وُزِّعت بالتساوي بين زوجته وأولاده الأربعة بلغت قيمتها ١٧٦ مليون فرنك ذهباً ـ او ما يعادل ٥٠ مليون دولار اميركي . اما اولاده الأربعة فكانوا جاك ، وروبير ، وماكس (الذي سمّي باسمه مطعم مكسيم الباريسي العالمي الشهرة) ، وابنة هي الكونتيس دو فلس . ولم يرث جاك ، الابن البكر ، حصته من الثروة ، وحسب ، بل الكثير من فطنة والده وعبقريته في الاتّجار بها . وكان هذا الفتى الذي أراد أن يصبح امبراطوراً ، في السابعة عشرة من عمره ، لما آل اليه مبلغ ٢٢ مليون فرنك ذهباً . وهذه ثروة تكفي لتدير رأساً أصلب من رأسه .

كان جاك يتميز بحدة ذهنه ، ويتكلم بطلاقة الانكليزية ، والاسبانية ، والبرتغالية . وكان يهتم كثيراً بالجغرافيا ، ويُعتبر مميزاً في هذا المجال .

كان قوياً ، ممتلئ الجسم ، مخلّع المشية ، ذا ملامح غير قياسية ، شعره أسود مقصوص قصيراً ، وحادّ النظر . وكانت قوته البدنية موضع اعجاب المحيطين به . وكان مولعاً بالطيران ، ومن المتعصبين للرائد في هذا المجال سانتوس دومون ، ولم يتردد قط في قيادة احدى الطائرات الشبيهة بالطائرات الورقية اكثر منها بالطائرات التي نعرفها . حتى أنه كسب في مباراة بالتحليق في المنطاد وكان المطلوب الاقتراب من برج ايفل المشيّد حديثاً ، اكثر ما يمكن . ومن سلّة المنطاد (الحجرة المقفلة في المنطاد المفردة للملاحين) نجح في إلقاء كرة مضرب الى آخر منصات هذا البرج .

هذه التمرينات لم تمنعه من اصدار أوامره كل صباح إلى البورصة (دائماً في انخفاض ، وربما كان ذلك يوافق مزاجه) ، ومغازلة النساء اللواتي كان يقترب منهن كما قائد المرتزقة ، ويغويهن . وكانت باريس بأسرها تعلم أن ثروته تزداد يوماً عن يوم

بطريقة ماكيافيلية . وفي كانون الثاني ١٩٠٣ ، عرفت كل باريس أنه التقى شريكة حياته بشخص ماري ـ أوغسطين ديلبير ، الممثلة الصبية المتحدرة من اسرة حسنة ، شعرها احمر (اسمر محمرّ) ، وعيناها الواسعتان الرطبتان لم تكونا تشنّعان وجهها الرائع .

ولكن ، مع الأسف ، كان جاك لوبودي يحسّ دوماً ببغض شديد وعميق للزواج . فمجرد التفكير في وضعه كزوج كان يزعجه ،ونجح في اقناع الفتاة التي ينتظرها مصير باهر ، قائلاً لها :

- ستكونين اكثر من زوجتي ، ستكونين إمبراطورة !

بداية حلم

واقتنعت ماري بكل سهولة ولا سيما ان جاك لم يكن مازحاً ؛ حتى أنه كان شديد الاخلاص ، لأن مشروعاً ضخماً كان يختمر في فكره منذ بعض الوقت : لقد قرر أن يصبح امبراطوراً . وعلى اي إمبراطورية ! الأرض الحارة اكثر من غيرها : الصحراء الكبرى في افريقيا .

ومن الإنصاف القول ان هذه الفكرة لم تكن ، وحسب ، حلم مصاب بمرض العظمة كما قد يتبادر الى الذهن استناداً الى سلسلة الاحداث التي نجمت عن ذلك . فقد تميّزت تلك الحقبة من الزمن بالاعمال الباهرة التي قام بها اشخاص من امثال الرحالة سافورنيان دو برازا - الفرنسي المولود في روما (١٨٥٢ - ١٩٠٥) ، الذي كانت حملاته الاستكشافية في أصل الكونغو الفرنسي (١٨٧٥ - ١٨٩٧) ، والرحالة والمرسل هنري مورتون ستانلي الانكليزي (١٨٤١ - ١٩٠٤) ، والرحالة والمرسل الاسكتلندي ديفيد ليفنغستون (١٨١٣ - ١٨٧٣) ، وسيسيل رودز ، رجل الاعمال والاداري الاستعماري البريطاني (١٨٥٣ - ١٩٠٢) الذي جمع ثروة طائلة من التنقيب عن الالماس في افريقيا الجنوبية . ولم يكن الحديث يدور إلا على الثروات الضخمة في مناجم افريقيا ، وكان جاك لوبودي ، مهتماً شخصياً بمشروع شركة استثمار نترات الصحراء . في بداية الأمر ، كان لوبودي يودّ أن يستولي في الجزائر

على سكة الحديد بين وهران وايغلي لكي يحتكر التجارة في الجنوب الوهراني بقصد تنقيباته الصحراوية العتيدة . وكان ينوي في ما بعد أن يمدّ الخط شطر الغرب من طريق الساحل الافريقي للمحيط الأطلسي حتى مدينة سان لومي في السنغال . ولذا حاول أن يحصل على كمية كبيرة من اسهم شركة سكة الحديد الفرنسية ـ الجزائرية ، ثم إنه في ذات يوم ، وقد تأكد من حصوله على أغلبية الاسهم ، انتقل الى وهران وعزل بالجملة موظفي الخط الحديدي .

ولدى عودته الى باريس ، غزا مركز الشركة على رأس حوالى عشرة أشخاص ، وقد تطلّب طرده منه جهوداً كبيرة . وخلال الدعوى القضائية التي نجمت عن ذلك ، عرض ، برسالة عامة ، أن يواصل أعمال الشركة ، ويبني على نفقته الخط الحديدي عبر الصحراء في مدة ثلاثة أعوام ! وأخيراً ، ومنعاً لعدم وقوع خط سكة وهران الجنوبية بين يديه ، اضطرت الدولة الى شرائها منه .

كانت خيبة أمل جاك لوبودي عظيمة ، ووجد بغضه البشر وكرهه المجتمع في ذلك أفضل مغذٍ . لقد رفضت فرنسا عونه فليتصرّف وحده وحسب مشيئته . وكانت الأرض التي وقع عليها اختياره تقوم في ضواحي رأس جوبي ، وتخصّ المغرب ، من الناحية النظرية ، لا سيما وأن أحداً لم يفطن حتى ذلك الحين الى تحديد تخوم تلك البقعة من الارض المحرقة التي تقطنها بعض القبائل المغربية .

ومذ ذاك ، كرّس لوبودي كل جهوده لتحقيق مشروعه الذي لم يطّلع على تفاصيله إلا نفر ضئيل من المقربين الحميمين اليه ، لأن الامبراطور العتيد كان يحاذر من التطفل وإفشاء الاسرار . وكان الرسام الكاريكاتوري الشهير «سِمْ» بين الذين كان يسرّ اليهم بأموره ، وكان كلما دعاه الى المسرح لكي يتحدَّث اليه بحرية اكبر ، يحجز كل المقاعد المجاورة لمقعده !

وغدا القصر الفخم الذي كان يحتله صاحب المليارات في جادة جورج الخامس في باريس ، المقر العام للحملة ، ومركزاً للتعبئة ، ومستودعاً للذخيرة . وكان اشخاص غريبو الاشكال يتتابعون ، وشيئاً فشيئاً تشكلت هيئة الاركان العامة للحملة ، المؤلفة ، والحق يقال ، من أشخاص مريبين ، يبعثون على القلق : مجرم

اميركي من فرجينيا محكوم عليه سابقاً ، ومزور عملة ، وجندي فارّ من الفرقة الاجنبية ، وعالم جيولوجي ، ونجار أثاث ، ومحام هولندي ، ومؤجر ألبسة مسرحية ، وبائع أسلحة ، وجزّار ، وصانع شموع ، وبعض البحارة من منطقة بريتانيا ، في شمال فرنسا . وعندما كان عمله التنظيمي يمنحه بعض الراحة ، كان يهرع إلى فيكامب حيث كان يخته «فراسكيتا» ، البالغة حمولته ١٥٠ طناً ، يصفّح بحرارة .

وفي شباط ، كان كل شيء جاهزاً ، وقد سرّع الامور حدث سخيف .

لم يكن جاك لوبودي على وفاق مع حارسة المبنى ؛ فألقت هذه أثناء نقاش بينهما ، ملء قدح ماء جافيل (مركّب كيميائي يُستعمل مطهِّراً ومزيلاً للألوان ويُعرف باسم موضع اكتشافه) على وجهه . ولم يُصب لوبودي بأذى من هذه المغامرة . وكتب صحافيو ذلك العصر معلّقين على ما حدث بقولهم : «إن نقطة ماء جافيل هي التي جعلت الكيل يطفح» . ولكن في هذه المرة غدا الامبراطور العتيد كارهاً تماماً المجتمع بصورة حاسمة . وكانت المغامرة الكبرى على وشك أن تبدأ .

الامبراطور جاك الأول

في ٣ آذار ١٩٠٣ ابحرت السفينة «فراسكيتا» من فيكامب وعلى متنها جاك لوبودي ، وماري ديليير وطاقم البحّارة . وكان خط العوم ، أو خط الغاطس ، يصل الى الحافة ، وهي نتيجة طبيعية لمحتوى المستودع : خيمة سيرك ، آلة طابعة ، مقصلة ، صناديق اسلحة وذخيرة ، و١٢ مدفعاً نُهبت في صفقة ما . وكان أول اهتمامات لوبودي ان يغطي بغطاء سرير العرش المصنوع من المعدن الصلب المنحوت والمذّهب ، الموضوع على الجسر لحمايته من الرذاذ .

والأمر الثاني كان النزول في شربور بعد تحديد الموعد مع «فراسكيتا» ، في أرخبيل ماديرا ، ذلك بأنه ما كاد يصبح في عرض البحر ، حتى انتابه دوار البحر الفظيع ، فتوجه الى ساوثمبتون ، في انكلترا ، حيث أقلته سفينة سليماً معافى الى فونشال ، قصبة محافظة ماديرا .

من ماديرا ، أقلع الى جزر الكناري ، وألقى المرساة في لاس بالماس . ودخل

لوبودي نهائياً شخصيته والتاريخ معاً . فالواقع أنه خلال الرحلة طلب لوبودي الى طاقمه ان يدعوه منذ ذلك الحين «القائد» ، ولدى المناداة الثانية ، استبدل هذا اللقب بلقب «الجنرال» . وفي المساء نفسه ، حمل بروتوكول نهائي الى الضباط والبحّارة على متن «فراسكيتا» ان عليهم ألا يخاطبوا سيدهم إلا بعبارة صاحب الجلالة او مولاي !

ولما كانت جزر الكناري جاراته العتيدة ، قرر لوبودي إقامة علاقات دبلوماسية مع الحاكم الاسباني المقيم في سنتا كروز ، في جزيرة تينيريف . وقد اتاحت له هذه الزيارة الفرصة لكي يرتدي اولى البزات العديدة المتوهجة التي تضمها خزانة ملابسه : قبعة بحرية ، سترة من المخمل الأحمر ، كتيفيتين مذهبتين (الكتيفية نسيج مقصّب على كتف الضباط) ، براندبوريات سوداء (البرندبورية هي زخارف العرى على طريقة برندبور في ألمانيا) ، بنطال لصوق احمر من الحرير يصل الى الركبتين ، جزمة سوداء لـمّاعة ذات أبازيم سوداء ، وسوط ، لأن السيف يجعله يبدو بمظهر المحارب .

في قصر الحاكم ، أعلن عن نفسه «الامبراطور جاك الأول» ، ولما قُدِّم تساءَل الحاكم عما اذا كان ينبغي استدعاء الحرس ، او اختبار روح النكتة لديه . واختبر الحل الثاني ، وتُرِك لوبودي يتحدَّث على هواه . فاقترح تبادل السفراء بين جزر الكناري وامبراطوريته ، فضلاً عن إنشاء نظام للخدمات البريدية . ولكنه ، مع ذلك ، رفض الكشف عن موقع الامبراطورية الذي ينبغي أن يبقى سراً ردحاً من الزمن ، بعد . وسأل الحاكم :

– إذا قررت اسبانيا ان توفد اليك سفيراً ، فينبغي ان تعيّن له مكان بعثته .

فكان الجواب :

– ليس ثمة أي صعوبة ، فالمبعوثون من قبلي سيأتون لاصطحابه معصوب العينين !

– ويريد الامبراطورية ، إلى أين ينبغي توجيهه؟

– في الوقت الحاضر ، نحن لا نتوقع أي بريد !

وتبسَّم الحاكم بتهذيب ، وطلب مهلة للتفكير في هذه المقدمات ، وودّع زائره

البارز بانفراج جليّ .

احتلال تروجا

لدى عودة لوبودي الى متن «فراسكيتا» جمع حوله كل من عليها فوق الجسر ، وخاطبهم بقوله :

– ايها الجنود ، ان رحلة قصيرة تفصلنا عن الهدف . قبالتنا ، على الساحل الافريقي ، بين رأس جوبي والطرف الجنوبي الاقصى للحدود المغربية ورأس بوجادور في الشمال الأقصى لنهر اورو الأسباني ، تمتد أرض تتصل من الشرق بأفريقيا الغربية الفرنسية . إنها متروكة وحدها ، وليس من بلاد تطالب بها . وحدهم الموظفون المغاربة او الاسبان يتذكّرون عرضاً بعض البربر الذين يقطنونها ، فيُقبلون لجمع الضرائب والرسوم التي يفرضونها عليهم . وبحسب معلوماتي ، فان الجباة هؤلاء لم يظهروا هناك منذ زمن بعيد ، ويبدو أن الوقت ملائم لكي نستَقبل هناك ، ويُعترف بنا .

في هذه اللحظة الحرجة من خطابه ، طلب لوبودي أن تُنقل الى الجسر الحقائب التي تحتوي على الملابس العتيقة التي اشتريت من فرقة الكوميدي فرانسيز ، وصدر الأمر الى أفراد الطاقم بارتداء بزات المعركة . وسرعان ما امتلأت السفينة بجنود الصاعقة المنذهلين : القوزاق يجاورون الهوصار (جنود من الخيّالة) ، وجنود الدراغون (الخيّالة الفرنسية القديمة) مع الزواويين (الزواوي جندي فرنسي بلباس أهل مراكش والجزائر) ، ورماة البحارة مع الفرسان المرتزقة في الجيش البروسي .

خلال الليل ، ألقت «فراسكيتا» المرساة امام رأس جوبي . وكان نهر صغير تصب مياهه بجوار دوّار يعيش فيه حوالى ٥٠٠ من البربر . كانت تلك عاصمة المستقبل التي اختارها لوبودي ، وسمّاها من فوره تروجا .

في ١٧ حزيران ١٩٠٣ ، عند الفجر ، وبينما كان هؤلاء السكان يسجدون للصلاة ، راح المدفع يهدر من ناحية الغرب . فقد أراد لوبودي بصفته فاتحاً شهماً ، تفادي سفك الدم ، فأحاط القرية بحاجز من القنابل لإخافة السكان الأصليين .

وحسب هؤلاء أن ثمة جابي ضرائب جديداً قوياً بصورة خاصة ، فهبوا الى بنادقهم التي تطلق الحصى . ولكن لوبودي كان بدّل تكتيكه ونسف المئذنة ، مجبراً

البربر على رفع خرقة بيضاء فوق حطام المئذنة . وتوقّف اطلاق النار .

وتقدَّم لوبودي مرتدياً هذه المرة بزة اكثر توهجاً من تلك التي ارتداها لدى زيارته جزر الكناري ، بارز الذقن ، قبضة يده على خصره ، الى الأمام صوب عاصمته على متن زورق ، يرافقه ترجمانه ، الجندي السابق في الفرقة الأجنبية .

وانتظر رئيس القرية بملابس رثّة ، ولكنها لائقة ، مع الوجوه في قبيلته على الساحل . فحاولوا ، في البداءَة ، تهدئة لوبودي بالقطع الذهبية المجموعة بالعرق والجهد في الأكواخ . فلما تمَّت الترجمة ، انفجر الفاتح ضاحكاً :

– انتم تعتقدون أننا إنما جئنا لفرض الجزية عليكم ! على النقيض ، نحن هنا لحمايتكم من اولئك الذين يستغلّونكم .

وألقى بحّاران على الشاطئ رزماً وبالات ، ما إن فُتحت حتى تبيّن أنها تحتوي على تبغ ، وبن ، وشاي ، وملابس زاهية الالوان . وذهل البربر ، وحملوا ما استطاعوا نقله ، وعادوا مسرعين الى قريتهم .

وابتهج لوبودي ، قائلاً :

– لم اكن لأدرك السعادة التي سيحملها اليّ امتلاك إمبراطوريتي !

وحُمل العرش الثمين سليماً الى الشاطئ ، وقد كلح لونه قليلاً . وفوقه نُشرت الخيمة الكبيرة المشتراة من السيرك المفلس . ومدَّت سجادة قرمزية اللون بينه وبين مدخل الخيمة المحاطة بسبعة مدافع .

وارتدى الامبراطور البزة الملائمة للتتويج ، في حين نزلت الى اليابسة الامبراطورة وخادمتها ، وسائر أفراد الطاقم .

وهرع البربر الذين دُعوا لحضور الاحتفال جماعات جماعات ، بعضهم يحمل قردة في الاقفاص ، هدية الى الامبراطورة .

وعزفت موسيقى السفينة مارشاً عسكرياً ، ومدّ بحّار راكع الى الملك وسادة من المخمل فوقها التاج . فوضعه لوبودي على رأسه . وردّد :

– أنا ، جاك الأول ، أُعلن نفسي امبراطوراً على الصحراء ، والسيد الكبير على الواحات وأفريقيا الغربية ، راوي الصحراء ، وحامي البربر .

ثم التفت الى الامبراطورة ، وقبّلها .

وتعالت من البحّارة هتافات : يعيش . . . وحذا البربر حذوهم وقد استولت عليهم الدهشة .

وأُنشىء على الفور مكتب للتجنس لكي يتمكن البربر من طلب الجنسية الصحراوية . ولكنهم لم يفهموا تماماً ماذا يعني ذلك . ولكن لم تمسّ الحاجة الى ترجمان فقد نُصبت المقصلة امام المكتب المذكور ، وأُجري عرض لكيفية عملها على عنزة . ففعل هذا المثل مع جائزة قدرها خمسة فرنكات فعل السحر ، وتجنّس البربر بالجملة .

الأمور تفسد

غير أن طوارىء هذا الاحتلال الصاعق لم تُنسِ الامبراطور الاسباب الحقيقية لحملته : مشروعه الضخم لانشاء طريق صحراوية تتخللها محطات استبدال وآبار ، تفضي الى ميناء كبير يقام في رأس جوبي ، فاتحاً هكذا لافريقيا الشمالية منفذاً على هذا الساحل الاطلسي غير المضياف .

وكان يقول :

– أنا أنوي مهر الصحراء بطرقات رائعة تؤدي من تروجا الى الجزائر ، وتبلغ الحبشة .

وبهدف اكتشاف المواقع المناسبة لمحطات القوافل ، كانت دوريات من بعض البحّارة تقوم بانتظام بأعمال الاستكشاف .

وقرّر لوبودي استكشاف الساحل أبعد الى الجنوب ، فترك مؤونة ثمانية أيام وبعض الغدّارات مع خمسة رجال كان عليهم مواصلة العمل في تروجا . وبعد أن أبحر طوال مائة كيلومتر ، ألقت «فراسكيتا» مرساتها في عرض جون صغير رملي أطلق عليه جاك الاول اسم «خليج العدالة» ، وقرر أن يمهره في ما بعد بمنشآت مرفأية .

ورغبةً منه في جعل مشاريعه رسمية ، واضطراره الى اتخاذ التدابير الضرورية

للاعمال الأولى ، صعد مباشرة الى لاس بالماس دون ان يمر مجدداً بتروجا ، المحتلة من حملته العسكرية . وفي هذه المرة كانت «فراسكيتا» تضع على الصاري علماً رائعاً أبيض فيه ثلاث نحلات مذهبة ، يحيط بها تاج : علم الامبراطورية الجديد !

ولكن لدى عودته الى تروجا ، بعد ذلك ببضعة أيام ، كانت تنتظره مفاجأة غير سارة . فقد فاجأت عصابة من اللصوص البحّارة الخمسة من فرقة الاحتلال واختطفتهم . وقد أعلن الزعيم البربري أنه ينتظر فدية ليطلق سراح عبيده الجدد .

وكانت تلك اللحظة التي اختارها الاسبان لإظهار حقوقهم في أرض رأس جوبي . فارسلوا سفينة حربية ، وجاء وفد بحثاً عن لوبودي . فاعتقد هذا أن ذلك هو ما آلت اليه زيارته الدبلوماسية الى جزر الكناري ، فرافق الوفد . ووسط مجالي التكريم التي يفرضها مقامه ، غدا أسيراً هو والامبراطورة ماري .

وهكذا أمرت الحامية الاسبانية الحامية الجديدة في تروجا بأن تستسلم ، فسارعت الى ذلك ، تحت نظر صاحب الجلالة الغاضبة . وسجن الاسرى على متن «فراسكيتا» وأبحرت السفينتان شطر لاس بالماس .

عند ذاك علمت الصحافة بالحدث ، وفجّرت الفضيحة . وحوكم لوبودي بقسوة بسبب تشوّش سلوكه . وعلّقت فرنسا التصريح بالإبحار المعطى للسفينة «فراسكيتا» . وعاشت امبراطورية الصحراء .

وقلق الرأي العام المستعد حتى ذلك الحين للضحك ، على مصير الاسرى الخمسة الباقين بين أيدي البربر . فاضطرت الحكومة الفرنسية الى ارسال الطراد «غاليله» الذي نجح بالخدعة في اصعاد الاسرى الخمسة الى متنه ، مرعباً المغاربة باطلاق النيران الكثيفة .

واستطاع لوبودي الفرار من لاس بالماس برفقة الامبراطورة ماري ، والقردة في الأقفاص ، وبعض الرجال الضروريين للمناورة ، على متن السفينة «فراسكيتا» التي رفعت العلم الليبيري لتأمين سلامتها اكثر . ولم يغضب الاسبان قط لتخلّصهم على هذه الصورة من هذا الاسير المزعج !

ورغم ذلك امبراطور!

إلا أن لا شيء يمكن أن يصرع لوبودي . لقد حُرم من امبراطوريته ، ولكنه رغم ذلك بقي أمبراطوراً . وتسلّح بحقه ، وأقام في لندن وسط الفخامة والأبهة ، وتقدّم بالشكوى الى المحكمة الدولية الدائمة للتحكيم التي كان مضى على وجودها في لاهاي ، في هولندا اربع سنوات .

في هذه الأثناء ، وفي فرنسا ، كانت الدعاوى تترى ، مقدمة من مختلف الحكومات ، ومن الطاقم الذي تُرِكَ في لاس بالماس ، والبحّارة الخمسة الاسرى ، وأسرهم .

ورفضت محكمة التحكيم الدائمة ادعاءات الامبراطور ، وردّت الدعوى .

فأرغى لوبودي وأزبد ، وقال وقد أبلغ بالقرار :

– لا أهمية لذلك ، سأستولي مجدداً على امبراطوريتي ، يساعدني هذه المرة رجال جديرون بهذه التسمية .

وقرّر لوبودي ، وقد أثبط همته انعدام فهم مواطنيه ، وانعدام الكفاءَة الذي برهن عنه المسؤولون الفرنسيون ، الإقامة في بلجيكا . وفي ٣١ أيار ١٩٠٤ ، وصل الى بروكسل ، واستأجر مسكناً أميرياً باسم المركيز دو راري ، وأسكن محظيته ماري في أفخم فنادق المدينة .

وبواسطة امرىء يدعى السيد محمد شامي ، الذي يزعم أنه ابن عم السلطان ، حاول البدء بمفاوضات مع المغرب . ولم يكن شامي هذا غير نصّاب مبتذل ، وانتهى المشروع بدعوى قضائية تضاف الى الدعاوى السابقة .

في سن الثلاثين ، كان لوبودي ما يزال يحتفظ بحيويته الدافقة ، ولكن الكثير من خيبات الأمل المتعاقبة زعزعته بصورة خطيرة . وقد اعاد اليه حماسته الاعلان عن انتظار الامبراطورة حدثاً سعيداً سيكون وارثه . فأحاط الأم العتيدة بالعناية الرقيقة ، ولم يعد يتحدَّث إلا عن الأمير الصغير الذي ابتاع من أجله سريراً بمبلغ ٨٠٠ الف فرنك !

وفي ٢١ أيار ١٩٠٥ ، انهار الحلم الجميل . فقد ابصرت النور طفلة سمّاها

جاكلين . وهناك خلّف جاك لوبودي الأم والابنة اللتين انسحبتا فاقدتي الحظوة الى لابالود ، بالقرب من مونتيليمار .

نجدة الحلفاء

كان لوبودي يُشاهد مرتدياً ردنغوت (سترة طويلة) أسود ، حاملاً بيده المظلة القطنية الدائمة ، حليق الرأس ، كئيب الملامح (كان الرسام الكاريكاتوري سِمْ يقول عنه : «كان له وجه النمس ، ومظهر حجّاب القرى») هائماً على وجهه في بروكسل ، ولندن ، وجزر الكناري ، وعلى سواحل المحيط الاطلسي . وفي السنة ١٩٠٦ ، وباسم توفيق باشا ، وزير امبراطور الصحراء ، حضر مؤتمر الجزيرة ، واحتجّ ضد غياب مليكه جاك الأول .

وكانت الضربات الأكثر قساوة تلك التي كالتها له الصحافة الاوروبية ، ولعلّ السبب في ابحاره الى نيويورك السنة ١٩٠٨ ، كان جزئياً ، الهرب من وجه الصحفيين .

وأقام مع ماري وابنته ، والممرضة ، وبعض الخدم في فندق سافوي الشهير في الجادة الخامسة ، وانصرف الى الاهتمام بإعادة بناء مملكته في عالم المال ، متخلياً ، مؤقتاً ، عن امبراطورية الصحراء .

واستأجر مكتباً في حي برودواي ، في مبنى «بروديوس اكستشينج بلدنغ» ، وعيّن سكرتيراً ، وشرع في المضاربة بأسهم المواد الاولية . فكان في كل صباح ، ولدى وصوله الى مكتبه ، يلقي نظرة على الصحف المالية ، ويقضي ما تبقّى من النهار في قراءَة المجلات الفكاهية المصورة ، معلّقاً عليها بشغف . وأثمرت بضع سنوات من هذا العمل والجهد ملايين الدولارات . . . وبين رسمين هزليين ، تكهّن ، قبل الجميع بالمعركة بين مورغان وهاريمان ، وبتصاعد قيمة أسهم قناة السويس بسرعة ، وكذلك اسهم مناجم الفضة في بوليفيا ، واشترى على هذا الاساس .

ولكن ، هيهات ! مع نشوب الحرب السنة ١٩١٤ ، شعر لوبودي من جديد بضرورة الاشتراك في العمل .

وفي كانون الثاني ١٩١٥ ، فوجئت ضيعة وستبري الهادئة ، في ولاية لونغ آيلاند ، برؤية نصف دزينة من السيارات العمومية النيويوركية ، تتوقف أمام الوكالة العقارية الوحيدة في البلاد .

ومن السيارة الأولى ترجّل امرؤ يعتمر قبعة التشريفات ويرتدي عباءَة مبطّنة بالفرو (فرويّة) ، ونظرته صاعقة . ودخل المكان ، وعرض بلا مواربة الغاية من زيارته :

– إني أرغب في شراء عزبة مساحتها حوالى خمسين هكتاراً (الهكتار هو ١٠ آلاف متر مربع) ، ووسطه دارة لا يقل عدد حجراتها عن الاثنتي عشرة . واودّ الانتقال اليها اليوم بالذات !

ولكي يسهّل على الشخص المنذهل الذي خاطبه أمر فهم كلامه ، أومأ الى اثنين من سائقي السيارات العامة قائلاً :

– احملا كنز الحرب !

عندها حمل الرجلان صندوقاً كبيراً ، ما أن فُتح حتى تبيّن أنه محشوّ بالقطع الذهبية من فئة ٢٠ دولاراً . وقد ساعدت هذه الرؤية المذهلة الموظف على أن يكتشف على الفور ، وفي وستبري نفسها عزبة مساحتها ١٠٠ هكتار ، تضم بحيرة ، وملعبي تنس وغولف ، فضلاً عن مسكن فخم ، مع اهراءَاته (مستودع الحصيد) واسطبلاته ـ واسم العزبة هو «فينكس لودج» ، ومجاور لنادٍ ممتاز اسمه «ميدو بروك كلوب» ، مصيف أصحاب المليارات الاميركيين .

وأصبح «فينكس لودج» المقر العام للامبراطور جاك الأول . ولم يكن بعد إلا في المرحلة التحضيرية – التعبئة ، التسلّح ، ولكن الامبراطور كان قد استعاد كل نشاطه . . .

وراح لوبودي يمارس نظام المصادرة المحلية : فبلا تبصُّر كان يجمع في لقاءَاته الريفية الماشية ، والخيول ، ولكن بأثمان باهظة بحيث أن لا أحد من مالكي الحيوانات أبدى اي تذمّر او شكوى .

خلال صيف السنة ١٩١٥ ، غطت «فينكس لودج» كل أعلام الأمم الحليفة التي اشتركت في الحرب ضد ألمانيا . غير أن الطبقة الارستقراطية في وستبري ، التي عادت

الى مقرها في الصيف ، وقعت في حيرة من جنسية علم تبرز فيه ثلاث نحلات وتاج ذهبي يتمايز مع الاحمر الارجواني الملكي ـ وهو لا يظهر على اي مدوّنة (مجموع اصطلاحات في علم او فن) ـ ولا عجب ما دام الشعار الامبراطوري الصحراوي !

وذات صباح في تموز ، ترجّل من سيارة اوتوبيس تابعة لشركة تلغراف وسترن يونيون دزينتان من الشبان العاملين في الشركة ، سُلّموا على الفور بندقية خشبية وبزة عسكرية خضراء مزركشة أطرافها بزركشة قيطانية وردية اللون (الزركشة القيطانية هي محبّك من خيوط حريرية ومعدنية) لكي يرتدوها فوق ثياب ادارة التلغراف .

ولم يعد الاعضاء الضجرون في نادي «ميدو بروك كلوب» يشعرون بالسأم ، فقد راحوا مذ ذاك يراقبون ما يجري عند جارهم .

وجمّع لوبودي ثانية جنوده وقادهم نحو ملعب الغولف الذي جُعل ساحة مناورات ، بعد أن اعتمد خوذة من الخوذ الاستعمارية ، وارتدى بزته المغطاة بالاوسمة البرّاقة ، واعتلى صهوة جواد ابيض .

في كل مساء كان عمال شركة التلغراف الذين كانوا يتلقّون اجورهم منه قطعاً ذهبية ، ينتقلون بسيارة وسترن يونيون التي كانت تعود بهم في صباح اليوم التالي . وكان عددهم يزداد يوماً بعد يوم .

وكان التدريب شاقاً بحيث ضُمَّ المُشاة بعد اسبوع واحد الى الخيَّالة ، ولم تكن الاسطبلات تكفي ، فكانت البقر تقوم أحياناً محل الجياد .

وسرعان ما تجاوزت فرقة الخيالة هذه عزبة لوبودي ، بعد أن باتت جاهزة لتعزيز القوات الحليفة . وقطعت الطريق المارة من أمام فينكس لودج ، الأمر الذي ادهش ربّات البيوت اللواتي كن يضطررن الى العودة من حيث أتين . واضطر «الشريف» الى التدخّل ، وحوّل لوبودي الى الفحص النفسي ، فقرّر الاطباء النفسيون ، بالاجماع ، ان عقله سليم جداً ، وذكاءَه مفرط ، وذهنه من أصفى الأذهان ، ورفضوا الحجر عليه .

وعملت رفيقته ماري ، التي لم تعد تحتمل تصرّفاته ، على ادخاله مصحة لودن ، في أميتفيل ، فهرب منها ، مغضباً ، وقفل راجعاً الى فينكس لودج ، مقتنعاً تماماً هذه المرة بأنه بات مضطهداً .

ولكي ينتقم من صديقته المسكينة ، حبسها مع ابنتها ، وهدَّد الخدم بأنه سيطلق عليهم النار عند الفجر اذا هم سهلوا سبيل الهرب لهما .

وتدخّل «الشريف» من جديد ، ولكن الأطباء رفضوا بصورة نهائية احتجاز الامبراطور . . .

ولما دخلت الولايات المتحدة الحرب ، بدأ لوبودي بالمرحلة البحرية من عمله . فكان يستقل بمفرده مركباً كبيراً يسيّره بالشراع ، ويروح يجوب به خليج اويستر ، بحثاً عن الغواصات المعادية . واتصل السكان الذين راقبوا منذ البداية الأعمال والحركات التي كان يقوم بها هذا الممسوس الذي حسبوه جاسوساً ألمانياً ، تلفونياً بالسلطات التي نصحت هذه المرة للوبودي بالتزام الهدوء ، ففعل على مضض .

بعد سنتين اثنتين ، ويوم السبت في ١١ كانون الثاني ١٩١٩ ، وعند الساعة السابعة مساء وصل لوبودي الى فينكس لودج آتياً من نيويورك .

كان كل شيء هادئاً في المسكن ، فماري مصابة بالزكام وراقدة في السرير فاتجه مباشرة الى الموقد في قاعة الاستقبال الكبرى ، ونثر ارضيّة المكان بالفحم المتأجج ، وعاد الى الردهة فشاهد ماري واقفة في أعلى السلّم ، فلقد استيقظت لدى سماعها الضجة .

ومثل الرجل الآلي ، ارتقى بضع درجات ببطء ، وقال لها ناظراً اليها بحدة :

– أنت لم تعودي صبية بالنسبة الى امبراطور . . . وفرّي لي خليلات !

واتجه نَحو غرفة ابنته .

وكان «الشريف» قد اعطى ماري مسدساً صغيراً بعد أن اقلقته تصرّفات لوبودي ، لكي يتسنّى لها الدفاع عن نفسها في حالة الخطر . وكانت تلك المرة الاولى تطلق فيها النار ـ خمس رصاصات اصابت الشخص الامبراطوري : واحدة في وجهه واثنتان في

صدره ، واثنتان اخريان اصابتاه في ظهره وهو يستدير ويسقط من فوق درجات السلّم ، وقد توفي قبل أن يتوقف جسده عن الهبوط .

وفجأة ظهرت الطاهية أليس روجه ، والبستاني جول لاموب ، وجاكلين الصغيرة ـ وقد غدت الآن فتاة في الرابعة عشرة . وهرعت الطاهية نحو ماري التي انهارت ، بينما راح البستاني يطفىء السجادة المشتعلة في قاعة الاستقبال . وتقدمت جاكلين من التلفون وقالت بكل هدوء لعاملة السنترال : «أمي اطلقت النار على أبي !»

وواجهت ماري تهمة القتل بوجه الاحتمال . ولكن اعضاء هيئة المحلفين ، بعد سماعهم الوقائع قرروا ان القتل مبرّر ، ورفضوا إدانتها .

ولدى إطلاق سراحها ، صرّحت ماري للصحفيين بهلع بقولها : «أشعر أن جاك قد ساعدني كثيراً من خلال هذه المحنة . أعتقد أنه تحرر روحياً ، وكان مسروراً جداً لمساعدتي . إن روح جاك الحقيقية قد احببتها دوماً ، كما أحبها اليوم .»

وحدها ماري تستطيع أن تحدد اي عون روحي نقله إليها لوبودي الميت . ولكن لم يكن من شك في عونه عندما يدور الحديث على الحطام الدنيوي . فلقد توفي دون أن يترك وصية : اعتبرت ماري بحسب حكم المحاكم الاميركية كزوجته المشروعة قانوناً ، وأصابها كل فلس من قيمة ممتلكاته الاميركية البالغة قيمتها ١٣ مليوناً و ٣٦٨ ألفاً و٩٨٥ دولاراً . وفي فرنسا حيث لم يُعترف قط ، بالزواج ، ذهبت ممتلكاته المقدرة بمبلغ ٥ ملايين دولار الى شقيقته الكونتيس دو فلسْ ، على الرغم من الدعوى التي اقامتها ماري لكسر حكم المحكمة . وفي انكلترا ، حيث بلغت قيمة ممتلكات لوبودي ٨ ملايين دولار اقتسمت السيدتان هذا الارث .

وعادت ماري وابنتها الى فرنسا لتقيما بصورة نهائية ، في معزل عن الخوف من الضائقات المالية بفضل الحساب المصرفي الامبراطوري ، إن لم يكن امبراطورية جاك الاول .

وهذا الاختبار مع شخصيته الملوكية لم تقسُ قلبيهما من الناحية العاطفية . فتزوجت ماري هنري شارل سودرو ، التحري الفرنسي الخاص ، واقترنت جاكلين ، ابنتها ، بعدها ببضعة أشهر بروجيه ، ابن هذا التحري .

ولا يذكر التاريخ ما اذا كان العرسان جميعاً قد امضوا شهري العسل فوق رمال الصحراء ،أو في خيمة من خيام السيرك ترفع علماً يحمل ثلاث نحلات ذهبية وتاجاً ذهبياً فوق أرضية من اللون الارجواني الملكي !

لقد خرج العالم وهو يئن من حرب عالمية دامت اربع سنوات (١٩١٤ - ١٩١٨) ، فمرَّ موت الرجل الذي عاش سوريالياً قبل ظهور السوريالية دون أن يثير اي اهتمام تقريباً .

وبعد ، ربما لم يكن الامبراطور جاك الاول مجنوناً بقدر ما كان يلوح عليه ! . .

نابوليون على حقيقته

حقير ، لجوج ، كان يكره فرنسا ، ويودّ ان يكون إمبراطور الشرق!

نحن نعرف إمبراطور الاسطورة ، المطابق للصورة التي أحبَّ أن يخلّفها هو شخصياً . ولكن الشخص الذي أمسكَ بيديه طوال خمس عشرة سنة بمقدّرات فرنسا ، أي رجل كان ، في الحقيقة؟ مما لا جدال فيه أن بونابرت كان رجلاً فذاً ، ولكنه كان أبعد من أن يشبه الاسطورة التي صنعت منه نصف إله . . .

في كتابه «نابوليون كما هو أو الملحمة المضادة» يلقي البروفسور هنري غيلمان ضوءاً كاشفاً قاسياً على الوجه المخفي لنابوليون ، ذاك الذي فضّل مجموع المؤرخين تقريباً ، الذين يحترمون المحرَّمات ، ان يبقوه في الظل .

وفي ما يلي ننشر بعض المقتطفات مما له علاقة بإقامته في الشرق .

في سن السادسة عشرة ، عُيّن بونابرت ملازماً ثانياً في الفوج المسمّى «فوج لا فير» ، الذي كان قسم منه يعسكر في فالانس . ولم يُرقَّ الى رتبة ملازم الا بعد سبع سنوات ، اي في السنة ١٧٩١ . سبع سنوات لم يقضِ خلالها في الخدمة الفعلية العسكرية سوى ٣٢ شهراً ، ومع ذلك كافأته الدولة . ففي الوقت المتبقّي كان يتمتع بالعطلة ، أو يتوارى . وتجدر الاشارة إلى أن العادة جرت ، في تلك الحقبة ، أن يضاعف هؤلاء الضباط الشبّان من فترات غيابهم .

في ٢٠ نيسان ١٧٩٢ ، أعلنت النمسا الحرب على فرنسا ، وفي ٦ تموز ، زحف البروسيون الى باريس . فكان الاعلان الشهير عن «الوطن في خطر» . فذهب «بونابرته» الى باريس ، لا لينقذ الوطن ، بل لينتزع رتبة كابيتن . وما إن رقّي الى هذه الرتبة حتى حصل على الإذن بالتغيّب ، وعلى سلفة على مرتّبه ، وعاد الى

كورسيكا .

ذلك بأن كورسيكا وحدها هي التي كانت تهمّه . إنه يدسّ منذ سنوات . «الوطن في خطر» هو آخر ما يفكر فيه ويشغل باله به ، لسبب وجيه ، وهو أن فرنسا ، بالنسبة الى هذا الضابط الفرنسي ـ فرنسا التي تعيله وتمنحه مرتّباً ـ ليست «وطنه» تماماً ، وهو يكرهها ويحتقرها . وقد كتب في تلك الحقبة يقول : «متوحشون وجبناء ، الفرنسيون يجمعون الى عيوب الجرمانيين ، عيوب الغاليين (أو الغوليين ، اي الفرنسيين القدماء سكان بلاد الغال التي هي فرنسا اليوم) . إنهم يشكّلون الشعب الاكثر بشاعة الذي وُجد حتى اليوم .»

وكان سابقاً ، كتب الى غوبيكو ، كاتب محكمة ولايات كورسيكا : «هل سنستمرّ في تقبيل اليد الوقحة التي تضطهدنا؟ هل سنستمر في رؤية كل الاعمال التي قدّرتها لنا الطبيعة محتلة من الأغراب؟»

الهرب إلى مصر

أخفق الكابيتن بونابرته إخفاقاً ذريعاً في مشاريعه الرامية الى طرد واضعي اليد الغرباء المكروهين على موطنه الأم كورسيكا ، التي سيحتفظ دوماً لها بالضغينة لأنها خيّبت آماله . وعاد الى العاصمة . ويسترسل البروفسور غيلمان طويلاً في صعوده الصامت . وهناك مقطع في ملفّه يصوّره «المؤامرة والخداع مجسّدين» . «كانوا يصطدمون به في كل حجرات الانتظار ـ على حدّ ما يقول بواسي دانغلا ـ وكان يقرع كل الأبواب ؛ لطيفاً ، ليّناً ، متواضعاً ، ملحاحاً ، مجاملاً بإفراط ، وعلى شفتيه ابتسامة تحببية .» وتزوج جوزفين المندفعة كثيراً لدى الاتجاريين (الاتجارية هي نزعة للمتاجرة من غير اهتمام بأي اعتبار آخر) ، وجعل اسمه فرنسياً ، وتكلل بالمجد في ايطاليا ، ثم في النمسا .

وزعم بونابرت في ما بعد أن المديرين (اعضاء حكومة الديركتوار) ، «ابعدوه» في السنة ١٧٩٨ الى مصر لأنه كان يزعجهم ، لإنقاذ فرنسا . وقد اخترع هذه الحكاية عشية الانقلاب الذي قام به ، برسم الأغبياء . والحقيقة هي أنه كان يعلّق آمالاً

شخصية وكبيرة على هذه الحملة العسكرية . ففرنسا لم تقدم آنذاك شيئاً بالنسبة الى أطماعه ، وهو على عجلة من أمره . وبفضل الجنود الذين سيوضعون تحت إمرته ، يمكنه تنفيذ خطته ، وهي التوغل في الشرق بغية أن يقتطع لنفسه مرزَبة (إقليم يحكمه مرزُبان) عظيمة إما في بلاد فارس أو على ضفاف نهر الاندوس ، في الهند .

وفوق ذلك ، وعلى أي حال ، حتى لو لم يبتسم له الحظ هناك ، فمصر قطعة شهيرة شهية ، تارّة ومغذية ، حسب المنى . على الأقل ، هذا ما كان يتصوّره «الجنرال» في ٢٠ شباط ١٨١٩ . وفي ، منفاه في جزيرة القديسة هيلانة ، لم يكتم برتران أنه إنما يعيش على ذلك ، على الاوهام : «ما كنت لأقوم بالحملة المصرية لو لم اكن مخدوعاً بالنسبة الى ثروة تلك البلاد . كنت أحسب أنني سأجد هناك ٣٠٠ مليون ، والجميع كانوا يعتقدون ذلك مثلي .»

أكياس ملأى بالرؤوس المقطوعة

اذا كان الانكليز سمحوا بمرور الاسطول الفرنسي عائداً من مصر بقوات الحملة العسكرية الفرنسية ، فلكي يوقعوا هؤلاء الجنود في الفخ . ففي اول آب ١٧٩٨ ، وأمام مرسى أبو قير ، قضى القائد البحري الانكليزي نلسون على أرمادا بونابرت المصغّرة . ولم يزعج ذلك القائد الفرنسي قط ، ذلك بأنه لم يكن ينوي العودة الى فرنسا . لقد طويت صفحة إقامته لدى الغوليين . ان مطامعه الآن هدفها كنوز بلاد فارس والهند .

لقد غلب المصريين بالوسائل المستعملة : قصف جامع الأزهر ، في القاهرة ، والتصفيات المُقنعة (احياناً بسبب سوء التحدُّث الى الفرنسيين) ، والقمع الصاعق لحركة قام بها الفلاحون . وقد أمر بونابرت بنقل أكياس من الدلتا ملأى بالرؤوس المقطوعة ، أُفرغت في القاهرة ، في الساحة العامة الكبرى ، لتكون عبرة للمشاهدين ، ولكي توحي اليهم بأن يُبدوا الانقياد والحب تجاه المحتل . وكان المماليك المستثمرين المحليين ، ففضحهم الجنرال أمام السكان ، ووصفهم بعصاصي الدماء ، ولكنه استبدلهم بجباته الشخصيين .

على طريق الهند

في ١٠ شباط ١٧٩٩ ،كانت رحلة المغامرة الكبرى . الهدف الاول : بلاد ما بين النهرين . وجرت حادثة الطريق ،بالقرب من يافا (كانت هذه المدينة قد احتُلّت في ٧ آذار) ـ حادثة الألفي أسير الذين رأى بونابرت ، عوضاً عن تقديم الطعام اليهم ـ ولم يكن وارداً أمر إطلاقهم ـ أنه من المستحسن القضاء عليهم بالسلاح الابيض بين كثبان الرمال ، توفيراً للذخائر .

ولدى العودة ، جرت ، كذلك ، في يافا الحادثة الأخرى : حادثة إفناء جنوده المصابين بالطاعون .

إن انصار نابوليون بونابرت والمتشيعين له طالما أثاروا أسطورة «الجنرال الطيب القلب» ،الذي كان يلمسُ دونما خوف ، الدمامل التي كانت تظهر على أجساد جنوده المصابين بالطاعون والمشرفين على الموت . ولكم تعالت الصيحات احتجاجاً على عار الشائعة المفترية ، ولكن لا ، فبونابرت «لم يلمس الدمامل» ، بل قضى على مرضاه ! ومنذ نشر مذكراتَ برتران ، باتت هذه القضية أمراً مفروغاً منه .

ففي ٥ تموز ١٨١٧ ، وفي منفاه في الجزيرة ، قال نابوليون الحقيقة لبرتران ، بلى ، لقد صفّاهم ـ صفّى هؤلاء الرجال ، لكي لا يقعوا ـ على حد قوله ـ بين ايدي الاتراك العثمانيين الذين كانوا سيعذبونهم . . . لقد قتلهَم بدافع إنساني !

وللمناسبة نشير الى حادثة السعال الذي كان بمثابة الأمر بإعدام ١٢٠٠ رجل !

فقد كان نابوليون بونابرت الموجود في الشرق في السنة ١٧٩٩ ، على وشك أن يُطلق سراح ١٢٠٠ جندي تركي أسرهم في يافا ، في فلسطين . فانتابته نوبة سعال ، فهتف : «يا لسعالي اللعين !» (بالفرنسية تلفظ ما ساكريه تو) وتُكتب على هذه الصورة Ma sacrée toux ؛ فحسب مساعده في القيادة انه يعني «اقتلوا الجميع» ، وتُكتب Massacrez tout ، وتُلفظ أيضًا «ما ساكريه تو» . هكذا قضي على الأسرى الألف والمائتين ! . . .

نشرة كاذبة عن انتصار

ينبغي القول إنه في تلك الحقبة كان مصير الجنود الفرنسيين المصابين بداء الطاعون يزعج نابوليون أقلّ مما روّعته خيبة أمله في عكّا . ذلك بأنه لم يكن ثمة طريقة لاحتلالها . فمن ١٩ آذار الى ٢٨ أيار ١٧٩٩ ، عبثاً حاول نابوليون بونابرت الهجوم على المدينة . وتكررت الهجمات ، وكبرت الخسائر ، وهلك الجنود بالمئات . ولكن بلا جدوى . لم يكن ثمة شيء يمكن فعله . فالقفل لم يتحطم . وبدت طريق المملكة الهندية مسدودة ! لقد صمدت عكا بقيادة سدني سميث الذي قال عنه نابوليون : «هذا الرجل جعلني أُخطئ قدري !»

واضطر نابوليون ، الذي كان يرى نفسه خليفة او مهراجا ، والمتمرغ أبداً في المباهج والدمار ، الى الانكفاء والتراجع ، عل مضض .

ولم يغفر للانكليز تحطيمهم قدره . وقد قال ذلك بصراحة ، في السنة ١٨١٥ ، للقبطان الانكليزي ميتلاند ، قائد السفينة «بيليروفون» : «لولا كم ، ايها الانكليز ، لكنت أصبحت امبراطور الشرق !» وقد كرّر القول نفسه لبورغو ، في ١٥ تشرين الأول من السنة نفسها : «لقد أسأت اللعب ، حتى بعد حصار عكا ، كان ينبغي لي أن أبقى في مصر ، ولكنت الآن امبراطوراً على كل الشرق .»

وقبل العودة الى القاهرة ، أوفد نابولون ، سلفاً ، رسلاً ليقنّع الهزيمة بثوب النصر ، ويعلن عن عودة السيد مكلّلاً بالمجد ، وتحضير الاحتفالات له . وَوُجهت برسم فرنسا نشرة كاذبة تعلن أن السلطان العثماني حاول إبراز براثنه ، ولكن الجنرال الذي لا يُقهر اندفع شمالاً حتى عكا ، ودّمر هذه القلعة الحصينة .

مستحق المجلس الحربي وأعواد المشنقة

ينبغي الاهتمام بفرنسا مجدداً ، ما دام يتوجب عليه الانكفاء إلى هذه الجهة ، وهي السبيل الوحيد الباقي . وكانت الأنباء التي بلغت فرنسا سيئة . فلقد توصّل اخوه جوزف بونابرت الى إعلامه بأن سلوك جوزفين مثير ومقلق ؛ فهي لا تكتفي ، وحسب ، بخيانته ، وبصورة علنية ، بل إنما ابتاعت بالدين ـ يا للسارقة ! ـ قصراً

رائعاً ، هو قصر ماليزون ، حيث تقيم مع عشيقها على نفقة زوجها ، بونابرت ، الذي أسرَّ الى شقيقه ، بقلق : «ليس لديّ بعد ما يتيح لي الحياة !» كلمة أخرى من كلماته العذبة التي يهملها التاريخ اللبق ، ولكنها ، بالنسبة الى التاريخ الصحيح ، ذات ثمن .

العودة الى باريس ، حتماً ، وبأسرع ما يمكن . وقد اعترف نابوليون بونابرت لبرتران ، في ١٣ آب ١٨١٦ بقوله في هذا الصدد : «كانت هذه العودة ، بالنسبة اليَّ ، ذات أهمية كبرى .» بالطبع ، ولكنه قائد حملة عسكرية في مصر . فإذا ما أبقى الجنود الذين ائتمنته عليهم فرنسا ، واذا عاد بمبادرة شخصية منه ، فإنه يكون قد تخلّى عن قيادته ، ويستحق على ذلك المثول امام المجلس الحربي وأعواد المشنقة . ولكن ، هل هذا معقول؟ ومجده؟ من يجرؤ على مدّيده اليه؟ على اي حال ، ان لديه السيناريو جاهزاً : يعود ، كما لو كان استدعي ، وطلب اليه الواجب ذلك . لقد علم ، وهو بعيد ، بالمخاطر المحدقة بالوطن «وبالنكسات التي منيت بها القوات الفرنسية» (بالطبع ، فهو لم يكن هناك !) إذاً ، فقد سارع ، وظهر مجدداً لإنقاذ كل شيء . إنه يعرف كيف يحارب ، وسيستعيد ايطاليا التي عادت فاكتسبت ، في الظروف السيئة الحالية ، قيمة في نظره . وما دامت الفوضى في باريس ، فإنه بطفرات شهور فروكتيدور ، وفلوريال ، وبريريال ، سيجعل الجميع موافقين ، وسيجسّد النظام .

ولنوضح ما هي هذه الشهور ، وما حدث فيها استكمالاً للمعرفة ـ وهي التسميات التي طلعت بها الروزنامة الثورية . . .

فروكتيدور هو الشهر الثاني عشر من الروزنامة الجمهورية التي تمخضت عنها الثورة الفرنسية ، وهو يبدأ في ١٨ أو ١٩ آب . وفلوريال هو الشهر الثامن ويبدأ من ٢٠ – ٢١ نيسان الى ١٩ أيار . وبريريال هو الشهر التاسع في هذه الروزنامة ويبدأ من ٢١ أيار وينتهي في ١٨ حزيران . . .

والآن ماذا حدث في هذه الشهور ، وما هي الطفرات المذكورة؟ في ١٨ فروكتيدور ، من السنة الخامسة (٤ أيلول ١٧٩٧) قامت حكومة الديركتوار بانقلاب ضد الملكيين ، استهدف مجلس الشيوخ ومجلس الخمسمائة ، عقب انتخابات السنة الخامسة التي جاءَت نتائجها في مصلحة المعادين للثورة .

أما مجلس الشيوخ فهو احد المجلسين اللذين أوجدهما دستور السنة الثالثة في الروزنامة الثورية (١٧٩٥) ، وكان عدد اعضائه ٢٥٠ ، مهمتهم ابداء الرأي في القوانين التي يسنّها مجلس الخمسمائة . وقد أُلغي من ١٨ - ١٩ برومير من السنة الثامنة (١٧٩٩) مع حكومة الديركتوار (٩ تشرين الثاني) ، كما سنرى في ما بعد .

أما مجلس الخمسمائة ، فهو الجمعيّة السياسية التي اوجدها الدستور الصادر في السنة الثالثة (١٧٩٥) ، وكان يؤلف مع مجلس الشيوخ الجسم التشريعي في ظل حكم الديركتوار . وكان يتألف من ٥٠٠ نائب منتخبين بالاقتراع العام على درجتين ، وقد حُلّ كذلك نتيجة انقلاب ١٨ـ١٩ برومير (١٧٩٩) .

أما اليوم الاول من شهر بريريال في السنة الثالثة ، ففيه المحاولة التي قام بها اللامتسرولون الباريسيون بعد أن عضّتهم أزمة اقتصادية واجتماعية خانقة ، بهدف الاستيلاء على السلطة ، وقد قُتل خلالها النائب فيرو (٢٠ أيار ١٧٩٥) .

وحضّر نابوليون بونابرت ، بالسرّية التامة ، فراره وخيانته . وقد هرب ، وكلّف الجنرال كليبير أن يتدبّر الأمر مع مماليكه ، وعلمائه الدينيين ، والفلاحين . (وقد توفي كليبير في مصر) .

وفي ٩ تشرين الأول ١٧٩٩ ، نزل بونابرت الى اليابسة في سان ـ رفاييل ، وما هو إلا شهر ، يوماً فيوماً ، حتى حدث انقلاب ١٨ برومير الشهير . وبرومير هو الشهر الثاني في روزنامة الثورة الفرنسية ، وفي ١٨ منه تلقّى بونابرت ، وقد عاد من مصر ، استقالة حكومة المديرين وانتقال المجلسين الى سان ـ كلو في ٩ تشرين الثاني ١٧٩٩ ، الموافق السنة الثامنة في التقويم الجمهوري . وفي اليوم التالي ، طُرد الأعضاء بالقوة ، وهكذا انتهى عهد حكومة الديركتوار باعضائها الخمسة ، وبدأ عهد القنصلية بأعضائها الثلاثة ـ وكان بونابرت رئيسها ، القنصل الأول !

نفيٌ امبراطوري

من ملاذ مضطرب في سويسرا ، حلمت الملكة أورتانس ، ابنة الامبراطورة جوزفين ، بيقظة جديدة للمجد النابوليوني

في حديقة الملكة اورتانس ، في ذلك الصيف من السنة ١٨٣٧ ، كانت ألازهار تتفتح براعمها بلطف . وفي ما وراء المصطبات كانت أشجارالصنوبر تمتد حتى ضفة البحيرة ، الي تتلألأ في مياهها الجبال المكللة رؤوسها بالثلج . وكانت أورتانس تستلقي على أريكتها ، وسط عبير الورود الذي يكتنفها ، وهي تحلم بالماضي وبابنها لويس في اميركا . ومع أن الامر بدا مستحيلاً ، فقد عرفت أنها ستراه مجدداً قبل إن تودع هذه الدنيا .

وقلما كانت تفكر في زوجها لويس بونابرت ، ملك هولندا سابقاً . فقد كان رجلاً كئيباً ونكد المزاج ، يحيا حياته المنعزلة الخاصة وسط الأسرة المنفية في روما ، وكان ذلك يرضي أورتانس . فلقد كان زواجهما تعيساً .

كان لوي ـ نابوليون الابن الوحيد الباقي في قيد الحياة ، وهو رجل في الثلاثين من عمره . صحيح انه كان هناك ابن غير شرعي رزقته من الكونت دو فلاهو ، ولكن هذا الابن لم تره قط ، وقد أشربت لويس ، على الأقلّ ، التبجيل العاطفي الشخصي الذي كانت تكنّه لعمه نابوليون الكبير ، الذي كانت روحه ما تزال سائدة في فرنسا .

عبر سنوات المجد ، عندما كانت عين اوروبا تتركز بنظرة منوّمة مغنطيسياً على الرجل القصير القامة في الرداء الاخضر والسيرك المتألق من الامبراطورية التي أنشأها ، مثلّت أورتانس ، ابنة الامبراطورة جوزفين ، من زوجها الأول ، دورها المعتدل .

لم تكن شخصيتها مفعمة بالحيوية على نقيض شخصية أمّها . كان شعرها

كستنائياً فاتحاً ، وعيناها زرقاوين . فتاة مثقفة ترقص ، وتعزف على البيانو الأغاني الجميلة ، وترسم بمهارة بالألوان المائية . ولو اتيح لها الاقتران بالرجل الذي أحبّت الجنرال دوروك ، لكانت اختفت بكتمان في خلفية الصورة ، بعيداً عن الاضواء بدلاً من أن تصبح ملكة هولندا .

كانت السنوات الأربع من حكم لويس بونابرت ، وهو وضع فُرض عليه من جانب أخيه الذي كاد يحكم العالم ، ثقيلة الوطأة على زوجته الشابة . وعندما تنازل أخيراً عن العرش ، عقب نزاعات عاصفة مع نابوليون وانسحب الى النمسا ، تنفست أورتانس الصعداء ، وعرفت راحة لاتوصف .

لم يكن قصر لاهاي الملكي يحمل لها سوى الذكريات الحزينة ، إذ في هذا القصر توفي طفلهما البكر ـ وكان في الخامسة من عمره . ولم تلطّف من حزنها ولادة إبن آخر . وكان الانفصال بينها وبين زوجها حاسماً ، ولم يُصغَ الى طلبات لويس بونابرت من اجل إعادة ابنيه الباقيين .

وفي السنة ١٨٠٩ كتبت « السيدة الأم» ، والدة الامبراطور العجوز الهائلة ، الى ابن آخر ، لوسيان ، بنوع من المرح . كانت تكره جوزفين ،ولا تميل الى أورتانس التي حمّلتها كل محن لويس ـ كتبت تقول :

«الامبراطور على وشك أن يطلّق الامبراطورة . تم الاتفاق على هذا ألامر ، وسيُعلن عما قريب . . .لويس كذلك ينفصل عن زوجته ، ولكن من دون طلاق . . .»

حزن كل الذين أحبّوا جوزفين ، ولكن مهما تكن مشاعرها الشخصية ، فإن الملكة اورتانس كانت مضطرة لأن تصاحب الامبراطورة الجديدة ، ماري ـ لويز ابنة امبراطور النمسا ، وترى ابنيها الاثنين يُدفعان خطوة أبعد الى الوراء لدى مولد وارث نابوليون ـ ملك روما .

في ما عدا ذلك ، كرّست أورتانس نفسها للأسرة ، ومن أبّهة حياة القصر لم يسرّها العودة الى حجرة نوم طفليها حيث كانت المجموعة الصغيرة تتمحور حول جوزفين . الى هنا كان الامبراطور ، الذي ما يزال على علاقة ودّ مع زوجته التي تخلّى

عنها ، يأتي ويمارس ألعاباً مرحة وصاخبة مع الصبيين الصغيرين ، ويرجّحهما من رأسيهما لكي يصنع منهما رجلين . ولم يلم أحدحقاً أورتانس التي هجرها زوجها ، عندما أقامت لها علاقة عاطفية مع الشاب الوسيم دو فلاهو . ولكن مهما تكن النتيجة ، فإن الامبراطور لم يعد يسمح بأي طلاق جديد في أسرته ، وتم تجاهل الوضع بكل لباقة .

في السنة ١٨١٤ ، حدث الإخفاق الهائل الذي لم يكن يبدوممكناً . فقد حطّم الحلفاء في اوروبا «الجيش العظيم» في معركة لايبزيغ ، واندفعوا غرباً ، ودخلوا باريس . وانهارت الامبراطورية ، وسُجن سلطانها في جزيرة إلبا .

كانت الملكة أورتانس وحدها في باريس ، ومستقبلها كان حقاً محفوفاً بالمخاطر . ومع أنها بونابرتية بالاسم ، وحسب ، فهي ما تزال «بونابرتية» بالتفكير والعاطفة . وكانت الامبراطورة ماري ـ لويز قد هربت ولجأت الى حماية ذراعيّ أبيها الامبراطور النمساوي ، في مكان آخر .

وكان العدو شهماً تجاه جوزفين وابنتها . فقد زارهما في ماليزون قيصر روسيا وكان وسيم الطلعة ، والملك لويس الثامن عشر البوربوني الذي أُعيد الى العرش ، وهو جنتلمن عزيز ، وإن لم يكن فعّالاً ، ولم يكن يحمل أي ضغينة نحوها .

من يسعه لوم أورتانس ـ ولكن الكثيرين فعلوا . فقد وقفت وحيدة . وقد تحطّم من حولها كل شيء ، الامر الذي جعلها تقبل بحسن تفهُّم ، متجاوزة كل انفعال ، مرتباً سنوياً ولقب دوقة سان ـ لو .

ولم يعد الاميران يحملان لقبيهما الامبراطوريين ، ولكن بالنسبة الى الامبراطوريين ، كانت اورتانس ما تزال ملكة هولندا ، وكانت تُعامَل بكل مجالي التكريم التي تفرضها الملكية . كانت تُعامَل بازدراء من جانب جماعة آل بوربون ، ويتجسس عليها اولئك الذين كانوا يرون في حركة أو كلمة غاية سياسية . وعلى الرغم من محاولتها إبقاء صالونها مجرد صالون للفنون ، فإن العناصر الخطرة تسلّلت اليه ، فعاشت في خوف من القيام بأي حركة خاطئة . وغدت وحيدة عقب وفاة أمها جوزفين ، محطمة القلب ، وعلى شفتيها اسم نابوليون .

كتبت اورتانس الى أخيها اوجين دو بوهارنه تقول : «إن عزلتي ترعبني .» كانا مخلصين احدهما للآخر ، ووثيقي الصلة ، ولكنه كان هو ايضاً منعزلاً مثلها ، في بافاريا ، ولا يسعه أن يمدّ اليها الآن يد المساعدة .

* * *

وهكذا انتهت السنة ، واقبل الربيع من جديد . وكان ١٥ آذار ١٨١٥ . كانت الوفية المخلصة تهمس : «عندما يُزهر البنفسج ، سيعود من جديد !» وهكذا كان . كانت الملكة أورتانس في عربتها في طريقها الى غابة بولونيا ، عندما حيّاها رجل انكليزي مضطرب ، وبادرها بقوله :

– أسمعت بالنبأ؟ لقد نزل الامبراطور الى اليابسة آتياً من جزيرة إلبا !

قبل انصرام النهار كانت باريس في اهتياج وقلق ـ خوف من جهة ،وابتهاج من الجهة الاخرى .

وعلى الرغم من أن جنرالات آل بوربون رحلوا ـ وأن الماريشال ناي اقسم على ان يحمل الامبراطور الى باريس في قفص ـ فلا شيء كان يمكن ان يصدّ التيار الهادر الزاحف من الجنوب ،بعد أن راحت المدينة بعد الاخرى تنضم الى النسور الامبراطورية . وهرب الملك لويس الثامن عشر وحكومته ، وفي اليوم العشرين من شهر آذار ، انتظرت الملكة أورتانس بملابس الحداد السوداء ، في قصر التويلري دخول الامبراطور المظّفر .

كان من الصعب عليها الاجابة عن اسئلته الحادة عندما وجدا نفسيهما وحيدين .

قال لها بنبرة مهاجمة :

– هل أسأت فهم وضعك لكي تتمكني من التخلّي عن اسمك ، وعن المقام الذي تمتعت به بفضلي ، وتقبلي بلقب منحك إياه آل بوربون؟ هل كان ذلك واجبك؟

واضطربت اورتانس ، وأجابت :

– كان واجبي ، مولاي ، أن أُفكر في مستقبل ولديّ ، ما دامت جلالتك تنازلت

عن العرش ، وتركتني غير قادرة على عمل أي شيء آخر .

وكان احتقاره حازماً :

- ولداك ! ألم يكونا ابنيّ اخي قبل ان يكونا ا ابنيك؟ هل تصوّرت أن لك الحق بأن تسمحي بأن تنزل رتبتهما التي تخصّهما؟

ومع أن أورتانس تذرّعت بأنها «استشارت قلبها وحده» فإن ذلك لم يثر مشاعر الامبراطور .

وردّ ببرودة :

- إذاً ، كان على قلبك أن يعلمك أن المرء عندما يشاطر أسرة ما ازدهارها ، ينبغي له أن يعلم كيف يشاطرها محنها !

قال ذلك ، وخرج الى الشرفة ليحيي الجماهير المصطخبة في الخارج . «الايام المائة !» ـ النصر لن يدوم أطول من ذلك . وبينما اتخذت أورتانس محل الامبراطورة في قصر التويلري ، كان نابوليون يخطّط صموده التالي ضد الحلفاء . وفي حزيران ١٨١٥ ، واجه قدره النهائي في ساحة القتال في وترلو . وعند وداع أسرته وأصدقائه ، جذب إليه الامير لويس الصغير ، وقال لأمه اورتانس :

- قبّليه ، يا اورتانس ، سيكون صاحب قلب طيب ، وروح ممتازة . قد يكون أمل سلالتي !

ولم تستطع الأم ، ولا الابن ، نسيان هذه الكلمات مطلقاً .

انتهى كل شيء في غضون اسبوعين . ففي هزيمته ، وفي الايام المميزة القليلة التي تبقّت له ، ذهب الامبراطور وأورتانس الى منزل جوزفين في مالميزون ، وكانت جوزفين من تذكّرها في غمرة يأسه وقنوطه . قال :

- يبدو كأنني أُشاهدها آتية من ممشى الحديقة ، وهي تجمع بعض الزهرات التي احبتها كثيراً . كانت تجمع من الجمالات اكثر مما تجمع اي امرأة عرفتها .

ومن مالميزون بدأ امبراطور الفرنسيين المخلوع رحلته الى جزيرة القديسة هيلانة .

وعاد الحلفاء الى باريس من جديد . ولم تُمنح أورتانس اي نوع من الرحمة او الرأفة ، وهكذا بدأت أشهر التعب الكثيرة والرحلات عبر اوروبا مع ولديها . وكانت

تُضطر إلى مغادرة البلدان التي تلجأ إليها بعد فترة من اقامتها فيها . ذلك بأن سمعتها كبونابرتية متعصبة ، حرمتها الراحة . ولكن بعد اكثر من سنتين ألفت نفسها مستقرة في منزل في آريننبرغ ، على ضفاف بحيرة كونستانس السويسرية ، وتحدت السلطة أن تنقلها من مكانها . وقد ظل ذلك ملاذها طوال عشرين سنة وحتى وفاتها !

في ذلك المنزل الصغير ، أعادت اورتانس خلق جو الامبراطورية . كانت الغرف تزدان بالستائر الحريرية حسب النمط السائد ، وكان هناك الرياش من ماليزون ، وسريرها كان ذلك الذي كان سابقاً للملكة ماري ـ انطوانيت ، زوجة الملك لويس السادس عشر . وقد حملت معها كتبها ، ومسند قماشة الرسم ، والبيانو ، والأشياء الثمينة التي سُمح لها بالمطالبة بها .

وزرعت حديقتها بالزهور من فرنسا في الصيف ، وفي الشتاء كانت تكتب مذكراتها ، وتؤلف المارشات العسكرية . وكان الزي السائد في اوساط المجتمع المتحرر فكرياً أن يزور أفراده الملكة اورتانس في معتزلها الجبلي ؛ ومن دون أصدقائها كان يمكن ان تكون حياتها رتيبة حقاً .

ونجح أخيراً زوجها ، لويس بونابرت ، في المطالبة بابنهما البكر ، فأوفد الأمير نابوليون الى روما . وخشيت أورتانس ان يستدعى كذلك لوي ـ نابوليون ، فكرّست حياتها لتنشئته . وتحت إشرافها ومجموعة من المعلمين والمربّين نشأ الصبي شاباً ذكياً ، تقلقه خرائطه ، ورسومه البيانية ، ودروسه العسكرية . وكانت دراسته الأشد صرامة في ميونيخ سبباً في منحه نبرة ألمانية ، ونظرة فاغنرية رومنطقية . وكان يتوق الى الخدمة في الجيش الروسي ، فرُفض طلبه ، فاكتفى بالتدرب في المدفعية السويسرية .

كانت الملكة أورتانس تتمتع بجاذبية لطيفة راحت تنمو أكثر دفءاً مع ذبول الصبا . حولها كان يفوح عبير البنفسج ، وترتسم هالة من الجلَد الصبور . ومع مرور الأيام استطاعت أن تنمي المهارات التي جعلتها رفيقة ساحرة ومثقفة بالنسبة الى سيدات من مثل مدام دو ستال ومدام ريكامييه . . .

التقاها الكسندر دوما ، الأب ، وكان بعد شاباً لم يبلغ ذرى مجده الأدبي العظيم للمرة الاولى في آريننبرغ ، فوقعت من نفسه موقعاً حسناً . وقد كتب يقول :«كنت

على وشك اختبار فكرة ، وربما إضاعة وهم . إن كل المشاعر السخية التي تعمر قلب الانسان ـ العاطفة ، الاحترام ، الشفقة ، طالبت بالتعبير . كدت أخرّ راكعاً على ركبتيّ أمامها !»

ومع أن انفعالاً عاطفياً ومض بينهما ـ عبقرية الدم الملوّن جزئياً (كان دوما ، من جهة جدته ، يجري في عروقه دم زنجي) والملكة المتوسطة السن ، الذابلة ـ فإن دوما بتعاطفه الجمهوري لم يكن قادراً على التلاقي معها سياسياً .

سألت اورتانس صديقها الشاب :

– ما هي نصيحتك لواحد من أفراد الأسرة ما زال يحلم بانبعاث القوة والمجد النابوليونيين ، وهو يتأمل في ذلك؟

فكان الجواب الذي لا يقبل الجدل :

– نصيحتي له بأن يستيقظ !

ومع انقضاء عقد من الزمن ، وبداية عقد آخر ، كانت الحكومات المتبدلة في فرنسا تنظر شزراً الى الملكة اورتانس عبر الحدود . كانت تقدّر جيداً التهديد الكامن في لوي – نابوليون . وقد نقل الجواسيس معلومات عن اجتماعات سرّية تُعقد في آريننبرغ ، وعن جمعيات سرية مخلصة للقضية النابوليونية .

وتهدّد الخطر بوفاة ملك روما الفتى ، في فيينا . وكان الملك لويس الثامن عشر قد توفي أيضاً ـ وخلفه شارل العاشر قد غادر التويلري في عربة ـ ولم يكن بوسع لوي ـ فيليب أن يسيطر على وزرائه ، وألفت فرنسا نفسها في ورطة سياسية محزنة .

غير ان لوي – نابوليون لم يكن بعد مستعداً لفرنسا . وقد أحزنها ، على الرغم من تحذيراتها المتكررة ، أن يتهور ويتحالف مع الثوّار الايطالين المتورطين في احدى ثوراتهم الموسمية . وكلا الاخوين ، هو والأمير نابوليون كان موضوع إرباك لها الى أقصى الحدود . كانا يعرضان بتباهٍ العلم المثلث الألوان ، ويصادقان اعمامهما الطاعنين في السن في روما ، ويندفعان بتهور الى خطوط القتال غير آبهين بقنبلة الشظايا .

كانت أورتانس شخصياً من استرجعت لوي ـ نابوليون بينما كان والده بعصبية واضطراب ، يقوم بتحركات دبلوماسية لا جدوى منها . وجدته في الجيش على شفا الموت من جرّاء الحمّى ، فحملته ، متنكراً بلباس خادم لها . أما شقيقه الأمير نابوليون

فقضى بسبب الديزنطاريا قبل أن تتمكن من الوصول اليه .

* * *

كانت «قضية ستراسبور» ، في السنة ١٨٣٦ ، الحدث الذي جعل صبر الفرنسيين ، في نهاية المطاف ، ينفد ، فأبعد لوي ـ نابوليون الى ما وراء المحيط الاطلسي . وقد كتب العم جيروم بونابرت ، ملك وستفاليا سابقاً ، الى العم جوزف بونابرت ، ملك اسبانيا السابق ، يقول «ان كل ما تذكره عن سلوك ابن أخينا لويس المتطرف المتهور صحيح تماماً . نحن لا نعرف العمل السخيف .»

كان ينبغي للوي ـ نابوليون ان يكون أذكى من ذلك . فلقد استطاع أن يرفع مع جماعة من المتآمرين المتحمسين راية النسر الامبراطورية فوق الثكنات العسكرية في ستراسبور ، ويرفعوا حتى بضع صيحات من «يحيا الامبراطور !» . غير أن الشعلة ما لبثت أن أومضت وتلاشت . وانتهت المؤامرة غير المدروسة جيداً ، بزجّه في السجن بصورة مُذلّة .

ومع أن أورتانس كانت جدّ مريضة ومرهقة ، فلم تتردد في المغامرة بصحتها ، وربما بحياتها واجتازت الحدود الى فرنسا المحرّمة عليها . فلما بلغت باريس ، لجأت الى صديقتها مدام ريكامييه ، ومن هناك وجّهت رسائل الى الملك لوي ـ فيليب مسترحمة إياه لابنها . وكان مستعداً لمنحه الرحمة جزئياً . لم يكن بالوسع التغاضي عن الأمير الخطير ، ولا يرغب في أن يخاطر باجراء محاكمة علنية .

كان لديه من المشاكل ما يكفيه ، ولذا تم التوصّل الى تسوية عادلة ـ النفي الى أميركا مدة عشر سنين ، شرط أن تسهر السيدة أورتانس على تنفيذ الشروط .

ولغط الناس بأن والدته ستلحق به ـ عصفوران بحجر واحد ـ ، ولكن لويس لم يحصل على ذلك . كانت صحتها سيئة ، وهو لا يمكن أن يُكرهها على تحمّل مخاطر مجهولة . وقد كتب إليها من سجنه : «لا تبكي ، يا أماه أنا ضحية قضية نبيلة . . . الحياة ليست إلا أمراً ضئيلاً . الشرف وفرنسا هما بالنسبة اليَّ الكل في الكل !»

وعادت اورتانس حزينة الى فرنسا ، وكان «الشيء الضئيل» بالنسبة اليها آيلاً الى النهاية ، ولم يكن مضى على لويس غير سنة في أميركا ، حتى كتب اليه طبيبها عبر واحدة من رسائلها المرحة اليه «تعال ! تعال !»

وأطاع الأمير ، وتنوسي كل شيء آخر باستثناء حاجة أمه اليه غير المعلنة . ووصل بعد رحلة محفوفة بالمخاطر ـ وذروة المخاطر القبض عليه ـ الى آريننبرغ ، عندما كانت الورود في عزّ ازدهارها . وأنعش حضوره اورتانس التي ظلت تتخلّف (تبقى على قيد الحياة) حتى نثرت رياح تشرين الأول اوراق الشجر الصفراء عبر ارجاء الحديقة .

كانت تتساءل ماذا سيحدث للويس بعد أن ترحل عن هذا العالم؟ هل سيظل يتذكّر اسمه الكبير ، وواجباته ، وكل ما علّمته إياه؟ هل سيبرهن على أنه جدير بنابوليون الكبير الذي قضى في جزيرة القديسة هيلانه الموحشة؟ وأخيراً وضعت يدها بيده ، وتمتمت «الوداع ، يا لويس ، الوداع !» واستسلمت الملكة اورتانس الى الرقاد .

ماتت ابنة الامبراطورة جوزفين في ١٠ تشرين الاول ١٨٣٧ . وقد حُملت الى فرنسا التي أحبتها دوماً ، لترقد بالقرب من ضريح أمها في ماليزون . ماذا سيكون مصير لويس؟ هكذا كانت تتساءل . وبعد سنوات عدة ، كشف مصيره بنفسه في النقش على ضريحها :

«إلى الملكة اورتانس

ابنها

نابوليون الثالث»

فولتير الممثل

نادراً ما نصادف لدى امرئ حباً جنونياً لخشبة المسرح مثل حب فولتير لها ، هذا الكاتب والمفكر الذي يعذبه الف ألم ، ويمضّه الف قلق وهمّ ، ويسحقه الف عمل ، ومع ذلك كان يغادر سريره او يهجر طاولة كتابته وقد تجاوز السبعين ، لكي يرتدي ملابس الابطال المأساويين مانحاً اياهم الحياة ، وحارقاً في الوقت نفسه حياته !

ويصوّره لنا احد المعاصرين ، وهو يتأهب منذ صباح عرض المسرحية للقيام بدور لوزينيان ، فينزل الى الحديقة مرتدياً ملابسه لكي يصدر الاوامر الى بستانيّه .

في السنة ١٧٧٨ ، وقبيل وفاته ببضعة اشهر عن ٨٥ عاماً ، كان ما يزال يدرب الممثلين على الالقاء مبيِّناً لهم النبرة ، مقطِّعاً الشعر ، معيِّناً النغم بعصاه ، ثائراً من شدة الغضب على الممثلين الذين «يأكلون» نصف الابيات الشعرية في بحوره الشعرية الاسكندرانية (بحر شعري من اثني عشر مقطعاً صوتياً) ، وقد وزنها بالكثير من الحب والعناية .

لقد شغل حب التمثيل (وكتابة المسرحيات) فولتير منذ كان في الكلية .

وعندما استقر في سيراي ، في إقليم شمبانيا ، عند السيدة شاتليه ، تكشّف فولتير عن مهندس معماري ، وملتزم او مقاول ، وعامل ، لإصلاح القصر القديم ، وكان من اول اهتماماته ان ينشئ مسرحاً في اقصى الرواق : الواح خشبية فوق براميل ، مع كواليس مغطاة بالسجاجيد العتيقة في إطار من كومات اغصان . وكان المدعوون وضيوفهم يمثلون امثالاً وهرجات (تمثيليات مضحكة يغلب فيها التهريج والمرح) ، من تأليف سيديّ القصر .

وكان فولتير يقدِّم على مسرحه هذا الدمى التي تُحرك بالخيطان ، ويقدم الفانوس

السحري بحيوية ومهارة تثيران اعجاب الجميع .

وعقب وفاة السيدة دو شاتليه (اميلي السماوية) ، عاد فولتير الى باريس ليقيم في مسكنه القديم في شارع لاترافيرسيير . وقد استدعى اليه نسيبته مدام دنيس ، كاترين اللطيفة لتدير شؤون منزله . وكانت هذه النسيبة تعشق التمثيل ، فأيقظت لدى عمّها حباً قديماً يتفق ، فوق ذلك ، مع الزيّ الرائج آنذاك . ففي كل مكان في باريس ، وفي المناطق ، كان التمثيل على قدم وساق في المجتمع .

ومن اجل الممثل الشاب الناشئ لوكان ، الذي كان فولتير يتوقع له الموهبة والمستقبل الباهر والنجاح في عالم التمثيل ، حوّل هذا الأديب الكبير مخزن الغلال في منزل شارع لا ترافرسيير الى صالة مسرح ، يمكان ان تتسع لحوالى مائة شخص . وكان فولتير ولوكان والسيدة دنيس يمثّلون معاً . وفي هذا المكان قدّم فولتير روايته المأساوية «روما المُنقذَة» التي لم يشأ ان يعهد بها الى ممثلي «المسرح الفرنسي» الذي كان يسميه على سبيل الاحتقار : «هؤلاء السادة في البيت المشبوه» !

من برلين في السنة ١٧٥١ ، كتب فولتير الى السيدة دنيس ، يوصيها بأن تُعنى كثيراً بهذا المسرح الصغير الذي كانت تعيره مجاناً إلى جمعيات الهواة .

وقد تكشّف فولتير «عن باعث حركة» مذهل في هذا المجال . وبقي كذلك حتى وفاته .

ولم يكن الممثلون المحترفون ـ وسواء منهم الممثلتان لا دومينيل او لا كليرون ـ ليغفروا له إخفاء تفضيله ممثليه الهواة ، وخاصة السيدة دنيس ، عليهم . وكانوا يخشون سورة غضبه ، ومتطلباته ككاتب ، ويتهمونه بأنه يود القضاء عليهم .

قالت له ذات مرة الممثلة لا دومينيل :

– ينبغي ان يكون المرء مضطرباً لكي يبلغ النبرة التي تود مني ان اؤديها !

فكان رده :

– اه ! حقاً ، ايتها الآنسة ، ان الاضطراب والاهتياج هما المطلوبان من المرء لكي يبرع في كل الفنون . اجل ، اجل ، بلا اضطراب لا يسع المرء ان يكون لا شاعراً جيداً ، ولا ممثلاً جيداً .

لم تكن العروض التي قُدّمت على مسرح شارع لا ترافرسيير الا فاتحة العروض التي قُدمت في قصر صو لدى الدوقة دو مين التي كان مسرحها الخاص من افخم المسارح واشهرها بين مسارح المجتمع الكثيرة التي انتشرت بصورة واسعة في القرن الثامن عشر . وفي قصر صو عرضت مسرحية «سميراميس» لفولتير حيث جاءت باريس بأسرها لتصفق للممثل كما لو كان خارجاً من ضريح نينوس ، نصف عارٍ ، مشعث الشعر ، والدم يقطر منه ، على ضوء البروق وقرقعات الصاعقة . . .

كان فولتير في آن المؤلف ، والمخرج ، والممثل ، يحتفى به في كل حفلات العرض الاول التي كانت تقدَّم . واعاد تقديم «روما المنقذة» ومثَّل دور شيشرون الذي اضطلع به من قبل . ولم يكن ممكناً ان يسمع المرء شيئاً اصدق ، واشد تأثيراً في العواطف ، واكثر حماسة من فولتير في هذا الدور . ففي الحقيقة ، كان فولتير شيشرون شخصياً يهدر بخطب من فوق المنبر ضد تدمير الوطن ، والقانون ، والعادات ، والدين .

واخيراً استقر الشاعر نهائياً في املاكه الواسعة في فيرني ، بالقرب من جينيف ، وفي المسكن الصيفي المعروف باسم «ديليس» . وبالطبع ، كان هناك مسرح في فيزني ، وقد بناه فولتير حسب مشتهاه . لم يكن ثمة ابسط منه ولا حتى اجمل منه . وكم وجد فيه من المسرّات ! يشهد على ذلك عدد كبير من رسائله . ففي رسالته المؤرخة في ٢٤ تشرين الاول ١٧٥٩ مثلاً يعبّر عن افتتانه باللباس الجميل الذي كان يرتديه ، والموهبة التمثيلية التي كانت تتمتع بها السيدة دنيس . وقد هتف وهو يبكي من شدة الفرح «انها الممثلة دو مينيل !»

وكان فولتير سواء اقام بتمثيل دور ما أم لا ، يشهد هذه العروض المسرحية التي كان يطمح مجتمع الشخصيات البارزة الى دعوته اليها . وهو في كل مكان في آن معاً : على خشبة المسرح ، وفي الكواليس ، وفي القاعة ، معلّقاً على الرواية المعروضة بصوت مرتفع ، هادراً بالمديح والتقريظ ، واللوم والتعنيف ، هاتفاً ، مصفقاً ، ضارباً الارض برجليه ، مقهقهاً من شدة الضحك ، وباكياً بين حين وآخر .

اجل هذا المسرح هو الاجمل في الكون ، والمسرحيات التي تُعرض عليه هي الاروع ، ما دام مسرحه وما دامت المسرحيات من تأليفه ، وما دام الممثلون هم السيدة

دنيس ولوكان واصدقاءه . «ولكن ما هذا؟ ! ما هذه الضجة؟ فهناك من يشخر في مقاعد الصف الاول من القاعة . من يشخر؟ من يجرؤ على الشخير؟ انه الرئيس شارل دو بروس القاضي والكاتب المعروف» . فرمى فولتير قبعته على رأسه قائلاً :«اوَ تحسب نفسك في جلسة المحكمة ؟»

وانتهى العرض التمثيلي ، فهتفوا وهلّلوا لسيد فيرني . واختلط الفلاحون والفلاحات بالاسياد الكبار ، والمتظرّفين . فلقد جاؤوا يحملون الى الشاعر سلال الزهور ، والثمار ، والخضر . وارتُجلت حفلة راقصة على الروضة ، واحس العجوز المنتشي بالمجد وبالسرور ، بساقيه كأنهما ساقا فتى في العشرين ، فافتتح الحفلة الراقصة . . .

واذا كان فولتير تمتّع بمزايا التمثيل ، فإنه كانت له عيوبه ايضاً . فقد كان تقريباً من نوع «هل شاهدتني؟» فالتواضع لم يكن من شيمته . لقد كان يعتزّ بانتصاراته كممثل اكثر منه ككاتب . وكان يتبجّج بأنه ابكى كل اعضاء مجلس جينيف بتمثيله مسرحية «زايير» ولا احد سواه يستطيع افضل منه ان «ينتزع الروح» في الفصل الرابع من مسرحيته «محمد» . وكتب الى صديقه دارجنتال يقول انه لما كان يمثل مع نسيبته السيدة دنيس ، كان الجمهور يؤسر ويؤخذ تماماً ؛ مؤكداً «انه كان يستحيل على هذا الجمهور المقاومة»

في السنة ١٧٦٠ ، كانت ابنة أخي الكاتب الكبير بيير كورناي تعاني العسر والفقر ، فكتب الشيخ الجليل : «لتأتي الى فيرني . ستكون السيدة دنيس معلّمتها . وسأكون انا بمثابة الأب لها ، وستجعلها تمثل دور شيمين» . وهكذا كان .

ومثلت «رودوغون اللطيفة» ـ كما كان يسميها فولتير ، كهاوية ، «ولكن بإحساس غريب» مسرحيات عمها الكبير التراجيدية ، على المسرح الصغير في فيرني .

عندما كان هناك وقت للحبّ!

كانت الساعة تدقّ الحادية عشرة قبل ظهر يوم ١٣ كانون الثاني من السنة ١٨٥٣ ، عندما أدارت اوجيني دو مونتيجو مقبض باب مخدع امها في مسكنهما القائم في الرقم ١٢ ، من ساحة فاندوم ، في باريس .

كانت اوجيني تبدو مشرقة في مباذلها الحريرية البيضاء ، وهي تتحرك نحو الموقد حيث تحترق قطعة من الحطب .

وضعت احدى قدميها الدقيقتين على حاجز الموقد النحاسي ، وألقت نظرة عجلى على الساعة ، وبحركة ضعيفة من نفاد الصبر راحت تنقر بأصابعها رف الموقد الرخامي .

ورفعت عينيها ، وتطلعت في المرآة ، ولكن فكرها كان مليئاً بخليط من المشاعر المتضاربة بحيث أنها بالكاد رأت انعكاس ملامحها .

فبعد لحظات قليلة سيقرّر مصيرها . فلقد انتصرت نصيحة أمها ، ومكائدها الشخصية .

إنه انتصار ، ولكنها تتساءل عما اذا كان تاج فرنسا متلألئاً بما فيه الكفاية لكي يعمي عينيها عن الشخصية الغامضة للرجل الذي ينبغي لها ان تقبل به زوجاً؟

ففي الليلة السابقة ، وفي أثناء الحفلة الراقصة الرسمية التي أقيمت في قصر التويلري ، جابهت مع امها الإهانة ، الإهانة العامة .

فعندما تقدمتا من المقاعد الى يسار العرش ، قالت السيدة دروروين دو لويس ، زوجة وزير الخارجية الفرنسية ، بصوت مرتفع : «هذه المقاعد مخصصة لكبار الرسميين .»

وتردّدتا ، وكادتا تنسحبان ، عندما نهض الامبراطور ـ نابوليون الثالث ، ابن أخي نابوليون الكبير ، وكان اصبح امبراطور الفرنسيين في السنة ١٨٥٢ ـ ونزل عن المنصة ، وأخذ بيد اوجيني ، وقادهما معاً الى المقاعد المذهبة وسط الأسرة الامبراطورية .

حتى بعد ذلك ، لم تكن الأمور سهلة .

لقد عقدت اوجيني العزم على حمل نابوليون على اتخاذ قراره في تلك الليلة بالذات . وهمست في أذنه وهما يرقصان : «مولاي ، أودّ أن اتحدَّث اليك سراً .» فأجابها على الفور : «تعالي غداً .» فقالت : «لا ، يا مولاي ، ينبغي أن يكون حديثنا الليلة . اودّ أن أقول الوداع .»

ونظر اليها نابوليون نظرة دهشة وفزع . وجذبها من زحمة الراقصين ، وقادها الى مكتبه الخاص ، وقال لها بصوت يكاد يرتعش بالتأثر : «لماذا الوداع؟»

وتذكّرت اوجيني كم غدت هادئة عندما غامرت بقدرها بعبارة يائسة واحدة .

قالت : «مولاي ! أنا لن أبقى لكي أهان من قبل حاشيتك .»

وفهم نابوليون للحال . حتى الآن شعرت بالارتياح الذي تبددت فيه شكوكها بجوابه الفوري : «لن تهاني أبداً بعد اليوم . غداً سأطلب يدك من الكونتيس دو مونتيجو .» فقالت أوجيني : «غدا بعيد جداً ؛ وقد يكون ثمة اعتراضات غداً . أقترح ، يا مولاي ، أن تكتب الليلة رسالة الى والدتي .»

وأحسّت أوجيني بوخزة من ذنب إذ ألحَّت على الأمر ، ولكنها كانت تعلم ان وعداً مكتوباً يصعب النكث به .

ومن دون أي تردُّد ، جلس الامبراطور الى طاولة مكتبه ، وكتب الرسالة المصيرية ، واستدعى السيد موكار ، رئيس غرفته . وتأملت اوجيني وجه هذا الأخير ، وتبيّنت ملامح الدهشة التي اعترته إذ تلقّى الأمر : «احمل هذه بنفسك صباح غد الى الكونتيس دو مونتيجو .»

وتذكرّت كل ما حدث في تلك الأمسية الخطيرة ، متمتعة بمشاعرها مع استعراض كل تفصيل . وفجأة فُتح الباب ، ودخلت السيدة دو مونتيجو تتبعها وصيفتها

الاسبانية بيبا . وخاطبت ابنتها بقولها :

– ليس ثمة بعد اي رسالة ! كيف استطعت النوم ، يا اوجيني؟ بالنسبة اليّ ،أنا لم يغمض لي جفن !

ووضعت بيبا صينية فوقها كوبان من شراب الشوكولا على مائدة صغيرة ، حملتها قريباً من النار .

في هذه اللحظة قُرع جرس الباب الامامي بقوة ، فنظرت السيدتان احداهما الى الاخرى بصمت ، ثم طُرق باب المخدع ، ودخل مدبّر المنزل ؛ قائلاً :

– بالباب السيد موكار ، حاملاً رسالة من صاحب الجلالة الامبراطور ، يودّ تسليمها الى السيدة الكونتيس شخصياً .

وإذ انسحب الخادم مغلقاً الباب وراءَه ، احتضنت السيدة دو مونتيجو ابنتها مرددة : «أخيراً ، يا بنيتي ! اوجيني امبراطورة الفرنسيين !»

* * *

كان يوم عقد الزواج المدني في قصر التويلري ، ووقفت أوجيني أمام مرآة عريضة في الجناح الأنيق من الغرف التي جهّزها نابوليون لإقامتها في قصر الايليزه .

حولها ، كانت تركع وتزحف الخياطات والفتيات العاملات لديهن ، ليضعن اللمسات الأخيرة على ثوب الزفاف الرائع الذي سترتديه اوجيني في الحفلة الرسمية في كاتدرائية نوتردام في اليوم التالي . وعلى منصة وقفت الخياطة الشهيرة فينيال ، مرشدة وموجهة بنبرات عالية هذه المجموعة من النساء .

واعترى اوجيني شعور بالتعب . فلقد اضطرت الى التعجيل في التحضيرات ، لأن نابوليون قرَّر أن يتمّ الزفاف على الفور تقريباً .

بالكاد مضى اسبوعان على تلك الليلة المصيرية في قصر التويلري عندما طلبت الزواج ـ أو هل هي طلبت الزواج؟ لقد شعرت أنها تحتاج الى بضع ساعات تلك الامسية لتفكرّ ملياً ، ولتعيد هدوءَها ورباطة جأشها قبل الحفلة في قصر التويلري .

وهكذا ، عندما انسحبت فينيال وجيشها ، حاملات ثوب الزفاف كما لو كان ذخيرة مقدسة ، شكرت أوجيني اللّه تعالى ، وطلبت الى وصيفتها الوفية بيبا أن تجّهز لها حمّامها ، وان تحرص على عدم اقتراب احد منها حتى يحين موعد ارتداء ملابسها استعداداً لحفلة الليلة .

وسألتها بيبا :

– واذا أقبل السيد ميريمه؟

فكان جوابها :

– آه ، إنه يختلف عن الباقين ، ففي وسعه أن يدخل ساعة يشاء ، ودوماً !

وسافرت أفكارها بعيداً في الماضي ، وهي مستلقية في حمّامها المعطر . رأت نفسها واختها الصغيرة باكا ، فتاتين صغيرتين ، تلعبان في حديقة منزلهما الأبوي في ساحة الملائكة ، في مدريد ، في إسبانيا .

وتذكّرت أنه كان هناك دوماً شعور بالحاجة للقيام بأمور كثيرة ، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة ـ كما يقولون . فقد كان المال هو العقبة .

سوى أن ذلك لم يكن يهّم كثيراً ، نظراً لوفرة الأصدقاء ؛ من هؤلاء كان اثنان في الطليعة ، هما ستندال ، والكونت بروسبير ميريمه ، وكلاهما كاتب شهير .

في السنة ١٨٣٤ عرّف ميريمه ستندال على آل مونتيجو ، وكان هو من كان يُجلس كلاً من الفتاتين على ركبتيه ، ويروح يروي لهما القصص عن نابوليون الأول العظيم ، والمجد الذي جرَّه على فرنسا ، مضيئاً في قلبيهما حماسة لم تخبُ قط .

وتوقفت اوجيني عن الحلم في حمَّامها ، وارتدت دثاراً دافئاً ، واستلقت على مقعد مستطيل لدى طرف سريرها . وأضعفت نور القنديل قليلاً ، وراحت تحدّق بالنار حيث قطع الحطب تحترق مرسلة سيولاً من الشرارات عبر المدفأة السوداء .

ومن جديد استرخت ، وسبحت أفكارها بحريّة . . .

إنها تعقد زواجاً رائعاً ؛ وغداً في كاتدرائية نوتردام ستصبح امبراطورة الفرنسيين ـ ولكن ، في نهاية المطاف ، من كان آل بونابرت؟ هي ابنة نبيل اسباني ، كونت دو مونتيجو ، ودوق بينارندا . وكانت أمها من ذرية أُسرة كركباتريك في كلوسبرن ، في

انكلترا ـ وربما كان نابوليون من يعقد زواجاً موفقاً؟

وبينما هي مستغرقة في التفكير ، سُمع قرع على الباب ، ودخل بروسبير ميريمه .

ومن جديد ، شاهد هذا الأديب البارز ، الذي عيّن نفسه مرشداً لها في صباها ، ومعلماً تقريباً ، جمال التي شملها بحمايته ، المرأة التي قُدِّر له أن يخدمها ، ويرعاها ، ويحرسها حتى نهاية حياته . وكالعادة فتنه حسنها الساحر ، هذا الحسن الذي صمد طوال كل السنين التي امتدت أمامها .

وجلس بالقرب من المضجع ، وتناول من حقيبته اليدوية وثيقة عريضة مربوطة بشريطة حمراء رسمية ، ومزّينة بعدد من الأختام ، ثم أخذ يدها بشكل أبوي ، وقال لها :

- لقد جئت ، يا عزيزتي ، لأتلو عليك العقد الذي أنجز قبل قليل ، والذي ينبغي لك التوقيع عليه الليلة .

فمدّت اوجيني ذراعيها البضتين الجميلتين فوق رأسها ، وقالت بثبات :

- لا ! أنا لست في وارد الاصغاء الى كل هذه التفاصيل والاجراءات المعقدة . أنا شديدة الثقة بك ، وهذا كافٍ . هناك أمر واحد أحّب أن أعرفه . هل أن كل ألقابي ، السلفية والمعلنة ، قد ذُكرت بطريقة صحيحة .

فأكّد لها ميريمه أنه أمضى الساعات الطوال في الاهتمام بذلك . فلما اقتنعت ، غرقت بتكاسل بين الطنافس ، وغادرها ميريمه .

وبينما استرخى جسد أوجيني تماماً ، راح فكرها يعمل . ومن جديد أقلقت هدوءَها أشياء كثيرة ، ولكن الشيء الوحيد الذي أقصى كل ماعداه كان ـ أي ثوب سترتديه في تلك الأمسية؟

على سريرها ، وضعت الخياطة بالمير ، منافسة فينيال اللدود ، ثوبين من اختيارها .

بالطبع ، الثوب الحريري القرنفلي (الاحمر الوردي) المرصع بخطوط من التطريز الايرلندي كان تحفة فنية رائعة ، ولكن ، لعلّ الثوب الحريري الأبيض ، مع شاله المخرّم والمزركش بالألماس يجعلها تبدو أصغر سناً ـ ذلك بأنها غدت في السابعة والعشرين .

ودقت الساعة السابعة ! ودخلت بيبا ، وهي تغمغم كعادتها .
قالت :
– ينبغي للآنسة أن تبدأ بارتداء ملابسها ـ ليس لي الآ يدان ، اثنتان ، وهناك عمل كثير . وهناك حشود غفيرة تنتظر في الشوارع خارجاً ، وتتدفق منهم سيول من مختلف أرجاء المدينة . . .

* * *

قبيل الساعة الثامنة والنصف مساءً ، تكدّست جموع كثيرة أمام قصر الايليزه ، في شارع فوبور سانت اونوريه : فقد وقفوا هناك بنفاد صبر طوال ساعات غير مبالين بالبرد القارس .

ولما دقت الساعة معلنة انتصاف الساعة ، اندفع من بوّابات الحديقة موكب من الفرسان حاملي القربينة (البندقية القصيرة) ، يسبقون عربة الاحتفال ويتبعونها ، وقد جلست فيها أوجيني وأمّها .

في الضوء الخافت المنبعث من مصابيح الشوارع ، رأت الجموع لمحة سريعة من الجمال المتألق والسعادة اللتين تتمتع بهما امبراطورتهم العتيدة ؛ وكما لو ان هذه السعادة قد أشرقت عليهم هم كذلك ، صفّقوا بجنون ، وهتفوا بحماسة الاولاد ، مرددين آيات التبريك والتمنيات الطيبة .

على درجات بافيون دوفلور ، كان ينتظر كبير الأمناء مع موظفيه الرسميين . وجرت مراسم التعارف ، ثم سار الموكب يتقدّمه مسؤولون حكوميون رفيعو المقام ، الى قاعة العرش حيث وقف الامبراطور .

أمام العرش وقف نابوليون يراقب وصول الموكب المتقدم ببطء ، وعيناه فوق الرؤوس لتستقرّ على المرأة المرتدية الابيض ، وكانت تسير في المؤخرة .

وكاد قلبه يتوقف عن النبض . فالمنظر كان بالنسبة إليه ، غامراً جداً .

ومع ذلك ، تمالك نفسه بسرعة ، ونزل عن المنصة لاستقبال أوجيني . وكانت

هادئة ، بل رابطة الجأش .

وأمسك نابوليون بيدها ، وصعدا معاً الدرجات ، وجلسا فوق العرش وهتف مدير التشريفات الواقف عند الجزء الأدنى من العرش : «الامبراطور» . فانتصب الجميع واقفين ، بينما أحكم الرسميون وضع طاولة مذهبة صغيرة ، فوقها سجّل الأسرة الامبراطورية .

ووقّع الامبراطور والامبراطورة على السجل ، وتبعتهما الكونتيس دو مونتيجو ، ثم أفراد الأسرة الامبراطورية ، وأخيراً وزير الدولة .

وانتهى الاحتفال ، وقفلت اوجيني ، بعد أن غدت امبراطورة الفرنسيين ، عائدة إلى قصر الايليزه برفقة والدتها ، يحيط بهما موكب متلألئ من الفرسان .

وفي صبيحة اليوم التالي ، وقبل ان تشرع في ارتداء ملابسها لحضور الاحتفال الديني في كاتدرائية نوتردام ، جلست اوجيني تكتب إلى شقيقتها الحبيبة :

«قصر الايليزه ، في ٣٠ كانون الثاني ١٨٥٣ .

إلى دوقة ألبا ،

مساء أمس ، تزوجت زواجاً مدنياً ، وفي غضون ساعتين اثنتين ، سأغادر القصر الى كاتدرائية نوتردام . أنا على عجلة من أمري ، ولكنني لا أريد أن تحسبي انني أنساك ، حتى في هذه اللحظة .

كان الاحتفال رائعاً ، ولكن كاد يُغمى عليَّ قبل دخولي القاعة الكبرى حيث وقّعنا على السجل .

لا استطيع ، يا شقيقتي العزيزة ، أن أعبّر لك عن كل ما عانيته خلال الثلاثة أرباع الساعة التي جلست فيها فوق العرش ، المرتفع قليلاً عن المنصّة ، مواجهة جمهور الناس .

كنت أشدّ صفرة من الياسمين الذي كنت أضعه فوق قلبي ، وكان ثوبي ذاك الجميل ذا الأهداب الشبيه بثوبك القرنفلي . وقد فكرّت في ارسال القفّازين اللذين استعملتهما اليك . وقد احتفظت بقفّازيك بكل عناية ، وأحسب أنك ما زلت تحتفظين بالاحترام الديني تقريباً بالنسبة الى الذكريات .

عندما يخاطبونني بـ «صاحبة الجلالة» ، أشعر كأننا نمثّل رواية .

خوان سيلفا وصل من بروكسل لحضور الزفاف . وقد ذكرّني بالتمثيلية التحزيرية التي مثّلناها في منزلك ، وقمت أنا فيها بدور الامبراطورة .

ولم يخطر ببالي قط أنني في يوم من الأيام سأمثل هذا الدور في الحقيقة .

الوداع ، يا شقيقتي العزيزة ، وإن الذكرى الاخيرة كفتاة صغيرة ما تزال لك ـ أنا أحبك !

المخلصة أبداً ، أوجيني .»

عند الظهر استخدمت العربة الرسمية المذهبة نفسها التي استقلّها نابوليون الاول وجوزفين يوم تتويجهما ، لنقل نابوليون الثالث وأوجيني الى الكاتدرائية ليُعقد قرانهما .

وكانت تجر العربة ثمانية جياد على سرجها أغطية مزركشة بأناقة وترف ، فراحت تشق طريقها بين الجموع المحتشدة في شوارع باريس على هديرالمدافع ورنين الاجراس .

وأخيراً وصلت العربة الى كاتدرائية نوتردام الفسيحة ، فترجّل العاهلان منها . كانت اوجيني بثوبها الحريري المكسو كلياً بالمخرمات التي لا تقدَّر بثمن ، وقد لفّت خصرها الدقيق بحزام من حجارة الصفير الكريمة كان نابوليون الأول قد أهداه الى ماري ـ لويز .

وكان الامبراطور يرتدي بزة فريق ، وبنطلوناً ابيض ، وينتعل جزمة لـمَّاعة ، ويضع طوقَي وسام الجزة الذهبية ووسام جوقة الشرف اللذين وضعهما من قبل نابوليون العظيم .

وبينما تحرّك العاهلان نحو العرشين المذهبين القائمين تحت ظلة مخمليّة مزيّنة بفرو القاقم ، ويعلوها نسر ذهبي ضخم ، قبالة المذبح المرتفع ، خفّ للقائهما الكرادلة والأساقفة بملابسهما البهية الرائعة .

وبدأت المراسم الرسمية بكل جلال الكنيسة والدولة ، وتتابعت إلى نهايتها بالالحان القصيرة المعزوفة بالأبواق الفضية ورنين الاجراس .

عندما دخلت أُوجيني الكاتدرائية ، بدت مغمورة بجلال المناسبة . فكانت تنتقل منحنية الرأس ، حيِيّة ، وعلى مضض تقريباً . ولكنها لما عادت من على الجناح السفلي على ذراع الرجل الذي سيحكم فرنسا كإمبراطور طوال عقدين من السنين ، كان تحوّلها مدهشاً ! تقدمت برأس شامخ ، وبجلال وفخامة ، شاكرة آيات الاحترام التي يبديها رعاياها ـ امبراطورة واثقة من سلطانها .

امبراطورة ! من حمل خلال قرون طويلة من التاريخ هذا اللقب بصورة اجمل من أوجيني؟

كانت شجاعة لا تعرف الخوف ، ولكنها مع ذلك ، انثى كلياً ؛ جميلة ومُحبّة ، ولكن دون أن تسمح أبداً لهمسة افتراء بأن تلطّخ سمعتها . وكانت حسَّاسة ، ولكنها قادرة تماماً على السيطرة على عواطفها ، وقادرة على الاحساس بالألم الشديد ، ولكنها من الاعتزاز بحيث لم تكن لتسمح للآخرين بأن يلحظوا الإهانات التي عانتها . نبيلة بل متواضعة ، متغطرسة ولكن لطيفة مع المتواضعين ـ تلك كانت امبراطورة الفرنسيين .

ماذا عن السلطان الذي شاطرته عرشه؟ عنه ، كل ما نعرفه هو ما تركه لنا معاصروه . جواز سفره يطلعنا أنه في الرابعة والأربعين ، وطوله ٥ أقدام و٧ بوصات ، لون شعره وحاجبيه كستنائي ، عيناه صغيرتان ، رماديتان ، أنفه عريض ، وفمه صغير ، وشفتاه غليظتان . لحيته كثيفة سوداء ، وشارباه شقراوان ، ذقنه مستدقّ ، وجهه بيضوي ، وملامحه شاحبة .

هذا من الناحية الرسمية ؛ ولكننا نعلم أيضاً أنه كان يبتعد عن ريعان الحياة . كان قصير القامة ، ولكن يبدو حسناً على صهوة الحصان . عاش حياته على هواه وتمتع كثيراً ، ولكن ، مع ذلك ، كانت تبدو في عينيه نصف المغمضتين نظرة رقيقة ، مداعبة تقريباً عندما تكون هناك امرأة بقربه . ولكن بالنسبة الى الرجال ، كان يبدو في أحيان «مستغلقاً» ، لا سبيل الى فهمه ، وبالنسبة الى آخرين «كالسائر في نومه» !

إميل اوليفييه اكثر إحكاماً إذ يقول : «الامبراطور هو امرؤ يعذّبه الجسد .»

* * *

عندما سلكت العربة الامبراطورية المكشوفة جادّة الامبراطورية وعلى متنها اوجيني يرافقها نابوليون ، يواكبهما الفرسان المتألقون ، لا بدّ أن اوجيني شعرت أنها تسير نحو موطن ساحر .

ولكنها الآن ، أحاطت نفسها بجماعة من الاصدقاء يختلفون تماماً عن حاشيتها الرسمية . ولم تكن بعد تشكو من خيانة زوجها ، وبدا العالم كله لدى قدميها .

لم تهتمّ بالسياسة ؛ والواقع أنه لم يكن ثمة ما يثير القلق . فقد كانت اوروبا قد استقرت بفضل سياسة «توازن القوى» ، وسيُحافظ على هذا التوازن المتعادل . صحيح ان الحرب كانت مستعرة النيران في شبه جزيرة القرم ، سوى ان شعب فرنسا ، على العموم ، لم يكن متأثراً بها .

كانت باريس هادئة ، ولم يكن احد يفكر أدنى تفكير في الحرب ، وبدا اقتراب موعد زيارة الملكة فكتوريا الانكليزية الى فرنسا ، أنه يشكّل اعترافاً رسمياً بالسلالة الامبراطورية .

كانت الامبراطورة صبية ، وحسناء ، ومولودة في اسبانيا ، موطن الحب حيث تعتبر الفتيات من كل الطبقات ، وهنَّ في سن المراهقة ، انه من العار ألا يكون لهن معجبون . وهكذا شعرت اوجيني التي ترعرعت في جو متحرر ، يحيط بها الإعجاب منذ الطفولة ، بالسأم قليلاً من صرامة آداب السلوك في قصر التويلري .

من المثير أن ينحني الناس أمامها ، وتحسّ بأنها فوق كل واحد مسافة أميال ؛ ولكن عندما كانت تجد نفسها وحدها في جناحها الجميل المتعدد الغرف ، كانت تتشوق الى السير في الجادّات التي تكتنفها الاشجار ، كما كانت تفعل في السابق . كانت تودّ ان يكون باستطاعتها استدعاء عربة وزيارة أصدقائها . سوى أن هذا بات مستحيلاً بعد أن غدت امبراطورة . لذا قررت ان تجمع حولها بعض الاصدقاء الحميمين .

كان اعزّ اصدقائها في هذا الوسط البارون هوبنر ، السفير النمساوي .

كان يعرف كل شخص في باريس ، فاستشارته في من يقترح أن يصبح من أصدقائها الشخصيين .

عندما أقامت اوجيني للمرة الاولى في قصر التويلري ، ألفت الحجرات على ما

تركها الملك لوي ـ فيليب عندما هرب الى انكلترا السنة ١٨٤٨ ، عديمة الذوق وباهتة .

كانت قاعة الاستقبال التي تحتلها وصيفاتها (كانت وصيفتان دوماً في الخدمة) غير جذّابة ، فأمرت الامبراطورة بحبها للون والشمس باعادة طلائها وفرشها .

ويجانب قاعة الاستقبال هذه ، الذي كان بابها يُترك مفتوحاً دائماً ، كان هناك حجرة مزينة كلياً باللون الاحمر الوردي الفاتح ، تؤدي بدورها الى قاعة استقبال الامبراطورة الزرقاء اللون . هذه الحجرة كانت متحفاً بالغاً حدّ الكمال : فالنقوش الشديدة الدّقة كانت تزيّن الألواح والسقف . وقد جمعت اوجيني على الجدران رسوماً مُبروَزة في أنواط لأجمل نساء بلاطها ، كل واحدة منها بالزي القومي للبلدان الأوروبية التي تناسب اكثر نوع جمالها .

* * *

إن إحاطة اوجيني نفسها بمثل هذه الملامح المثالية لأبرز دليل على أنها لاتخشى أي منافسَة ، ذلك بأنها كانت شديدة الثقة بجمالها .

اليوم هو ١٦ آذار ١٨٥٦ ، وقد رنّ الحدث الرائع عبر باريس ، وردَّدت صداه أسوارها القديمة . وما يزال يبدو ان الجو نفسه يهتز بهدير المائة طلقة مطلقة من المدافع التي أعلنت الى العالم أنه في قصر التويلري ، أبصر النور لوي اوجين نابوليون ، الامير الامبراطوري .

كان الامبراطور هناك طوال الوقت ، خلال ساعات الوضع ؛ وطوال خمس عشرة ساعة لم يتوقف عن البكاء .

ولما وُلد ابنه ، في النهاية ، اندفع الى الخارج ، وقبّل اول خمسة أشخاص صادفهم في طريقه ، غير مكترث بمقامهم . ثم انه على حين غرّة تبيّن ان عمله هذا غير لائق ، فتمالك نفسه سريعاً ، «أنا جد سعيد ، ولكنني لااستطيع تقبيلكم جميعاً !»

في هذه الأثناء كانت الامبراطورة التي عانت آلام الوضع طوال ٢٤ ساعة ، راقدة في السرير ، منهكة تماماً . فلما دخل الامبراطور الحجرة ، تمتمت : «أهي فتاة؟»

فأجاب : «لا» «أهو صبي؟» وخشي ان تكون البشرى السعيدة صدمة كبيرة لها ، قال : «لا» . وسألت الأم المذعورة لاهثة : «إذاً ماذا ، رُزقت؟» وكان اضطرابها شديداً بحيث اضطروا الى حمل طفلها اليها لتهدئتها .

هل كان شارل ناوندورف الملك لويس السابع عشر؟

كارل فيرغ ، مولود في ٣ أيار ١٧٧٧
متوفٍ في ١٠ آب ١٨٤٥

لو كان نص شاهدة قبر شارل ناوندورف ، الذي كان يدّعي أنه لويس السابع عشر ، كما ورد أعلاه في مقبرة ديلفت ، موطن الخزف الهولندي ، لما كان لفت ذلك الاهتمام . ذلك بأن شاهدة القبر ، التي تدغدغ أحلام عشاق الأسرار التاريخية وهواتها ، تحمل نصاً مختلفاً تماماً .

«ههنا يرقد لويس السابع عشر
دوق نورماندي ، ملك فرنسا
مولود في فرساي في ٢٧ آذار ١٧٨٥
متوفٍ في ديلفت في ١٠ آب ١٨٤٥

لويس السابع عشر او ، بكل بساطة ، شارل ناندورف ، المعروف بكارل فيرغ؟ أدجل أم حقيقة؟ أتاريخ أم رواية؟ فمنذ قرنين من الزمن ، والمخيلات طاب لها أن تشرد ، وطاب للنفوس الطيبة ان ترقّ ، وللمؤرخين أن يتناقشوا . ومراراً اضطرت المحاكم الى التعرّف إلى هذه الشخصية الغامضة . وكانت آخر مرّة في السنة ١٩٥٤ ، خلال دعوى ردّت ادعاءات ذرّيته ـ دعوى اشترك فيها أحد اسياد نقابة المحامين ، والمؤرخ في اوقات الفراغ ، المشترع الكبير موريس غارسون .

بالنسبة اليه ، ليس ثمة اي شك في أن ناوندورف ليس ولي العهد ، لويس السابع عشر ، ابن الملك لويس السادس عشر الذي اعدمته ،مع زوجته ماري ـ انطوانيت ، على المقصلة ، الثورة الفرنسية . وفي كتابه القيّم «لويس السابع عشر أو اللغز

الزائف» ، أقام الدعوى على ناوندورف ، دون أن يتوصّل ، مع ذلك ، الى تبديد كل الظلال المتعلقّة بهذا «الشبيه» بالأسير الصغير المثير للشفقة في سجن التامبل .

كان ضد شارل ناوندورف ، بالطبع ، هذا : كان هناك لا أقلّ من ٤٧ زعموا أنهم ولي العهد الفرنسي ، منهم الماريشال زابلكوفسكي ، وحتى مولّد من ايركوى ، مروراً بهيرفاغو ، وبالبارون ريشمون ، الذي كان من ذريته البابا بيوس الثاني عشر .

في خلال الدعوى التي أقامتها على البارون ريشمون عدالة الملك لوي ـ فيليب ، بالضبط ، ظهر ناوندورف للمرة الاولى امام محكمة فرنسية . فقد زعم ريشمون أنه هرب من سجن التامبل بحيلة مجددة من حرب طروادة : فقد اختبأ في داخل بطن حصان زائف مبطّن . وفي الجلسة الثانية ، طالب ممثل لناوندورف بأن يسمح له بأن يتلو على مسامع هيئة المحكمة رسالة تعلن أن ريشمون لا يمكن أن يكون لويس السابع عشر ، لسبب بسيط وهو أن لويس السابع عشر هو ناوندورف نفسه .

وقد كشفت مزاعمه في ١٦ آب ١٨٣١ ، في جريدة «لايبزيغ تسايتونغ» . وبعد اثني عشر يوماً ، واصلت جريدة «كونستيتوسيونيل» الفرنسية القصة ، وأعلنت أن المطالب بالعرش يتولى كتابة «قصة حياته وآلامه» .

مغامرات غريبة

كُتبت هذه القصة بروايتين متعاقبتين ، الأولى السنة ١٨٣٤ ، تحت عنوان «مذكرات شارل ـ لوي ، دوق نورماندي ، من السنة ١٧٩٢ الى يومنا هذا» . وكل شيء فيها يعتمد على هرب ولي العهد من سجن التامبل .

يزعم ناوندورف أن حارسه سيمون استُبدل بامرأة «طيبة وفاضلة» ، كانت شديدة العناية به (وهذا يعارض تماماً الوقائع المثبتة) ، ويتابع مغامرات الهرب .

«رأى السجين الصغير ، الذي أضعفه كثيراً إضراب عن الطعام ، رجلاً غريباً يدخل زنزانته ، برفقة خفير بلدي راح يتحدث الى حارسته . وأُسقي شراباً غريباً ، كان منوِّماً يتأخر في احداث تأثير ، بحيث أن السجين كان بوسعه رؤية كل ما يجري حوله .

وتُسحب من تحت سريره قفّة كبيرة من القصب . كانت قد أُخفيت خلسة . وكان بداخلها ولد لا حراك به . فوضعوه في السرير ، ووضعوا السجين الصغير بدلاً منه في القفة . ومن هذه النقطة بدأ مفعول المنوِّم ، ففقد رشدَه ، ولم يستعده إلاّ وهو «راقد في سرير حسن» .

ويروي ناوندورف أنه وُضع في عهدة امرأة ألمانية علّمته لغتها . ولكن ذات ليلة ، هاجمت عصابة مسلحة المنزل ، واختطفته ، وحملته ، وهو في قميصه الى مكان يقع تحت الأرض . وسُجن في زنزانة . وقد انقذه امرؤ يرتدي معطفاً واسعاً ، ويحمل مصباحاً مخنوقاً . ويُحمل الى ممشى ، ثم الى منزل حيث تُعنى به فتاة صبية تدعى ماري .

ثم كان رحيل عبر «سهول فسيحة ، وغابات هائلة» ، الى أن وصلوا الى ايطاليا . ثم انتقل الى بلاد ـ ربما كانت أميركا ـ حيث وجد مربيته الألمانية . وكانت في هذه الأثناء قد تزوجت ساعاتياً علّم ناوندورف مهنته .

وتوفي أبوه بالتبنّي ، وخطب ناوندورف ماري . فهل كان ذلك خاتمة أحزانه؟ لا : فقد عاد فظهر المحامي الغامض كما لو كانت العناية الإلهية قد ارسلته ، فحمله بعيداً عن المنزل الذي كانت أيدٍ مجرمة قد لغمته .

ولجأوا إلى كهف ، وركبوا متن البحر . وقد ألقيت ماري والمحامي الغريب من فوق حافة المركب . وتطأ قدما ناوندورف مجدداً أرض فرنسا ، حيث يُسلّم مجدداً الى مضطهديه . وإثر مغامرات جديدة ، أكره على توقيع تنازل عن العرش . ونقله بعض الرجال المقنَّعين ، ولكنه ، من حسن طالعه ، اكتشف بينهم حامياً اغتنم فرصة حادثة جرت للعربة لكي يختطفه . ويصلان الى ستراسبور ، ويوُضع اليتيم في كهوف النبيذ في احد الحصون ، بحراسة رجل عجوز .

وينقذه المحامي الجديد ، وقد تنكّر بملابس الخدم ، مرّة اخرى ، ويحمله الى دوق برونزفيك الذي يوفّر له حراسة .

ومن مغامرة الى مغامرة ، يصادف الولد الملكي رجلاً غريباً يقدّم اليه أوراقاً رسمية باسم ناوندورف . ويستقرّ في برلين . أما أوراقه الحقيقية ، فقد ادّعى أنه سلّمها الى

لوكوك ، مدير الشرطة الذي أخفاها «لأن من شأنها أن تعكّر صفو الأمن والنظام العام» . وهكذا ، إذاً ، يستحيل إثبات نسبه الملكي قانونياً .

امرؤ يدعى كارل فيرغ

في رواية ناوندورف الضبابية ، لا يظهر أي اسم يتيح ايجاد شهود لمغامراته الغريبة۔ ولم يكتمه أحد أنه يلام على غموضه وعدم دقّته .

يبدو من بعض البحوث ، ان بالإمكان إثبات ما يلي : كارل فيرغ ، المعروف باسم ناوندورف ، أبصر النور في بوتسدام . كان جندياً في حامية هاله ، في النمسا ، وقد أقام بين السنة ١٧٩٥ و ١٨٠٠ علاقة عاطفية مع السيدة زوننفيلد ، المولودة كريستيان هاسرت ، ورُزق منها بولدين .

وفي السنة ١٨١٠ كان في برلين ، حيث عمل بائع ساعات خشبية متجولاً ، ثم استقرّ ساعاتياً السنة ١٨١٢ في شبانداو . وفي السنة ١٨٣٢ نقل تجارته إلى براندنبورغ ، حيث لم ترج أعماله . واتُّهم السنة ١٨٢٤ بجريمة حرق ، ولكنه بُرّئ لانعدام الأدلّة . وفي السنة التالية ، حُكم عليه بالسجن مع الاشغال الشاقة ثلاث سنوات لإصداره نقوداً زائفة .

لقد وجدت رواية مغامراته الغريبة أرضاً خصبة في فرنسا لدى عدد من الناس الذين لم يستطيعوا أن يصدّقوا أن لويس السابع عشر قضى في سجن التامبل . وقد وجد سنداً لدى كثيرين ، لعلّ أبرزهم الملكي المتحمّس ألبوي ، القاضي السابق في كاهور . وقد اتخذه ناوندورف كقائم بالاعمال ، بعد أن طلب منه ، قبلاً ، إعانات مالية .

إلا أن ألبوي ، ابدى ، مع ذلك ، بعض الشكوك ، واستشار كتابةً ، شاتوبريان ، الذي نصحه بأن «يحتفظ بماله ، ويحاذر من المحتالين .» وطلب ألبوي الى أخيه المقيم في باريس ، ان يزور ناوندورف الذي هبط العاصمة الفرنسية في ٢٨ أيار ١٨٣٣ . فاذا بكارولين ألبوي ، زوجة شقيق القاضي ، هي التي قامت بالزيارة ، وقد صرّحت بأنها ذهلت بمشيته التي تدلّ على العظمة ، مع استغرابها ان يتكلم ناوندورف اللغة

الفرنسية بلهجة ألمانية شنيعة .

ووصل ألبوي بدوره الى باريس ، فافتتن بالمطالب بالعرش : لقد عرف فيه ملامح آل بوربون . وتألّف حول ناوندورف بلاط ملكي صغير ، كان في جملة أفراده اثنتان ممن ظلّ حياً من الحاشية السابقة هما السيدتان ماركو دو سانت ـ ايلير ، ومدام دو رامبو ، التي كانت وصيفة ولي العهد . ولم تتردد في التعرّف الى الولد الملكي بعد مرور أربعين سنة .

وراح الأنصار ، في هذه الأثناء ، يبحثون عن الاثباتات المتعلّقة بالنسب الملكي . فأعلن ناوندورف أنه ترك هذه الوثائق في ألمانيا . فذهبت السيدة كارولين ألبوي ، ولكنها لم تجد سوى فواتير غير مسددة .

ولم يكتفِ المؤمنون بذلك بهذا الاخفاق ، بل ظلوا متشبثين باعتقادهم وقرروا اللجوء الى شهادة كانوا يحسبونها حاسمة ، وهي شهادة الدوقة دانغوليم ، شقيقة لويس السابع عشر . فطاردوها بإلحاح في براغ ، ولكنها رفضت كل مقابلة .

اعتداء غامض

وتجري مغامرة دراماتيكية . في ٢٨ كانون الثاني ١٨٣٤ ، وفي ضواحي الكاروسيل ، اعتدي ذات ليلة على ناوندورف بطعنة خنجر من رجلين مجهولين صاحا به : «مت ، يا كابيه !» ولكن مدالية تحمل رسم السيدة العذراء حوّلت الطعنة القاتلة ، فنجا ، لأن العناية الآلهية كانت تسهر عليه .

واغتنم الملكيون من أنصار آل بوربون المناسبة هذه لكي يتهموا الملك لوي ـ فيليب بأنه يرغب في إزاحة لويس السابع عشر . وحاولوا مرّة اخرى تدبير مقابلة بين ناوندورف والدوقة دانغوليم . ولكن ذهبت كل الجهود عبثاً ، فقد بقيت الدوقة على عنادها ، وأصمَّت أُذنيها .

عندها قرّر ناوندورف أن يطلب من العدالة تصحيح وضعه المدني ـ بمعنى آخر التصديق على صفته كابن الملك لويس السادس عشر . واذا كانت العدالة لم تُبدِ اي عجلة في التورط بهذه القضية ، فإنها بدت اكثر سرعة في حسم دعوى اخرى :

فصحيفة «العدالة» التي تأسست للدفاع عن قضية المطالب بالعرش ، لوحقت بشخص مديرها أوغست توما من قبل دائنين لم تُسدَّد ديونهم . فانتقض توما على ناوندورف ، واتهمه بأنه خدعه ، وبأنه ليس سوى أمرىء محتال . وردّ ناوندورف بإقامة الدعوى على توما مطالباً إياه بتقديم الحسابات ، وباعادة وثائق سبق له أن قدّمها اليه .

وأبرز ناوندورف نسخة عن ثلاث رسائل تميل الى إثبات اختطافه من سجن التامبل . ومن سوء طالعه أنه لم يستطع أن يبرز النسخ الاصلية من هذه الرسائل (التي أثبتت تزييفها الأخطاء التي تضمّنتها) . وحسب نفسه مع ذلك من القوة بحيث يضرب ضربته : فأرسل دعوة الى الدوقة دانغوليم بالحضور الى المحكمة .

هذه المرة اعتبر الملك لوي ـ فيليب ان المطالب المزعوم بالعرش قد بات مزعجاً جداً ، فسُجن ، ثم طُرد .

نعش وأوراق عتيقة

وهبط ناوندورف لندن ، حيث أنكر الرواية الأولى لمحنته ، واعتمد رواية أخرى ، سطّرها أنصاره ، هي : «مختصر قصة نكبات ولي العهد ، ابن الملك لويس السادس عشر» . وفيها نجد رواية جديدة حول الهرب من سجن التامبل .

أخفوه ردحاً من الزمن في سقيفة ، في السجن ، بعد أن استبدلوه بفتى أخرس ، مقعد لم يلبث أن مات . وكانت هذه الوفاة مناسبة لاستبدال جديد : أخفي الولد الميت في الطبقة الرابعة ، ووضع الولد الحي في النعش . وخلال المسيرة الى المقبرة ، أخرجوه من النعش الذي حشوه بالاوراق العتيقة لكي يبقوا على الثقل .

والى غموض محنته ، أضاف ناوندورف عنصراً خارقاً للطبيعة : ادّعى أن السيد المسيح ظهر له ، وكلّفه مهمة كشف الحقيقة . وأوفد كاهن من أنصار ناوندورف الى روما مبعوثاً لدى البابا غريغوار السادس عشر ، لإبلاغه بالرؤيا . وقد تكهّن ناوندورف باغتيال الملك «في ٢٧ تموز على أبعد تعديل» .

ومرّ يوم ٢٧ تموز دون أن يصاب لوي ـ فيليب بأذى . ثم إنه أصدر منشوراً موجهاً

الى الفرنسيين ، قرر فيه اسقاط الملك عن العرش . وقد جرّت هذه المحاولة الى المباشرة بملاحقته بتهمة التآمر على أمن الدولة . وجرت أعمال التفتيش لدى أنصاره .

حرب على البابا

لم يكتفِ ناوندورف بتوزيع ألقاب النبالة على انصاره ومؤيديه ، بل ذهب الى أبعد من ذلك : اوفد الأب آبير لكي يطلب الى البابا عقد مجمع كنسي ، ودعا الاساقفة الالمان الى الانفصال عن الكنيسة الرومانية ، والانضمام الى الكنيسة الانجيلية الكاثوليكية الذي ادعى انه حاميها . وبغية تأزيم الاحداث زعم أنه كان ضحية محاولة اغتيال ـ اذ اصابته رصاصة في ذراعه ـ ولكن رؤيا سماوية حذّرته من ذلك . واشتبه البعض بأنه إنما جرح هو نفسه بنفسه .

كانت نتيجة هذه التنبؤات أن أنصاره في فرنسا انفصلوا عنه ، وفي روما دان البابا غريغوار السادس عشر محاولته احداث الانشقاق في الكنيسة .

من انكلترا ، انتقل ناوندورف الى هولندا حيث انصرف الى اجراء تجارب خاصة بالالعاب النارية والصاروخية . وعيّن مديراً للمصانع النارية في ديلفت ، حيث توفي في ١٠ آب ١٨٤٥ .

واجري كشف طبي على جسده : فظهرت ، فضلاً عن الندوب العديدة ، بعض الآثار ومنها علامة كان قد أشار اليها في باريس على أنها علامة خاصة ـ «علامة الروح القُدس» ـ التي تميّز أفراد اسرة بوربون المالكة .

وقد خلّف من زواجه بجانّ إنير السنة ١٨١٨ ، خمسة أبناء عُرفوا بأسماء ملكية أو أميرية ، وهم : شارل العاشر ، وشارل الحادي عشر ، ودوق دانجو ، وكونت دو بروفانس ، وكونت دو بواتييه . وقد استمرت هذه الذرية حتى يومنا هذا ، وانقسمت فرعين طالما تنازعا في شأن الحق بعرش فرنسا .

ميت ذو مفاجآت

أمّن ميت ديلفت خلوداً غامضاً بفضل الجدل الذي أثاره أنصاره والمشنعين ، اكثر منه بفضل نسله .

وقد قفزت قضية ناوندورف الى واجهة الاحداث مجدداً السنة ١٩٤٣ عندما استقبل الكاتب والمؤرخ الفرنسي المعاصر أندريه كاستيلو ، ممثل إبن حفيد المطالب بالعرش في فرنسا ، البارون نوفو دو جينيير . وقد اقترح عليه هذا الأخير أن يقوم باجراء اختبار على خصلة من شعر ناوندورف بهدف مقارنتها بخصلة من شعر ولي العهد لويس السابع عشر . وأسندت مهمة الاختبار هذا الى اختصاصي شهير في العلم الجنائي هو الدكتور لوكار ، من ليون . فلاحظ هذا ان لشعر ناوندورف الخصائص نفسها التي يتميز بها شعر ولي العهد : تحوّل في القناة النخاعية .

وبدا ذلك برهاناً على أن ناوندورف هو حقاً لويس السابع عشر . . .

وَهل كانت تلك النقطة الحاسمة في الموضوع؟ لا .

فبعد ذلك بسبع سنوات ، وفي ٢٧ أيلول ١٩٥٠ ، وبحضور عدد من العلماء والشهود ، فتح الدكتور هولست ، الخبير لدى المحاكم الهولندية ، نعش ناوندورف في ديلفت ، لكي يحاول تحديد سنّه .

فاذا كان ناوندورف ـ كما يدعي بعض المؤرخين ـ المدعو كارل فيرغ ، فإن عمره لدى وفاته ينبغي أن يكون اكثر قليلاً من ٦٨ سنة . واذا كان ناوندورف لويس السابع عشر ، فإنه لا يمكن ان يكون تجاوز الستين . وكان استنتاج الدكتور هولست : لم يتجاوز الميت الستين ! إذاً ، فذلك هو تأكد لنظرية ناوندورف .

وحصل أندريه كاستيلو على الإذن من دائرة المحفوظات (الأرشيف) ، في ديلفت ، لكي تُعرض خصلة الشعر التي عرف أنها محفوظة في تلك الدائرة ، على الدكتور لوكار .

وكانت مفاجأة : لم يُعثر على التحوّل في المجرى النخاعي على شعر ولي العهد الحقيقي . إذاً ، فاندورف ليس لويس السابع عشر !

ولكن ، ماذا عن الفحص الأول؟ لقد استنتج كاستيلو من هذه النتائج المتناقضة أن خصلة الشعر المعزوّة السنة ١٩٤٣ الى ناوندورف ينبغي أن تكون حتماً خصلة من شعر ولي العهد : إذاً ، فقد تمّ مقارنة خصلتي شعر من الشخص نفسه . وفي كتابه «سرّ لويس السابع عشر» ، يعترف كاستيلو بخطأه ، معبّراً مع ذلك ، عن الرأي القائل

بأن ناوندورف كان لديه أسرار ، ولا ريب ، لم يكشفها ، وأنه في لحظة ما ، لا بد أن تكون تقاطعت حياته وحياة لويس السابع عشر . ومن هنا السؤال : هل كان في متناول ناوندورف وثائق مجهولة؟ هل اشترك ، مباشرة ، ام بطريقة غير مباشرة ، بالهرب من سجن التامبل؟

وهنا يبرز سرّ آخر : سرّ الملف «الاحمر» ، في دائرة المحفوظات التابعة للكيه دورسيه (مقر وزارة الخارجية الفرنسية) ، الذي حمله الالمان السنة ١٩٤٤ ، وهو موجود اليوم في موسكو .

ويُعتقد أن هذا الملف يضمّ وثائق جمعتها الدوائر السرية لدى الملك لوي ـ فيليب ، وتثبت أن أقوال ناوندورف هي صحيحة ! ومن هنا كان القرار المتخذ بوجوب دفن القضية في دوائر الكيه دورسيه حيث يزعمون ان كل من تسلّم وزارة الخارجية ، بعد الوزير الشهير دو فرغين على زمن الملك لويس السادس عشر ، لا بدّ أنه اطّلع على هذا الملفّ الشهير . فاذا كان ذلك صحيحاً ، فكيف حدث أن أحداً لم يكشف عما اطّلع عليه من سرّ لم يعد له اليوم أي قيمة تاريخية؟ !

هل قضت الممثلة آدريين لوكوفرور بالسم على يد الدوقة دو بويون؟

في ذات يوم من شهر آب ١٧٦١ ، كانت ممثلة التراجيديات المعروفة آدريين لوكوفرور تقوم بدورها في مسرحية فيدر للروائي جان راسين ، عندما وقع نظرها على الدوقة دو بويون ، وقد جلست في المقصورة الاولى . وكانت هذه السيدة الشهيرة تكرهها لأن موريس دو ساكس كان يفضّل عينيّ الممثلة الجميلتين على اسمها الكبير .

وتورّدت وجنتا آدريين بحمرة الغضب ، فالتفتت بإلحاح شطر الدوقة ، وبدت كأنها توجّه اليها الابيات المحقّرة التي يتطلب منها دورها أن ترددها ، وهي :

«أنا لست قط من تلك النساء الوقحات ،
اللواتي ، اذا ما تذوّقن في الجريمة سلاماً هادئاً ،
استطعن الظهور بوجه لا يحمرّ أبداً .»

وصفق الجمهور ، الذي كان على علم بالمنافسة بينهما ، تصفيقاً حاداً . وشحبت ملامح الدوقة . وقد جعلتها هذه الاهانة المباشرة تصمم على الانتقام . وكان ذلك بالنسبة الى آدريين لوكوفرور تحذيراً سبقياً : فالدوقة سترتكب جريمة ، وستكون آدريين ضحيتها . بعد ردح من الزمن ، استقبلت الممثلة احد رجال الدين ، وهو الأب بورّيه ، وقد جاء يحدثها سراً :

– إني احمل شراباً بشكل أقراص ، كلفتني الدوقة دو بويون أن أسلّمك اياه ، دون أن اعلمك أنه منها ، بحيث يبدو أنه ملبّس عادي . في البدء حسبت أنه شراب الحب القادر على احداث الانفصال بينك وبين الكونت دو ساكس . ثم ما لبثت أن عرفت أنه

سمّ !

وشكرت آدريين لوكوفرور الكاهن ، ثم حملت الأقراص إلى دائرة الشرطة . فكلّف المسؤولون كيميائياً تحليلها ، فأكد أنها ليست سامة البتة . وما لم يقله الكيميائي هو أنه جعل كلباً يأكل منها ، فصعق في الحال . لقد كان للدوقة اصدقاء في كل مكان !

وتقدّمت الآنسة لوكوفرور بشكوى . ووصلت القضية الى الوزير الأول ، الكاردينال دو فلوري الذي أصرّ على توضيح القضية . وقد كان . . . وكانت النتيجة ان ألقي القبض على الكاهن بتهمة الافتراء ، وزُجَّ في سجن سان ـ لازار .

وتدخلت آدريين لمصلحته . وقد حُفظت الرسالة السمحة التي كتبتها في ذلك الشأن :

«طالما تحدثت طويلاً الى الاب بوريّه . وإني لأجد من الاسباب التي تجعلني اتمنّى ان يكون مجنوناً اكثر من مائة سبب ؛ ولكن فكروا فيما اذا كان بريئاً ، يا سيدي ، لكم ينبغي لي أن اهتم بحياته ، ولكم هو قاس عليّ هذا الشك .»

في الوقت الذي كان يُتّهم فيه الكاهن ، كانوا يزعمون أنه لا يتمتع بكل قواه العقلية .

وبعد بضعة اسابيع شعرت آدريين لوكوفرور بانحراف وهي فوق خشبة المسرح . وكانت في احد عروضها ، قبلاً ، قد احست بنوبة مغص حادة ، مما اضطرها الى مغادرة المسرح حوالى عشرين مرة الى الكواليس . وكان برازها مخضّباً بالدم .

في ذلك اليوم لم تستطع مواصلة تأدية دورها . فحُملت الى منزلها ، حيث أسلمت الروح . وكانت آخر كلماتها :

– لقد سمّتني !

وكان صديقها فولتير ، وموريس دوساكس ، لدى سريرها وهي تلفظ أنفاسها . الاول لم يشأ أن يعتقد أن هناك قضية تسميم ، فقال :

– لقد ماتت بين ذراعيّ بسبب التهاب في الأحشاء ، وأنا من أمر بتشريحها .

وقد أظهر التشريح أن أمعاءها كانت في حالة مرعبة ، وأنها بدت مصابة بالغنغرينا

أو بالأكال .

ما هي الحقيقة التي تخفيها هذه النهاية السريعة؟ لن يعرفها أحد ابداً ، بلا أدنى شك !

على سرير النزع الأخير ، استدعت الدوقة دو بويون كل اصدقائها والمحيطين بها ، وشاءَت أن تعترف علناً بخطاياها . وقد فعلت ، ثم إنها أقسمت الأيمان المغلّظة بأنها لم ترتكب قط الجريمة التي اتهمتها بها باريس بأسرها .

ومن جهة ، أطلق أحد كبار القضاة الفرنسيين ، هو الرئيس بوهييه ، إثر انكبابه على دراسة الملف ، هذا القول الغامض :

– ان موت آدريين لوكوفرور ليبعث على الارتجاف !

صديقة فولتير

كانت أدريين لوكوفرور قد ابصرت النور قبل ذلك بخمس وثلاثين سنة ، في أسرة فقيرة في إقليم شامبانيا ، في بلدة دامري ، بالقرب من ايبرني . وكان والدها صانع قبّعات ، ويدعى كوفرور ، فجعلته هي لوكوفرور . وقد أصيب بمسّ في ما بعد ، الأمر الذي أدى الى احتجازه .

ولكن مع ذلك تسنّى الوقت لكي يسيء معاملة الطفلة ، فكان يضربها بعنف ودونما شفقة . وفي ذات يوم ، أضرم النار في الحجرة التي يقيم فيها ، وصعد فوق كرسي وسط الحريق . وبالكاد أنقذ من الموت المحتّم .

تعلّمت آدريين القراءة لدى فتيات التعليم المسيحي . وقد رعتها احدى عمّاتها ، وكانت تعمل غسّالة ، واسكنتها معها . وكان في جملة زبائن العمة ممثل يدعى لوغران ، اهتم بالصبية ، وراح يعلّمها فن الإلقاء . وأتاحت لها مهنة التمثيل كسب بعض المال . واشتركت في جولة تمثيلية في كل من لونيفيل ، وستراسبور ، وفردان ، وليل ، حيث كان الجنرال مارلبورو يحاصر المدينة . وتعرّفت آدريين الى أحد الضبّاط ، فكان حبها الأول ، وخيبة أملها الأولى . وتوضح هذه الاختبارات البائسة ، فلسفتها : «أنا أعرف ، بالخبرة ، أن المرء لا يموت من الحزن . إني متعبة من الحب ، وتسوّل

لي نفسي قطع كل علاقة معه ، ذلك بأنني ، في النهاية ، لا اودّ أن أموت ، ولا أن أصبح مجنونة .»

وهكذا ، بعد أن أسكتت قلبها ، باتت المرأة اللامبالية ، والمعبودة التي يحبّ الرجال ، اكثر مما تحبّ هي ، أن تجعلهم يقنطون . وهام بها فولتير وجداً . ماذا كان بالنسبة اليها؟ هل ينبغي أخذ هذا التكريم الذي قدّمه عقب وفاتها ، على محمل الجدّ ، والمعنى الحرفي له :

«أنا من كان المعجب بها ، وصديقها ، وعشيقها .»

في ١٤ أيار ١٧١٧ ، التحقت بفرقة الكوميدي فرانسيز ، ومثّلت رواية «أنجيل» لجورج داندان . كان صوتها موسيقياً ، ولكنه أبحّ قليلاً . وقد أحدثت ثورة إذ أدخلت البساطة والعفوية الى التمثيل ، مبدية في ذلك اناقة كبيرة . وقال المشاهدون في هذا الصدد : «كنا نحسب أننا نشاهد اميرة تقوم بالتمثيل إرضاء لرغبتها .» ومثلت كذلك «بيرينيس» لجان راسين ، وحققت من الشهرة ما جعلها تمثلّها ١٣٩ مرة خلال عشرة أشهر ، وحمل الأب دالانفال على عدّ آدريين لوكوفرور بين عجائب باريس الأربع ، علماً بأن العجيبة الاولى هي قصر التويلري .

حبّ مؤثر

وهام بحب آدريين فتى في السابعة عشرة من سنيه ، ينتمي الى أفضل عائلات فرنسا ، هو الكونت دارجنتال . وقد بلغ جنونه بحبها أنه اراد الاقتران بها ، في عصر لم يكن بوسع اي فتى من أسرة معروفة ، الزواج بممثلة .

وأرادت أم الكونت التي تزوجت ثانية ، وتعرف بالسيدة فيريو ، أن توفده الى الطرف الآخر من العالم ، الى سان ـ دومنغو .

عندها قامت آدريين بعمل حسن . زارت السيدة فيريو لكي توضح لها أنها لا تحب ابنها ، وأنها لا تسعى وراء ثروته ، وأنها ستتصرف بطريقة تجعله ينفصل عنها . ولما كانت السيدة العجوز تصغي اليها بالكاد ، فقد كتبت اليه رسالة ضمنتها عزمها ، وخطّتها ، وتخلّيها عنه . وفي ما بعد ، وبعد ان قضت ، وكان الكونت قد بلغ الثمانين

من عمره ، وجدت احدى سكرتيراته الرسالة التي كان يجهل وجودها دوماً . وكان قد فقد نعمة النظر . ومن عينيه المنطفئين سالت دموع غزيرة : لقد عاد فرأى منذ اكثر من ستين سنة هذا الحب الجميل الذي عرفه في صباه ، وعرف ، أخيراً ، التضحية السخية التي أقدمت عليها آدريين لوكوفرور .

تعزيز الممثلة

وأحدثت آردبين لوكوفرور ثورة اجتماعية صغيرة . رفعت الممثلة التي كانت ما تزال محتقرة ، الى مرتبة السيدة المحترمة . كانت تستقبل علية القوم في دارها ، وكانت تنعم باحترام الكثيرين واعتبارهم ، بحيث أن سادة كباراً مثل الدوق دو ريشليو ، والدوق دو لا روشفوكو ، وفونتنيل ، وفولتير كانوا يتناولون العشاء الى مائدتها . ولم يقتصر ذلك على الرجال ، بل إن النساء دعين الى مآدبها . وبذلك أدخلت الممثلة طبقة المجتمع الراقي . وكانت تُقبل الى حفلات الاستقبال التي تقيمها كل من الدوقة دو مين ، والمركيزة دون سيميان ، ومدام دو بومبون ، والرئيسة برتيبه .

وكانت غنية ، بلغت ثروتها ٣٠٠ ألف ليرة فرنسية ، وكانت خزانة ثيابها رائعة . وعُرفت بحسن كتابتها ، وتُعتبر الرسائل التي كتبتها روائع أدبية حقاً .

وكانت مكروهة من نساء كثيرات ، حتى أنه كانت تُقدَّم مسرحية هزلية يُسخر فيها منها بعنوان «الممثلة على الموضة» . وفي يوم كانت ستقوم بدور عازفة على الغيتار ، في حين كان الموسيقي يعزف في الكواليس ، فاذا بالخبثاء يقطعون اوتار غيتار العازف الحقيقي . ولكنها تخلّصت من هذا «المقلب» على افضل وجه ممكن ، إذ استغرقت بالضحك .

دخلت المأساة حياتها تحت ملامح موريس دو ساكس ، ابن فريدريك ـ اوغست ، منتخب ساكس ، وملك بولونيا ، وزوجته اورور دو كونغسمارك . فقد شاهدها في مسرحية «فيدر» ، فكان حبّ من أول نظرة . ولم يكن يتجاوز الرابعة والعشرين . من اجله ارتكبت آدريين حماقات كثيرة : باعت مجوهراتها ، وعرباتها ، لكي يتمكن من دعم ترشيحه لعرش بولونيا . وقد انتخب دوق دو كورلاند ، ولكنه

طُرد من البلاد بعد شهرين اثنين . واستمرت علاقتهما تسع سنوات ، ولكنه لم يكن وفياً لها مطلقاً .

ومع ذلك ، كان ـ حسب ما ذُكر في احد التواريخ الاخبارية ـ الشخص الوحيد الذي رافق جثمانها الى مثواه الأخير في المقبرة العمومية .

ذلك بأن نهاية آدريين لوكوفرور كانت جدّ بائسة وكئيبة : بقدر ما كانت شهرتها عظيمة وعريضة . وبالرغم من الهبات الكثيرة التي قدّمتها الى الفقراء ، فقد رفض كبير اساقفة باريس دفنها في تربة مسيحية . فلقد كانت ممثلة ، وهي بالتالي ، مرميّة بالحرم .

وحمل جثمانها ليلاً حرس المراقبة ، وألقوه في الحفرة غير بعيد من نهر السين ، وذلك في المكان الذي يتقاطع فيه اليوم شارع لا غرونيل وبورغونيا .

وقد ثأر فولتير لذكراها ، بعبارة بسيطة ، مملوءة سخرية وتهكماً : «المضحك في الأمر أن الجلاّدين يُدفنون بمراسم دينية ، ويلقى جثمان الآنسة لوكوفرور في مقلب نفايات !»

ملحق مصوَّر

١ - من التاريخ الفرنسي



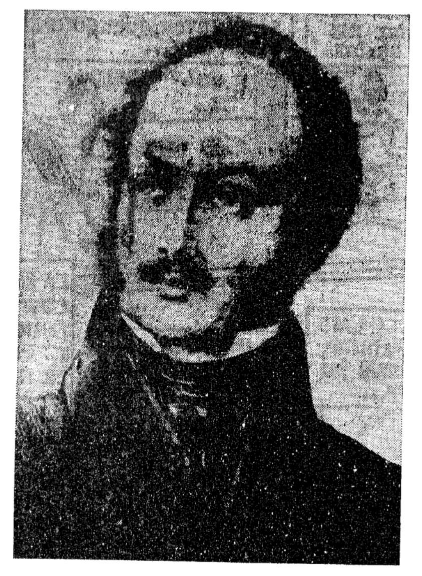
مدام روايال وشقيقها ولي العهد .



لويس السادس عشر شاباً .



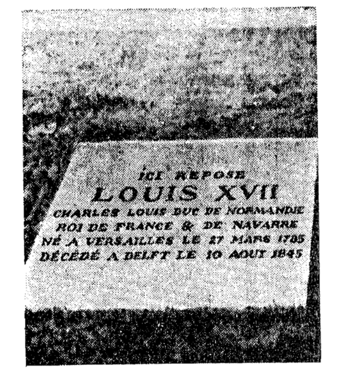
لويس السابع عشر ،
ولي العهد الصغير .



شارل ناوندورف ،
السنة ١٨٣٦ .

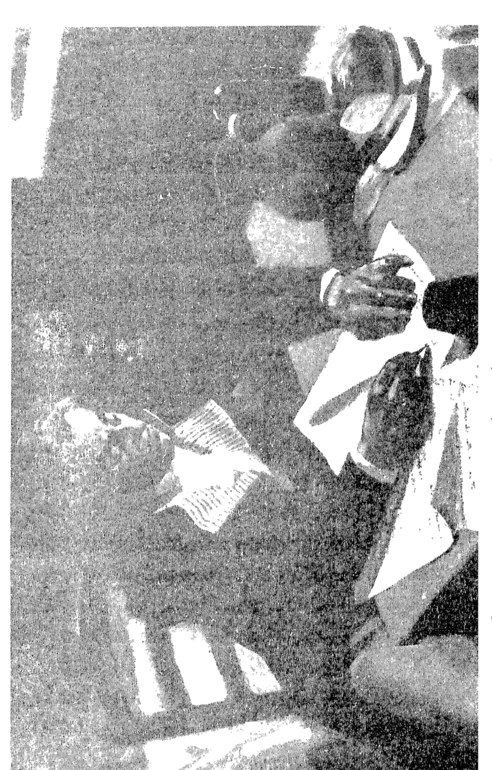


لويس السابع عشر .



هذه البلاطة وضعت السنة ١٨٤٥ فوق ضريح ناوندورف

هنا يرقد
لويس السابع عشر
شارل لوي ، دوق دو نورماندي
ملك فرنسا ونافار
مولود في فرساي في ٢٧ آذار ١٧٨٥
متوفى في ديلفت في ١٠ آب ١٨٤٥



انتظر فوكيه - تانفيل، المدّعي العام في الجمهورية الفرنسية، سبعة أشهر قبل أن يمثل امام المحكمة . وفي السجن حضّر دفاعه بنفسه .



نتيجة أعمال فوكييه – تانفيل لحساب لجنة السلام العامة الرهيبة . هؤلاء الجيرونديون كانوا ينتمون الى حزب في الجمعية الوطنية ، لم يكن جمهورياً قلباً وقالباً ، وهم لم يطالبوا بإعدام الملك لويس السادس عشر .



استقت مصوّرة ايبينال في الملحمة النابوليونية ، من اوسترلتز الى وترلو ، مصادر وحي عدة . وهذا هو الكلام الذي يرافق هذه الوثيقة ، وهو يمثّل الكارثة النهائية في ١٨ حزيران ١٨١٥ : «حاول نابوليون لمّ شعث المنهزمين ، ولكن الاوان قد فات ؛ كان ضده الفوضى ، الظلمة ، والهلع ، وكل الذين كانت خيانة بومون وسائر الجبناء قد حضّرته له منذ عودته . وعندها ، وبعد ان بات غضبه الشديد الناصح الوحيد له ، قام بتشكيل رماة الرمّانات على صورة مربّع ، وتأهب للوقوف في وسطهم انتظاراً للموت ، عندما اوقفه الماريشال سولت ، قائلاً : «مولاي ، إن الاعداء ليسرّهم ذلك كثيراً!» واندفعا على صهوة جواديهما صوب شارلروى ، منسحبين من اكثر أنواع الفوضى المرعبة التي عرفها اي جيش .»



ماري – انطوانيت



أكسل دو فرسن

لماذا لم أقض الى جانبهم ، من أجلهم ، ومن أجلها ، في ٢٠ حزيران؟ . . . » ردّد أكسيل دو فرسن في يومياته . لم نفتأ نتأثر بقصة السويدي الوسيم «ذي الروح المشتعلة تحت قشرة من الجليد» ، وأجمل ملكات فرنسا ، ماري – أنطوانيت . هاهما ، كما تعارفا ، عندما لم تكن إلا زوجة ولي العهد ، وقد زوّجت زواجاً سيئاً الى ولي عهد أخرق ، لويس السادس عشر في ما بعد .
وكانت وفاة دو فرسن في حزيران ١٨١٠ .



الملك لويس السادس عشر



«لم تعارض السيدة دو بولينياك قط ذوق صديقتها . . .»
وحبّذت اللقاءات النادرة بين «المغامر الاخير» و «الملكة
الاخيرة .



كانت الدوفينة تعشق الرقص الذي كان ينسجم مع
قدّها الليّن الدقيق ، وتتأهب لكي ترى ، مجدداً ، في
حفلة دار الاوبرا الراقصة ، الغريب «الوسيم مثل
الملاك» الذي سبق أن قدموه إليها .



الملكة أورتانس ، ابنة زوجة نابوليون . . .
كان الحزن قدرها!



قال نابوليون ، مودعاً أورتانس والامير الصغير لويس ، قبيل معركة وترلو : «قبّليه ، يا أورتانس . . ربما كان أمل أسرتي!» .



زولا بين ولديه من جانّ : إلى
اليمين دنيز ، وإلى اليسار جاك .



حبه الوحيد : جانّ روزيرو .



الامبراطورة أوجيني .



كان للوبودي ، طوال ملحمته الصحراوية ، الموهبة لإلهام رسامي الكاريكاتور في عصره . (الصورة : عنكبوت من تركيا هدية صاحب الجلالة) .



لوبودي ، «امبراطور الصحراء» . رسم كاريكاتوري بريشة سِمْ ، في السنة ١٩٠٣ .



احدى الصور النادرة لماري ، الامبراطورة الجميلة .

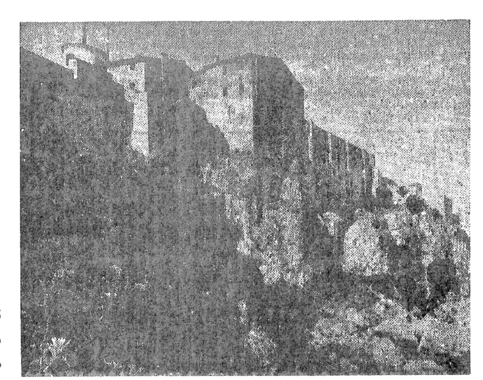
ذو القناع الحديدي



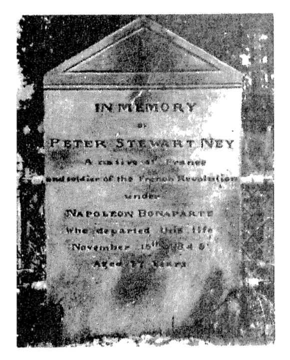




الصورة فوق قلعة جزيرة مرغريت حيث سجن ذو القناع الحديدي



قلعة جزيرة سانت
مرغريت حيث سُجن
ذو القناع الحديدي .



من يرقد تحت هذا الضريح؟ أهو حقاً «أشجع الشجعان» ، الماريشال المفضّل لدى نابوليون ، ام أنه دجّال ، ليس إلاّ؟! إن السر يبقى بلا جلاء! وهذا ما نُقش على بلاطة الضريح بالانكليزية :

إحياء لذكرى
بيتر ستيوارت ناي
من مواليد فرنسا
وجندي من جنود الثورة الفرنسية
تحت حكم
نابوليون بونابرت
الذي ودّع حياته
في ١٥ تشرين الثاني ١٨٤٦
عن عمر ٧٧ سنة .



ميشيل ناي : أشجع الشجعان .



في هذا المنزل في ولاية كارولاينا الشمالية ،
استقرّت مدرسة هذا الرجل الغامض بيتر ناي الذي زُعم أنه ماريشال نابوليون .



إيدا سنت إيلم ، إحدى أشهر ممثلات المسرح الفرنسي ، هل ساعدت الماريشال ناي على الفرار؟ هذا الرسم بريشة ديفييريا ، صُنع بعد ٢٠ سنة من عملية الاعدام .

من ذيول مؤامرة ماله:





شعر مدام سيلاّن المستعار



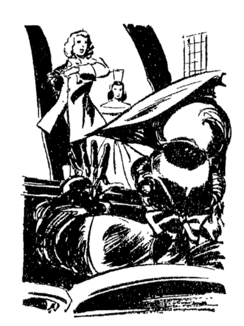
لدى عودته من مصر ، نزل بونابرت الى اليابسة في فريجوس . وحتى باريس ، استُقبل استقبال الفاتحين . كان ١٨ برومير قريباً ...



اذا نحن صدّقنا الانكليز الذين نشروا هذه «الاسكتشات المصرية» في السنة ١٧٩٩ ، فإن هذه الوثيقة المصورة هي من صنع فنان فرنسي ملحق بمعهد مصر . والمفروض أنه يصور سلوك جنود بونابرت - هؤلاء الوحوش المرعبين! - في بلاد محتلّة . ويلحظ التعليق الانكليزي - بكل صراحة - ان «تصرّف الفرنسيين في فرنسا يشبه تقريباً تصرّفهم هم .»

فولتير الممثل

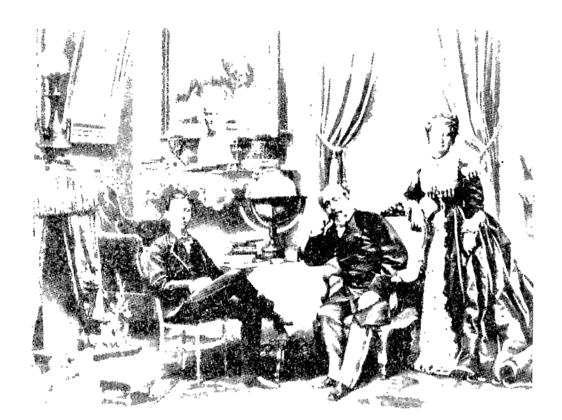




تحسب نفسك في جلسة محكمة .



كان ، في الحقيقة ، شيشرون .



الاسرة الامبراطورية في المنفى ، في انكلترا .



الامبراطورة اوجيني

٢- من التاريخ الانكليزي

- ☐ مأساة قلعة بونتفراكت.
- ☐ هل كان دجيمس، دوق مونموث، ابن الملك تشارلز الثاني الشرعي؟
- ☐ روبن هود.
- ☐ قصة مدفأة السُرر.
- ☐ الملك آرثر، هل وجد حقًا؟
- ☐ ماذا حدث لإدموند آيرنسايد؟
- ☐ ماكبث الحقيقي، أي نوع من الرجال كان؟
- ☐ هل قُتل الأمير آرثر، دوق بريتانيا؟
- ☐ من قتل الأميرين في برج لندن؟
- ☐ شكسبير: سرٌّعمرُه ثلاثة قرون!
- ☐ هجوم فرقة الخيّالة الخفيفة وانتحارها في «وادي الموت».
- ☐ مخاوف بالنسبةإلى الأميرة.
- ☐ الحقيقة عن الكابتن بلاي والتمرد على السفينة باونتي.
- ☐ ملحق مصوًر

الى القارىء

تسهيلاً لمتابعة وقائع الأسرار المتعلقة بالتاريخ الانكليزي ، ننشر في ما يلي لائحة بأسماء الملوك الذين تتناولهم هذه الأسرار ، تبياناً للصلات التي تربط بينهم ، مع إثبات السلالات التي ينتمون اليها ، ليكون كل شيء واضحاً بقدر الامكان . . .

من ملوك انكلترا

سلالة بلانتدجينيت

هنري الثاني – ابن دجيفري بلانتدجينيت (من آنجو) من زوجته ماتيلدا ، ابنة هنري الاول .

رتشارد الأول – قلب الأسد ، ابن هنري الثاني .

دجون – لاكلاند ، ابن هنري الثاني ، وقّع الوثيقة الكبرى (ماغنا كارتا) السنة ١٢١٥ .

هنري الثالث – ابن دجون ، اعتلى العرش في التاسعة ، تحت الوصاية حتى السنة ١٢٢٧ .

إدوارد الأول – لونغشانكس ، ابن هنري الثالث .

إدوارد الثاني – ابن إدوارد الأول ، خلعه البرلمان ، السنة ١٣٢٧

إدوارد الثالث – اوف وندسور ، ابن ادوارد الثاني .

رتشارد الثاني – حفيد إدوارد الثالث ، ظل قاصراً حتى السنة ١٣٨٩ ، خُلع السنة ١٣٩٩ .

سلالة لانكستر

هنري الرابع - ابن دجون غونت ، دوق لانكستر ، ابن إدوارد الثالث .

هنري الخامس - ابن هنري الرابع ، المنتصر في آجنكور .

هنري السادس - ابن هنري الخامس ، خُلع السنة ١٤٦١ ، وتوفي في برج لندن السنة ١٤٧١ .

سلالة يورك

إدوارد الرابع - ابن حفيد إدوارد الثالث ، ابن دوق يورك .

إدوارد الخامس - ابن إدوارد الرابع ، قُتل في برج لندن ، السنة ١٤٨٣ .

رتشارد الثالث - كروكباك ، شقيق إدوارد الرابع ، قُتل في معركة بوزويرث ، السنة ١٤٨٥ .

* * *

في ما يتعلّق بالأمير آرثر ، دوق بريتانيا ، ينبغي أن نشير إلى أن بريتانيا هذه هي المنطقة الغربية من فرنسا ، وعاصمتها رين .

في القرن الخامس هاجر البريتانيون من جزيرة بريتانيا هجرة جماعية الى آرموريك ، التي اصبحت في ما بعد بريتانيا . وفي السنة ٨٤٥ ، جعل نومينوي بريتانيا مستقلة عقب انتصاره على الملك شارل الأقرع . وفي السنة ٩٣٨ هُزم النورمانديون ، وولدت بالفعل ، دوقية بريتانيا .

اما الأمير آرثر ، أو آرثر الاول ، فهو مولود في نانت ، (فرنسا) (١١٨٧ - ١٢٠٣) ، دوق بريتانيا ١١٩٦ الى ١٢٠٣ . ولد بعد وفاة ابيه الكونت دجيفري الثاني (ابن الملك هنري الثاني الانكليزي والكونتس كونستانس) . طالب بعرش انكلترا لدى وفاة عمه رتشارد الاول ، قلب الاسد .

واما الملك فيليب الثاني الفرنسي ، فقد عُرف بلقب فيليب الجليل أو المهيب الفاتح

(١١٦٥ – ١٢٢٣) ، ابن الملك لويس السابع وأديل دو شامباني . تولّى الملك السنة ١١٨٠ . انتصر على كل من الملك هنري الثاني ، ثم الملك رتشارد ، قلب الأسد – الانكليزيين – وقد اشترك مع هذا الأخير في الحملة الصليبية الثالثة . ولما اختطف الملك دجون ، خليفة رتشارد الأول ، خطيبة هوغ العاشر دو لوزينيان ، ايزابيل دانغوليم ، اصدر بلاط الملك فيليب المهيب الأمر بمصادرة النورماندي ، ومين ، وآنجو ، وتورين ، وبواتو (١٢٠٥) .

وانقضّ إذ ذاك فيليب على الفلاندر وكان سبق للأمير فردينان أن اعلن صراحة تأييده للملك دجون ، وقد انتصر على هذا الأخير الذي ناصره الانكليز والامبراطور اوتون الرابع ، ملك برونزفيك ،في معركة بوفين السنة ١٢١٤ .

* * *

مأساة قلعة بونتفراكت

توفي الملك رتشارد الثاني في وقت مبكر من السنة ١٤٠٠ بعد أن خُلع ، واغتصب عرشه ابن عمه هنري بولنغبروك ، ابن دجون غونت ، الابن الرابع للملك ادوارد الثالث . وازاحة رتشارد الذي لم يُعقب وارثاً ، كانت بداية انقسام سلالة بلانتدجينيت المالكة ، والمنافسة التي اعقبت ذلك بين أسرتي يورك ولانكستر ، وجرّت الى الحرب الاهلية المعروفة باسم «حروب الوردتين» .

ليس ثمة كبيرأهمية في إنكار أن اغتصاب هنري العرش كان غير شرعي نوعاً ما ، مهما يكن ذلك ضرورياً لسلامة البلاد آنذاك . فقد أجبر هنري الملك رتشارد على التنازل عن العرش ، وذلك بالتهديد بالموت بالنسبة إليه وإلى أصدقائه ، ودبّر امر قبول البرلمان بحقه في العرش ، بحشده اتباعه وأنصاره المسلحين في مجلس العموم . وقد سمح البرلمان لهنري بعد ذلك ، بأن يسجن رتشارد مدى الحياة ، وسُجن ابن الامير الاسود السيّء الحظ في قلعة بونتفراكت . وقد توفي هنا ، ولم تُعرف قط الظروف الحقيقية لموته . وأدّى ذلك الى تعاقب سلسلة من الاساطير الغريبة ، شبيهة بالاساطير حول آرثر ، إبن أخي الملك دجون . البعض يقول إنه إما امتنع عن تناول الطعام حتى مات او انتحر بطريقة أعنف ، والبعض الآخر أكّد أن هنري نفسه قتله ، إما بالتجويع الاكراهي ، أو بواسطة سلاح ما . حتى انه زُعم أنه لم يمت ، بل هرب ، وعاش في المنفى في اسكتلندا طوال سنين عدة . ومهما يكن الجواب الصحيح ، فإنه لن يُفهم على حقيقته وكلياً ، دون موجز للاحداث التي ادّت الى اغتصاب العرش من قبل هنري الرابع .

بعد ثورة الفلاحين السنة ١٣٨١ بأربع سنوات ، تسلّم رتشارد الذي ابدى بسالة

فائقة خلال الثورة ، مقاليد الحكم ، وهو بعد في الثامنة عشرة . ولم يحاول عمه ،دجون غونت ، الوصيّ على العرش منذ السنة ١٣٧٧ أن يمنعه ، لأنه عرف انه ، شخصياً ، لم يكن يتمتع بشعبية في البلاد لأسباب عديدة . وذهب غونت الى اسبانيا للمطالبة بتاج قشتالة ، بموجب حق زوجته الثانية ، كونستانس القشتالية . وعندها ملأ رتشارد الشاب المناصب الشاغرة في الحكومة بأصدقائه ، وكان رئيس وزرائه مايكل دو لا بول ، إبن أحد التجار الاغنياء الذي منحه لقب ايرل سافوك ، فكان ذلك عملاً أشمأز منه الكثيرون من النبلاء الارستقراطيين . وقد انعم كذلك بلقب نبالة على امرئ يدعى روبرت دو فير ، فجعله مركيز دبلن وأوفده الى ايرلندا برتبة نائب - لورد . واستخدم كذلك أخويه غير الشقيقين توماس ودجون هولاند .

كان رتشارد شاباً ذكياً وقديراً ، وكان يتوقع منه ان يظهر كفاءة كبيرة في إدارة شؤون بلاده . غير أنه كان هناك امرؤٌ وقف في سبيله بطموحه وحسده . كان هذا الرجل عمه الأصغر ، توماس وودستوك ، دوق غلوستر ، وهو عنيف ، مجرّد من المبادىء الخلقية ، وقد خاب أمله لما لم يتم اختياره خلفاً لدجون غونت كوصي على العرش . وكان رتشارد يكره غلوستر ، وأقصاه عن الاشتراك في اي من شؤون الحكومة . سوى أن ذلك أثار عمه ، فجمع حوله عصبة من النبلاء الاقوياء النفوذ ، الذين تبنّوا الشعار القائل بأن الملك يقع تحت تأثير المحسوبين ومحدثي النعمة ، وأن دو لا بول ليس أفضل من بايرز غيفستون ، المحسوب الوضيع على رتشارد الثاني . وقد اجتذب بهذا النوع من الحجج عدداً لا بأس به من البارونات الى صفّه ، ذلك بأنه في تلك الأيام كانت المنافسة شديدة بين النبالة الحقيقية والنبلاء الوصوليين من المحسوبين . والواقع أن ذلك ظل على حاله حتى نهاية حروب الوردتين السنة ١٤٨٥ ، عندما حطمت الارستقرطية القديمة في انكلترا نفسها بنفسها . وكان بين البارونات الأقوياء كل من ايرل آرندل ، ونوتنغهام ، ووروِيك ، وابن عمّ رتشارد هنري بولنغبروك . ولم يكن صعباً عليهم أن يثيروا الشعب بالشكوك المستمرة من سوء حكم المحسوبين على الملك . وقد حاولوا أن يوصلوا ظلاماتهم اليه عبر السبل القانونية ،اي بواسطة البرلمان ، حيث نجحوا في اتهام دو لا بول بالتقصير وسجنوه ، ولكنهم قوبلوا

بعناد رتشارد الذي أطلق بدوره المحسوب عليه ، متحدياً صراحة إرادة مجلس النواب .

ولم يكن ثمة من بديل غير القوة . وزحف غلوستر وشركاؤه مع حشد كبير من اتباعهم الى لندن معلنين أنهم إنما يودّون صرف محدثي النعمة الفاسدين ممن يحيطون بالملك . وسمّوا انفسهم «اللوردات المستأنفين» لأنهم إنما يتهمون الوزراء بالخيانة . وفوجىء رتشارد بالثورة ، وعجز عن المقاومة . وهرب دو لا بول ودو فير الى الخارج ، وقد توفيا بعد ردح من الزمن قصير . ووقع رتشارد وسائر المتحدين معه بين ايدي «اللوردات المستأنفين» .

ودعي مجلس برلمان رديء السمعة الى الانعقاد ، عُرف باسم «البركان العديم الرحمة» وكان يعجّ بالمسلحين من رجال غلوستر وأنصاره ، فحُرم دو لا بول ودو فير من حماية القانون ، وحكم بالموت على كل من لورد بوشان ، وقهرمان رتشارد (أي المسؤول عن تدبيرشؤون القصر) ، ورئيس المحكمة العليا تريزيليان ، والسر سايمون برلي ، مربّي الملك ، والكثيرين سواهم ، وأعدموا . وقد ختم هذا البرلمان الفاضح أعماله بالاقتراع على مبلغ ٢٠ ألف ليرة استرلينية ، تدفع الى «اللوردات المستأنفين» مكافأة لهم على إزعاجهم ، ثمّ انصرف الاعضاء الى منازلهم .

بقي غلوستر في السلطة حوالى العام الواحد ، اي المدة الكافية ليظهر للبلاد أنّه يهتم بنفسه اكثر من اهتمامه بالشعب . ولكن ينبغي الاعتراف بأن هذه الحكومة عقدت الصلح مع كل من اسكتلندا وفرنسا ، بعد أن احدثت فرنسا ركوداً في حرب المائة سنة .

في السنة ١٣٨٩ بلغ رتشارد سن الرشد ، ويُقال إنه سأل عمه في أحد اجتماعات المجلس ، عن سنه ، فلما أجاب غلوستر انه في الثانية والعشرين ، قال رتشارد «إذاً فأنا في سنّ تسمح لي بإدارة شؤوني الخاصة .» وصرف من فوره غلوستر ومؤيديه من مناصبهم . وكان بإمكانه إذ ذاك أن يعاقب «اللوردات المستأنفين» لممارساتهم غير المشروعة ، بلا أدنى ريب ، ولكن من الغريب أنه لم يقم بشيء من ذلك .فقد تصرّف بكثير من الاعتدال جعل الجميع يمتدحونه عليه .

طوال السنوات الثماني التي تلت ، حكم رتشارد بدراية وحكمة . وقد نمت قوة حركة وكليف ونفوذها - وكانت بقيادة تلاميذ هذا المصلح الديني المعروف - بحيث أن ممثليها في مجلس العموم شعروا السنة ١٣٩٤ أنهم من القوة بحيث يستطيعون الحثّ على التخلّي عن بعض أهم العقائد في الكنيسة . ولكن ، بدلاً من أن يضطهد هؤلاء الهراطقة المدّعين ، كما فعل خلفه ، اكتفى بتعنيفهم ، وطلب اليهم الكفّ عن مواصلة سياستهم الثورية . ونفّذ رتشارد الكثير من الاصلاحات في الحكومة والقانون ، وجهّز أمر اعادة بناء قاعة وستمنستر . وبدا كأن البلاد قادمة على عهد طويل من السلام والازدهار ، في ظل حكم واع ومعتدل .

وما إن أقبلت السنة ١٣٩٧ حتى كان رتشارد قد ثبّت نفسه على العرش ، وشرع في السيطرة سيطرة مطلقة . وهنا ، أكدت نفسها سمة غريبة من سمات سلوكه المعقّد . ويبدو أنه غذى انتقاماً وحشياً من اللوردات المستأنفين منذ السنة ١٣٨٩ . فقد كانوا ما يزالون معارضين له ، ولكن نوتنغهام وبولنغبروك كانا قد انضمّا إليه . وعلى حين غرّة أمر باعتقال كل من غلوستر ، وآرندل ، ووورويك ،بتهمة التخطيط للثورة ، وزجّهم في السجن . وقد مُنح آرندل الشرف المشكوك فيه بالمحاكمة ، ثم أُعدم غلوستر سراً ، بينما نفي وورويك على مدى الحياة . ويبدو أنه عُفي عن نوتنغهام وبولنغبروك ، وذلك بأنهما سُميا دوق نورفوك ودوق هيرفورد . ولكنه بعد سنة ، انتقم منهما كذلك . ويعتقد أنه دبّر نزاعاً بين الدوقين ، بعد أن اقنع هيرفورد باتهام نورفوك بالخيانة . وأقتنع الدوقان بعد إلحاح بالمبارزة في لقاء واحد في الميدان . ولكن قبل شهر الرمحين ، أوقف رتشارد النزال ، ونفى الاثنين خارج المملكة - هيرفورد لمدة عشر سنين ، ونورفورك مدى الحياة . ومنح الاول حق وراثة ألقاب والده وممتلكاته عندما يتوفى دجون غونت .

وبعد أن حطم رتشارد في الوقت الحاضر قوة اللوردات المستأنفين ، شرع في الحكم بحركة ثورية أشد من ذي قبل . فضاعف دخله بقروض إجبارية من الاغنياء (طريقة رائعة في ذلك الوقت) ، واستولى على كل ممتلكات دجون غونت عقب وفاة هذا الأمير السنة ١٣٩٩ ، على الرغم من أنه سبق له ان قال لهنري إنه سيرث دونما أي

تدخّل . وقد أكسب هذا العمل الاحمق هنري قدراً كبيراً من العطف ، وكان عملاً ما لبث أن جعل رتشارد يندم على ارتكابه .

وسافر رتشارد عندئذ الى ايرلندا لوضع حّد للفوضى التي دمرّت البلاد طوال السنوات التسعين الماضية . فلما اختفى في مستنقعات ايرلندا ، رأى اعداؤه في ذلك فرصتهم للثورة . فانضم البارونات الى هنري ، متسلحين ، إذ ذاك ، بأسباب مشروعة للثورة - إي بالقروض الإجبارية ، والتساهل مع الويكلفيين ، وحكمه الاستبدادي - وكان هنري قد نزل على حين غرة في يوركشير ، وزحف الجميع غرباً .

وما ان علم رتشارد بنزول ابن عمه في يوركشير ، حتى غادر ايرلندا بحراً . غير أن الطقس العاصف أبقى سفنه قريبة من دبلن طوال شهر ، وكانت النتيجة أنه لما وصل في نهاية المطاف ، الى ويلز ، كان الوقت قد فات لتعبئة جيش من القوة بحيث يتسنّى له مقابلة هنري في ساحة القتال . وفضلاً عن ذلك ، كان هناك نوع من الاستياء في صفوف جنده ، وما إن بلغ قلعة كونواي حتى لم يبقَ معه إلا عدد ضئيل من المساندين . فاضطر عندئذ الى الاستسلام إما في كونواي ، او ، كما اقتُرح ، في قلعة فلينت التالية ، بطريقة الخداع ، وقد أرسله هنري الى برج لندن .

من الصعب القول ما إذا كان لدى هنري النية على انتزاع التاج عندما نزل في رافنسبير ، في يوركشير . وقد أعلن بالطبع ، أنه إنما عاد من أجل هدف واحد ، هو استعادة الممتلكات التي كانت من حقّه . ولكن ما إن بات رتشارد في البرج حتى لم يعد لديه اي شك في ان هنري كان يخطط لاغتصاب العرش .

هنا يبرز السؤال حول المصير الذي كان يخبئه هنري لابن عمه . كان من الضروري ان يذهب رتشارد . ولكن هل كانت النية تتجه الى قتله . إن دراسة مدققة للوقائع والاساطير ، ستكشف لنا عن الجواب . وثمة قصة اكتسبت اعتقاداً واسع الانتشار مؤدّاها أن رتشارد عاش حتى أمضى بعض الوقت في اسكتلندا . وفي السنة ١٤٠٣ ، تبنّى آل برسي قضيته في ثورتهم ، وبعد ثلاث سنوات ادّعى إيرل نورثمبرلاند أن رتشارد ما يزال حياً ، وقد اتهم قبل ست سنوات هنري بقتله .

عقب أسره في قلعة فلينت ، ونقله الى برج لندن ، أجبر رتشارد في ٢٩ أيلول

١٣٩٩ ، على التوقيع أمام عدد من الشهود ، على التنازل الرسمي عن عرشه . وبموجب هذه الوثيقة حلّ كل رعاياه من الولاء له . وتخلّى عن التاج وحكومة مملكته وبلدان الدومينيون ، وصرّح بأنه ينبغي أن «يُخلع بحقّ .» وأضاف أنه لن يسحب مطلقاً إعلانه هذا . وفي اليوم التالي ، اجتمع البرلمان في قاعة وستمنستر الكبرى ، وعُرضت القضية (قبول التنازل) على الأعضاء . وقد أتبع ذلك بتقديم لائحة بالاتهامات المساقة ضد الملك المخلوع ، وقد تضمّنت ثلاثين تهمة .

لا مجال ههنا لتعداد مواد الاتهام ، باستثناء القول إنها ، عموماً ، تشمل حكمه الاستبدادي ، وسوء معاملة الجنود المواطنين ، وخرق عدد من القوانين والعادات . وما أصاب رتشارد ، في الواقع ، هو تماماً ، تكرار ما فعله هو بالآخرين . سمح لنفسه بأن يصبح أداة بين ايدي المتآمرين القذرين ، فأذا به الآن ضحية مثل هؤلاء الرجال . وأعطى مثالاً على سوء الحكم تحت ستار القانون ، وبمساندة البرلمان المحشور فيه أتباعه الشخصيون ، واليوم ، انتزع مجلس يعجّ بما عج به برلمانه من قبل ، عرشه بحجة التظاهر بالعدالة .

أبقي رتشارد في السجن في البرج ، طوال الشهر التالي ، ولكن على الرغم من أنه لم تظهر أي دلائل على اي تحرك شعبي في مصلحته ، فقد اتضح ، مع ذلك ، أن وجوده سيظل يشكّل خطراً ، فوضعت الترتيبات بسرعة لإبعاده عن العاصمة . وفي ٢١ تشرين الاول ، التمس مجلس العموم أن يجبر رتشارد على المثول أمام المحاكمة ، ولكن الملك الجديد رفض .

وحسب ما ورد في عرض للاحداث وفقاً لتسلسلها الزمني بعنوان «خيانة رتشارد الثاني وموته» وضعه بالفرنسية احد الكهنة الذي رافق هنري في غزوه ، أرسل اللندنيون قبل شهرين ولدى علمهم بوجود رتشارد في السجن ، طلباً الى هنري لكي يعدمه في الحال . فرفض هنري ذلك ، ولعل هذا يفسر رفض محاكمته . وفي هذه المرحلة ليس ثمة تشكك في أن هنري لم ينوِ أن ينال ابن عمه أي أذى جسدي ، يتجاوز السَجْن .

وبعد أيام قلائل عقدت لجنة خاصة من اللوردات اجتماعاً ، وجرت المداولات

بسرية تامة . وقدّم ايرل نورثمبرلاند القضية الى زملائه اللوردات- ماذا سيكون مصير الملك المخلوع؟ فأجاب هنري الرابع من فوره أنه لن يوافق على اي اقتراح يهدد حياة رتشارد ، ولكنه يعتبر ان مصلحة أمن البلاد تقضي بإبقائه في السجن ، وعندها وافق اللوردات على ان يُنقل الى مكان تنتفي فيها إمكانية محاولة إنقاذه ، وأن يبقى تحت الحراسة الكاملة ، دون ان يُسمح له بمقابلة أي أصدقاء . وفي اليوم التالي بالذات ، تحدَّث الملك الى اللوردات والنواب في قاعة وستمنستر ، وأخبرهم أن رتشارد سيظل سجيناً مدى الحياة . وسيتم اختيار حرّاسه من بين أُناس لا يعرفهم ، وسيبقى مكان الاحتجاز سراً . ولن يُسمح له بالكتابة ، ولا بتلقّي المراسلات . ووافق الحضور على كل ذلك ، وبعد اثنتي عشرة ساعة – عند منتصف الليل تماماً – نُقل رتشارد من البرج . ويذكر عرض الاحداث «خيانة رتشارد الثاني وموته» أنه أخرج متنكراً بزي مراقب أحراج ومعه رمح للصيد ، ونُقل الى قلعة ليدز ، في كنت ، حيث سيُنقل من هناك الى مكان مجهول . وكانت هذه الوجهة المجهولة ، في الواقع ، قلعة بونتفراكت ، في يوركشير ، وهي احدى قلاع الملك هنري .

وعُهد به الى القهرمان روبرت ووترتون ، والسر توماس سوينفورد ، ابن كاثرين سوينفورد من زوجها الأول . ومنذ ذلك الحين لم يُسمع قط أي شيء عن الملك السابق .

في مطلع السنة ١٤٠٠ ، بدأت تنتشر شائعات حول موت رتشارد ، ولم تُعرف طريقة موته أو طبيعته . وكانت النتيجة أن مجموعة من الاساطير ظهرت ، مثيرة ومأساوية ، ولكنها مع ذلك ، ابعد ما تكون عن الحقيقة .

ويسجل عرضان للأحداث وفقاً للتسلسل الزمني أقلّ القصص خيالاً ، سنرى ، في ما بعد ، أنها ترتدي طابعاً من الحقيقة . الاول هو «حاليات رتشارد الثاني وهنري الرابع» التي تغطّي الحقبة من ١٣٩٢ – ١٤٠٦ ، وربما كتبه راهب في سنت اولبانز . أما الآخر فلعلّه من تصنيف أحد الرهبان في كانتربري ، وقد سُمّيَ «يولوجيوم هستورياروم» . وهما يقدمان هاتين الروايتين .

علم رتشارد أن أصدقاءه أخفقوا تماماً في تحقيق إطلاق سراحه ، ودفعوا حياتهم

ثمناً لهذا الجهد . ثّم إنه أصبح كئيباً فرفض تناول الطعام والشراب ، حتى هزل ومرض مرضاً شديداً ، الى أن قضى في النهاية من الجوع الذي فرضه على نفسه ، وسنرى ، بعد قليل ، ان هذا الاقتراح ليس بمستبعد مطلقاً .

اما الرواية الثانية ، فإنها تقرُّ بأن الموت كان بسبب التجويع ، ولكنها تُضيف ان ذلك حدث من خلال سوء معاملة رتشارد المتعمّدة بناءً على أمر الملك هنري . ويقدم كتاب «خيانة الملك رتشارد الثاني وموته» وصفاً قذراً لآلامه . فقد مُنعت عنه التغذية المناسبة حتى بلغ حالة يرثى لها ، فراح يقتطع أجزاء من لحم ذراعيه ليقتات بها ويشبع جوعه . وهذا أمر مستبعد !

بعد سنتين من وفاة رتشارد ، اتُّهم هنري بأنه جوّع ابن عمه حتى الموت ،ولكنه انكر ذلك بعناد ، وربما ، كان صادقاً في إنكاره . وكذلك بعد ثلاث سنوات ، قدّم الاتهام نفسه كبير الاساقفة سكروب ، الذي أقرّ بأن دليله يعتمد كلياً على أحاديث تتردد على ألسنة اشخاص عاديين . وقد تقبّل هذه الشهادة الهزيلة اولئك الذين يكرهون هنري ، ويعتبرونه مغتصباً للعرش – وقد كان كذلك ، بالطبع .

وهناك رواية اخرى لا تصمد امام اي امتحان جدّي ، ولكن ينبغي ايرادها هنا ، ذلك بإنها اساس قصة وليام شكسبير عن نهاية رتشارد . ولعلّ أبرز ما في هذه القصة أنه على الرغم مما يبدو ذلك مستحيلاً ، فإنها كانت الاعتقاد السائد طوال قرون ، وقد تقدّمت على سائر المقترحات المزعجة والمحتملة . ويعتقد أن هنري أوفد السر بايرز إكستون الى بونتفراكت للقضاء على رتشارد . فدخل إكستون الزنزانة القذرة ، يرافقه ستة من الاشخاص الغلاظ المسلحين . وقدّر رتشارد الغاية من زيارتهم ، فدفع المائدة التي كان يتناول اليها الطعام ، الى الخلف ، وهرع الى وسط الجماعة ، وانتزع سلاحاً ، وقتل أربعة أشخاص . وكان بإمكانه القضاء على جميع الموجودين لو لم يقفز إكستون فوق كرسي ،ويعاجله بضربتين من فأسه على أمّ رأسه .

من السهل دحض هذه الرواية : اولاً لأنها كُتبت بعد فترة من الأحداث المزعومة ، وكان كاتبها فرنسياً ، وكُتبت للمصلحة الفرنسية . ولا يمكن أن يكون لها إلا هدف واحد – إثارة الكره والحقد على هنري في وقت كان ثمة شعور مرير بين انكلترا

وفرنسا . وثانياً ، لم يكن كاتب هذه القصة في انكلترا حين توفي رتشارد . وثالثاً ، حدّد مكان المصرع في برج لندن ، ونحن نعلم أن رتشارد توفي في بونتفراكت . ورابعاً ، يبدو أنه ليس هناك اي دليل معزّز لوجود امرئ يدعى بايرز إكستون في تلك الحقبة . واذا كان قد وُجدَ فإنه لم يكن حتماً في بونتفراكت ، ولم يكن حتى معروفاً من الملك هنري . وأخيراً فتح دين ستانلي نعش رتشارد السنة ١٨٧١ في كاتدرائية وستمنستر فكشف فحص جمجمته عن عدم وجود اي آثار يمكن أن تؤيد القصة التي تلمح الى ضربتَي فأس على الرأس ، لأن حالة الجمجمة كانت سليمة تقريباً .

وهناك حكاية رومنطيقية أخرى توحي بأن رتشارد لم يقضِ قط في قلعة بونتفراكت ، ولكنه هرب ، ووصل في نهاية المطاف الى اسكتلندا ، حيث استُقبل بحرارة في البلاط الاسكتلندي . كل هذا حسن جداً ، ولكن بعد سنتين من وفاته كان هناك عدد من الاشخاص المدعوين رتشارد ، استخدمهم البارونات المرتدّون ذريعة لثورتهم .

وثورة برسي تثبت ، نظرياً ، من اجل إعادة رتشارد الى العرش ، وعملياً من اجل ابتزاز المال بالقوة ، بعد أن رفض هنري التنازل عن شيء منه بطيب خاطر - ما دام هو بحاجة اليه شخصياً !

إن نظرة سريعة الى تطور هذه النظرة عن هرب رتشارد ، والاستعمالات التي لجأ اليها اعداء هنري بفضلها ، يمكن أن تساعد نوعاً ما .

في السنة ١٤٠٢ ، رؤي غريب فقير يتسكع على جزيرة في عرض الساحل الغربي لاسكتلندا . كيف وصل إلى هناك ، لا أحد يدري ، ولكن زوجة احد الزعماء أبصرته . وكانت قد شاهدت الملك رتشارد ذات مرة في ايرلندا ، قبل ذلك بسنوات ، وصعقها الشبه الشديد بين ذلك الغريب والملك . وأخبرت زوجها الذي سأله الرجل الغريب عما اذا كان الملك رتشارد ، عاهل انكلترا . فأجاب هذا الأخير أنه ليس الملك . ومع ذلك ، بقي محتجزاً ، وأبلغ البلاط الاسكتلندي بالأمر . وبعد فترة قصيرة ، انتقل الغريب إلى أيد اخرى ، وطوال السنوات القليلة التالية ، راح يتنقل من سجن الى آخر ، حتى أنه قضى ردحاً من الزمن قصيراً مع الملك روبرت الثالث . ويبدو أنه

عومل بطريقة شبيهة بتلك التي عومل بها ذو القناع الحديدي - حُجبت ملامحه عن الانظار تماماً ، ولكنه مُنح كل اسباب الراحة التي تطلّبها .

لما حاول ملك فرنسا وايرل نورثمبرلاند (برسي) اكتشاف هوية الأسير مُنعا من ذلك . وهذا يعني حتماً امراً واحداً - لم يكن السجين الملك رتشارد . ولم تكن تلك أول حالة انتحال لشخصية الملك الميت ، وذلك بأنه قبل بضعة أشهر ، ادّعى كاهن يسمى موديلين ، وكان يشبه رتشارد كثيراً ، أنه الملك الهارب . ولم يستمر طويلاً ادّعاؤه ، ولم يؤخذ على محمل الجدّ ، فقبض عليه وشُنق لاعترافه بأنه زائف . ولم يكن انتحال الشخصية أمراً غير مألوف خلال تلك الحقبة . فقد سنحت الفرصة لمرغريت ، الوصية على عرش الدانمرك ، لكي تأمر بإعدام امرئ زعم أنه ابنها أولاف ، الذي كان معروفاً أنه توفي قبل اثنتي عشرة سنة .

لم يكن هنري منزعجاً من هؤلاء المدّعين على نحو غير ملائم ، إلا لكونهم الناطقين بلسان الثّوار ، إلا أنه من الواضح ان الوقت قد حان لكي يثبت موت رتشارد بطريقة لا تقبل الشك .

أعلم أنصار رتشارد في انكلترا بأمر رتشارد المزعوم من خلال رسائل سرية (مع أنه قيل ، بالطبع ، إنه رتشارد الحقيقي) . وقد أشارت هذه الرسائل أن الملك سيُظهر نفسه في منتصف حزيران من السنةالتالية (١٤٠٣) . وقد طُلب اليهم أن يكونوا على أهبة الاستعداد لوصوله ، ولكن ، كما كان متوقعاً ، لم يظهر لا الملك رتشارد ولا رتشارد الزائف ، لا في ذلك التاريخ ، ولا في سواه .

إن احد الأسباب الرئيسية لظهور هذه الأساطير يكمن في أن سجن رتشارد في قلعة بونتفراكت لم يكن معروفًا إلا من القلة .

هنا ينبغي لنا أن نعرف ماذا حدث لأرملة رتشارد ، ايزابيلا الفرنسية ، لأن الوقائع تُثبت ان زوجها توفي . فقد عادت الى وطنها الاصلي السنة ١٤٠١ ، على أساس أن البلاط الفرنسي لديه المعلومات الكاملة حول وفاة زوجها قبل سنة من ذلك . وكانت امرأة يمكن أن تكون مرشحة للزواج وكثيرون طلبوا يدها . ولكن ، من اجل جلاء سرّ اختفاء رتشارد بصورة نهائية ، حسب رغبة البلاط الفرنسي ، أوفد امرؤ الى

اسكتلندا ، يُدعى جان كريتون ، عرف رتشارد شخصياً ، وكانت تربطه به علاقة حميمة . وكشفت زيارته اسكتلندا ، كما كان متوقّعاً ، الحقيقة . فقد عاد كريتون بنبأ موت رتشارد ، وأبلغ ذلك بعبارات مبالغ فيها ، وادّعى ان الملك توفي غيلة بطريقة فظيعة يُرثى لها .

عندها اتهم دوق اورليان ، شقيق ملك فرنسا شارل السادس ، صراحة الملك هنري الرابع بأنه قتل ابن عمه ، على الرغم من أنه زمن اغتصاب هنري العرش ، كان الدوق من اكثر المؤيدين له حماسة . وأنكر هنري التهمة في رسالة ، وأضاف أن دوق اورليان كان غادراً بالنسبة الى شقيقه شارل اكثر منه (هنري) بالنسبة الى ابن عمه رتشارد . ولم يمض طويل وقت حتى تزوج ابن الدوق هذا ، كونت أنغوليم ، ايزابيلا ، أرملة رتشارد ، مؤكداً بذلك أن البلاط الفرنسي تقبّل موت رتشارد .

آن الآن الاوان لإظهار عدم مسؤولية هنري في مقتل ابن عّمه . ففي «وثيقة عائدات الخزينة» المؤرخة في ٢٠ آذار ١٤٠٠ ، نجد قيداً مهماً . فقد دفع مبلغ لقاء عمل نُفّذ قبل ذلك التاريخ . وهذا مؤدّاه : «دُفع مبلغ ستة شلنات وثمانية بنسات بواسطة خادم ، أوُفد من لندن ،لمصلحة مجلس الشورى ، إلى قلعة بونتفراكت ، لحرّاس جثمان رتشارد ، ملك انكلترا الراحل ، والقيمين عليه .» وهناك ، أيضاً ، نسخ عن ثلاث رسائل من شارل السادس الفرنسي الى سفرائه في مدينة بولونيا ، الإيطالية ، تشير الى موت رتشارد .

في كانون الثاني ١٤٠٠ ، سرت في لندن شائعة تقول ان الملك المخلوع قد توفي ، وخشي مجلس الشورى أن يُثير الشك المظاهرات ، فالتأم في وقت مبكر من شباط ، وأشار على الملك إما أن يؤكد الشائعة ، أو ينفيها ، اذا استطاع . وطلب الاعضاء ان يُعرض جثمانه على الجمهور ، إذا أمكن ذلك . فأمر هنري عندئذ بحمل الجثمان الى لندن ، وكانت تتم وقفات مرحلية طوال الطريق لعرض الجثمان . وفي وثيقة العائدات ، في ١٧ شباط ، دُفع مبلغ مئة مارك (المارك وحدةنقد انكليزية قديمة تعادل ١٣ شلناً و ٤ بنسات) للقيّم على خزانة الملابس لنقل جثمان رتشارد من بونتفراكت إلى لندن . وكان ثمة محطة في سنت اولبانز ، حيث عاين أحد المؤرخين الإخباريين

النعش وتعرّف الى رأس الملك الراحل . ولدى بلوغ لندن ، وضع التابوت مدة يومين في كنيسة القديس بولس ، حيث حضر الملك هنري إذ ذاك ، قداساً وجنازاً عن راحة الميت . وكان الكثيرون من سكان لندن حاضرين ، واستغلت كل فرصة ومناسبة للدعاوة من اجل عرض النعش . ثم أمر هنري بنقله الى قصر الملك المعروف بقصر لانغلي ، في هرتفوردشير ، وهو احد قصور رتشارد المفضلة ووري الثرى هناك بحضور أسقف لتشفيلد .

وصودرت موجودات رتشارد ، ووُزعت في ما بين أصدقاء هنري وانسبائه . إلا إنه من المهم ان نشير الى أن قسماً من ثروته آل إلى اولئك الذين جُردّوا من حقوقهم ، والثوار الذين أُعْدموا وأولادهم جميعاً ، كما مُنحت أمّ المحتال موديلين مبلغاً كبيراً من المال .

إذاً ، فأن رتشارد قد توفي في فترة ما بين نهاية كانون الثاني وأوائل أيام شباط من السنة ١٤٠٠ . ولن نعرف ، ربما ، التاريخ الصحيح أبداً ، لأن المؤرخين الإخباريين أنفسهم غير متفقين على ذلك بسبب جهلهم ، على الأرجح . ولن تُعرف ، أيضاً ، الطريقة التي قضى بها ، بصورة أكيدة ، ولكن بالوسع تقديم اقتراح يبرئ هنري من المسؤولية ، ويجعل العنف مستبعداً .

أولاً ، أكّد هنري ، تكراراً ، لرتشارد وللمجلس الشورى ، أنه لا ينوي إنزال إي أذى بابن عمه . وفي التاريخ الشهير الذي كتبه المؤرخ الإخباري الفرنسي فرواسار عن ذلك العصر ، نقرأ حديثاً بين هنري وبعض المؤيدين . سألوا ماذا سيحدث للملك المخلوع ، فأجاب هنري : «في ما يتعلق بي شخصياً ، أنا لا أحكم عليه بالموت . لقد وعدت بذلك ، وأنوي المحافظة على وعدي» . فلما الحّوا عليه اكثر ، أجاب بشدة اكثر بالمعنى نفسه ، وتحوّل فجأة الى التحدُّث في أمور أخرى .

لدى نزوله في يوركشير ، صرّح هنري أنه إنما جاء من اجل غاية واحدة هي المطالبة بممتلكات ابيه ، دجون غونت (الذي كان توفي قبل قليل) ، وهي من حقّه . وليس ثمة سبب للاعتقاد أنه كان ينوي أي شيء آخر . أما قضية أن الاحداث جرّت الى اغتصاب العرش ، فربما كان مردّها إلى ضغط مؤيديه وأنصاره ، مقرونة بحرون

رتشارد .

من الحماقة محاولة تبرئة هنري الرابع ، ذلك بأنه كان ، ولا ريب ، مذنباً ببعض التجاوزات المروعة . فانكلترا لم تغفر له قط إعدام سكروب ، كبير أساقفة يورك (مع ان هذا الأخير كان يستحق ، ذلك المصير ، ومثله في ذلك مثل بيكيت ، الذي نال نصيبه من قبل) ، وذلك السنة ١٤٠٥ ، وكذلك اضطهاده الوكليفيين الذي كان عملاً سياسياً ودينياً لا مبرر له ، كما كان مثالاً مروعاً على القسوة التي كانت سائدة في القرون الوسطى .

ويُعرف عن هنري أنه كان قبل أي شيء صادقاً في العهد والوعد . فضلاً ، عن أنه كان دوماً لا يألو جهداً في إنكار أي تهمة توّجه اليه حول قتله ابن عمه . ونظراً لانعدام الدليل ، ليس بالوسع إيجاد أي سبب لنقضه وعده في هذا الشأن ، في حين أنه كان صادقاً في وعده في شؤون أُخرى .

أن يكون رتشارد قضى جوعاً تفسير حسن ، ومعظم المؤرخين الإخباريين في ذلك العصر ، وبعده ، يتمسكون بهذه الرواية . وتراهم لا يختلفون إلاّ حول قضية ما اذا كان التجويع ذاتياً أم لا .

إن التبصّر في سلوك رتشارد يمكن أن يقودنا الى الاستنتاج أنه كان ذاتياً وطوعياً . فقد كان مزاجياً ، ومتهوراً ، ويستسلم الى سورات قسوة ووحشية ، وجرعات مفرطة من الرثاء الذاتي ، وأحياناً ما كان يميل إلى حالات السويداء والانهيار الحادة . وتتضمن حياته الكثير من الامثلة على هذه السمات ، وليس من الصعب نسيان الانتقام الرهيب الذي أنزله باللوردات المستأنفين . وقد ضُرب صَفْحٌ عن أنه فكّر في الانتحار عندما تسلّم عمه غلوستر في البدء زمام الحكومة السنة ١٣٨٨ .

في نهاية السنة ١٣٩٩ ، اندلعت نيران ثورة في مصلحته الغاية منها إعادته الى العرش . وقد نظّمها أخواه غير الشقيقين ، (توماس ودجون هولاند) ، وكانت خطتهما تقضي باعتقال هنري في قصر وندسور . وافتضح أمر المؤامرة ، واخفقت الثورة ، ودفع الزعيمان حياتهما ثمناً لذلك . ولدى سماعه هذا النبأ المفجع ، غرق رتشارد في احدى نوبات القنوط والكآبة ، وقرّر أن كل شيء قد انتهى . وكانت فكرة

قضائه السنوات الطوال في السجن بعيداً عن كل اتصال مع اصدقائه ، مرعبة جداً ، فراح يسعى وراء الفرج . ولما لم يكن بوسعه وضع يده على أي سلاح فعّال ـ فأداة من ادوات الطعام كانت أمراً غير مستحبّ مطلقاً ـ عزم على تجويع نفسه حتى الموت . وواضح تماماً انها اسطورة تلك التي زعمت أنه كان يقتطع بعضاً من لحمه ليأكل ، ذلك بأن غايته كانت الموت ، وليست الأكل !

هذا كل ما يسعنا أن نحصل عليه من معلومات حول الحل الحقيقي ، إلا أنه قبل استبعاد هذا الاقتراح ، وقبل إلقاء المسؤولية على الملك هنري ، ثمة أسئلة ينبغي الإجابة عنها . هل كان هنري رجلاً صادق العهد؟ هل كان بالامكان أن يستخدم مثل هذه الوسيلة الكريهة للقتل؟ لماذا سمح بدفن رتشارد في أرضه المفضّلة؟ لماذا أنكر باستمرار اي ذنب له يتعلق بالقضية؟ إن هذا الحل هو مقنع كأي حل آخر وأفضل من معظم الحلول !

هل كان دجيمس، دوق مونموث، إبن الملك تشارلز الثاني الشرعي؟

هل تزوج تشارلز الثاني حقاً لوسي ولتر؟ واذا كان الأمر كذلك ، هل كان ابنهما دجيمس ، دوق مونموث ، الوارث الشرعي للعرش؟ لماذا أغدق عليه تشارلز الكثير من النعم والحظوة؟ ومع ذلك أنكر بشدة وعناد شرعيته في سنوات حكمه الأخيرة؟ من الممكن أن يكون دجيمس الثاني ، بعد معركة سدجمور ، رفض الصفح عن ابن أخيه لأنه عرف أن لمونموث حقاً أفضل بالعرش؟ ما مدى التصديق الذي قوبل به تأكيد لوسي ولتر الجريء بأنها كانت متزوجة من تشارلز؟ ماذا يمكن قراءته بين السطور في يوميات صمويل بيبيس الذي يشير باستمرار الى السر؟ هل كانت لوسي بغيّاً مبتذلة ، كما اجتهد التاريخ في تصويرها؟ أم أنها كانت امرأة فاضلة وضحية قرون من الافتراء وتشويه السمعة يستندان الى دليل لا يصمد امام الامتحان؟

ينبغي الاجابة عن هذه الاسئلة اذا كنا نحاول إثبات شرعية مونموث . ومع الأسف ، فإن معظم الادلة من تواريخ معاصرة ، لا يفيدنا كثيراً ، لأن الكثير منها لا يُعتمد عليه ، ومعظمه كذلك متحيّز ضد لوسي ولتر . ولكن ، على الرغم من انعدام الاعتماد هذا ، فان الافتراءات والوشايات ضد لوسي ولتر ما تزال تُصَدَّق بوجه العموم . فقد وُصفت بأنها مومس ، وبنت هوى ، وغانية وضيعة الاصل ، وما شابه ذلك من الاوصاف المتبذلة . ولكن ليس ثمة أي تأييد لمثل هذا التحلل ، وسنرى بعد ، دليلاً لا يقبل الشك على ما اذا كانت غير عفيفة قبل اتحادها بتشارلز الثاني ، ام أنها اصبحت خائنة بعد ذلك . إذاً ، فان الكثير من الحقيقة حول هذا السر يكمن في الاعترافات غير المقررة لأناس بارزين في ذلك الزمن ، لأنهم كانوا يخشون أن تجبر شعبية مونموث في اوساط عامة الشعب ، على الاعتراف بشرعيته ، وذلك ما لم

يكونوا يرغبون فيه . فبُذل إذ ذاك كل جهد لتشويه سمعة مونموث ، وذم أمّه والحطّ من قدرها ، بعد وفاتها . وما لبث أن راح تشارلز يتصرّف بطريقة تعود على الخصم بالفائدة وتعود عليه بالضرر . وبدت تلك سياسة غريبة من جانب الملك ، إذا اعتبرنا مبلغ شغفه بابنه في السنوات الاولى من حكمه . وقد حُملت الاجيال العتيدة على الاعتقاد بأن السبب الرئيسي للتبدّل في سياسة الملك «الابوية» ، هو انغماس مونموث المتواصل في ما طاب للمؤرخين أن يسموّه «الفساد الدائم» ، أو «التهتك غير المخمد» . ومن الصعب أن نتصور تشارلز يرمي الحجارة شطر مونموث ، عندها نتذكّر أن سمعة الملك نفسه في العلاقات الجنسية غير الشرعية معروفة جداً . وكان ذلك سائداً في تلك الأيام ، ولذا لا يمكن ان يكون ثمة مبرر للعلاقات الغرامية السرية المفعمة بالحيوية والنشاط . وربما كان سبب تبدُّل موقف الملك تشارلز تجاه ابنه والخلافة أنه كان قد بدأ ينظر بجدية الى العقيدة الكاثوليكية ، اكثر من اي شيء آخر . وتُبرز ذلك بوضوح أحداث لاحقة ، من فشل معاهدة دوفر السرية المعقودة السنة ١٦٧٠ ، وصداقة تشارلز المستمرة مع الملك لويس الرابع عشر الفرنسي ، واستقباله في الكنيسة الكاثوليكية .

ولكي يجعل المؤرخون عدم اقدام تشارلز على الزواج من لوسي ولتر ، امرًا مستبعداً ، او حتى مستحيلاً ، فقد دأبوا على تكديس الافتراءات ضدها . ولعله لم يحدث قط أن كان هناك مثال صارخ على تكرار المؤرخين بعضهم بعضاً ، في تشويههم سمعة لوسي ـ في البدء لأسباب سياسة ـ ثم إما بسبب الاخطاء في الحكم عليها ، أو لعدم الاستعداد للاعتراف بما هو الحقيقة ، على الارجح . وقليلون هم الذين اهتموا بقضية تبرئة لوسي ، ولعل المحاولة المعاصرة الوحيدة كانت من جانب البارونة دولنوى ، في كتابها «مذكرات بلاط انكلترا» ، السنة ١٦٧٥ ، الذي يتضمن ملحقاً مخصصاً لتبرئتها .

كان مشوّهو سمعتها الرئيسون إدوارد هايد (ايرل اوف كلارندون) ، ودجون إفلين ، ودجيمس ماكفرسون . وكان كلارندون من اهم الشخصيات السياسية في يومه ، وترك مجموعة كبيرة من الاوراق الرسمية والخاصة الى الخلف . ومن السهل

فهم موقفه تجاه قضية ما إذا كان تشارلز اقترن بلوسي أم لا ، ذلك بأنه خلال حقبة الكومونويلث ، كان همّه الرئيسي اعادة الملكية . وعندما نجد السنة ١٦٤٦ انه كان ثمة «شائعة ملحاح» تفيد أن أمير ويلز (تشارلز الثاني في ما بعد) قد تزوج قبل مغادرته البلاد الى المنفى ، نقرأ أن كلارندون انزعج كثيراً . ذلك بأنه اذا اعتُقد ان تشارلز قد تزوج امرأة من عامة الشعب ، عندها لن يعود ممكناً تحقيق عودة الملكية . وينبغي أن نعلم أن إمكانية القبول بتشارلز الاول ملكاً من جديد ، لم تكن موجودة ، لأن الحرب الأهلية كانت قد بلغت ، السنة ١٦٤٧ ، مرحلة لم تعد فيها نزاعاً بين الملكيين والبرلمانيين ، بل نزاع بين البلاد و« ذلك الرجل تشارلز ستيوارت» .ولكن كروموبل كان قد اكتسب القدرة الكلية السنة ١٦٤٧ ، وكان يمكن البلاد أن تقبل بأمير ويلز ملكاً عليها . وذلك ما كان كلارندون يتشوق الى رؤيته ، وقد كان في السابق من جماعة البرلمانيين . ومهما تكن رغباته السياسية ، فمن الواضح أنه كان حقاً يعتقد بزواج تشارلز . ولم يكن لدى دجون إفلين الذي كان يكتب يوميات تشبه يوميات صمويل بيبيس ،بالحجم وحسب ، شيء حسن في لوسي ولتر . غير أن معظم الاتهامات الموجهة اليها كانت تستند الى «مذكرات الملك دجيمس الثاني» التي نشرها دجيمس ماكفرسون ، وهو ملفق حكايات اسكتلندي ، في القرن الثامن عشر ، عاش بين السنة ١٧٣٦ و١٧٩٦ .

وصف نفسه بأنه ناشر ، ومترجم ، وحتى مؤرخ أحياناً ، ولكنه في هذه الحرف الثلاث كان مزيفاً وكاذباً تماماً . وكانت آراء معاصريه ، وفي جملتهم هيوم ، ودجونسون ، وتشارلز دجيمس فوكس ، وهوراس وولبول ، أسوأ ما يمكن ان تكون . وقد اعتبر دجونسون معظم عمله من نتاج الخيال ، وبعض ترجماته تزويراً فاضحاً . وفي الواقع ، لما اتُهم أنه إنما يزوّر دليله او ترجماته ، لم يُبرز ماكفرسون قط المخطوطات الأصلية ، ولم يدفع بالبيّنة تهمة التزوير . وقد ذهب وولبول إلى حدّ إيراد هذه الملاحظة عنه : «إني أرثي للخلف الذي لن يسعه أن يتبيّن جزءاً من ألف من أكاذيب ماكفرسون .» وفي هذا القرن العشرين ، ذكر السر ونستون تشرتشل ، في كتابه «حياة دوق مالبورو» ، أن سلوك ماكفرسون أظهر له كيف يمكن أن يكون قادراً على

التزوير المتعمد ، والمنفّذ جيداً . إذاً ، فإن شهادته حول لوسي ولتر ، وسواها من الاشخاص ، عديمة القيمة ، بالطبع .

ليس أمراً غير عادي ان يقوم امرؤ ما بنشر مذكرات ملك ، كما أنه ليس غريباً على مثل هذا الرجل ان يشوه الحقائق أو يخترع الوقائع . فلقد حدث ذلك في التاريخ ، وسيظل يحدث بعد . إنما الغريب في الأمر هو أن كثيرين من المؤرخين الذين جاؤوا بعده اعتمدوا على أدلّة ملفق عريق وآرائه ، وقد سبق لمعاصريه ان اعتبروه مزوراً . والمؤرخون معذورون إذ يكررون بعضهم بعضاً بالنسبة الى الوقائع الأصلية التي تثبت ايجابيتها وصحتها ، في حين أنه ليس ثمة أي مبرر لنسخ تفاصيل خاطئة ، أو تفاصيل غير محتملة وليس لها اي إثبات .

لا يمكننا التهّرب من حقيقة أن تشويه سمعة لوسي ولتر كان في مصلحة الملك دجيمس الثاني ، وأن كل واحد ينبغي أن يتقبل الاساطير الجارية حول فسادها وفسوقها . ويكفي ان ننظر قليلاً في حياة دجيمس العملية لنعلم أنه كان عارفاً بأن تسلُمه العرش كان مشكوكاً فيه ما دام مونموث حياً يرُزق . إلا أن ذلك لا يعني أن الاشارات في القرن العشرين الى الاتهامات المزعومة حول سلوك لوسي ولتر الشائن ينبغي أن تصدَّق ، لأنه ليس ثمة اي دليل على مثل هذا الفساد .

إن اول دفاع جدّي عن لوسي ولتر ظهر السنة ١٩٤٧ وقد وضعه احد المتحدرين من أسرتها لورد جورج سكوت . لم يدّعِ انه مؤرخ ، ولكنه شعر ان الكثيرمن الافتراء بحق جدّته العليا ، المكّرر جيلاً بعد جيل ، مع التكديس المعتاد للاساطير والهراء ، مردّه في معظمه ، الى أن احداً من ذريتها لم يكلف نفسه عناء إنصافها . فإذا كان عمله هذا محاولة لتصحيح هذا الخطأ ، فقد كان ناجحاً ، بالطبع . ومع أن لورد جورج سكوت يكرّس حيّزاً كبيراً لتقديم الدليل على أن لوسي ولتر كانت زوجة تشارلز الثاني ، فإن ذلك لم يكن الهدف الرئيسي من كتابه . إلا أنه الهدف الرئيسي لهذا الفصل .

إن أفضل الادلة لإثبات حدوث هذا الزواج هو الشهادة الرسمية أو نسخة حقيقية عنها . ولكن مع الأسف ، ليس ثمة أي وثيقة مماثلة – وعلى أي حال لم يُكشف عنها قط . سوى أننا سنرى ان هناك اشارات عدة في رسائل ومحفوظات إلى أن مثل هذه

الوثيقة كانت موجودة في وقت من الاوقات . وإذا لم يشأ المشككون الراغبون في القبول بهذه الاشارات ، فان هناك مصادر لتعزيز صحة هذا الزواج .وقبل رفض شرعية مونموث على أنها هراء ، بكل ما في الكلمة من معنى ، ينبغي الأخذ بعين الاعتبار ببعض الوقائع ، من مثل تاريخ اعتناق تشارلز الثاني العقيدة الكاثوليكية للمرة الاولى ، وما ينجم عن ذلك من سياسة الاعتراف بمونموث وارثاً للعرش ، والمعاملة السيئة التي تلقّاها مونموث على يد عمه دجيمس بعد معركة سدجمور ، والاعتقاد السائد على نطاق واسع بأن الزواج قد تّم بالفعل .

فما هو الدليل ، إذاً ، الذي يوصي بأن الزواج قد جرى؟ أولاً ،ليس ثمة إنكارٌ بأنه كان ثمة اعتقاد سائد في هذا الصدد ، وفي أغلب الأحيان طالما استمر وثبت طويلاً بسبب أن فيه بعض الجوهر ، او له أساس . وفي هذه الحالة بالذات لم يصدر اي تكذيب رسمي طوال سنين عدة ، وحتى في ذلك الحين ، كما سيتبيّن لنا ، إلاّ لأسباب دينية ، وللخلافة على العرش . ولكي نقّرر واقعاً ما كان يُعتبر اعتقاداً ، ينبغي تقديم المزيد من الأدلة قبل تأكيد هذه القصة . ومن حسن الحظ أن لدينا مثل هذا التأكيد . والأمر الذي يدعوإلى الدهشة أن كل الأقوال المقتبسة من الرسائل ، واليوميات ، والاوراق الرسمية التي تلي ، والتي كانت موجودة منذ زمن طويل – وفضلاً عن ذلك كانت دوماً في متناول المؤرخين – أسيئت قراءتها ، او تم تجاهلها ، وهذا الاهمال ليس أمراً مجهولاً في أوساط المؤرخين .

في المجلد الثاني من «أوراق كلارندون الرسمية» نجد أن كلارندون في السنة ١٦٤٦ (أصبح في ما بعد السر إدوارد هايد) ، كتب الى السر إدوارد نيكولاس ، أمين سّر الملك تشارلز الاول ، حوالى نهاية الحرب الأهلية ، يقول إنه ليس متأكداً تماماً من أن الشائعة القائلة ان امير ويلز تزوج ، خاطئة ، لأنه كان سمع بعرس كبير جرى في باريس .

وقد ورد هذا المقطع في تاريخ محلي لهوفرفور دويست ، كُتب السنة ١٨٨٢ ، بقلم دجون براون (باسم مستعار هو كريستوفر كوب ـ وب) : «إنها قضية تاريخية تمثل الكثير من الشك ، قضية ما إذا كانت لوسي ولتر قد اقترنت شرعاً وقانوناً بتشارلز

الثاني . وهناك ظروف غريبة جداً تتعلّق بمؤامرات البلاط تعزّز هذا الافتراض .»

لا يسعنا أن ننكر أن لدى أسرة ستيوارت المالكة شكوكاً حول هذه القضية ، في حين يبدو أن كاثرين اوف براغنزا ، زوجة تشارلز الثانية ، كانت مقتنعة بشرعية ابن زوجها . وكان من سوء طالع تشارلز ان كانت كاثرين عاقراً ، وقد اتهم ـ على ما يزعمون ـ كلارندون بأنه دبّر عمداً هذا الزواج ، لكي لا يرزق منها بوارث . فهل فعل كلاندون ذلك ام لا ، واذا كان الأمر كذلك ، فلأنه كان يرجو خلافة مونموث . هذا ما لا سبيل إلى معرفته مطلقاً . إلا أن ثمة إشارات الى ان ذلك يمكن أن يكون هدف كلارندون ، وسنشير الى احداها في ما يلي . فقد كتب صمويل بيبيس في يومياته ،في ٣١ كانون الاول ١٦٦٢ ، يقول : «دوق مونموث يرفل بالعظمة الفائقة في البلاط ، وهو مدلل كثيراً من الملك ، بحيث لا يبقى مجال للشك ، فيما لو لم يرزق الملك طفلاً من الملكة (وهذا أمر لا دليل عليه بعد) في أنه سيعترف به إبناً شرعياً ، وسيكون هناك خلاف بينه وبين دوق يورك ، لا سمح الله بذلك .»

في ذلك الوقت لم يكن قد ثبت بعد أن كاثرين عاقر ، ومن الغريب أن نلاحظ أن مونموث كان معتبراً خليفة على العرش ، وأن دجيمس ، دوق يورك ، كان يعارض بعزم هذا المشروع .

في جملة الأعمال غير القانونية التي قام بها الملك المرح ، هل يُستبعد أن يكون شمل جعل ابن سفاح شرعياً لغايات الخلافة؟ كان يمكن ان تكون تلك الخطوة خطرة جداً ، بل أشد خطراً من انكار شرعية ابن حقيقي . فالأمر الأخير لم يشكل اي صعوبة ، لأنه كان ينعم بالدعم الكامل من دجيمس وحزبه . وهو الأقوى والاكثر نفوذاً في البلاد . ولما كان قد اعتنق الكاثوليكية ، فلم يكن ليقوم بأي شيء لتشجيع خلافة بروتستانتي ، ومونموث كان بروتستانتياً عنيداً .

لو ان كل الرسائل ، والمقتطفات ، والشائعات التي تذكر أنه كان ثمة زواج حقيقي ، تجمعت ونشرت ،لملأت مجلداً من الحجم المتوسط . إذاً ، فمن المستحيل تقديم اكثر من جزء من الكلام المعزّز في هذا الفصل ، ولا يمكننا ان نضمّنه إلا الاقتراحات الاكثر تحديداً وجدارة بالاعتماد .

هناك رسالتان ، في مجموعة لامبث ، كتبتهما ميري ، اميرة اورانج (والدة الملك وليام الثالث) شقيقة تشارلز ، إلى أخيها ، تتضمّن إشارات إلى «زوجتك» . ولما كانت ميري قد توفيت السنة ١٦٦٠ ، فإن الزوجة لا يمكن ان تكون كاثرين اوف براغنزا ، لأنها لم تتزوج تشارلز إلا السنة ١٦٦٢ . وقد ذكرت عمة لوسي ولتر ، وتدعى السيدة مارغريت غوسفرايت ، بصورة مطلقة ، انها رأت اعلان الزواج تحت يد الملك نفسه .

عندما شرع دوق مونموث في مغامرته المفجعة للمطالبة بحقه في العرش السنة ١٦٨٥ ، أطلع السر باتريك هيوم أنه يملك إثباتاً حول زواج أمه ،ونظراً لجمعه ذلك العدد الكبير من الاتباع حوله ، يبدو أنه اعتُقد ان العصيان إنما هو غزو ، الغاية منه استعادة ما يعلم انه من حقه بفعل الخلافة . ومجرد أن تنتهي المغامرة بالهزيمة النكراء في سدجمور ، لا تُظهر ، في أي حال ، أن مونموث كان يحارب من اجل قضية خاسرة ، أو حق زائف ، ذلك أنه ينبغي لنا أن نتذكّر أن السياسة الانكليزية في ذلك الوقت كانت تقدم مشهداً مخزياً . كان على رأس الادارة عصبة من السياسيين الاشد قذارة في تاريخ انكلترا ، جماعة من الشخصيات الكريهة ، الفاسدة ، ممن ترعرعوا وشُجعوا في عهد الملك تشارلز الثاني . هؤلاء المنافقون الانتهازيون ، تحقيقاً لمصالحهم ، كانوا يدعمون الملك الذي يفيدهم اكثر من سواه . فلما بات دجيمس الثاني مهدداً بفقدان التاج السنة ١٦٨٨ ، كانوا على أتمّ الاستعداد للتآمر مع وليام أوف اورانج . وبعد ذلك بسنوات ، وبسبب استيائهم من المكافآت التي نالوها من الملك الجديد ، وليام الثالث ، شرعوا في مراسلة الملك المنفي دجيمس . فهل يُستغرب ألا يكون لمونموث إلا حظ ضئيل منذ البداية ، مهما يكن ادعاؤه ، ومهما يكن عادلاً السبب في مغامرته؟ ففي زمن سدجمور ، ساند هؤلاء المتآمرون الحقيرون دجيمس على أنه الحصان الملكي الذي له أفضل حظ بالنجاح .

بغضّ النظر عن الاشارات المقنّعة والتلميحات الموجودة في الكثير من مراسلات ذلك الزمان ، هناك أقوال صدرت في أجيال لاحقة تساعد كثيراً في متابعة قضيتنا ، والدفاع عنها .

وقبل تقديم هذا الدليل ، تقضي الضرورة بأن نعرف متى شرع تشارلز الثاني في

الاهتمام جدّياً بالكاثوليكية ، وماذا كان الموقف الناجم عن ذلك بالنسبة الى مونموث .
ولعل المرشد المعقول الى هذه القضية يمكن أن يكمن في يوميات صمويل بيبيس ، الذي يتحدَّث غالباً عن مونموث ، والحظوة التي نالها على يديّ والده ، والشائعات حول زواج تشارلز بلوسي .

«٣ - ٥ أيار ١٦٦٣ . . . ليس الحال على ما يرام بين الملك والدوق (دوق يورك) ولعل السبب في ذلك هو شغف الملك بالدوق الصغير (مونموث) . ويمكن أن يكون ثمة بعض الخوف من جعله وارثاً للتاج :ولكن هذا مجرد تخمين شخصي .»

«١٤ أيار . سيُغرى الملك بمحاولة تسليم التاج الى الدوق الصغير ،الأمر الذي يمكن أن يتسبب في اضطرابات .»

«١٥ إيار . من المشكوك فيه ألا يكون الملك ينوي جعل دوق مونموث ابناً شرعياً ، ولكن بالطبع لن يسمح دوق يورك بذلك .» (جعله شرعياً هنا تعني بوضوح الاعتراف بالزواج .)

«٩ تشرين الثاني . السيد بلاكبرن (وزير البحرية) وأنا شرعنا في التحدّث في أمور كثيرة . . . إنه يخبرني ان الحديث يدور بكثرة حول نية الملك في جعل دوق مونموث ابناً شرعياً .»

« ٢٠ كانون الثاني . الملك ما يزال يشغف بدوق مونموث بإفراط ، الى درجة أن الملك وحده ، ودوق يورك ، والامير روبيرت ، ودوق مونموث يرتدون الآن ملابس الحداد ـ اي العباءات الطويلة ـ على دوقة سافوي ؛ بحيث أنه يندب كما لو كان من سلالة ملكية ، في حين أن دوق يورك لا يفعل ذلك . . .»

«٢٢ شباط . الملك لا يحب الملكة مطلقاً ، ولكنه بالاحرى غاضب عليها ، وهي ـ كما تتفق على ذلك كل التقارير - غير قادرة على الإنجاب . إنه مولع جداً بدوق مونموث بحيث يدهش ذلك الجميع . وحسب قوله ، فإن الدوق قال إنه سيكون سبب موت كل من يقول ان الملك ليس متزوجاً من أُمه .»

«التاريخ نفسه . خال دوق مونموث له مقام في البلاط . وبصفته من سكان ويلز ، فإنه يتحدث بوضوح عن زواج الملك بشقيقته .»

« ١٦ كانون الأول ١٦٦٦ . بعد ظهر هذا اليوم تمشيت مع لورد برانكر (رئيس الجمعية الملكية ، وفي وقت ما مراقب النفقات المتشارك في البحرية) ، وتحدّثنا في أمور الساعة . . . إنه يتحدّث كما لو كان غير مستحيل أن يعترف الملك به ابناً ، وان هناك زواجاً بين أمه والملك .»

من المهم إيراد كل من هذه الموادّ لأنها تُظهر أُموراً كثيرة . فبيبيس ، بالطبع ، سمع الشائعات ، ويبدو أنه يصدّقها بشدة على احتمال انها صحيحة . ونحن نعرف أن بيبيس كان يتنقّل في اوساط مقربة من الحاشية الملكية ، ومثل هذه الثرثرات ليست في معظمها بلا أي أساس . وبعد نهاية السنة ١٦٦٦ ، لا يعود ثمة اشارات اخرى في يوميات بيبيس لا الى شائعة الزواج الملكي ، أو إلى نية الملك لجعل مونموث الوارث ، الأمر الذي يعطينا تاريخاً تقريبياً لبدء الملك درس موضوع اعتناق الكاثوليكية بجدية . وتؤكد الاحداث في السنوات القليلة التالية ذلك حتماً .

نُفي كلارندون ، وهو البروتستاني العنيد ، الذي كان يعتقد بالقصة ، في السنة ١٦٦٧ . وراح تشارلز يتلقّى الإعانات المالية من الملك لويس الرابع عشر لكي يدعم المخططات الفرنسية المتعلقة بهولندا السنة ١٦٦٨ . وتفاوض مع الملك الشمس الفرنسي بشأن معاهدة دوفر السرية ، وبموجبها كان عليه أن يعلن نفسه كاثوليكياً ، وينضم الى الفرنسيين في حربهم ضد الهولنديين ، على الرغم من انه سبق له عقد معاهدة مع الهولنديين والسويديين لمقاومة لويس السنة ١٦٧٠ . ولكنه لم ينكر رسمياً أنه تزوج لوسي ولتر إلا السنة ١٦٧٨ ، عندما دوّنت في سجل مجلس الشورى ، وسجّلت في المحكمة العليا العبارة التالية : «من اجل تجنُّب اي نزاع يمكن أن يحدث في المستقبل بخصوص الخلافة على العرش ، فإنه (تشارلز) يصرّح أمام اللّه العلي القدير ، بأنه لم يعقد قط اي زواج ، ولم يتزوج قط السيدة بارلو ، المعروفة باسم ووترز ، أمّ دوق مونموث ، ولا اي امرأة اخرى ، باستثناء زوجته الحالية ، الملكة كاثرينَ ، التي هي حيّة تُرزق .» إلاّ أن المعروف ، عموماً ، ان مليكنا الطروب لم يكن ليعير الصدق كبير أهمية ، ويمكننا تجاهل إنكاره . فلماذا انتظر ثماني سنوات لإصدار هذا الاعلان العام؟

في السنة ١٦٨٠ نُشرت رسالتان هامتان جداً ، وعلى جانب كبير من الأهمية التاريخية ، هما «رسالة الى شخص شريف تتعلق بالصندوق الأسود» ، و«رسالة إلى شخص شريف تتعلق بانكار الملك زواجه بأمّ مونموث .» وهذا جزء مما ورد في الرسالة الثانية : « . . . ولما كان هناك عدد قليل ممن سنحت لهم فرص أفضل للاطلاع على مجمل هذه القضية غير رئيس مجلس اللوردات والرئيس الاعلى للقضاء ، هايد (هايد سيصبح في ما بعد كلارندون) ، فإنني لعلى يقين من أن الفوائد التي يمكن أن تصيب ذرّيته (ابنته آنّ تزوجت دجيمس ، دوق يورك ، ورُزقت في جملة من رُزقت ، بالملكتين ميري الثانية وآنّ) ، من جرّاء عزل دوق مونموث من حقه بالتاج ، يمكن أن تعتبر دوافع كافية لإقناعه ، بعد الحاح ، إن لم يكن بتأكيد عدم شرعية الدوق ، فعلى الأقلّ بالتزام جانب الصمت في هذه القضية . . .ومع ذلك فإن هذا اللورد نفسه الذي كان مهدداً بخطر الاتهام قضائياً بالتقصير (السنة ١٦٦٧) ، أمام البرلمان لنصح الملك - وإقناعه بالزواج بالملكة كاثرين ، برّر نفسه بالتأكيد أنه كان لجلالته ابن شرعي من صلبه ، من زواج سابق ، يرث تاجه وكرامته .»

هوذا اعتراف مهمّ ، لأنه يُظهر أن كلارندون ، اذا ما كان كذب لكي ينقذ نفسه ، فإنه ، بالطبع ، لا يمكن ان يكون قام بذلك ليؤذي نفسه .

وحملت الرسالة الاولى تعبيراً اكثر إيجابية . فهي مؤرخة في ١٥ أيار ١٦٨٠ ، وتتضمّن هذا المقطع : « . . . وكما اجرؤ على التأكيد بقوة انه ليس ثمة امرؤ معتاد على الصحبة في المدينة ، لم يسمع بمثل هذا الزواج ، لذا فإنه معروف أن رسالة ضُبطت على زمن اوليفر (كرومويل) ، موجّهة من الملك الى السيدة المذكورة (لوسي ولتر) ، الموجودة آنذاك في البرج ، وقد كُتبت عبارة « إلى زوجته» ، فوق العنوان .»

إن اقوى مصادر الأدلة ، مع ذلك ، هي رسالة كتبها شخص يدعى دانيال اونيل الى تشارلز الثاني في السنة ١٦٥٤ - ١٦٥٥ . فقد عرف اونيل لوسي ولتر عندما كان بعد شاباً . وخلال السنوات الاخيرة من نفي تشارلز وظفه الملك لكي يهتم بحاجات لوسي الملكية التي لم تكن في ذلك الوقت تعيش مع الملك ، وقد اصبح اونيل ، في ما بعد ، وصيف حجرة النوم لدى تشارلز .

وكتبت لوسي الى تشارلز شاكية من أزمة مالية ، ومن وضعها ،ومعاملتها . فأوفد تشارلز اونيل هذا ليلبّي حاجاتها . ويمكن مراجعة هذه الرسالة في أوراق نيكولاس .

«سيدي ،

بعد تلقّي اوامرك للاتفاق على ديونك ، قمت بسرعة بما يمكنني القيام به . . . وينبغي لي الاعتراف بأن السيد روذول (الاسم المستعارللايرل أوف روتشستر) كان الشخص الثاني الأفضل الذي يمكنك تفويضه للتعامل مع دائنيك ، ولكن كان هناك كثيرون لا يحبونه ، الأمر الذي اقنعه بعد إلحاح لكي لا يكون ثمة استثناء غير معقول . وهناك آخرون تساءلوا لماذا لم يكّلف السيد أوفيلد (الاسم المستعار لاورموند) المهمة التي كُلّف الآخر معالجتها ، ذلك بأنه كان يمكن ان يكون موثوقاً به اكثر ، وقالوا ايضاً إنه لو كان ههنا عندما كان مجيئه متوقّعاً ـ قبل شهرين ـ لكان ثمة احتمال قوي بأن تكون قد اصبحت في البيت بسلام مع زوجتك وأولادك .»

هذه الرسالة تُظهر أنه حتى السنة ١٦٥٥ لم يكن ثمة أي شك لا في أُبوّة دوق مونموث ، ولا في قضية الزواج . وفي رسالة كتبتها الاميرة ميري (التي تزوجت ، في ما بعد ، وليام الثاني اوف اورانج) الى تشارلز ، ومؤرخة في ٢٠ أيار ١٦٥٥ ، ومنشورة في كتاب «حيوات أميرات انكلترا» ، المجلد السادس ، هذه العبارة الموحية : «زوجتك تقرر ما اذا كانت ستكتب أم لا .»

في السنة ١٦٥٥ كتبت لوسي عدة رسائل تشير فيها إلى أنها كانت بحاجة الى المال ، وهددت ، في آخر الأمر ، بكشف رسائل كتبها تشارلز اليها ، إذا لم يضمن أن تُدفع المخصصات البالغة ٥ آلاف ليرة انكليزية بانتظام .

وعلى الرغم من أن هذه المراسلة المعاصرة تبدو مفككة وغير مترابطة ، فليس ثمّة سبب في الشك بحقيقة ما توحي به ـ وهو أن لوسي وتشارلز كانا متزوجين ! ولعلهما تزوجا ،أولاً ، في ويلز ، وتمّ تثبيت العقد في حفلة في القارة الاوروبية ، إمّا في ليبج أو في باريس . وحدها وثيقة الزواج او نسخة عنها صحيحة ، يمكن أن تقدم الينا التاريخيين والمكانين ، ولكن من اجل غايات هذا الفصل ، يكفي أن نكون قد أثبتنا حجة جيدة للتأكيد أن الزواج قد حصل بالفعل .

هل وجد دوق بكلوتش وثيقة الزواج ، او نسخة عنها خلال القرن التاسع عشر؟

اذا كان الامر كذلك ، فهل أتلفها؟ في كتاب «صورة حياة» للفيكونت ميرس ، يمكننا أن نقرأ الفقرة التالية ، في ٦ كانون الاول ١٩١١ :

« في فترة عيد الميلاد ، وأثناء إقامتي في برايتون مع حماتي اللايدي سيمور ، روى لي لورد فرنسيس هيرفي ، وهو نسيب لزوجتي ، وكان حالياً في نيوكاسل السنة ١٨٦٣ ، حكاية غريبة آلت اليه من طريق العميد ستانلي ، في جامعة الملكة فكتوريا . فقد انتقلت في السنة ١٨٧٩ لجنة المخطوطات التاريخية الى قصر مونتاغيو في هوايتهول لدراسة المستندات هناك ، بتصريح من دوق بكلوتش الذي كان يعيش فيه آنذاك . ولدى التنقيب في ركن من غرفة مظلمة ، وجد أعضاء اللجنة صندوقاً اسود ، وبداخله وثيقة زواج تشارلز الثاني ولوسي ولتر ، أمّ دوق مونموث . ولما لم يكن في تلك الأيام قانون للزواج الملكي ، ولما لم يكن بالإمكان تجريد الملك من حقوقه بموجب القانون العادي (القانون غير المكتوب ، والمبني على العرف والعادة) ، فإن الوضع ، ظاهرياً ، كان أن دوق مونموث ، ودوق بكلوتش ، المتحدِّر منه ، هو ملك انكلترا الحقيقي ، فلما أُوضح ذلك للدوق ، قال : «ربما سبّب هذا الكثير من المشاكل .» .» وأحرق الوثيقة .

لقد ابعد قانون الخلافة الصادر السنة ١٧٠١ ، بالطبع ، ورثة مونموث ، ولكن بقية القصة يمكن أن تكون صحيحة . فليس ثمة سبب وجيه للشك فيها ، ذلك بأنها تشدد على ما كان عليه الاعتقاد العام في القرن السابع عشر ، وما يظهره الدليل كان بالفعل ، حقيقة تاريخية .

وبمعزل تام عن الرسائل والمقتطفات التي يُستبعد ان تكون كلها زائفة ، فإن العوامل الهامة المتعلقة باعتناق تشارلز الكاثوليكية ، ومعارضة دجيمس الثاني مونموث وتأثيره على أخيه ، الملك ، والسبب في ثورة مونموث – كل ذلك يشكِّل معاً حجة قوية للقبول بأن مونموث كان ابناً شرعياً ، ولذا كان ينبغي أن يعتلي العرش السنة ١٦٨٥ . واذا كان لم يفعل ذلك ،فالسبب يعود كلياً الى مؤامرة سياسية – دينية ، وليس له علاقة بنقص في المنبت . ومن المستحيل أن نقدّر ماذا كان يمكن ان تكون النتيجة فيما لو اصبح مونموث الملك دجيمس الثاني؟ وليست تلك الغاية من هذا التحقيق ، ويبقى الواقع أن مونموث كان ينبغي أن يكون الملك !

روبن هود

قليلون هم الذين لم يعتقدوا ، في صغرهم ، بأن روبن هود كان شخصية تاريخية ، ورجلاً خارجاً على القانون ، في غابة شيروود وعدّواً للأمير دجون ، وعمدة بلدة نوتنغهام . والكتب ، والأفلام ، والمسرحيات ، والقصائد القصصية الغنائية التي تروي حكاية روبن هود ، أحد أعظم ابطال انكلترا ، لا تُعدّ ولا تُحصى . ولا يعوز تكرار او ترداد هذه القصة التي أصبحت احدى أشهر الاساطير الشعبية في التاريخ الانكليزي ، لا اللون ولا الخيال . إلا أن موضوع هذا الفصل هو الاسطورة نفسها ، ذلك بأنه على الرغم من رومنطيقية القصة وتشويقها ، وإثارتها ، فليس لروبن هود إلا أساس تاريخي باهت .

ولكي نرسم صورة لنمو هذه الاسطورة وأشكالها المختلفة ، ينبغي العثور على أصل تاريخي . ولكن باستثناء إشارة غامضة الى امرئ يدعى روبرت هود ، هارب من وجه العدالة ، في عهد الملك هنري الثالث ، والى آخر يدعى كذلك روبرت هود ، كان وصيفاً في عهد الملك إدوارد الثاني ، وقد عاش بعد حوالى مائة سنة من الأول ، ليس ثمة دليل كبير على وجوده مطلقاً . وفضلاً عن ذلك ، لم تجتمع أي من خصائص مما عُرف بها البطل الأسطوري ، في أي من الرجلين المذكورين . ويعتبر العديدون من الثقات أن القصة ليست إلا مجرد خرافة ، في حين أن آخرين يُؤكدون أن تحت البناء الفوقي للأسطورة والقصة الرومنطيقية ، يقوم شخص تاريخي محدَّد . ولا تعني ضآلة الأدلة والبراهين التاريخية بالضرورة ان القصة محض خرافة !

لقد زُخرفت قصة روبن هود كثيراً بالرومنطيقية في الأدب الانكليزي ، بحيث يقتضي فكّ الواقع من الأسطورة دراسة الدليل الأدبي في القصائد القصصية الغنائية ،

والمسرحيات ، والفولكلور ، والحكايات . ولعلّ اول إشارة أدبية (مقابل الاشارة التاريخية) الى روبن هود ، يمكن العثور عليها في الرواية الثانية لقصيدة لانغلاند «بايرز بلاومان» ، الموضوعة حوالى نهاية حكم الملك إدوارد الثالث ، على لسان أحد الكهنة السكارى ، على ما نُقل .

وهذا يمكن ان يوحي بأن الاسطورة كانت قد انتشرت في ذلك الوقت . ويشير موجز العبارة التي نطق بها الكاهن الى أنه كان يعلم تماماً أن سامعيه سيفهمون ما يتحدَّث عنه .

ولا يغربنّ عن البال ان روبن هود لم يكن بطلاً قومياً ، بالمعنى نفسه الذي كان عليه آرثر ، وهيروورد السهران ، وأن شعبيته كانت ، في بادئ الامر ، محلية بحتاً . ومن هنا امكننا القول انه مضت سنوات كثيرة قبل أن تُعرف الاسطورة على نطاق واسع . وهناك بعض السند التاريخي لهذا الرأي ، ذلك بأنه قبل حوالى ثلاثين من السنين قبل «بايرز بلاومان» كتب المؤرخ الاسكتلندي دجون فوردان ، يقول ـ حسب الترجمة الانكليزية لكتاب تييري أوغستان المعروف «فتح النورمانديين إنكلترا» :

«في ذلك الزمان ، قام بين المحرومين قاطع الطريق الشهير روبرت هود ، الذي تُولع عامة الشعب بتكريمه بالالعاب والمسرحيات .»

إذاً ، فان الاسطورة قد بلغت اسكتلندا في وقت مبكر من القرن الرابع عشر ، وربما قبل ذلك .

وتؤكد قصيدة «بايرز بلاومان» أنه كان ثمة قصائد قصصية صالحة للغناء حول روبن هود ، وراندولف ، ايرل تشستر . وسنُظهر ، في ما بعد ، ان هذا الأخير كان شخصية تاريخية حقيقية .

المعروف حتى الآن أن اولى القصائد القصصية الغنائية عن روبن هود كانت تقع في مجموعتين ـ مجموعة بارنزديل ، في وست رايدنغ ، في مقاطعة يوركشير ، والثانية مجموعة شيروود في نوتنغهامشير . ومن هاتين المجموعتين صُنِّفت قصة مسرحية متصلة ، في قصيدة قصصية غنائية تُدعى «مغامرة روبن هود الصغيرة» ، وضعها ونكن دو وورد ، في نهاية القرن الخامس عشر . وتتضّمن هذه «المغامرة» ـ

حسبما ورد في «قاموس السيرة القومية» ، أفضل ما هناك من موادّ عن روبن هود ، وهي الأساس الذي استندت اليه كل القصائد القصصية الغنائية ، والمسرحيات ، والحكايات التي ظهرت في القرنين السادس عشر والسابع عشر .

في «المغامرة» هذه ، كان روبن هود يعيش في غابة بارنزديل ، ويقوم بحماية الفارس السر رتشارد ـ آت ـ ذي ـ لي ، من رئيس دير القديسة ميري ، في يورك . ويقتل عدوه اللورد ، عمدة نوتنغهام (ولكن لا يذكر أين) ، ويستقبل «الملك إدوارد» متنكراً . ويُعجب الملك بروبن هود ، ويقنعه بالانضمام الى حاشيته الملكية . وفي البدء يفرح روبن هود ، إلا أنه لا يلبث أن يتوق توقاً شديداً الى حياة الغابة السابقة ، فيغادر القصر . وأخيراً يموت ، أو ينزف حتى الموت ، في دير كركليز ، بين ويكفيلد وهاليفاكس .

كثير من الاماكن التي يرد وصفها في «المغامرة» يمكن مطابقتها مع أجزاء من وست رايدنغ ، ولكن قلما ترد إشارات أو ذكر لغابة شيروود التي يقترن اسمها بروبن هود بصورة أعمّ .

في القرنين السادس عشر والسابع عشر أُجريت إضافات كثيرة على الاسطورة . وكُيّفت عدة قصائد قصصية غنائية مع مغامرات خارجين على القانون آخرين أمثال هيروود ، ووليام والاس . وقد منح المؤرخون في عهد أُسرة تيودر المالكة ، روبن هود أصلاً نبيلاً ، وجعله انطوني ماندي ايرل هنتنغدون . وفي ذلك الوقت ، أيضاً ، قُرن اسمه بميد ماريون ، التي زعم بعض الكتّاب ان الملك دجون أراد الاقتران بها ، ولكن لما صدّته ، دسّ لها السّم .

ولعل الاتحاد بين ماريون وروبن هود مردّه الى اسطورة كانت سائدة في اوساط الفلّاحين ، في فرنسا ، ذلك بأن ثمة قصة ريفية فرنسية تعود إلى القرن الثاني عشر ، تُعرف بعنوان «روبن وماريون» . والجدير بالذكر أن المراجع الادبية الانكليزية المبكرة لا تذكر اسم ميد ماريون مطلقاً مقروناً باسم روبن هود . لقد كانت شخصية مهمة في «ألعاب أيار» ، وربما كانت ميد ماريون غير ذات علاقة بأسطورة روبن هود ، ولكنها أُضيفت إليها في ما بعد .

ولما راحت الاسطورة تُلَفُّ بضباب كثيف من السحر ، والرومنطيقية والمبالغة ، كذلك أصبح الكتّاب مشككين ، وسرعان ما أصبحت «حكاية روبن هود» حكاية غير قابلة للتصديق .

هناك كتّاب كثيرون ينكرون وجود روبن هود ، ويزعمون أنه ليس إلا شخصية وثنية ، أو شخصية ذات علاقة بالمعتقدات الخاصة بالجن . ويؤكد السر سدني لي ، في «قاموس السيرة القومية» ان «الاسم كان ، في الاصل ، لجنيّ صغير يعيش في الغابات ، وهو يشغل حيّزاً كبيراً في الفولكلورين الانكليزي والاسكتلندي . . . لأن مثل هذا الجنيّ كان يضع على رأسه قلنسوة أو غطاء آخر (وهود تعني بالانكليزية غطاء الرأس او القلنسوة) . ولعل الاسم هو تصحيف «روبن اوف ذي وود» ـ ومعناها «روبن الغابة» ـ لأن مثل هذا الجنيّ كان يقطن في الغابات» . ولدعم هذا الرأي ، تراه يورد شخصيات خرافية مثل روري الهضاب ، في ايرلندا ، ووليام كلاودسديل (الخارج على القانون الاسطوري في غابة إنغلوود ، في كمبرلاند) ، وروبان الغابة ، في الفولكلور الريفي الفرنسي . ويستمر في ايراد لائحة كبيرة من الاماكن والنباتات التي سمّيت باسم روبن هود ، في مختلف ارجاء انكلترا .

يضع توماس رايت ، في مقالاته حول موضوعات تتعلّق بالأدب ، والخرافات الشعبية ، وتاريخ انكلترا في القرون الوسطى (١٨٤٦) ، روبن هود في جملة شخصيات الميثولوجيا التيوتونية (الجرمانية القديمة) المبكّرة ، في حين أن مرغريت ماراي تقرنه بالسحر والعرافة .

ويبدو ان «روبن القلَنسوة» كان لقباً يُطلق على كبار المعلمين في عبادة العرافة ، إشارة الى غطاء الرأس الذي يرتديه هؤلاء أثناء الاحتفالات . وتقوم هذه الحجة على النظرية القائلة بأن إله العبادة كان يُعرف باسماء كثيرة ، وكان من بينها اسم روبن . ويعزّز ذلك بوثيقة محفوظة في مكتبة بوديليان ، في أوكسفورد ، مفادها ان ديم كايتلر اعترف بأنه كان ، السنة ١٣٢٤ ، يعبد روحاً تدعى روبن آريتسون . ثم يروي ان روبن غودفيلو كان يُقرن بالشيطان ، وكان احد تجسيدات إله العرافة الأقرن . ويؤكد ج . كيغلي ، في كتابه «الميثولوجيا الخاصة بالجن» ، الموضوع في منتصف القرن

التاسع عشر ، أن الإله الأقرن كان له عدة اسماء ، بما في ذلك روبن هود .

إن هذا التوحيد مع العرافة والسحر يمكن أن يكون له بعض الأساس ، ولكنه لا يفترض ، مقدَّماً ، أن تكون العرافة قد منحت روبن هود أصله .

يزعم برادلي ان القصة كلها استُمدت من خرافة الشمس الآرية . فروبن هود هو «هود» ، إله الريح ، ونسيب وودن ؛ وميد ماريون هي مورغن ، عذراء الفجر . ويقترح ياكوب غريم ، أحد الأخوين غريم ، صاحبي المؤلف النفيس عن الميثولوجيا الألمانية ، ان هود هو تصحيف اسم هوديكن ، وهولقب جنّي في الفولكلور التيوتوني . وما روبن إلا اللقب التقديري لعاطفة حميمية ، مثل روبن غودفيلو . ويفترض السر سدني لي ، إذ ذاك ، ان العدد الكبير لأسماء الامكنة مثل خليج روبن هود ، وهضبة روبن هود ، ينبثق من شهرة «الجنّي الصغير» الواسعة الانتشار . كل ذلك حسن ، ولكن أغلبية أسماء الاماكن المتعلقة بروبن موجودة في يوركشير ونوتنغهامشير ، وهما الاقليمان اللذان يقترن اسمه بهما ، عموماً . ولا يمنع وجود روبن هود تاريخي الأجيال اللاحقة من إدخال قصته في الفولكلور ، وتعدّد وجوه الاسطورة لا يحول ، بالضرورة ، دون أي وجود حقيقي له .

دخل روبن هود في الاحتفالات الشعبية المعروفة بـ «أول أيار» حوالى نهاية القرن الخامس عشر . وهذه المهرجانات يُحتفل فيها تقليدياً كمهرجان للربيع ، وفيه تُتوَّج «ملكة أيار» ، وفيه يرقصون حول سارية نوّار ، او العمود المزيّن بالأشرطة والأزهار وما شاكل ، المنصوب في العراء لهذه الغاية . وفي «رسائل باستون» نقرأ عن احتفال خاص من احتفالات «أول أيار» عُرف بأسم مهرجان روبن هود . وكان هناك رقصة اسكتلندية باسم روبن هود . ويدلّ هذا المهرجان الشعبي لتكريم البطل على أنه كان مثالاً يحتذى بالنسبة الى الشعب ، على غرار ما كان الملك آرثر بالنسبة الى الطبقات العليا .

وينبغي التحدُّث عن قضية ترفيع روبن هود الى مرتبة النبلاء . فالقصائد القصصية الغنائية المبكرة تصفه بأنه فلاّح ، في الاصل ، ولكن غرافتون اقترح السنة ١٥٦٩ ، أنه ، على الرغم من كونه من أصل متواضع ، فقد رُفّع الى مرتبة ايرل ،

مكافأة له على فروسيته وشهامته . ويسمّيه انطوني ماندي أيرل هتنغدون ، ويوافقه على ذلك الدكتور ستاكلي ، الذي يزعم أنه اكتشف شجرة عائلة تجعل روبن هود حفيد رالف فتزوث ، وهو نورماندي من رفاق وليام الفاتح ، وكذلك حفيد دجيفري دو ماندفيل . والدعم الوحيد لهذا هو أن وليام فتزوث كان يمتلك أرضاً في لوكسلي ، في ستراتفوردشير ، وروبن هود كان يدعى لوكسلي من قبل الروائي السر ولترسكوت . إن روبن هود نفسه ، لا بدّ ان يُدهش لترفيعه الى مرتبة النبلاء . ويزعمون أنه اقترن بمود فتزوولتر (ابنة روبرت ، ايريل فتزوولتر) ، المدفونة في كنيسة دانمو ، والتي اشتهرت بأنها ميد ماريون ، وكان الملك دجون معجباً بها كثيراً ، وقد سمّها ، في ما بعد . إلا أن لا شيء يدعم ذلك ، لأنه على الرغم من ان روبن هود الوارد ذكره في «وثائق البلاط» في ويكفيلد ، كان له زوجة تدعى ماتيلدا ، إلا أنها لم تكن ابنة روبرت فتزوولتر ، لأن تلك الأبنة كانت قد توفيت قبل سنين عدة .

وليس ثمة اي دليل على أن روبن هود كان قط ايرل هتنغدون ، ولكن من الممتع حقاً أن نذكر أنه خلال المائة والخمسين سنة الأخيرة كان عدد من أفراد أُسرة هتنغدون هذه يحملون الاسم الأول الذي يسبق اسم العائلة اسمَي روبن هود ، وأن أحد إخوة الإيرل الثاني عشر حمل اسم التنصير إدوارد بلانتدجينيت روبن هود هيستنغز . ولذا ، فثمة ، كما يتضح ، اعتقاد عائلي قوي بأنهم متحدرون من بطلنا هذا .

إذا كانت حقيقية روبن هود تقوم ، وحسب ، على الكمية الضخمة مما كُتب عنه ، وقد تصرّفت هذه الكتابات كثيرًا في أمور قصته وسلوكه ، وبخاصة في العصر الذي عاش فيه ، فمن السهل ، إذاً ، تفهُّم سبب اعتبار الكثيرين الاسطورة مجرد خيال ، وخرافة لا تصمد أمام أي امتحان تاريخي .

عديدة هي الحجج التي هي في مصلحة وجود روبن هود التاريخي ، ولكن ، كما هي الحال ، بالنسبة الى الكثير من الاساطير التي تستند الى الواقع ، فإن معظم البراهين الناشئة عن ذلك تحجبها التناقضات ، والتلفيقات ، والاشياء غير المنطقية المروّعة . ويُستحسن ، قبل ان نجد الزائف المسجَّل من الحقيقي المرجّح او المحتمل ، تلخيص النظريات المختلفة بالنسبة الى وجوده الفعلي .

اقترح كل من اوغستان تييري والسر ولتر سكوت (في روايته آيفنهو) ، أنه كان زعيم آخر من تبقّى من السكسون المسلحين ، الذين كانوا ما يزالون يرفضون القبول بالفتح النورماندي ، والذين ثابروا على العيش خارج نطاق قانون ذرّية وليام الفاتح . وكان تييري يعتقد شخصياً أن روبن هود من أصل سكسوني ، وحذا سكوت حذوه ، فدعاه لوكسلي ، بدلاً من روبن . ويذكر كل من تييري وسكوت ان روبن عاش في عهد الملك رتشارد الأول ، وسنرى أن ذلك ممكن نوعاً ما .

في عدد آذار ١٨٤٠ من «مجلة لندن ووستمنستر» ، حاول غتش أن يُظهر أنه ولد السنة ١٢٢٥ ، وأنه كان قائد أتباع سيمون دو مونفور ، المحرومين من حماية القانون ، الذين أُفقروا واعتُبروا خارجين على القانون عقب معركة ايفشام السنة ١٢٦٥ . واقترح القسّ ج . هنتر ، السنة ١٨٥٢ ، أن روبن هود كان معاصراً للملك إدوارد الثاني ، وكان مناصراً لتوماس ، ايرل لانكستر ، عمّ الملك الذي ثار على إدوارد السنة ١٣٢٢ . وهناك كاتبة ، وصاحبة مؤلفات رومنطيقية تاريخية ، قدّمت نظرية ، مترددة تقول بأن روبن هود كان أخا رتشارد الأول بالرضاعة ، وكان والدهما واحداً ، والأم مختلفة . وتدعى هذه الكاتبة مرغريت كامبل بارنز ، وكتابها يحمل عنوان «النوع العاطفي» .

وتقرنه احدى القصائد القصصية الغنائية الانكليزية المبكرة بالملكة كاثرين ، ارملة هنري الخامس ، في حين أن قصيدة اخرى ، ويوجد نسخة منها في مكتبة بوديليان ، في أوكسفورد ، تقترح ان روبن هود تودّد الى ابنة جاك كيد ، زعيم ثورة كيد الشهير ضد الملك هنري السادس وزمرته الفاسدة السنة ١٤٥٠ ـ وهي ثورة أُطلقت حروب الوردتين المعروفة . وتوفّر هذه النظريات حوالى ثلاثمائة سنة من التحقيق التاريخي . ولكن ، لما كان روبن هود قد بات شخصية اسطورية في أواسط القرن الرابع عشر ، حسبما ورد في «بايرز بلاومان» ، فإن الاقتراحين الأخيرين يصبحان مستحيلين . ويتبقى حجتان اثنتان يمكن دراستهما بجدية .

يقترح هنتر في كتابه «كراريس نقدية وتاريخية» ـ رقم ٤ ، السنة ١٨٥٢ ـ أن روبن هود كان امرأً من يوركشير ، أبصر النور في فترة ما تراوح بين السنة ١٢٨٥

و١٢٩٥ . وقد اشترك في الثورة ضد إدوارد الثاني ، وكان قائدها توماس ، ايرل لانكستر ، السنة ١٣٢٢ . وعقب هزيمة الثوّار في بوروبريدج ، نُفي الكثيرون ، وصودرت ممتلكاتهم . فدخل روبن هود عندئذ في عداد حاشية الملك ، ولكنه لم يبقَ طويلاً ، وعاد الى حياة الغابة . ولدعم نظريته هذه ، قدّم هنتر بعض الأدلة الشيقة والمهمة . ففي وثائق البلاط الرسمية في قصر ويكفيلد ، في يوركشير للسنة ١٣١٦ ، هناك امرؤ باسم روبرتوس هود . فتمت إذ ذاك مراجعة «المغامرة» ، ووَجَد هنتر وصفاً لاجتماع روبن مع «إدوارد ، مليكنا الوسيم» ، ولكن ليس واضحاً اي إدوارد هو المقصود . وتمضي القصيدة القصصية الغنائية الى القول إن روبن أُقنع بالالتحاق بالقصر الملكي ، ولكنه سرعان ما يحنّ الى حياة الغابة السابقة .

بالطبع قام إدوارد الثاني بالتقدّم عبر المقاطعات الثلاث يوركشير ، ولانكشير ، ونوتنغهامشير ، السنة ١٣٢٣ . وقد ورد في حسابات قصر الملك ادوارد الثاني ـ ١٣٢٣ـ ٤ ـ ان روبن هود كان يتقاضى أجراً يومياً قدره ثلاثة بنسات بصفته أحد الخدم ، او السعاة . وقد استمر هذا الأجر طوال ستة أشهر ، من ٢٤ أذار الى ٢٢ تشرين الثاني ١٣٢٤ ، عندما مُنح روبن هود ، أحد السيّاس السابقين ، هبة وداعية قدرها خمسة شلنات «لأنه لم يعد يستطيع الاستمرار في العمل .» هذا كل شيء عن الدليل التوثيقي . ولكن ثمة أوراقاً رسمية اخرى تُظهر ان اسم روبن هود لم يكن غير مألوف في القرن الرابع عشر ، ولكن ليس ثمة اي دليل كان على أن للخادم او روبن هود أي علاقة ما بروبن ، الخارج على القانون . ويمضي السر سدني لي ابعد من ذلك ، فيشير الى أنه كان هناك اكثر من روبن هود واحد في ذلك الزمن ، شغلوا مناصب رسمية تختلف «على نحو وافٍ عن بطل القصيدة القصصية الغنائية .»

وعلى الرغم من أن نظرية هنتر هي أكثر ذكاءً من سواها ، إلا أنها لا تستند الى أساس متين . واذا ما تذكّرنا أنه لم تمضِ سوى خمس عشرة سنة ، حتى أحرز روبن هود من الشهرةالعريضة كامرئ خارجٍ على القانون لكي يُعتبر اسطورة في بلاد اجنبية ـ كما كانت اسكتلندا آنذاك ، ولكي يُذكر في كتاب دجون فوردان «سكوتشكرونيكون» كشخصية تاريخية ،يسهل عندئذ أن نتأكد من أن روبن هود

المتعلّق بإدوارد الثاني ليس رجلنا البتة . والنقطة المهمة الاخرى هي أن ثورة لانكستر حدثت قبل وظيفة روبن هود المزعومة في البلاط . وإن المرء ليتساءل لماذا عُيّن روبن هود في القصر الملكي إذا كان ينتمي الى جيش من الثّوار ـ وهي نقطة غفل عنها هنتر .

وإذا ما وضعنا نصب أعيننا طرق المواصلات في ذلك الزمن ، فان الفترة ما بين بورويريدج وفوردان ، او حتى «بايرز بلاومان» غير كافية لكي تبلغ الاسطورة هذا الانتشار والشهرة ، فإن نظرية هنتر تكاد تكون غير مقبولة .

إن روبن هود الذي يبدو أنه ظهر في وقت مبكر أكثر ، لهو مفضّل أكثر لأسباب عدة . ومع أن الدليل التاريخي ضئيل ومشكوك فيه ، إلا أنه أقوى من أي شيء أعقبه . وثمة نقطة واحدة مهمة ، وهي أنه في كل قرن منذ فوردان و«بايرز بلاومان» ، كانت قصيدة قصصية غنائية ، او حكاية ، او تمثيلية ، واحدة على الاقل ، تضع روبن هود في غابة شيروود ، في حين أن اسمَي رتشارد الاول وعمدة نوتنغهام يتكرران بانتظام ملفت للنظر . وليس ثمة مثل هذا الاتساق بالنسبة الى سائر النظريات . ومع ان هذا بحدّ ذاته ، لا يثبت شيئاً ، فإنه يجمل بنا ان ندع هذه النظريات نصب أعيننا .

ويصبح تاريخ «بايرز بلاومان» ذا أهمية ، ذلك بأن الاشارة الى روبن هود وراندولف ، ايرل تشستر ، ظهرا عقب فترة من الوقت سمحت لهما بأن يصبحا بطلَي أُسطورة .

ولا يُضعف حجتنا بتاتاً أن كتّاب القصائد القصصية الغنائية ، ودارسي العادات والاشياء الأثرية لم يلتزموا جميعاً بهذه الإلماعة الى عهد الملك رتشارد الأول . فقد تبنّاها المؤرخ الاسكتلندي دجون ميجور (١٤٦٠ ـ ١٥٥٠) ، الذي كان اول مؤرخ أكاديمي يقول ان روبن هود عاش في ذلك الوقت . وتبنّى اقتراح ميجور كل من المؤرخين الثلاثة المشهورين في العصر التيودري وهم : غرافتون ، وهولنشيد ، وستو .

وكتب اللورد الاول ، رئيس المحكمة العليا في انكلترا ، السر إدوارد كوك ، في المجلد الثالث من مؤلفه الشهير «قوانين» ، يقول : «روبن هود هذا عاش في عهد الملك رتشارد الأول .»

ومهما تكن درجة الثقة التي يمكن أن تتمتع بها هذه الاشارات ، فقد وُضع روبن

هود ، هكذا ، في حقبة بطولية ، وفي عصر الابطال البواسل ، والصيادين الاشداء .

فأنصار سلالة بلانتدجينيت المالكة في انكلترا (١١٥٤ ـ ١٢٠٤) ، كانوا يحبّون غابة شيروود ، وكانوا دوماً في نوتنغهام ، ولا يُستبعد أن يكون آمر قلعة نوتنغهام هو «العمدة» .

وإذا كانت النظريات الاخرى المتعلّقة بوجود روبن هود قد وُضعت جانباً بسبب تعذّر الدفاع عنها ، فهناك مواد كافية لحلّ ممكن لهذا اللغز الذي عمره قرون .

تؤكد احدى الوثائق من مجموعة مخطوطات سلون أن روبن هود أبصر النور السنة ١١٦٠ . وقد عاد الملك رتشارد الى انكلترا السنة ١١٩٤ ، عقب الحملة الصليبية الثالثة ، وقد سجنه الامبراطور . وفي أثناء غيابه ، أثار شقيقه دجون ثورة ضد ضباطه ، ولكن لدى عودة رتشارد لم يكن قد بقي سوى قلعتين بين أيدي الثوار ، وهما نوتنغهام وتكهيل . وكانت قلعة نوتنغهام محاصرة تماماً من إيرلَي هنتغدون وتشستر . وهنا توضح الاسطورة السر ، بدلاً من أن تشوّشه . فحسبما ورد في «بايرز بلاومان» استطاع الكاهن أن يسجّع باسم روبن هود وراندولف ، ايرل تشستر . وقد كان راندولف ايرل تشستر ، الذي حاصر قلعة نوتنغهام السنة ١١٩٤ . وإذا كان للأسطورة اي وجود او جوهر ، فيكون روبن هود قد تزعّم جماعة من الخارجين على القانون أزعج بغاراته المتكررة العمدة ، او آمر القلعة .

ويذكر اوغستان تييري أن أثناء محاصرة رتشارد نوتنغهام ، كان يعيش في غابة شيروود روبن هود وعصابته من الخارجين على القانون . فاذا كان روبن هود قد عاش في غابة شيروود خلال الحصار ، فإن ثمة احتمالاً كبيراً في أن يكون أسهم في الهجوم على القلعة ، وليس السر ولتر سكوت الكاتب الوحيد الذي يقترح ذلك .

بعد استسلام القلعة ، لا نعود نسمع شيئاً عن روبن هود ، لا في الاسطورة ، ولا في التاريخ ، حتى الى ما بعد ثلاثين سنة .

في «وثائق بايب» عن الملك هنري الثالث في السنوات ١٢٢٨ أو ١٢٣٠ ، و ١٢٣١ ، هناك اشارة الى أن عمدة يوركشير يدين بمبلغ اثنين وثلاثين شلناً وستة بنسات تتعلّق بالاملاك المنقولة لروبرتوس هود ، الهارب . فاذا كانت هذه التواريخ

تقع في السنوات الاخيرة من حياة الخارج على القانون ، فانها تلمع الى عدد من الاحتمالات . إنها تؤكد أنه أبصر النور في عهد الملك هنري الثاني ، وتسمح بأن ينشط خلال حكمي الملكين رتشارد ودجون . وفي الواقع تجعله معاصراً لراندولف ، ايرل تشستر ، وهذا ما اقترحه لانغلاند في «بايرز بلاومان» .

عيّن التقليد كيركليز ، في يوركشير ، مكاناً عاش فيه روبن هود ، ومات . ولما لم يُحدَّد بجدية مكان آخر ، فليس ثمة سبب لتسفيه ذلك . أما طريقة موته فليست أكيدة ، سوى ان الاسطورة تزعم أنه نزف حتى الموت خلال المرض ، إما بسبب حادث وإما بسبب الخيانة ، وأنه وهو على فراش الموت ، أطلق سهمين في الهواء ، وطلب أن يُدفن حيث وقعا . ويقال ان احدهما سقط في أملاك الدير ، حيث يُعتقد أنه ووري الثرَى ليرتاح الى الأبد .

هنا ، يمكن المرء أن يتساءَل لماذا توفي في يوركشير ، اذا كان أمضى معظم حياته في نوتنغهامشير . ليس ثمة أي دليل لمساعدتنا ، ولكن بالوسع تقديم اقتراح .

فعقب وفاة الملك رتشارد الاول السنة ١١٩٩ ، لا بدّ أن يكون روبن هود قد أثار غضب الملك دجون ، ولعله اضطر الى مغادرة شيروود . ويُحتمل أن يكون عندئذ قد انتقل شمالاً شطر المقاطعة التي أبصر فيها النور .

فاذا اخذنا بعين الاعتبار الوثيقة في مجموعة سلون ، و«بايرز بلاومان» وتييري اوغستان ، ووثائق بايب ، وتقبّلنا ما ورد فيها ، فإن ثمة خيطاً متواصلاً من الاحداث يقترح أساساً تاريخياً محتملاً لقصة روبن هود . وإنه يبدو من بين كل التفرعات والمبالغات المتعلقة بالاسطورة ، التي حدثت عبر القرون ، انها الأكثر قبولاً . وهنا ينبغي أن تقوم القصة .

قصة مدفأة السُرر

سواء أكان دجيمس إدوارد ، المطالب الأكبر بالعرش ، ابن الملك دجيمس الثاني وميري اوف مودينا ، ام كان طفلاً غير شرعي قُدِّم الى اناس على انه وارث العرش ، لا يبدو ان هذه القضية قد حُسمت تماماً بعد . فمعظم التواريخ في تلك الحقبة تتقبل المولد الحقيقي للمطالب بالعرش السيّئ الطالع ، وتذكر النظرية القائلة باستبدال طفل بآخر ، بطريقة سرية ، منذ الطفولة وحسب ، على أنها قضية ذات أهمية تاريخية . والسبب في ان هذه النظرية كان الاعتقاد بها على نطاق واسع ، ليس في أوساط السياسيين ـ لأسباب لا تخفى على أحد ـ بل كذلك في معظم اوساط الشعب وعامة الناس ، لم يتضح قط تمامًا . ذلك بأنه يوم مولد الطفل ، أطلق الجميع باستثناء أتباع الكنيسة الكاثوليكية ، زفرة فزع ورعب ، لإمكانية بروز وارث كاثوليكي للعرش .

واذا اخذنا بعين الاعتبار الظروف التي سنوردها في ما بعد ، فقد نظر الناس الى الولادة على أنها خدعة ، وكان لديهم ما يبرر ذلك . فحكم دجيمس الاستبدادي الذي تميز باضطهاده البروتستانت مع التوزيع الوقح للمناصب الرفيعة على أنصاره من الكاثوليك ، لم يكن شعبيًا ، وكان يوقع الكآبة في النفس . غير أن الإعلان عن أن ذلك ـ يمكن ان يستمر خلال حكم آخر ، كان يحتم القيام بحركة ايجابية للتخلص من دجيمس ،بنشر شائعات مفادها ان دجيمس قد ارتكب قضية انتحال شخصية بقصد الخداع . وقد أثبتت ألاحداث أن الأمرين حدثا ، وفي غضون ستة أشهر من الاعلان عن الولادة ، اختفى دجيمس الثاني وسط المنفى المذل ،حاملاً معه زوجته والطفل اللذين صبَّت عليهما الأمة الكثير من الهزء والإنكار . ويجمل بنا ان نتبيّن مبلغ الحقيقة في النظرية الافتراضية . وإنه لمن المهم ، في هذا الصدد ، أن نتذكّر أنه بين

اولئك الذين لم يصدقوا الرواية ،كانت إبنة الملك دجيمس الثاني آنّ (الملكة آنّ في ما بعد) التي ذهبت الى أبعد من ذلك ، فروجتها .

في مطلع السنة ١٦٨٨ ، بدأ دجيمس تنفيذ آخر تدابيره الاستبدادية ، فأصدر ، دون أن يستثير البرلمان «إعلان الغفران» الذي يعلّق كل القوانين التي كانت موجهة ،حتى ذلك الحين ضد الكاثوليك . وكان يمكن ان يكون عمل الرحمة هذا ـ على حد وصفه ـ خطوة تقدمية فريدة في نوعها باتجاه التساهل الديني ، ولكنه عندما يكون المقصود منه فرضه بمرسوم استبدادي وغير قانوني ، ومن أجل اضطهاد كل الجماعات الدينية باستثناء الكاثوليك ، فإن النتيجة الوحيدة ستكون الاستياء العام .

لقد هزأ دجيمس متعمداً بالقانون الدستوري ، ربما لأنه أراد التبجُّح بأنه يستطيع أن يسيطر على كنيسة انكلترا ، وأمر بأن يُتلى الاعلان علنًا من فوق كل منبر وعظ في انكلترا ، في يوم معيّن .

ولما أزف اليوم المحدد ، رفض رجال الاكليروس ، بلا أي استثناء ، قراءَته ، وكان في طليعة الرافضين رئيس اساقفة كانتربري ، وليام سانكروفت ، واساقفة باث ، وولز ، وسينت آسباش ، وبريستول ، وشيشيستر ، وبيتربورو ، وإللي . ثم كتب هؤلاء الاساقفة السبعة رسالة الى الملك صيغت بعبارات معتدلة ، طالبين فيها إعفاءَهم من تلاوتهم مثل هذا الاعلان .

وغضب دجيمس ، وردَّ بأنه ينوي مقاضاة الاساقفة بتهمة القذف التحريضي ـ وهو وصف ساخر لرسالتهم التي كتبوها بكل دقة وعناية . وأُلقي القبض على الاساقفة ، وأُرسلوا الى سجن برج لندن ، ثم سيقوا بعد فترة قصيرة للمثول امام محكمة الملك . وروِّع الشعب بأسره لإمكانية تجريمهم ، وإنزال العقوبة بهم ، بالتالي ، كما هو واضح . وإزاء طبيعة هذه الاتهامات المساقة ضدهم ، تفاقم الازدراء حتى من قبل قضاة الملك الاكثر تبعية وخضوعًا له ، ولم تتردد هيئة المحلفين في إصدار الحكم بَعدم تجريم الاساقفة . وقد قوبل حكم البراءَة هذا بالغبطة الصارمة والشاملة ، في حين أنها زادت الملك دجيمس غضبًا فوق غضب .

ولكن قبل التبرئة ، وفي ١٠ حزيران ١٦٨٨ ، جرى حدث كان له تأثير في آمال

الملك ـ وسلام البلاد ، بصورة عامة . فقد وضعت زوجته الثانية ميري اوف مودينا ، ابنًا هو دجيمس إدوارد . وقد منح هذا انكلترا ولي عهد ، كاثوليكيًا ، وأزاح كلا ابنتيه (ميري وآنّ – ابنتي دجيمس من زوجته الاولى آنّ هايد) عن سلسلة الخلافة . وملأ النبأ هذا انكلترا رعبًا لأنه حدث وقت الإهانة التي أُنزلت بالاساقفة السبعة . ذلك بأن مخططات الملك ، كما يبدو ، لن تنتهي وهو في قيد الحياة ؛ وراح الجميع يرون حكم سلالة ملكية تدين بالكاثوليكية ، مع ما يرافقها من اضطهادات وفظائع يمكن أن تُرتكب ضد البروتستانت ، على غرار ماحدث ضد الهوغونو (بروتستانت فرنسا) . وكانت النتيجة تدبير مؤامرة خطيرة ضد دجيمس . حتى المحافظون تخلوا عن ولاءاتهم القديمة وانضموا الى الأحرار . وكانت المؤامرة تقضي بدعوة وليام اوف اورانج زوج ميري ، ابنة دجيمس (وابن حفيد الملك وليام الصامت) أن يأتي إلى انكلترا ، للتخلّص من الملك ، والتربع مكانه على العرش . وكان نصير البروتستانت في اوروبا ، والعدو اللدود الرئيسي لحليف دجيمس ، لويس الرابع عشر الفرنسي . وكان علىٰ اتصال سرّي مع حزب الاحرار ، وقد رحّب بالدعوة ، وعبّأ جيشًا من أجل هذه الغاية .

ونزل وليام في توربااي في تشرين الثاني ١٦٨٨ ، وفي غضون أسابيع أحرز ولاء الانكليز دونما معركة . وكان جيش دجيمس يفوق عدد أفراد جيشه بكثير ، إلا أنه كان في كل يوم يفر منه المئات ، وباستثناء الضباط الكاثوليك ، كان عاجزًا عن وضع ثقته في أي كان . ولعل أسوأ الضربات أتته من تخلّي صهره عنه ، الأمير جورج الدانمركي ، زوج آنّ . وتخلى عنه كل اصدقائه الخلّص ، بمن فيهم دجون تشرتشل ، الذي اصبح في ما بعد دوق مارلبورو ، والذي لم يماثل خداعه المذهل الذي تكرر في فترات مختلفة خلال حياته العسكرية والسياسية المفعمة بالغرور ، اي شيء في التاريخ البريطاني . حتى ان تشرتشل خطط لاختطاف سيده ومَليكه ، وكاد ينجح في ذلك .

وقام دجيمس بالأمر الوحيد الممكن ـ استقال وغادر البلاد ، ملقيًا ، وهو في الطريق ، الخاتم الكبير في نهر الثيمز ، ومعه ذهبت آخر آثار الملكية الاستبدادية ، ولم

يحكم انكلترا ، مذ ذاك ، أحد من الذكور من سلالة ستيوارت .

هذا التاريخ الموجز يُظهر امرين مهمين :

الاول ، هو أن انكلترا كانت بروتستانتية عنيدة وتنوي البقاء كذلك ، والثاني ، هو انها ، على الرغم من أنها كان يمكن في آخر الأمر ، أن توافق على التساهل الديني ، فإنها لن ترضى بأن يحكمها ملك حكمًا شبه استبدادي ، ويملأ المناصب الحكومية والجيش بالكاثوليك ، ولا أن يُساس شعبها دونما موافقة البرلمان .

وجاء تزامن محاكمة الأساقفة السبعة مع مولد ابنه ليجعل الشائعة الافتراضية سهلة التصديق ، ويُظهر تحقيق دقيق في المعتقدات المعاصرة ، مع الدليل المعقول ، أنه ثمة أساس لقبول هذه الشائعة .

ورفض عدة مؤرخين قصة مدفأة السُرر باعتبارها سخيفة وتافهة . وذكر المؤرخ ماكولي ان الخلف برّأ دجيمس من تهمة ارتكاب الغش والتزوير ، واعتبر المؤرخ الآخر تريفيليان التهمة ظالمة . غير أنها ، مع ذلك ، تزخربالتشويق الفريد في نوعه .

وهذه هي بايجاز الحجج التي تعتبر قضية الوضع زائفة : (١) كان الملك قد أصبح عاجزًا جسديًا عن انجاب الاطفال ، (٢) لم ترزق الملكة طفلاً منذ ست سنوات ، (٣) من الاطفال الخمسة السابقين ، اربعة توفوا في طفولتهم ، والآخر في سن الرابعة ، (٤) تم الوضع مباشرة بعد تبديل الملكة مكان إقامتها ، (٥) كانت الولادة في ١٠ حزيران على حين غرة ، وقبل الاوان بشهر واحد ، (٦) حدثت يوم أحد عندما كانت كل سيدات البلاط البروتستانتيات في الكنيسة (اين كانت الكاثوليكيات ، آنذاك) ، (٧) لم تشهد الحدث لا الأميرة آنّ ، ولا رئيس أساقفة كانتربري ، ولا سفير هولندا ـ كانت الأميرة آنّ استُبعدت ، وسانكروفت كان في برج لندن ، والسفير الهولندي لم يُدعَ ،(٨) كان ثمة ظروف مريبة تتعلق بترتيبات السرير وقت الوضع ، (٩) خلال فترة الحمل لم يسمح لا للأميرة آنّ ، ولا للسيدات البروتستانتيات ان يبددن الشك حول حالتها ، (١٠) قبيل الوضع ، أُدخلت الى السرير مدفأة السُرر المعروفة ، على الرغم من أن ذلك اليوم كان يقع في منتصف الصيف ، وكان ، فضلاً عن ذلك يومًا حارًا ، (١١) وأخيرًا ، لم يقم البلاط بأي جهد لكي يبعد ظلال الشك عن هذه القضية .

وكانت الحجج ضد الولادة الزائفة والمكتومة هي أن اكثر من أربعين شخصًا شهدوا الولادة ، ثمانية عشرمنهم أعضاء مجلس شورى الملك ، وأنهم جميعًا أدلوا بشهادات خطية مقرونة بقسم تفيد ان الرواية الافتراضية زائفة تماماً . وقيل أيضًا ان ملامح الطفل الجسدية ، لما كبر ،كانت شديدة الشبه بملامح أبيه دجيمس .

ووصلتنا روايتان معاصرتان بالغتا الاهمية ، تضفيان تشويقًا على هذه القصة . فقد وضع الأسقف غلبرت برنيت ، كتابًا بعنوان «تاريخ عصري» ، روى فيه الوقائع كما تناهت الى سمعه ، ولكن ينبغي أن نتذكر أنه كان ، آنذاك ، في المنفى في هولندا ، ولم يعد الى انكلترا إلا عندما أقبل الملك وليام الثالث الى إنكلترا ، بعد بضعة أشهر من الولادة . والوثائق الاخرى هي رسائل كتبتها الاميرة آنّ إلى شقيقتها الاميرة ميري اوف اورانج . ويصعب القول ما إذا كان برنيت قد استقى معلوماته من رسائل آنّ ، التي يمكن المرء أن يفترض أنه اطلّع عليها . ومما لا شك فيه أن دليل برنيت مشبوه ، بالطبع . ويمكن أن يكون لدى آنّ اسباب وجيهة لكي تشكّ في مولد اخيها من زوجة أبيها ، وذلك بأن هذا الأمر يقصيها عن الخلافة عن العرش . ولكنه أقصى كذلك شقيقتها ، وكانت الأكبر سنًا ، وتأتي قبلها من حيث الخلافة .

وينبغي ههنا ، ايراد ملخص موجز عن قصة برنيت ، من حيث أنها تضيف شيئًا الى المعتقدات العامة التي كانت سائدة في تلك الايام :

« في صباح اليوم التالي ، وحوالى الساعة التاسعة ، ارسلت تعلم الملك أنها في فترة المخاض . واستدعيت بعد ذلك الملكة الأرملة العجوز . ولكن لم تُستدعَ اي من السيدات النبيلات ، بحيث انه لم يكن في الحجرة أي امرأة ، باستثناء اثنتين من الملبِّسات ، ومساعدة لهما ، والقابلة . وكانت كل سيدات القصر البروتستانتيات قد ذهبن إلى الكنيسة قبل أن يُسمح بتسرب النبأ ، ذلك بأنه جرى يوم عيد الثالوث الاقدس (الاحد الثامن بعد الفصح) ، وصادف في تلك السنة يوم ١٠ حزيران . واصطحب الملك من هوايتهول عددًا كبيرًا من اللوردات وأعضاء مجلس شورى الملك . ومن هؤلاء سُمح لثمانية عشر بالدخول الى حجرة النوم حيث كانت الملكة ، ولكنهم وقفوا في أقصى طرف الغرفة . ووقفت السيدات داخل فجوة في جدار

الغرفة . وقُرّبت ستائر السرير بعضها من بعض كثيرًا ، ولم تقترب منها إلا القابلة ومساعدة الملبِّسة . وكانت الملكة خارج السرير طوال الوقت . ولكي يتم تدفئة جانب منه ، جُلبت مدفأة السرر . ولكنها لم تفتح لكي يُرى ما اذا كان فيها نار ولاشيء سوى النار . إذًا ، هذا أمر يدعو الى السرية التي ملأت نفوس الجميع .

«وقبيل العاشرة بقليل ، صرخت الملكة كما لو كانت تعاني ألمًا شديدًا ، وعلى الفور طلبت القابلة بصوت مرتفع ان ينقلوها الى السرير . ولما هتف اللوردات لماذا هذه الصرخة ، أجابت القابلة ان الملكة لا ينبغي ان تفاجأ . واومأت الى الكونتيس اوف صندرلاند ، التي عمدت اذ ذاك الى لمس جبينها ، وكانت تلك إشارة متفق عليها سلفًا ، فقال الملك إنه عرف ان المولود طفل . ولم يُسمع اي صراخ من الطفل ، ولم يُظهروه للحاضرين في الحجرة . وزُعم أن المكان بحاجة الى مزيد من التهوية . وخرجت مساعدة الملبِّسة بالطفل ، أو بشيء آخر ، على يديها ، الى حجرة الملابس ، التي كان لها باب قريب من سرير الملكة ، ولكن كان لها مدخل آخر من اجنحة أُخرى .

«وبقي الملك مع اللوردات في حجرة النوم بضع دقائق . . . وبعد فترة ذهبوا جميعًا الى حجرة الملابس ، وعندها نُشر الخبر .

«وكان تشمبرلن «الرجل ـ المولِّد» الذي كان يؤمر دومًا بالاشراف على توليدها من قبل ، والذي حمل المسكّنات للألم ، تساءَل لماذا لم يُستَدعَ يومها . وقد ذهب كالمعتاد حاملاً المسكّنات ، ولكن قيل له إنهم ليسوا بحاجة اليه . فحسب أن رجلاً آخر استبدل به ، ولكن لم يستطع أن يجد من تولّى الأمر ، مما جعل الجميع يميلون أكثر فأكثر الى الاعتقاد بأن هناك قضية انتحال شخصية بقصد الخداع ستُفرض على البلاد . وازداد ذلك بعد . ففي تلك الليلة ، روى الصيدلي هيمنغز ، وهو امرؤ جدير بالثقة ، ويقيم في منزل في شارع سنت مارتنز لاين ، بجوار منزل أُسرة كاثوليكي شهير (براون ، شقيق الفيكونت مونتاكيوت) ـ وكان الجدار بين قاعتي الاستقبال في المنزلين المجاورين من الرقة بحيث أنه يمكن بسهولة سماع أي كلام يقال بصوت مرتفع نوعًا ما ، وكان هو مستغرقًا في المطالعة في ساعة متأخرة من الليل ـ انه سمع امرأ

يدخل قاعة الاستقبال المجاورة ، ويقول بصوت كئيب «لقد مات أمير ويلز» . . .

«وأقبلت الكونتيس كلارندون الى البرج (برج لندن) في ما بعد ، وقالت لهم (للأساقفة السبعة) إنها كانت لدى باب الأمير الصغير ، ولكنها مُنعت من الدخول ، وعجبت للأمر ، وسألت عما إذا عرفوها ام لا . فقالوا لها إنهم عرفوها ، ولكن الملكة أمرت بألا يُسمح بدخول أحد مهما يكن لرؤيته ، وهذا يعزز رواية هيمنغز ، ويشير إلى أن كل شيء كان ينبغي أن يبقى مكتومًا ، حتى يتم العثور على طفل آخر . وقال لي أحد الذين رأوا الطفل بعد ذلك بيومين إنه بدا أقوى وليس كطفل مولود حديثًا . . . طفل يتمتع بالصحة الجيدة وليس كأي من الاطفال الذين حملتهم الملكة حتى الآن ، وقيل إنه كان يصاب بنوبات مرض ، ولا يمكن أن يعيش . إلا أن الذين كانوا يرونه يوميًا لم يلاحظوا شيئًا من ذلك» .

ويضيف برنيت ان هذه المعلومات استقاها من تقارير أُرسلت الى الامير والأميرة اورانج ،في حين أن التقارير الرئيسية ارسلتها الاميرة آنّ .

وقال برنيت ايضًا إن الملكة ، على افتراض أنها كانت حاملاً في نهاية السنة ١٦٨٧ ، فإنها ، في الواقع لم تكن كذلك . ويروي لنا أن الملكة أجهضت في وقت ما من ربيع السنة ١٦٨٨ .

كان حتمًا علينا أن نقدّم مقتطفات مطولة من قصة برنيت من أجل ابراز ما كان عليه الاعتقاد العام في هولندا ، في بلاط الملك وليام اوف اورانج ، ومن اجل إظهار مدى ارتباط هذه القصة بصورة رائعة بالملاحظات التي اوردتها الاميرة آنّ . وتتضّمن مذكرات دارلمبل ملحقًا فيه عدة رسائل كتبتها الاميرة آنّ إلى شقيقتها ميري ، وبعض المقتطفات يبدو أنها تؤكد قصة برنيت .

كُتبت هذه الرسالة الاولى في ١٤ آذار ١٦٨٨ ، وهذه هي :

«لا يسعني الا التفكير في أن بطن زوجة مانسيل (اي الملكة) الكبير يبعث على الارتياب نوعًا ما . صحيح انها سمينة جدًا ، ولكنها تبدو أفضل مما كانت تبدو من قبل ،وهذا أمر غير عادي . ذلك بأن مثيلاتها عندما يتقدَّمن في فترة الحمل ، يبدين مريضات كثيرًا ، فضلاً عن ان هناك امرًا غريبًا ، وهو أن بلدة باث التي اعتقد كل

الاطباء الماهرون أنها ستؤذيها ، كان لها التأثير الحسن عليها في وقت سريع . كما أنه مستغرب كذلك ان تحمل طفلاً منذ الدقيقة الاولى التي قابلت فيها مانسيل (دجيمس الثاني) بعد عودتها من هناك . وكانت واثقة تماماً من أن المولود سيكون ذكراً . ولما كانت مبادئ تلك الديانة ، على ما هي عليه ، ولا تتردد أمام اي شيء ، مهما يكن شريراً وفظيعاً ، اذا كان ذلك يخدم مصلحتها ـ كل ذلك يحمل على الاعتقاد بأن ثمة لعبة قذرة من المنوي القيام بها .»

وأعقبت هذه الرسالة بعد ستة أيام رسالة اخرى ، مؤرخة في ٢٠ آذار .

كتبت الاميرة آنّ تقول إنه اذا كان الحمل صحيحاً ، فإنه كان على الملكة أن تُقنع الجميع ، وتدعها (أي آنّ) تتلمس بطنها . وكانت كلما اتفق ان وُجدت آنّ في الغرفة ساعة تنزع الملكة عنها ملابسها ، فان هذه الأخيرة كانت تنسحب دوماً وبسرعة الى غرفة آخرى . وفي ٩ أيار ، كتبت آنّ إن الملكة هي المرأة المكروهة اكثر من اي امرأة سواها في العالم ، وأنها مسؤولة عن عنف دجيمس ، وتدابيره الاستبدادية . إنها تكره البروتستانت ، ولا تحبها حقّاً (آنّ) .

وفي ١٨ حزيران ، وبعد الولادة ، كتبت آنّ تقول : «إنه لأمر رائع ، فإذا كانت حاملاً حقّاً ، فلم يُسمح لأحد بأن يحسّ بتحرك الجنين ، باستثناء السيدة مازاران واللايدي صندرلاند ، وكلتا هما امرأة غير جديرة بالثقة البتة . ولكن ما يبدو لي الأكثر بساطة ووضوحاً على الاطلاق هو حملها الى السرير بعد يومين من معرفتها بوصولي الى المدينة ، وقولها إن الطفل ولد في أوانه ، في حين ان الجميع يعرفون ، باعتقادها شخصيّاً ، انه كان ما يزال أمامها شهر للوضع . بعد ذلك ، من الممكن ان يكون الطفل طفلها ، ولكن اذا كان شخص واحد يعتقد بذلك فإن ألفاً لا يعتقدون .»

بعد ثلاثة اسابيع ظهرت هذه الفقرة الموجزة في رسالة اخرى كتبتها الاميرة آنّ الى شقيقتها الاميرة ميري : «كان أمير ويلز مريضاً في هذه الأيام الثلاثة او الأربعة . واذا كان مرضه بمثل السوء الذي يعتقده البعض ، فإنني اعتقد أنه سيكون ملاكاً في السماء عما قريب» .

في ٢١ تموز ،تلقت آنّ رسالة من شقيقتها ، كانت في قالب استفتاء يتضمن ١٨

سؤالاً وخمسة ملاحق . وكان واضحًا ان الشائعات المنوعة التي كانت تدور في ارجاء البلاط الهولندي كانت مختلطة بغير انتظام الى درجة بعيدة ، وغالبًا متناقضة ، وكان من الصعب تركيب قصة مترابطة منها . وكان في جملة الاسئلة :

س . عندما أُعلم الملك ببدء مخاض الملكة ، هل بقي النبأ سرًا أم أعلن على الملأ؟

ج . ما إن جاء الملك حتى استدعى الملكة الأرملة ، وكل أعضاء المجلس ، وبعد ذلك عمَّ الخبر كل ارجاء قصر سنت دجيمس .

س . هل كان هناك ستار في طرف السرير ناحية القدمين؟

ج . لم يكن هناك اي ستار .

س . هل رأت اي امرأة ، باستثناء كاتمات اسرارها ، وجه الملكة وهي تعاني آلام المخاض؟ من كان في الحجرة؟ متى جاءت النساء ، والى اي مسافة اقتربن من السرير؟

ج . عندما اعلنت الملكة أنها تحس بآلام شديدة استدعى الملك رئيس مجلس اللوردات والرئيس الاعلى للقضاء ، الذي اقترب من السرير . وحذا سائر المستشارين حذوه . عندها طلبت الملكة إلى الملك أن يغطي وجهها بشعر مستعار ، بحيث لا يعود بوسع أحد النظر اليها . وأضاف أنها لا تريد ان ينظر إليها هذا العدد الكبير من الرجال .

س . اي نساء كن حاضرات؟

هنا تورد آنّ لائحة شاملة بالرجال والنساء . وتضيف كذلك أن الكثير من المعلومات حول تفاصيل الولادة زودتها بها احدى خدم حجرة النوم وتدعى السيدة دوسون . ذلك بأن آنّ لم يُسمح لها بالدخول في ذلك الوقت .

من الصعب جدًا معرفة إلى أي حدّ يمكننا أن نعتمد على مراسلة بين شقيقتين . إنها صريحة ، ومعقولة ، وترتدي الكثير من علائم الدقة . ومن ناحية اخرى ، كانت الشقيقتان بروتستانتيتين ، وخلافتهما العرش مهددة . فضلاً عن أن آنّ تعترف بأن الكثير مما تقوله عرفته بالتواتر . والمراسلة بحدّ ذاتها غير كافية لإقامة الدليل على التزوير . وإذا ما اقترنت بالحجج المبينة أعلاه ، وأقوال برنيت ، فإن ثمة أساسًا للاعتقاد ، اليوم في هذا القرن العشرين ما كان يعتقده الكثيرون آنذاك ، في القرن

السابع عشر .

ليس ثمة شك في أن انكلترا كانت مقتنعة بأن زوجة دجيمس لم تكن حاملاً ، ومن الاشخاص الاربعين الغريبين ، من الجنسين ، الذين كانوا في الحجرة الملكية وقت الولادة ، لم يكن احد يتمتع بأي قدر من الثقة والاحترام العامين . فخمسون بالمئة من المستشارين الملكيين كانوا من الروم الكاثوليك ، في حين أن الباقين ، الذين كانوا من البروتستانت ، كانوا يُعتبرون ، مع ذلك ، خونة بالنسبة الى الكنيسة . وكثيرات من النساء اللواتي كنّ هناك كنّ فرنسيات ، أو ايطاليات ، او برتغاليات ؛ أما النساء الانكليزيات فكنّ إما كاثوليكيات شخصياً ، أو متزوجات من رجال كاثوليك . واولئك الاشخاص الذين يحق لهم أن يكونوا حاضرين ، وكان يمكن أن تُقبل شهادتهم دونما مناقشة ، لم يُدعوا (بمن فيهم رئيس أساقفة كانتربري) ، وكان الملك مسؤولاً عن غيابهم .

وأورد دجونستون الارتياب الواسع الانتشار بايجاز كلي : «إن أغلبية الشعب تستنتج ان كل ذلك كان خدعة ، لأنهم يقولون إن التقدير تبدّل فأُبعدت آنّ ، ولم يُستدعَ احد من أسرة كلارندون ، ولا السفير الهولندي ، وكون الأمر مفاجئًا ، فضلاً عن العظات ، وايمان كهنة الكنيسة ، والعجلة .» ذلك كان حكم الشعب الذي كان مستعدًا ، على نحو لا يمكن إنكاره ، للاعتقاد بوجود تزوير . إذا أُخذت كل هذه الوقائع بعين الاعتبار ،فنكون قد أثبتنا وجهة نظرنا .

وأحسب ان القرّاء سيغفرون لنا لأننا خيبنا أملهم في اواخر هذا الفصل . وعلى الرغم من كون وجهة نظرنا مقنعة ، فإنها غير مقبولة حقًا ، وينبغي لنا أن نعتقد أن المطالب الأكبر بالعرش ، هو في الواقع الابن الحقيقي للملك دجيمس الثاني ، وذلك للأسباب التالية :

هناك ثغرات كثيرة جدًا في بيّنة الأسقف برنيت ، وفي المعتقدات المشتركة في ذلك الزمن ، وعلينا ان نعترف بأن المراسلة بين آنّ وميري ليست كافية بحد ذاتها .

ان نظرة المحكمة الى الحجج الاحدى عشرة التي مرّت بنا في سياق هذا الفصل ، ستفضح أخطاء خطيرة . فإن الملك دجيمس الثاني لم يصبح عاجزًا عن إنجاب

الاطفال ، ذلك بأنه السنة ١٦٩٢ ، رُزق من الزوجة نفسها ابنة هي لويزا ماريا تيريزا ، التي عاشت حتى سن العشرين .ولم يكن كبير أساقفة كانتربري حاضراً عملية الولادة لوجوده ، آنذاك ، في برج لندن ، بتهمة التحريض على الفتنة ، ومن الصعب جداً أن يتوقّع أحد أن نعتقد أن دجيمس قد أرسله الى البرج بقصد إبعاده .

في الواقع أن الظروف المتعلقة بعملية الولادة لم تكن مريبة الى هذا الحدّ ، كما سيتبيّن لنا في ما بعد من أقوال «الرجل - المولّد» . صحيح أنه لا يمكن ان ننكر أن الاربعين شخصاً الغريبين الذين كانوا حاضرين ، كانوا إما من الكاثوليك ، او المشجعين للكنيسة الكاثوليكية . ولكن ذلك لا يستتبع ان يكونوا جميعًا كاذبين متعمدين . ذلك بأنه بعد فترة قصيرة من الولادة ، قدّم دجيمس في اجتماع استثنائي لمجلس شورى الملك ، البرهان الذي لا يقبل الجدل على حقيقة مولد ابنه . وفي ذلك الاجتماع تقدّم كل الذين شهدوا عملية الولادة ، بشهادات رسمية مقرونة بقَسَم ، فاكتفى المجلس بالدليل الذي سرعان ما نُشر . فالمعتقدات هي ، إذًا ،شأن عندما تُفرض على الشعب بفضل تجاوزات الحاكم ، والوقائع هي شأن آخر ، وليس ثمة وقائع إيجابية تثبت هذه المعتقدات .

إن رواية برنيت عرضة للجدل . فقد كُتبت عقب الحدث ، وهو لم يكن في انكلترا عندما تمّت الولادة . وقد اعترف بأن معظم ما ورد فيها جُمع من تقارير راجت في هولندا ، وبخاصة في البلاط . وهذا النوع من الروايات مشوِّقة مطالعته ، ولكنه لا يوصف بأنه تاريخ دقيق .

إن الخطأ الرئيسي في رواية برنيت هو التشويش . فنظرة محكمة تكشف ، في الواقع ، عن ثلاثة اطفال مختلفين ، وليس عن طفل واحد . فهناك المولود حديثًا الذي رآه في الغرفة المجاورة كل الذين كانوا حاضرين . وهناك الطفل الذي يُعتقد أن أوصاله كانت أقوى من أوصال طفل ابن يومين ، وهذا هو أمير ويلز . وأسوأ من ذلك أنه ينبغي لنا ان نعتقد أن الملكة لم تكن حاملاً في أواخر السنة ١٦٨٧ ، وأنها أجهضت في ربيع السنة ١٦٨٨ ، وأنها لم تكن حاملاً في حزيران ١٦٨٨ . وهذا التذبذب من فترة ما قبل الوضع ، الى ما بعد الوضع ، وبالعكس ، ينبغي أن يكون حتمًا ظاهرة فريدة في

نوعها في علم أمراض النساء !

ويشير برنيت الى تشمبرلن «الرجل ـ المولّد» ويذكر أن عدم استدعائه يضيف شيئًا الى السر . ولكن هناك رسالة كتبها تشمبرلن هذا الى المنتخبة صوفيا ، والدة الملك جورج الأول . وهي تتضمّن هذه الفقرة :«أنا واثق من أن حمل طفل غريب داخل مدفأة للسُرر لا يمكن ان يتم دون أن أراه ، وقد كنت باستمرار حاضراً في كل أنحاء الغرفة .» هذا ما كتبه امرؤ من حزب الاحرار الى أميرة بروتستانتية ، وقد وجد كل منهما ، ربما ، الأسباب الوجيهة لرفض تصديق قصة مولد الأمير .

وملاحظات برنيت القائلة بأن صحة الطفل كانت جيدة ، على نقيض سائر اطفال الملكة ، تعارضها ملاحظة الاميرة آنّ الموجزة ومفادها ان أمير ويلز سيكون عما قريب «ملاكًا في السماء .»

من المؤسف أن يكون برنيت قد زخرف روايته بهذه الاخطاء السخيفة غير المتساوقة ، التي أضعفت قضية الاعتقاد بالخداع .

إذًا ، ليس ثمة اي دليل سليم يدعم نظرية استبدال الطفل ، وبالوسع تبرئة الملك دجيمس الثاني من تهمة الخداع .ولكن ما لا يسعه التخلّص منه هو حكم التاريخ لأنه أخفق كليًا في تسفيه الرواية ، وإهماله ، في البدء أن يثبت ان ابنه حقيقي . وقد تُرك ذلك للآخرين ، واذا كان قد أوذي لكون شعبه حسبه عاجزًا عن مثل هذه الخدعة ، فلا يلومنّ سوى شخصه . ولو انه سمح لبعض البروتستانت بدخول الحجرة وقت عملية الوضع ، لما تضخمت الشائعة ، ربما ، واتخذت هذا الحجم . إلا أنه ينبغي لنا أن نتذكّر أنها كانت مجرد شائعة .

الملك آرثر، هل وُجد حقًا؟

كان الرجل الذي ندعوه الملك آرثر شخصية في الفولكلور والاسطورة الانكليزيين طوال ١٥٠٠ سنة . فمن إشارة غير مباشرة لغلداس ، ووصف لننيوس ، تسلّم القصة وتوسّع فيها بفضل كدسة من المواد الخرافية ، او غير القابلة للتصديق ، دجيفري اوف مونموث . وقد زوّق ذلك ، في ما بعد ، وتوسّع في التفاصيل عدد كبير من الشعراء ، بدءاً بالسر توماس مالوري وانتهاءً بلورد تنيسون . وقد تسبّبت ضخامة مجموع ما كُتب في هذا الموضوع ، فضلاً عن الأساطير المتنوعة ، في غمر اي أساس تاريخي للوجود الحقيقي لآرثر بالغموض والإبهام .

بعض الثقات رفض اعتباره بطلاً مثيولوجيًا في الأدب الرومنطيقي ، وابتكاراً لخيال شاعري . ولكن يبدو جليًا أن جماعة من الجنود الرومان والبريطانيين ، في مكان ما في بريطانيا ، في مطلع القرن السادس ، كانوا يحاربون ببسالة للحفاظ على حضارتهم ضد الموجات المتعاقبة للغزوة الهمجية . وعلينا أن نثبت أن آرثر كان على رأس هذه المقاومة . فالبعض يعتقد أنه كان الزعيم الروماني البريطاني ، الذي كسب معركة كبرى ضد السكسون ـ وهو انتصار أوقف العدو عند حده طوال عشرين سنة . ثم اختفى ، وسبّبت كيفية موته ، التي بقيت مجهولة ، الكثير من الأساطير التي تعزو اليه الخلود .

ان الأساطير الغريبة التي حيكت حول اسمه صنعت منه بطلاً مبهمًا في التراث الفولكلوري «وُجد وحسب في مخيّلة شعب مبتلى بالحنين الى ايام افضل» . غير أن هذه الحكايات عن القوى السحرية ،والفضائل النبيلة والمتسمة بالفروسية والشهامة ، وبخاصة المتعلقة بتوقّع بعثه المبكر من الموت ، إنما هي هذا النوع من القصص التي يودّ

الواحد منا أن تعلق بالذاكرة عن قائد منتصر ، ناصر شعبًا مضطهدًا بسبب غزوة وثنية .

فاذا كان ينبغي اعتبار آرثر شخصية تاريخية ، فعلينا أن نعيّن العصر الذي يمكن أن يكون قد عاش فيه .

غزا جزيرة بريطانيا ، في بادىء الأمر ، يوليوس قيصر السنة ٥٥ قبل الميلاد ، وفي السنوات الخمسمائة التالية ، جاء الرومان ، واحتلوا البلاد ، وأدخلوا اليها حضارتهم وثقافتهم . وفي بداية القرن الخامس للميلاد ، بدأت الامبراطورية الرومانية في الغرب تتفتت تحت وطأة الغزوات الهمجية التي قام بها الواندال ، والهون . وكان قد بقي في بريطانيا ، حيث كانت تأصلت طريقة الحياة الرومانية ، عدد غير قليل من الحاميات العسكرية الرومانية . ولكن ، في السنوات الأولى من هذا القرن المضطرب ، رأى الأباطرة أن الضرورة تقضي عليهم باستدعاء هذه الحاميات إلى ايطاليا للمساعدة في إنقاذ روما نفسها .

وفي الوقت نفسه ، تعرَّضت بريطانيا ، أيضًا ، إلى موجات غزو قام بها الآنجلز ، والسكسون ، والجوت . وما كاد ينتصف القرن حتى بات الشعب الروماني ـ البريطاني يواجه خطر الانقراض . ويذكر غلداس ، المؤرخ الوحيد في تلك الحقبة ، ان البريطانيين كتبوا رسالة الى الرومان يطلبون فيها المساعدة . «الى آجيسيوس ، القنصل ثلاث مرات ، أنين البريطانيين . الهمجيون يطردوننا باتجاه البحر ، والبحر يطردنا بدوره الى الهمجيين ، وبين الجهتين يجابهنا نوعان من الموت ، فإما أن نُذبح ذبح النعاج ، وإما أن نغرق .» ومع مرور سنوات ذلك القرن ، كان الغزاة ، بما كانوا يحشدون من قوات ، يندفعون الى داخلية البلاد أكثر فأكثر ، باتجاه الغرب .وفي محاولاتهم التغلّب على المناطق الجنوبية الغربية ، يبدو أنهم جابهوا أقسى مقاومة كان عليهم مجابهتها خلال فتحهم الجزيرة . وكان هؤلاء الخصوم البواسل إما من أصل روماني ، وإما أناسًا متشربين كثيرًا بحضارة روما . ومعلوم انه كان على رأس هذه الجماعة من المدافعين الأبطال رجل من اصل روماني يدعى امبروزيوس اوريليانوس . وقد ذكرت الروايات اللاحقة ان أمبروزيوس قد شنَّ حربًا متواصلة

ضد الغزاة ، كان النصر غالبًا ما يحالفه فيها . إلاّ أنّه ، بالنظر إلى تدفّق القبائل الهمجية باستمرار وبأعداد متزايدة على خطى الجيوش المتقدمة ، فقد عجز عن استثمار أمجاده .

الآن ، بات من المكن إدخا ل آرثر على هذه الصورة ، ولكن ينبغي لنا أن نتجاهل بعض الروايات غير المحتملة . قيل إن آرثر كان ابن أخي امبروزيوس ، ويدعى اوثر بندراغون . ويبدو أن اوثر شخصية خرافية ، وليس ثمة أي سبب لأن يكون نسيبًا لامبروزيوس ، او لهذا السبب ، نسيبًا لآرثر . حتى أنه ليس من الضروري ان نعتبر أن آرثر كان ملكًا ، أو أميرًا ، أو زعيمًا . وقد كان بوسعه إنجاز انتصاراته واكتساب شهرته الخالدة دون أن يكون اي امرئ غير قائد رجال ـ قائد حربي .

وضع المؤرخ البريطاني غلداس ، الذي لا يُعرف تاريخ ميلاده ، ولكنه يُقدَّر وقوعه في بداية القرن السادس ،حوالى السنة ٥٤٥ للميلاد ، تاريخًا حول فتح بريطانيا ، لا يذكر فيه آرثر بالاسم ، ولكننا نستطيع القول إنه عرف شيئًا عن آرثر ، لأنه يصف معارك خاض امبروزيوس غمارها ، وكذلك معارك جرَت بعد وفاة أمبروزيوس . وقد أجمع معظم المؤرخين غير المتحيّزين على أن آخر المعارك التي انتصر فيها الرومان ـ البريطانيون ضد السكسون كانت معركة ماونت بيدون ، ولكننا لا نعرف تاريخها الصحيح . ويحدده غلداس في السنة ٥٠٠ . اما معركة بيد فيقول انها جرت قبل ذلك بسبع سنوات . وهناك «حوليات كامبريه» التي وُضعت في القرن التاسع ، وتحدد تاريخ المعركة هذه بالسنة ٥١٦ . ولكن الأمر الراهن الذي لا جدال فيه هو أنه كان ثمة معركة بهذا الاسم ، وقد انتصر فيها البريطانيون انتصاراً ساحقًا . وقد وصفها غلداس الذي كان معاصراً تمامًا لها .

كانت اول اشارة الى آرثر بالاسم حوالى السنة ٦٨٥ ، إلا أن عدم ذكر اسمه بعد مرور مئتي سنة على المعركة ، لا يستتبع الجزم بأنه اسطوري او خرافي تمامًا ـ وهو حجة تذرَّع بها الكثيرون .

يورد «قاموس السيرة القومية» عددًا من الاقتراحات . فقد كان بطلاً ميثولوجيًا صرفًا ، نُسبت اليه مغامرات امبروزيوس البطولية خطأً . ولكي يدعم المؤرخون هذا ،

عمدوا الى البحث عن اصله في العصور الميثولوجية القديمة جداً ، وزعموا أنه كان بطل ثقافة كلتي ، وحتى إلهاً مبكراً ، أُدخل التاريخ بفضل خطأ ذاكرة غريب . وقد حلّل الخبراء في الفولكلور اسمه بنوع من التفسير الميثولوجي ، وزعموا أنه اختفى في مثيولوجية شمسية ، أو طوطم عنصري ، آرت ـ اور ، الرجل الدبّ .

ان اسم آرثر هو ، بالتأكيد ، الاداء الانكليزي لاسم آرتوريوس الروماني . وهناك عدد غير قليل من هذا الاسم في أي قاموس كلاسيكي ، تسلّم أحدهم في بريطانيا ، في وقت ما خلال القرن الثالث للميلاد ، القيادة .

ومن الممكن أن يكون آرتوريوس يوستوس هذا ، الذي وُجد تمثاله منذ ردح من الزمن ، في ايليريا ، قد خلّف أنسباء في بريطانيا . وليس ثمة اي سبب يمنعنا من القول إن زعيمًا رومانيًا ـ بريطانيًا ، كريم الاصل من الطبقة نفسها التي كان ينتمي اليها امبروزيوس ، وترعرع فيها ، قد تسلّم منصبًا مماثلاً للقائد البريطاني في وقت متأخر من القرن الخامس . ومجرد عدم ذكر المؤرخ غلداس آرثر بالاسم ، لا يعني اي شيء ، ذلك بأننا عندما نطالع كتابه نجده قد اعتاد ترك الاسماء جانبًا . ولعل الكتاب إنما وُضع للتأثير في المعاصرين ، الذين يكونون على اي حال ، على معرفة بالأسماء ، ويمكنهم وضعها في الاحداث التي يصفها غلداس .

هناك رواية تاريخية مهمة يمكننا استخدامها في هذا التحقيق ، بعنوان «التاريخ البريطاني» ، التي ظهرت ، اولاً ، غفلاً من التوقيع في نهاية القرن السابع . وقد نشرها ننيوس في القرن الثامن مع موادّ أخرى . إن بعض المواد في الرواية الاصلية هي اسطورية ، بالطبع ، لأن ثمة وصفًا للتنانين ، والقصور المسحورة ، والنار التي تسقط من السماء . إلا أنه يبقى في الكتاب الذي نشره ننيوس ، ذرة من الحقيقة المقبولة بعدما تُنتزع منه كل الخرافات ـ على حد ما يقول المؤرخون . والصعوبة ، هي بالطبع ، فصل الخرافة عن الواقع والحقيقة . وقد ذُكر آرثر بالاسم في هذا التاريخ . ووُصف كذلك في القصائد المبكرة في ويلز ، وفي الاغاني الشعبية والقصائد القصصية في النجاد الاسكتلندية .

يشير ننيوس الى آرثر بوضوح تامّ على أنه قائد حربي ،وليس ملكًا . وليس

مجرد أنه أصبح في العصور اللاحقة هدفًا لكل انواع الاساطير ، وان دورة نشأت ، وقد تألفت من أحداث مستقاة من حقب مختلفة من التاريخ ، لا يثبّت أنه كان شخصية خرافية . ان حياة امبروزيوس العملية التي هي تاريخية ، يمكن أن تساعدنا على تركيز آرثر . نحن لا نعلم متى واين ولد آرثر ، ولا أين كانت وفاته ، على الرغم من أن ثمة تقاليد محلية ثابتة حول هذه النقطة في صمرسيت وكورنوول . فالتواريخ المبكرة تذكر أنه توفي في احدى المعارك مع ابن أخيه ، بعد عشرين سنة من معركة ماونت بيدون ، التي حددّناها في تاريخ يراوح بين سنة ٤٩٣ وسنة ٥١٦ . وهذا يجعل وفاته في تاريخ ما يراوح بين ٥١٣ و ٥٣٦ . واذا فرضنا أنه عمّر حتى السبعين ، فإنه يكون قد أبصر النور في منتصف القرن الخامس . ولنفرض جدلاً أنه توفي في سنّ الخمسين ،فانه كان يكون قد بلغ السنّ المناسبة لقيادة القوات البريطانية بعد امبروزيورس عندما توفي هذا الأخير في مطلع القرن السادس .

كتب نُنيوس يقول : «ثم حارب آرثر المولع بالحرب ، مع كل الملوك في بريطانيا وقوّتها العسكرية ، ضد السكسون . ولو أنه كان هناك كثيرون أنبل منه ، فقد اختير ، مع ذلك ، قائداً لهم اثنتي عشرة مرة ، وانتصر بهذا المقدار .» إن هذا يثبت حتمًا ان آرثر لم يكن ملكًا ، بل كان مجرد قائد عسكري ، وعلى نحو بيّن ، اكثر القادة قدرة في ذلك العصر . وبالتالي ، فإن امبروزيوس الذي كان قائداً كبيراً كذلك ، لا بد أنه كان قد توفي في تلك الفترة . وقد جرت المعركة الثانية عشرة ، التي كانت من أقسى المعارك ، في بيدون هيل . ويضيف ننيوس انه في هذه المعركة هلك من الاعداء ٩٦٠ شخصًا على يد آرثروحده ، ولم يكن له إلّا الله وحسب العون والمساعد . وهذا يعني ان آرثر وجيشه الخاص لم ينعما بمساعدة القوات المحلية . ولا يتفق المؤرخون على مكان المعركة ، ولعل السبب هو في أنهم لا يدرون . بعضهم قال إنها جرت على نهر سيفرن ، ولكن دجيفري مونموث يقدّم اسم باث . في حين يقترح الكولونل أ .ه . بيرن ، الخبير في ساحات الوغى ، اسم بادبري ، في اقليم دورسيت ، وهي الموقع الاكثر احتمالاً من سائر المواقع ، نظراً إلى أن السكسون لا يمكن أن يكونوا قد توغلوا في انكلترا الى ابعد من دورسيت في ذلك الوقت .

وكانت نسبة تقدمهم بطيئة جداً ، لأنهم لم يكونوا يأبهون لمطاردة المهزومين بعد فوزهم في مناوشة ما . ذلك بأنهم كانوا يفضلون بناء مستوطنات لأسرهم حيث هم ، وكانوا قد اعتاودا حمل هذه الأسر حتى إلى ساحات القتال . وكانت جماعات صغيرة من الغزاة توفّر لهم الطعام والمؤن .

وليس ثمة اي تأريخ آخر لآرثر من ننيوس ، بعد الاشارة الى أنه توفي في معركة كاملان ، وتتفق معه «حوليات كامبريه» في ذلك . ولكن ، نظراً الى ندرة المعلومات حول ما حدث لآرثر بعد معركة ماونت بيدون ، فإن الكتّاب في حقب لاحقة قدمّوا روايات مغالىً فيها عن فتوحات مزعومة في ايرلندا ، والدانمارك ، وبلاد الغول ، وحتى ضد الجيش الروماني نفسه . وهي جميعًا خيالية بصورة قاطعة .

يبدو أن الاحتمالية التاريخية هي الى جانب آرثر ، ولم يكن غلداس غير مصيب في ما يتعلق بمعركة ماونت بيدون ، والاحداث التي تلتها ، لأنها إنما حدثت في زمنه . ومع أنه لا يسمّي آرثر ، إلا أنه يقترحه ، وقد اضافت تقاليد القرون المتعاقبة الاسم . ومن المعقول تمامًا الاعتقاد أن بطلاً أحرز مثل هذا النصر المبين والمهم في تلك المعركة سيظل يُذكر زمنًا طويلاً . ولا يدحض هذه الحقيقة كون أجيال من الكتّاب قد توسعّوا في هذا الانتصار البسيط بإضافتهم مواد خيالية . كل ما هنالك ان ذلك يخفيها .

ربما اختير آرثر لقيادة قوة مختلطة تحارب أنى تدعو الحاجة ، ويمكنها أن تدعم قوات محلية في مقاطعات يهددها الغزاة . وفي هذا الصدد ، اقتُرح أن آرثر تسلّم مركزًا شبيهًا بذاك الذي كان يشغله كونتات بريطانيا القدامى ، وهم من الطبقة العليا ، وكانوا زمن الحكم الروماني يقودون الجيوش المتحركة التي يمكن استخدامها في أي جزء من البلاد ، من غير اعطاء مهلة كافية للاستعداد . وإن مركزًا كان يمكن أن يمنح آرثر نفوذًا يفوق نفوذ الزعيم المحلي ، وبالتالي شهرة أعرض .

وهناك مصدر موثوق به اكثر وجدير بالاعتبار لقبول حقيقة آرثر ، تاريخيًا ، لا اسطوريًا ، هو المؤرخ وليام اوف مامزبري في كتابه الموضوع حوالى السنة ١١٢٥ ، وفيه يصف امبروزيوس كملك ، وآرثر كقائد ، والقائد العام للجيش . وعاش وليام

في وقت كانت فيه الاساطير التي تكتنف آرثر منتشرة . إلاّ أنه يُظهر أنه لا يعتقد فيها ، عندما يكتب قائلاً :

- «هذا هو آرثر الذي يروي عنه البريطانيون بشغف كل هذه الحكايات ، حتى الى يومنا هذا . . . رجل جدير بالاحتفاء والتمجيد ، ليس بالروايات الخيالية التافهة ، ولكن بالتاريخ الموثوق به . فقد دعم طويلاً الدولة الغارقة ، ورفع من معنويات مواطنيه في الحرب .»

فوليام ، إذًا هو آخر الكتّاب ممن قدّم الى العصور المتعاقبة صورة لآرثرمعقولة يمكن تصديقها .

وبعد حوالى اكثر من عشر سنين بعد صدور كتاب وليام اوف مامزبري ، أصدر دجيفري اوف مونموث مجلده التاريخي القيّم الضخم عن تاريخ بريطانيا من زمن بروتوس الى وفاة كادوولادر في القرن السابع . إنه عمل يختلف عن عمل سامزبري ، ذلك بأن كتاب هذا الأخير هو نتاج مؤرخ جدّي .

إنه مزيج من الواقع ، والحكاية ، وقصص الحب الشريف والمغامرات الفروسية ، يسمح فيه المؤلف لخياله الخصب أن ينطلق متحرراً من كل قيد . ويتألم آرثر ، أكثر ما يتألم من هذا الخيال الجامح ، لكن على الرغم من أخطائه التي لا تصدَّق ، وابتكاراته الميثولوجية ، وادعاءاته السخيفة بأنها تاريخية ، فقد عمل هذا الكتاب ، اكثر من سواه ، على تشكيل الانطباع عن آرثر بالنسبة الى الاجيال العتيدة ، وقد استقى منه كل كاتب وشاعر تقريبًا في ما بعد .

إن الظروف التي ظهر فيها الكتاب أفضت إلى القبول به شعبيًا . كان العصر ينميز بالرومنطيقية ، فلقي الكتاب النجاح المباشر .وقد ادعى دجيفري أنه جمع مواده في بريتانيا . إلا أنه سواء أكان فعل ذلك حقاً أم أنه تبنّى تقاليد ولشية (نسبة الى ويلز) التي كانت سائدة في أيامه ، ام أنه ابتكر شخصيًا التفاصيل الخيالية التي وصفها بأنها تاريخية ، فإننا لن نتوصل الى معرفة الحقيقة أبدًا . ولكن ليس ثمة أي شك في أن روايته عديمة الاهمية من وجهة النظر التاريخية . وقد ادعى أيضًا أنه حصل على معلومات كثيرة من كتاب قديم باللهجة البريطانية ، وهو كتاب زعم أنه معروف ،

وحسب ، منه ومن ولتر ، رئيس شمامسة اوكسفورد . ولا احد يدري ، على ما يبدو ، ما هو هذا الكتاب ، وما اذا كان حقًا قد وُجد خارج مخيّلة دجيفري . فهو لم يوجد قط ، ودجيفري لم يُظهره إلى أي من النقّاد الذين شكّوا في صحة أقواله .

يرسم لنا دجيفري صورة ملك جبّار وشهم ، وحاكم حكيم يكتنف مولده ووفاته الغموض والسحر ، وقد ازدهر في بلاطه الحب ، والجمال ، والظرف . ومن السهل تبيّن مصدر ذلك .فالسكون الفروسي ، واللطيف أيام دجيفري بالذات يتخلّل الاسطورة كلها . فالنساء المثقفات ، والفرسان الانيقون ، وحتى كيرليون ، بقصورها وسفنها ، وأعلامها الذهبية المثلثة الشكل ـ كل ذلك مناسب ووثيق الصلة بالقرن الثاني عشر أكثر منه بالقرن السادس . فالقائد البريطاني الذي يخوض غمار حرب يائسة ضد الغازي الهمجي ، وبالتالي ينعم بفترة من السلم ببساطة بدائية ، قلما يكسف روعة آرثر الذي يصوره دجيفري .

ونسج على منوال دجيفري شعراء وكتّاب حكايات شغلوا أنفسهم بشهرة آرثر ، فجعلوه على صورة أيامهم اكثر منه على صورة أيامه ،وأحاطوه بطبقة من سحب الغموض اكثر كثافة ، بحيث كُسفت كليًا شخصيته التاريخية الاساسية . وفي سبيل جعل التفاصيل اكثر روعة ، استُخدمت قصائد قصصية وغنائية وتقاليد قديمة ليس لها ادنى صلة بآرثر لدعم الأسطورة التي يحبها كل الاولاد ، ولكن يجب على كل الراشدين رفضها . إن هذه الزخارف لا تساعدنا مطلقًا في تقييم آرثر ، إلا أنه من الضروري أن نتذكّرها ، لأنها تظهر لنا مدى الحرية التي يمكن المرء أن يعتمدها في ما خصّ شخصية تاريخية حقيقية . وليس استثناء لهذا التعميم في ما يتعلّق بالاسطورة الآرثرية .

فطوال القصة ، هناك ثبات على علاقة آرثر بمعركة ماونت بيدون ،وهذا أمر مهمّ لأنه الثبات الوحيد في الاسطورة بأسرها . وهذا يعني ، بكل وضوح، أن نسبة ما من الواقع قد أدخلت الى القصة . واذا ما كان بإمكاننا أن نشكر الأساطير على ذلك وحسب ، فاننا شاكرون لهذه الاسطورة لأنها تحدد الفترة التي عاش فيها آرثر .

ما هي ، إذًا ، صورة آرثر الحقيقة؟ اي نوع من الرجال يجعله هذا الدليل الضئيل؟

بالوسع الافتراض أنه يتحدر من أسرة لا بأس بها ، ولكنها ليست نبيلة ، بحال من الأحوال . ويُوضح «تاريخ بريطانيا» أي مقام كان يحتلّ في المحيط العسكري ، ولذا لم يكن ملكًا ، وبالتالي لم يكن ملكًا على كل البريطانيين . ولقب «قائد حربي» يدلّ على أن حكومة ذلك الزمان منحته قيادة خاصة ، وعندما يذكر ننيوس ووليام اوف مامزبري أنه حارب مع الملوك البريطانيين ، فبالوسع اعتبار معنى ذلك ان عمله كقائد عسكري كان يقتضي التنقّل مع جيشه المدمّج المتحرك من إقليم الى إقليم ، بهدف مساندة الفرق المحلية في مقاومة الهجوم . هل من المأمون ان نشبّهه بواحد من طبقة القادة السابقين؟ فعندما كتب البريطانيون ، حسبما ورد على لسان غلداس ، كتابهم الى القنصل آجيسيوس (او آييسيوس) طالبين المساعدة ، فإننا نستطيع الأخذ باقتراح كولنغوود القائل ان البريطانيين إنما كانوا يطالبون بقائد جديد . ولكننا نستنتج ، كذلك ، من غلداس انه لم يصل مثل هذا العون ، لأن الرومان كانوا منهمكين جدًا في المحافظة على قلاعهم ومخيماتهم ومعسكراتهم . أفلا يكون من الطبيعي والحالة هذه أن يعيّن البريطانيون قائدًا من بين قادتهم أنفسهم؟

في الواقع ، هكذا كان آرثر ، الرجل الاكثر ملاءَمة للمنصب ، ذلك بأنه كان ربما يفهم اكثر من اي رجل آخر في شؤون الحرب ، وقد طوّر كولنغوود هذه النظرية اكثر على الصعيد العسكري .فقد برهنت فرق الفرسان الثقيلة في السنوات السابقة على أنها القوة الاكثر تفوّقًا على أفضل فرق المشاة . وقد جعل الرومان جلّ اعتمادهم أكثر فأكثر على القوات المحمولة ، وقد حاولوا تعليم البريطانيين الدرس نفسه . وكل قائد روماني بريطاني في القرن الخامس كان يعلم شيئًا عن الحرب كما تُمارس في القارة الاوروبية ، ويفهم كذلك قيمة الفرسان الكبيرة . واذا ما تطلع حواليه ، فإنه سيدهش لانعدام وجود الفرسان في بريطانيا .

إذا كان آرثر قائدًا رومانيًا ـ بريطانيًا حقيقيًا ـ وليس ثمة اي مبرر للاعتقاد أنه كان كذلك ـ ، فأنه قد يكون يفهم هذه الأفكار ، ويدرك مضامينها . وكان أنشأ فرقة خيّالة جديدة ، وعلّم البريطانيين الباقين احياء كيفية استخدام هذا السلاح الحربي القوي .ولو كان آرثر فعل كل ذلك ، فان القصة التي رواها ننيوس عن انتصاراته في

المعارك الاثنتي عشرة التي عدّدها يمكن إذ ذاك تفسيرها . ولكان في وضع لا يُقهر نوعًا ما ضد المشاة السكسون ، شرط أن يكون الانضباط حسنًا ، وتوفّر الجياد مضمونًا . يقول كولنغوود إن هذه النظرية لهي مجرد حدس بحت ، ولكنها تستند الى ما هو معروف عن الحرب في القرن الخامس . فالتقاليد في قصص المغامرات والفروسية في القرن الثاني عشر لدى دجيفري اوف مونموث تتمحور حول مفهوم آرثر كمنشيء جماعة من الفرسان .والفرسان يُقرنون دومًا بالمسلحين على ظهور الجياد ، حاملين الرماح . والفارس الروماني كان من الطبقة نفسها ، اي من الطبقة المتوسطة العليا ، ورجال الطبقة الوسطى هؤلاء كانوا اولئك الذين يحاربون على مستوى الخيل . ويبدو مؤكدًا ان حكايات دجيفري عن الفرسان في المزردة (الدرع المرنة ذات الزرد) ، مسلحين بالرمح والسيف ، وهم يخوضون المعركة بقتال منفرد ، او بمجموعات صغيرة ، وغالبًا ما يحالفهم الحظ ضد كتائب من المشاة اكبر عددًا ، فانها مستقاة من التحديد الروماني لكلمة «فارس» . ولعل هذا الحدس هو بالتأكيد الجواب عن هذا السر .

وينبغي قول كلمة حول القسم الأفضل من الاسطورة الآرثرية ، وهو أنه لما حُمل الى افالون لم يمت ، ولكنه راح في سبات عميق . وفي القرن الثاني عشر ،ساد الاعتقاد بأن آرثر ما يزال نائمًا ، ولم يكن مأمونًا ، في بعض الأقاليم ، القول إنه ميت ! وعزّز الاعتقاد بأنه سيعود في يوم من الأيام الى الحياة ، الى درجة بعيدة ، الى عدم تحديد المكان الذي دُفن فيه بدقة . فهناك مواقع تقليدية كثيرة ، معظمها يقع في غرب البلاد ، ولكن بعضهم قال إنه لا يحتاج إلى أي ضريح لأنه لم يمت .

وحرصًا من الملك هنري الثاني على تبديد الاعتقاد بأن آرثر ما يزال حيًا ، لدى سماعه ان عظام آرثر موجودة في شجرة سنديان مجوّفة تقوم على عمق بضع أقدام تحت مدفن غلاستونبري ، أمر – على مايزعمون – بنبش الجثمان . وقد تمّ ذلك في عهده ، وعُثر على عظام ، مع صليب رصاصي . وكان الصليب يحمل نقشًا ، اختُلف في تدوينه ، ولكنه ربما كان التالي : «ههنا يرقد آرثر ، الذي كان ملكًا في ما مضى ، وسيكون من جديد .» وفُحصت جمجمته ، فأظهرت آثار عشرة جراح ،

تسعة منها شُفيت تمامًا والتأمت . وكانت العظام كبيرة وضخمة ، وكان يُقدّر طول قامة آرثر بأكثر من ست أقدام .

وحملت بقاياه ووُضعت في نعش ، مع عظام غينفير زوجته الخائنة التي كانت عشيقة لانسلوت التي وجدت هي ايضًا ، ثم ووريت الثرى ، وشيّد ضريح من الرخام الاسود في كاتدرائية غلاستونبري . ومذ ذاك اختفى ضريح آرثر ، وليس ثمة أي دليل أن الهيكلين العظميين هما لآرثر ولغينفير . ويبدو ان نتائج نبش الجثمان لم تُقبل ، في أي حال ، من اولئك الذين كانوا يفضّلون التمسك بالاعتقاد أن آرثر ما يزال حيًا يُرزق .

إن أُفول التقليد القائل بأن آرثر عاش لم يكن مردّه الى النظرية التي اثبتت موته ،بل الى انقضاء زمن الانقاذ من الغازي الاجنبي ، وعدم الحاجة الى منقذ . وعندها دخلت الأسطورة الفولكلور ـ او التراث الشعبي .

إن الصورة النهائية لانكلترا في القرن السادس ، هي صورة بلاد اجتاحها الهمجيون ، فاختفت الحضارة بسرعة . ومن وسط هذه الفوضى قام قائد روماني ـ بريطاني متشرب تمامًا بالأفكار الرومانية ، وقادر على وضعها موضع التنفيذ ، بمساعدة جماعة مختارة من الرجال البواسل ، مسلحين ومدرّبين على الحرب التي اختصّ بها أجدادهم .

وبرهنوا عن أنهم لا يُقهرون في اثنتي عشرة معركة أو أكثر ، وأمّن انتصارهم النهائي في ماونت بيدون عشرين سنة من السلم لسكان الجزيرة الذين كانوا يُزعَجون بغارات متكررة . ثم اندلعت نيران الحرب الاهلية بين أتباع آرثر ، الذي قُتل . ولم يكن ذلك مجرد فقدان آخر القادة القادرين على مقاومة السكسون ، بل أدّى ، كذلك ، الى تفكُّك فرقة الأتباع .

هكذا انتهت المراحل الاخيرة للحضارة الرومانية ـ البريطانية ، ومنذ ذلك الحين باتت الغزوة السكسونية تتكرر في فترات قصيرة أكثر من ذي قبل ، وتتم بسهولة أكبر ، حتى أضحت البلاد معتادة على أسيادها الجدد .

واختفى آرثر ، مخلّفًا اسمًا خالدًا ، اسمًا أضحى يجتذب كل أنواع الحكايات

الاسطورية والسحرية ، إسمًا بات مرادفًا للفروسية والفضيلة . والتأثير السيكولوجي لهذه النهاية الغامضة ، مقرونًا بظروف الزمن الذي عاش فيه ، وهو زمن كان الناس فيه بحاجة ماسة الى قائد ، دفعا وجوده الحقيقي وأهميته التاريخية الى لجة خمول الذكر وعدم الشهرة .

ماذا حدث لإدموند آيرنسايد؟

ليست قصة إدموند آيرنسايد ، ملك الانكليز ، سرًّا او لغزًا شعبيًا بالمعنى نفسه الذي يرتديه مصرع الأميرين في البرج ، أو هوية الرجل ذي القناع الحديدي . وان ما نعرفه عنه قليل ، ليس أكثر من أن حكمه القصير الذي دام سبعة أشهر تميّز بسجل كان أكثر لمعانًا وإشراقًا من سجل والده ايثلريد غير المستعد الذي حكم حوالى أربعين سنة . وبالنسبة الى حروبه مع الملك كانيوت ، الدانمركي ، التي انتهت بتقسيم انكلترا بينه وبين كانيوت ، يمكن أن يُعرف بالشهير لأن موته جعل المملكة بأسرها تحت السيطرة الدانمركية . وكان ايثلريد قد تبنّى عملية شراء الغزاة الدانمركيين ، بدلاً من محاربتهم كما كان اجداده يفعلون . وكانت نتيجة طريقته المغمة في تفادي المحتوم ، أن الغزاة كانوا يعودون مرة بعد أخرى لقبض المال ، وكانوا ، مع الأسف ،يحصلون عليه دومًا . وأخيرًا فكروا في حسنات الاقامة في انكلترا ، وفي بدء حياة جديدة بثرواتهم المكتسبة حديثًا بسهولة . وفي السنة ١٠١٤ ،أُكره ايثلريد على هجر المملكة ، عندما بسط سواين فوركبرد ، ملك الدانمرك سلطته على كثير من الاقاليم في انكلترا . وتوفي هذا الأخير فجأة في السنة نفسها ، وأُعيد ايثلريد ، ونجح حتى في التغلّب على كانيوت ، ابن سواين ، في المعركة . وتوفي السنة ١٠١٦ ، فاختار مجلس شورى الملك ابنه ، إدموند ، ملكًا .

قبل أن نحاول مناقشة قضية ما إذا كان قد اغتيل أم مات ميتة طبيعية ، من الضروري أن نطّلع على ما هو معروف حول حياته وسلوكه .

أبصر إدموند النور حوالى السنة ٩٨٠ . ويبدو أنه اكتسب لقب آيرنسايد (ومعناه الرجل الشديد البأس والجَلَد) ، بفضل شجاعته وفروسيته . أما إذا كان هذا الاسم قد

استُعمل ، في الواقع ، وهو حيّ يُرزق ، فالأمر ليس معروفًا على وجه التأكيد . وبعد وفاته السنة ١٠١٦ بفترة غير طويلة ، نقرأ هذه الفقرة في نسخة فلورنس ورسستر من «التاريخ الانكلو-سكسوني» : «الآن وصل الأمير إدوارد الى انكلترا ، ابن اخي الملك إدوارد ، ابن الملك إدموند ، المعروف بآيرنسايد بفضل بسالته .» كان ذلك السنة ١٠٥٧ ، وهي تنفي الاقتراح القائل إن الاسم اختُرع خلال القرون الوسطى .

في السنة ١٠١٥ شاء إدموند الاقتران بإيلدغيث ، أرملة الايرل الدانمركي سيغفرث ، الذي قُتل في معركة بالقرب من اوكسفورد على يد ايدريك ستريونا ، وكانت مصايره مرتبطة عن كثب بمصايره ، ولكن على نحو كريه . كان ايثلريد معارضًا لهذا الزواج ،ولكن إدموند ألحّ ، واقترن بها في نهاية المطاف . ثم إنه ذهب الى القصبات السبع في الكونفيديرالية الدانمركية ، القائمة في الشمال . وهناك تلقّى طاعة رجال الكونفيديرالية ، ويبدو أنه اكتسب نوعًا من الامارة في شمال انكلترا . وفي هذه المرحلة استهدف لعداوة ايدريك ستريونا (الذي كان ، في الواقع ، صهره) ، ليس وحسب بفضل الزواج من ايلدغيث ، ولكن بفضل نجاحه في الكونفيديرالية ، أيضًا . وفوق ذلك كان ايدريك ، نائب الملك ايرل في مرشيا ، وكان بعض أراضي إدموند الجديدة يتشابك مع اراضي ايدريك . والدليل على أنه أزعج ايدريك يكمن في انه لما غزا كانيوت البلاد ، بعد ذلك بقليل ، وضم إدموند وايدريك قواهما لمقاومته ، نشب نزاع عنيف وقاس بين الايرلين ، وتخلّى ايدريك عن إدموند للانضمام إلى كانيوت . فكانت النتيجة عَجز إدموند عن الدفاع عن مرشيا وحده ، فحاول الانسحاب إلى الشَمال . اخضع كانيوت قسمًا من مرشيا ، وعاد إدموند الى لندن ليكون مع والده ، الذي كان في حالة النزع الأخير . عندها تحوّل كانيوت الى لندن ، وهدَّد بحصارها . في هذه الفترة توفي ايثلريد في ٢٣ نيسان ١٠١٦ . وعلى الفور قام اللندنيون واولئك الذين هم اعضاء مجلس شورى الملك ، بانتخاب إدموند ملكًا بالاجماع . وقد توّجه على الفور كبير أساقفة كانتربري . ولكن كانيوت كان قد انتُخب كذلك ، ملكًا من سائر أعضاء مجلس شورى الملك في ساوثمبتون .

اتجه إدموند ، وقد جوبه بالحرب حتى الموت مع كانيوت ، غربًا لتعبئة جيش .

فلما علم خصمه بذلك ، رفع في الوقت الحاضر الحصار عن لندن ، ولحق بإدموند الى صمرسيت ، فجرت معركة في سلوود ، كان النصر فيها حليف إدموند . وقد مكّن ذلك الجيشين من أن يقترب احدهما من الآخر اكثر من اجل خوض معركة أُخرى . وفي فجر اليوم التالي ، بدأ خط إدموند الامامي ، الهجوم باندفاع جنود المشاة صوب اعدائهم القريبين منهم . وحارب الجيشان طوال النهار ، وعند المساء كانا قد أُنهكا ، فانسحب احدهما عن الآخر . وفي اليوم التالي ، تواصل القتال ، وكان إدموند قد بدأ يتفوق على خصمه عندما قتل ايدريك ستريونا ، وكان يحارب الى جانب كانيوت، أحد السكسونيين المسالمين ، وقطع عنقه ، ورفعه عاليًا لكي يثبّط من عزيمة جيش إدموند موهمًا الجنود انه قُتل ، صائحاً : «إدموند مات ، إدموند مات !» فجعل ذلك الهلع يدبّ في صفوف الجيش ، ولكن سرعان ما تبيّن إمكانية الانهيار في جانبه ، فهرع إلى هضبة ، ووقف فوقها ، ورفع الخوذة عن رأسه ، وأظهر نفسه بوضوح للجميع . وفي المساء عاد الجيشان ، فانسحب احدهما عن الآخر مجدداً . ولكن هذه المرة كان إدموند في وضع أفضل كثيراً من ذي قبل . وخلال الليل انسحب كانيوت كليًا من ساحة القتال ، وعاد شطر لندن لكي يستأنف الحصار الذي كان تخلّى عنه قبل بضعة اسابيع . وقد جعلت هذه المعركة إدموند سيد ويسيكس .

بعد ان سجل إدموند انتصارين في رصيده ، فضلاً عن جيش كبير ومخلص له ،بات وضعه مغريًا بما فيه الكفاية لاغراء ايدريك على التخلّي عن كانيوت ، والانضمام الى صهره من جديد . وقد أقسم هذا الخبيث الانتهازي يمين الولاء لإدموند ، وتبعه في الزحف لإنقاذ لندن .

وطرد إدموند الدانمركيين الى سفنهم في نهر الثيمز ، وبعد فترة قصيرة التقى كانيوت في معركة اوتفورد ، في مقاطعة كنت . وابهجه النجاح بالحيوية ، فاستطاع بهيبته وتعاقب انتصاراته أن يعبّىء قوات أكبر ، فهزم الدانمركيين أيضًا في اوتفورد . ولو انه طارد الغزاة المنسحبين وحوّل الانكسار الى هزيمة منكرة ، لكان ذلك نصراً دائمًا للانكليز .غير أن إدموند لم يتأثر بقضية خيانة ايدريك له في ما مضى ، وتآمره ، حتى ، على حياته ، فتقبّل نصيحة صهره هذا ، وترك الدانمركيين ينسحبون بكل

نظام . ومهما تكن دوافع ايدريك ، ويمكننا التأكد من أنها كانت موضوع شك ، فإن اللوم يقع على إدموند للمجرى الذي اتخذته الاحداث .

وكانت النتيجة أن عاد الدانمركيون إلى الاشتراك في معركة جديدة . فعبّأ إدموند جيشًا آخر ، قيل إنه تألّف من أفضل عناصر الشعب الانكليزي . وطالما استمرت سلسلة انتصاراته متلاحقة وغير متقطعة ، لم يكن يجد أي صعوبة في مواصلته محاربة الغزاة للتخلّص منهم . وكان ذلك مثالاً على القول القديم السائر . «ليس ثمة ما ينجح مثل النجاح !»

وجرت آخر معركة كبيرة في آسندون (آشنغندون) ، في ايسيكس . وفي «التاريخ الانكلو ـ سكسوني» ، يوضح الموجز الذي يشير الى آسندون نفسه : « . . . وجرت معركة شرسة . ثم فَعل الإيرل ايدريك ، كما كان قد فعل غالبًا من قبل ؛ وكان رجال هيرفورد وشرويشير ، أول من أعطوا المثال في الهرب ، وهكذا خان سيده الملكي وكل شعب انكلترا . وبين الذين هلكوا . . . كل زهرة الشعب الانكليزي .»

وبفضل خداع ايدريك احتل كانيوت انكلترا بأسرها . فانسحب إدموند غربًا لتعبئة جيش آخر ، غير أن النبلاء من أتباعه ، والملك كانيوت نفسه رفضوا مواصلة الحرب . وبدلاً من ذلك اقتُرح ان يلتقي إدموند وكانيوت في مؤتمر لتسوية خلافاتهما . وجرى اللقاء في جزيرة اولني ، في نهر سيفيرن ، بالقرب من غلوستر ، وانتهى بطريقة ودية . واتفق الاثنان على عقد اخوّة بينهما ، وعلى اقتسام انكلترا في ما بينهما ، فيحصل إدموند على ويسيكس ،ويحصل كانيوت على مرشيا والشمال .وعلى الرغم من أنه ليس هناك اي سجّل معاصر لبنود اخرى في الاتفاقية ، فلعلهما قرّرا أن يصبح من يبقى منهما حيًا يرزق ملكًا على انكلترا بأسرها .

وعاد إدموند الى لندن ، وتوفي فجأة في ٣٠ تشرين الثاني ١٠١٦ ، الموافق عيد القديس آندرو . والغاية من هذا الفصل هي اكتشاف كيف مات حقيقة ، ومعرفة اي تبرير هناك للنظرية القائلة بأنه اغتيل ، اذا كان ثمة من تبرير . حتى ساعة وفاته ، لا تدع رواية تاريخ حياته وأعماله اي مجال للشك الجدّي . إنها قصة قويمة ، واضحة ، وصحيحة ، وليس فيها اي طابع للاسطورة أو الابتداع . ووفاته هي التي أثارت الكثير

من الجدل والغموض في اوساط الاجيال اللاحقة . ويبدو أنه بسبب موته شابًا ،ولأن سجّل صهره ايدريك ستريونا يحمل جرائم اغتيال سياسي ، فلسنا ملزمين مطلقًا ان نعتقد أن إدموند لم يمت موتًا طبيعيًا .

إن سبب اختيار هذا الفصل كفصل من فصول الأسرار التاريخية التي ينطوي عليها هذا الكتاب ، هو أن نُظهر كيف ان المؤرخين في العصور اللاحقة غالبًا ما اعتادوا اختراع نهاية غامضة لامرئ لم يفترض معاصروه أنه مات موتًا طبيعيًا . فاذا كان شخصًا شهيرًا ومهمًا قد توفي بهدوء وسلام ، وإذا كان هناك أصدقاء ، او أنسباء ، او اعداء ممن لديهم الدافع والفرصة لاغتياله ، فان هناك دومًا عددًا كبيرًا من المؤرخين ومسجلي الاخبار والاحداث مستعدون للقيام بخطوة ابتداع قصةبشعة ، بغضّ النظر عما إذا كان لمثل هذا التأكيد تبرير أم لا . وقد حدث ذلك مثلاً ، في قضية وفاة كل من آرثر البريتاني ، ورتشارد الثاني . وفي ما يتعلق بإدموند فإن ايدريك وكانيوت ، كان لديهما الدافع والفرصة معًا . فإيدريك كان يكره إدموند . وكان سابقًا ومتشبعًا بالاغتيال السياسي ، في حين أنه يصبح بوسع كانيوت أن يتسلّم مقدرات انكلترا بأسرها فيما لو أزاح إدموند . وليس ثمة أي اتهامات ايجابية ضد كانيوت في التاريخ الانكليزي ، ولكن بعض القصص الدانمركية القديمة المعروفة بالساغة تزعم أن لملكهم شخصيًا مسؤولية في تدبير أمر موت إدموند . ويبدو أن ايدريك هو الشخص الذي توجَّه اليه غالبًا تهمة الاغتيال اكثر من سواه . وعندما ننعم النظر في الروايات العامة عن حياته العملية وسلوكه الشخصي ، يتضح لنا على الأقل لماذا اعتقد المؤرخون انه مذنب ، علمًا بأن ذلك لا يعذرهم لكونهم اثبتوا ذلك كتابة ما دام ليس ثمة أي برهان بين أيديهم .

يذكر «التاريخ الانكلو ـ سكسوني» ايدريك للمرة الاولى السنة ١٠٠٧ ، ثم السنة ١٠٠٩ . إنما لا يخبرنا تمامًا كم يستحق التوبيخ والشجب سلوك ايدريك ، ولكنه يتضمن عبارة ينبغي أن تعني ان كل من يطالع «التاريخ» هذا سيعلم ما المقصود . فالدانمركيون كانوا يغيرون على الساحل الجنوبي ، وكان الملك ايثلريد قد جمع جيشًا لصدّهم «ثم في احدى المناسبات ، طوّقهم الملك بكل القوات المجنّدة

عندما كانوا يتوجهون الى سفنهم ، وكان كل واحد مستعداً للانقضاض عليهم . ولكن ، كما كان الحال ، فقد منع ذلك نائب الملك ايدريك .»

إن أغرب شيء في حياة ايدريك هو كيفية تمكّنه من التخلص من مثل هذا السجل الحافل بالخيانة والاغتيال ، والبقاء الأثير لدى ايثلريد زمنًا طويلاً . فقد خلف ايلفريك ، وهو خائن شهير آخر ، كنائب للملك في مرشيا السنة ١٠٠٧ ، ويبدو أنه بات هو ايضًا الخائن التالي الرئيسي . وليس تاريخ ايدريك منذ هذا الوقت سوى لائحة بالخيانات والاغتيالات ، ومعظمها يستحيل فهمه . فبعد أن تزوج ابنة الملك ، وبلغ أرفع المناصب في البلاد ، لم يعد بالوسع فهم سبب تحالفه مع أعداء بلاده .

إلا أن القضية تبقى أنه كان كذلك ، والمصادر الاكثر اعتماداً في هذه الحقبة واضحة تمامًا حول هذه النقطة . ويتضمن سجل اغتيالاته موت سيغفرت وموركار ، الايرلين الرئيسيين في القصبات السبع (التاريخ الانكلو- سكسوني» ، ١٠١٥) ، وآغثريد ، ايرل نورثمبريا ، السنة ١٠١٦ («التاريخ» نفسه ، ١٠١٦) ، وإدويغ ، ابن إدموند آيرنسايد . وكانت حياته المزدوجة - آنًا يساند إدموند ، وآونة يحارب كانيوت - تتذبذب جيئة وذهابًا بمثل انتظام الساعة . ولم يكن لدى المؤرخ وليام اوف مامزبري ، في كتابه «جستا ريغوم» اي شيء صالح يقوله في ايدريك مطلقًا ، ولا نجد عنه إلا مثل هذه العبارات «حثالة البشرية» ، «وخزي الانكليز» ، و«نهم خليع ، ووغد ماكر ، غنيّ ليس بالنبالة ، ولكن باللغة الغرّارة والوقاحة ، ومفرّق ماهر ، قادر على تلفيق أي شيء .»

ويسجّل فلورنس ووستر أنه كان رجلاً من أصل وضيع ، اكتسب لسانه غنىً ، رجلاً تفوّق على كل رجال عصره بالحسد ، والخيانة ، والقسوة . كان ، بالطبع عبقرية إدموند الشريرة ، ويبدو أنه كان ، كذلك ، العبقرية الشريرة لدى ايثلريد ، خلال السنوات الاخيرة لحكمه . غير أن المظهر الاكثر غرابة في حياة هذا الرجل هو أنه ليس ثمة أي دليل على أنه كان له أدنى علاقة بموت إدموند .

من هنا يسهل معرفة لماذا زعم المؤرخون الخياليون والرومنطيقيون أن إدموند قُتل ، لأن لديهم في إيدريك شخصية تاريخية حقيقية يمكن أن تكون أداة رائعة

للجريمة . ولكن ذلك ليس تاريخًا دقيقًا .

إن اكثر الروايات تشويقًا حول اغتيال إدموند المزعوم ، يمكن أن نقرأها في كتاب هنري اوف هنتنغدون «تاريخ الانكليز» الموضوع بعد وفاة الملك هنري الاول السنة ١١٣٥ . وقد جاء فيه : «وقد اغتيل الملك إدموند غدراً بعد ذلك ببضعة أيام . وحدث ذلك على النحو التالي : «ذات ليلة ، بعد أن أتيحت لهذا الملك العظيم والقوي الفرصة للجوء الى منزله لتلبية نداءات الطبيعة ، اختبأ ابن نائب الملك ايدريك ، بحيلة من أبيه ، في الحفرة ، وطعن الملك مرتين من الخلف بخنجر حادّ ، وترك أداة الجريمة مثبتة في احشائه ، وفرّ هاربًا . عندها مثل إيدريك امام كانيوت ، وحيّاه ، قائلاً : أبشر ، فأنت وحدك ملك انكلترا . وبعد أن اوضح ماذا حدث ، أجاب الملك : لقاء هذا العمل ، سأرفّعك قدر استحقاقك ، الى أعلى من كل نبلاء انكلترا . ثم أمر بأن يُقطع رأس ايدريك ، ويُرفع فوق عمود في أعلى الشرفة المفرَّجة من برج لندن . وهكذا هلك الملك إدموند آيرنسايد .» ويروي وليام اوف مامزبري الشيء نفسه ، ولكنه يضيف ان ذلك ليس إلا شائعة . ولعله شخصيًا لم يصدّق القصة .

ويكرر مؤرخون آخرون رواية الطريقة التي قُتل فيها إدموند ولكن بأدوات اخرى . مثال ذلك ان المؤرخ الالماني آدم البريميني ، يزعم أن إدموند مات مسمومًا . ويجرّ تعدّد الروايات حول الاغتيال المزعوم الى استنتاج واحد هو : جهل الحقيقة . ويبدو أن عدم ذكر «التاريخ الانكلو ـ سكسوني» اي شيء عن طريقة الموت ، مكتفيًا بالقول إن إدموند توفي ، قد فات كتّاب الحكايات الرومنطيقيين . وفضلاً عن ذلك ، فإن واضع «التاريخ» كان لديه من المعلومات أكثر مما لدى الذين أتوا بعده .

إن العبارة الوحيدة الصحيحة في رواية هنري اوف هنتنغدون هي أن ايدريك قُتل على يد كانيوت ، ولكن ذلك لم يكن عقابًا على اي تهمة قتل . فبعد أن ظهر على حقيقته كخائن بالفطرة ، وبعد أن أعطى امثلة عدة على ذلك في فترة زمنية قصيرة ، كان يمكن إيدريك أن يشكّل خطراً على كانيوت ، كما سبق أن شكّل خطراً على ايثلريد أو إدموند . ولذا كان إعدامه ـ وإن لم يكن عقابًا على جريمة محددة ، ومن هنا ليس منصفًا تمامًا ـ محتومًا مع ذلك ، ولا يسعنا أن ندين كانيوت حقًا .

إذا نحن رفضنا فكرة الاقتراح بأن إدموند اغتيل ، وسلامة الادراك تشير أن علينا ان نفعل ذلك ، فإن الموت الطبيعي يبقى البديل الوحيد ، وليس ثمة اي دليل معاصر يخالف هذا الرأي . كان يمكن ان يقضي نتيجة مرضه ، او بسبب الارهاق الذي اصابته به مشاق حملاته العسكرية المضنية ضد كانيوت . فالملك ألفريد العظيم وذريته كانوا جميعًا معروفين بضعف بنيتهم ، ولعلّ الحل الاكثر احتمالاً أن إدموند قضى بقليل من الاثنين معًا : المرض والارهاق .

كان البروفسور إدوارد فريمان ، صاحب العمل الضخم الذي يقع في اربعة مجلدات بعنوان «تاريخ الفتح النورماندي» ربما ، أعظم مؤرخي عصره . وكتابه الذي يُعتبر اكثر الدراسات الموثوق بها في كل الأزمنة ، يظهر ذكاء وموضوعية اكثر من ايّ من كتب معاصريه مجموعة ، وليس هناك سبب للشك في اختصاره السر الغامض ، حيث يقول : «إن جهود إدموند الشخصية ينبغي أن تكون في الحقيقة أكبر من جهود أي رجل آخر في الجيشين . فإلى جانب السير والحرب ، كان هناك الذهاب والإياب إثر كل معركة ، لجمع قوات جديدة . ولا بدّ أن يكون هذا العمل قد ضغط على إدموند بقسوة اكثر مما ضغط على سواه ، واكثر مما ضغط على كانيوت الذي كان جيشه دائمًا جاهزاً وفي متناوله . إذًا ، فمن الممكن جداً أن يكون موت إدموند طبيعيًا ، ومثل هذا الاعتقاد لا يكذّبه مطلقًا أفضل مراجعنا .»

يبدو لنا أنه لو قضى إدموند في ظروف يمكن أن توصف ، بطريقة ما ، بأنها غامضة وسرية ، لكانت نشأت اسطورة ما خلال جيل من الزمن . وهذا لم يحدث ، كما نعلم جيداً ، ومن هنا كان علينا تصديق «التاريخ الانكلو ـ سكسوني» عندما يذكر :«ثم ، يوم عيد القديس آندرو ، توفي الملك إدموند ، وهو يرقد مع جدّه في غلاستونبري .»

ماكبث الحقيقي، أي نوع من الرجال كان؟

جعل شكسبير اسم ماكبث شهيراً في كل بلد من بلدان العالم . وروايته هي احدى أكثر الرويات مأساوية في الأدب . ولكن موضوع الرواية اسطوري كليًا ، باستثناء الشخصية الرئيسية .

قليلة هي المعلومات التاريخية حول ملك اسكتلندا الذي حكم طوال سبع عشرة سنة ، وكان واحداً من اعظم الملوك في التاريخ الاسكتلندي ، لأن الاعتقاد السائد ، حتى اليوم ، أن ماكبث كان صورة طبق الأصل عما صوّره شكسبير ، ولم يفعل التاريخ شيئًا لكي ينبذ هذه الخرافة الواضحة : فلقد وسم بأنه نذلٌ خسيسٌ ، اقترف كل جريمة تحمل اسمًا . ويزعمون أنه كَدَّس في غضون سنوات قليلة من الاعمال السيئة وجرائم القتل ما يكفي سلالة كاملة من الملوك . وبسبب ضآلة المعلومات عن حياته العملية طُعن ماكبث على اساس المبدأ القائل انه يُستحسن شتمه بدلاً من تجاهله .

اختار شكسبير موضوعه من مجموعة تاريخ اسكتلندي يعرض للاحداث وفقًا لتسلسلها الزمني في تلك الحقبة ، ولكنه اختار وحسب أسوأ أجزاء التاريخ المشكوك فيه . انتزعه من محيطه الحقيقي ، وتجاهل خصاله ومزاياه في القيادة والوطنية ، ونسج حوله شهرة كريهة وبغيضة ، ومع ذلك ، لا يستحقها . غير أن شكسبير لم يكن أول من سوّد صفحة سلوك ماكبث ، ولا يمكن أن يُعتبر مسؤولاً وحده عن اساءات الفهم الكثيرة والفادحة التي عُدَّت تاريخًا في ذلك الزمن ، ذلك بأنه انما نقل عادات معاصريه . وتكمن غلطته في استمرارية هذا الاعتقاد الشعبي . وفي حين يقرأ عشرة اشخاص المؤرخ الانكليزي رفاييل هولنشد او المؤرخ الاسكتلندي دجون

فوردان ، فان عشرة آلاف يقرأون شكسبير ـ ويأخذون بصدق حكمه . «رسم مشاهد تألق وإشراق تهدد بتدمير أُسس التاريخ نفسها ، وتجعل الرواية الخيالية ، المستندة الى شبه التاريخ ، مرغوبًا فيها ، اكثر من الصدق العادي البسيط ، وغير المزوَّق .» ولكن ، لأن شكسبير يُنظر اليه عالميًا على أنه عبقري ، وعمله يعتبر مقدسًا الى أبعد حدّ ، فإن ذلك لا يسمح لنا بأن نتقبل ما نعرف أنه خطأ ، كما أنه لا يُغفر له التعامل مع التاريخ بمثل هذه الحرية ورفع الكلفة معه .

كان ماكبث شخصية في التاريخ الاسكتلندي ، لأنه ظهر في فترة كانت البلاد فيها بحاجة الى رجل يتمتع بالخصال ذاتها التي كان يتمتع بها ،وليس ثمة اي غاية في الشك بأن أعماله كملك ، وكجندي ، وكوطني ، اكسبته امتيازًا واحترامًا في زمنه . وليس ثمة اي دليل معاصر ينفي ذلك ، ولا تظهر اولى الاشارات الى تشويه سمعة سلوكه إلا بعد ذلك ببضعة قرون من وفاته . وحتى في ذلك الوقت اتهم بجرائم اقترفها سواه ، بمن فيهم ابن عمه دنكن .

ليس ثمة ، في الواقع ، سوى دليل صغير معاصر حقًا حول الحقبة بكاملها ، ذلك بأن الاسكندينافيين القدامى الذين غزوا اسكتلندا خلال القرنين العاشر والحادي عشر ، اندفعوا في ثورات تخريبية متعمدة للممتلكات العامة والخاصة دونما اي تمييز ، فأُتلفت نتيجة ذلك الكثير من الوثائق وروايات الشهود العيان . وكاد الملك ادوارد الاول يكمل إتلاف الشهادة التاريخية لتلك الحقبة ، فلم يبقَ لدينا سوى «التاريخ الانكلو ـ سكسوني» لفلورنس ووستر ، الذي كان معاصرًا تقريبًا ، وبعده بثلاثة قرون ، مع سجل أخبار رئيس دير للرهبان يدعى آندرو ونتون . وتعتبر شهادة هذا الأخير ، على الرغم من كونها غير مباشرة ، وغير موثوق بها دائمًا ، قيّمة ، مع ذلك ، لأنه عاش في الاقليم نفسه من اسكتلندا الذي عاش فيه ماكبث ، وجمع مختارات كبيرة من التقاليد ، والنوادر ، والوقائع من أناس عاشت أسرهم هناك طوال اجيال . وتنخّل ونتون ، بقدر الامكان ، التاريخ من اختلاط الاسطورة بالواقع ، وسيشار الى عمله الذي سيعطي بعض الاشارات حول حقيقة سلوك ماكبث .

في السنة ١٨٢٨ ، نُشر في بيترهد كتاب بعنوان «تاريخ ماكبث السرّي» ، زُعم

أنه يستند الى اكتشاف «مخطوطة قديمة جداً» . ولكن قبل ذلك بمائة وعشرين سنة ، كان قد صدر كتاب في لندن بعنوان «تقارير بلاط اسكتلندا» ، الذي تضمّن فصلاً عن «التاريخ السري لماكبث ، ملك اسكتلندا» . وادعى هذا الفصل أيضًا أنه استند الى اكتشاف «مخطوطة قديمة جدًا» . وجعل نشرة بيترهد عرضة للشك الكبير . فهل اتفقت المخطوطتان بطريقة ما؟

الجواب هو أنهما اتفقتا . وكان التعبير العام متشابهًا . وكلا المخطوطتين تشوّه سمعة ماكبث ، وتغدق المديح والاطراء على ماكدَفْ ، وكذلك على شخص آخر يدعى آنغوس ، الذي زُعم انه كان اليد اليمنى لماكبث . وربما كانت هاتان المخطوطتان زائفتين ، فالأولى اخترعها الكاتب اللندني ، والثانية كانت مجرد نسخة عنها . ويبدو ذلك جليًا من نوع الكلمات المستخدمة في الرواية ، وهي كلمات لا تعقل ان تكون مستعملة في القرن الحادي عشر . ولعل أبرز فضح لزيف هاتين المخطوطتين كانت كلمة «كابال» . وهذا الاسم كان أُطلق على الوزارة التي حكمت انكلترا في عهد الملكْ تشارلز الثاني بين السنة ١٦٦٧ و ١٦٧٢ ، وقد كان منشأوها الاحرف الاولى من كنية الرجال الخمسة الذين تألفت منهم الوزارة وهم كليفورد ، وآرلنغتون . وبكنغهام ، وآشلي ، ولودردايل . ولم تكن هذه الكلمة معروفة قبل ذلك التاريخ . وهناك كلمات اخرى تفضح الزيف من مثل «مفارقة» ، و«متملق ذليل» ، و«ملتقى» ، و«صرف من الوظيفة» . ويبدو كما لو كانت هاتان المخطوطتان تستندان إلى قصة شكسبير .

بين السنة ١٥٣٠ و ١٥٣٥ ، جمع وليام ستيوارت تواريخ مختلفة عن اسكتلندا ،ونشرها في مجلد ضخم . وكان شديد التحيّز ضد ماكبث ، ولكنه لم يستطع تجنّب ايراد هذه الأبيات الشعرية من احد التواريخ المبكرة في هذه المجموعة :

«كان الرمح والدرع لكل رجال الكنيسة ،
والتجار جميعًا الذين يمخرون عباب البحر ،
المزارعين الذين يكدّون في الأرض ،
لم يكن ممكنًا العثور على ملك أفضل منه في اي عصر .»

ويُظهر موجز قصير للأحداث التي أدّت الى اعتلاء ماكبث العرش الاسكتلندي ، بوضوح كيف كانت اسكتلندا بحاجة ملحّة لقائد وزعيم ، وكيف ارتفع ماكبث إلى مستوى الأحداث .

في القرن الحادي عشر ، لم تكن اسكتلندا مغيظة ، وحسب ، بقضية الغزو الذي قام به الفايكنغ ، ولكنها كانت مرهقة بالاستياء المدني ومهددة بالتدخل الانكليزي . وكان الملك دنكن وجدّه ، مالكوم الثاني يتبعان سياسة لا يمكن إلاّ أن تؤدي إلى ابتلاع الانكليز اسكتلندا ، في حين كان معظم الاسكتلنديين على جانب كبير من الوطنية ، ويرفضون إضعاف الكبرياء القومي . وكانت وطنية ماكبث ، كما سيمر معنا ، المزيّة الأكثر بعثًا على تحبيبه الى قلوب الاسكتلنديين . وذلك كان السبب الرئيسي لانتخابه ملكًا ، إثر وفاة دنكن .

اعتلى دنكن الذي كان ابن عم ماكبث ، العرش السنة ١٠٣٤ . ولم نعرف عنه إلا الشيء القليل ، باستثناء أنّه ، خلال حكمه ، استمرت الاضطرابات المدنية ، وبدا أنه أعجز من ان يدير شؤون المملكة . ولكي يكتسب بعض المجد ، وربما لتحويل الاهتمام عن القلاقل في الداخل ، قاد السنة ١٠٣٩ ، حملة غزا بها نورثمبريا ، انتهت بالكارثة . فقد جرَّ فقدانه قوة الارادة ، واخفاقه المستمر الى تفكّك القانون والنظام ، فانتشر قطع الطرقات ، واللصوصية ، فضلاً عن الفساد بالجملة في اوساط أتباعه . وهناك سبب وجيه للاعتقاد بأن أغلبية أصحاب لقب ايرل (لقب أدنى من مركيز وأرفع من فيكونت) والزعماء ، بمن فيهم أفراد من أُسرته نفسها ، بدأت تنظر حواليها باحثة عن قائد وزعيم جديد .

عندما أسفرت غزوة نورثمبريا عن الهزيمة الدموية في حصار درهام ، حيث زُعم أن المنتصرين جمعوا غنيمة حربية كريهة من مجموعة من رؤوس الاسكتلنديين المقطوعة ، أيقن دنكن أنه آن الأوان لتسليم قيادة جيشه الى جندي قدير . وكان ماكبث الرجل الوحيد المؤهل لتسلّم هذا المنصب ، فعُيِّن فيه . ويسجَّل لماكبث حقًا أنه استطاع ، في غضون بضعة أشهر ، ان يقمع بنجاح كل الثورات ، بحزم اقترن بالحلم . ويسجّل وليام ستيوارت هذه الأبيات الشعرية أيضًا :

«كان عادلاً تمامًا في تطبيق القوانين ،
فلما تمّ ذلك ، توقّفت كل الحروب ،
وباتت اسكتلندا بأسرها تنعم بالراحة التامة والسلام .»

لم يُعد تصرّف ماكبث الكبرياء الوطني وحسب ، بل إنه ثبّت بذلك سمعته الخاصة كقائد قدير وشعبي .

يبدو أن دنكن كان حاكمًا عاجزًا ، ويذكر ونتون أنه كان فاسدًا أخلاقيًا ، متعطشًا للدم ، وأنانيًا . وليس من المدهش أيضًا أن يتحمل الناس إدارته الضعيفة . وكانت البلاد قد بدأت تتهاوى ، وهي تتطلب زعيمًا قويًا .

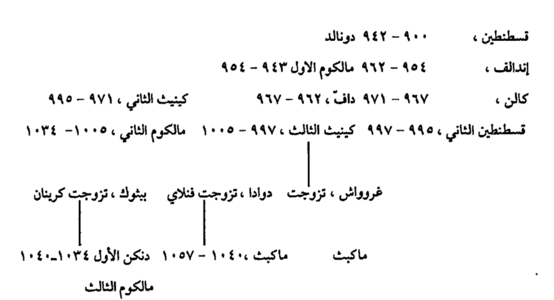
وكان ماكبث هذا الرجل ، إلاّ أنه ، على نقيض الاعتقاد العام السائد ، لم يكن بحاجة الى قتل الملك لكي يتسلّم زمام الامور في المملكة . ذلك بأن حماقة دنكن نفسها هي التي عجلت في نهايته ، وكان لماكبث ، على اي حال ، الحق الواضح في خلافته .

لسنا ندري متى وُلد ماكبث بالضبط ، ولعلّ اول إشارة الى ذلك هي في «التاريخ الانكلو ـ سكسوني» ، وهي السنة ١٠٣١ ، عندما ذُكر أن الملك كانيوت ذهب الى اسكتلندا لتلقّي خضوع الملك مالكوم الثاني ، وملكين آخرين ، هما مالبث وآيهمارك . ومن الطيش اعتبار ان مالبث كان ماكبث ، إلا أن ثمة اساسًا للاعتقاد أن ذلك يمكن أن يكون سوء فهم للإسمين . ذلك بأنه معروف ان ماكبث خلف ، في السنة ١٠٣١ ، أباه فنلاي ، حاكم مقاطعة موراي ، وملك أُولبان . فاذا كان ثمة خطأ في الترجمة في «التاريخ» المذكور ، فانه يكون ماكبث نفسه .

هنا ، يحسن بنا ان نراجع قانون الخلافة لدى ملوك اسكتلندا في القرنين العاشر والحادي عشر ، لأنه يُظهر أن ماكبث كان وارثًا قريبًا لدنكن . فاغتصاب العرش ، إذًا ، يصبح غير ذي موضوع ـ وعلى اي حال فإن انتخابه للتربّع على العرش لا يشكل اغتصابًا بهذا المعنى . فقد كان العرش انتخابيًا ، كما هو خلافة ، وكان يتبعه ما يمكننا تسميته وراثة متناوبة .

وإثبات شجرَة الأسرة يمكن أن يساعد على توضيح الطريقة الغريبة في الخلافة .

ففي بداية القرن العاشر ، كان هناك شقيقان في سلسلة الملوك الاسكتلنديين ، أحدهما كان قسطنطين ، والآخر دونالد .



كانت غروواش حفيدة كينيث الثالث ، ودوادا عمة دنكن .

إذًا ، فماكبث ، كانت تجري في عروقه دماء ملكية ، وكان في سلسلة الخلافة ، ليس وحسب ، نتيجة الزواج ، ولكن بمولده أيضًا . ومجرد أن يكون لدنكن ولدان صغيران لدى وفاته ، لا يُثبت ان ماكبث حرمهما من حقهما في الميراث ، ذلك بأنه انتُخب ملكًا ، وكان الانتخاب بمثل أهمية الوراثة . لذا ، لم يكن لماكبث اي دافع مطلقًا ، لقتل دنكن ، وفي كل حال ، لقي هذا الملك حتفه أثناء المعركة .

ان الأحداث التي أدَّت إلى وفاة دنكن السنة ١٠٤٠ هي الآتية . بعد الإخفاق الذريع في درهام ، عاد ، وأوكل الى ماكبث أمر قمع الثورات . ويبدو أن امرأً هو ايرل ثورفن ، وكان صديقًا لمالكوم الثاني ، قد مُنح اقطاعة كيثناس من قِبل مالكوم . وكان ثورفن نبيلاً قويًا ، ومتحالفًا مع ماكبث لأنهما حاربا جنبًا الى جنب في معارك عدة . وفي نهاية السنة ١٠٣٩ طلب دنكن مبلغًا كبيرًا من المال من ثورفن لقاء اقطاعته التي كانت هدية فرفض هذا الأخير ، بالطبع ، فعبأ دنكن من فوره جيشًا بقصد انتزاع المال

بالقوة . أما دور ماكبث في هذه الحرب الخاصة فليس معروفًا بالضبط ، إلا أنه ربما ساند ثورفن ، ليس لأسباب شخصية فحسب ، بل لما فيه مصلحة العدالة العامة ، كذلك . وجرت معركة في صيف السنة ١٠٤٠ في بوثغوانان ، بالقرب من إلجن ، هُزم فيها دنكن ، وجُرح جرحًا بليغًا . ولا يسعنا معرفة ما إذا كان توفي في إلجن . إلا أن هناك قيدًا في سجل كاتدرائية القديس آندرو ، هذا نصّه : «دنكن قُتل في بوثغوانان .»

وليس ثمة اي دليل قط على قتله ، ولا يستبعد البتة أن يكون قد توفي متأثرًا بجراحه في المعركة . وكان موته أفضل شيء يمكن أن يحدث في ذلك الوقت ، لأنه كان شابًا ، وليس مستبعدًا أن يواصل حكمه المدمّر طوال سنوات عدة .

وحُمل ولداه الصغيران الى نورثمبريا ، حيث عني بهما جدّهما سايوورد ، ايرل نورثمبريا .

عندها انتُخب ماكبث ملكًا ، وطوال السنوات الاربع عشرة التالية ، ساد السلام والازدهار اسكتلندا . ولا نعلم الكثير عن حكم ماكبث ، ولكن يبدو أنه كان حاكمًا منصفًا ،وعادلاً ، «وادارته كانت تنعم بالمهارة الفائقة الأمر الذي أرضى الشعب .»ومجرد كونه حكم اربع عشرة سنة دون أن تعكر الحرب الاهلية السلام والهدوء يجرّ الى الافتراض أنه لم يكن يُعتبر لا طاغية ولا مغتصبًا .

يذكر فلورنس ووستر في تاريخه ان ماكبث كان متحررًا تمامًا من الهموم الوطنية ، فقام بالحج إلى روما ، السنة ١٠٥٠ ، حيث وزّع النقود الفضية على الفقراء والمعوزين .

والمعروف عنه أنه قام بشن حملة شديدة على اللصوص ، وقطّاع الطرق ، والنهّابين ، ولم تلبث أن حُصرت نشاطاتهم في غزوات متفرقة ونادرة ، وعادة غير فعّالة ، في انحاء مختلفة ومتباعدة من الريف . وكحاكم ، وزّع العدل بالقسطاس على الكبير والصغير ، ولعلّ ذلك كان شائبة في عظمته . وكتب ونتون شعرًا قال فيه :

«وسبعة عشر شتاءً كاملاً حكم ،
كملك كان إذ ذاك في اسكتلندا .

كل عهده كان خيرات كبيرة ،
زخرت بها الأرض والبحر .
كان في العدالة قانونيًا مستقيمًا ،
ومع ذلك كانت قوانينه مرعبة .»

اذا كان هذا الشعر يمثّل سلوك ماكبث ، فمن المنطقي ، إذًا ، أنه إنما شجّع الزراعة والتجارة البحرية . ومعروف أن اسكتلندا ازدهرت اقتصاديًا خلال هذه السنوات السبع عشرة ، وليس ثمة اي سبب لننكر على ماكبث هذا الفضل . فلو كان طاغية ، يملأ الجشع نفسه ، كما الخداع والجريمة ، لما كانت حالة البلاد الاقتصادية أفضل كثيرًا من الافلاس . حتى اعداؤه اعترفوا بأن اسكتلندا ازدهرت في عهده ، ووصفوا الثروة التي جمعتها البلاد .

وكان سخيًا على الكنيسة ، وقد وزّع أراضي كيركنيس على كهنة لوكليفن ، وفي ما بعد منحهم المزيد من الأراضي في بولفاين .

إذا كان اختبار الحكم المتسامح ، والقوي يكمن في أنه لم تجرِ فيه ثورات خطيرة ، وفي أن الشعب يساند الملك عندما تتعرّض البلاد لغزو جيش اجنبي ، فإن هدوء حكم الملك ماكبث ، فضلاً عن الدعم القوي الذي مُنحه لما غزا سايوورد اسكتلندا السنة ١٠٥٤ ، يثبتان ان ماكبث كان ملكًا شديد الشعبية وناجحًا . ففي السنة ١٠٥٤ وُضع التضامن في مملكته على المحك عندما زحف سايوورد الى اسكتلندا . ليست أسباب الغزو واضحة . ربما كانت بسبب رفض ماكبث إظهار الولاء لوليام المعترف ، هذا الولاء الذي سبق وقدّمه كل من دنكن ومالكوم الى كانيوت . وربما كانت غزوة من اجل اعادة مالكوم ، إبن دنكن ، الى العرش . حتى أنه قيل إن ماكبث استقبل وآوى منفيين من بلاط إدوارد ، وكلّف سايوورد معاقبة الملك الاسكتلندي لهذا العمل الشرّير . كل ما نعمله ان سايوورد تصرّف حسب أوامر إدوارد ، وأنه حمل معه بعض الجنود والحرس الملكيين .

شُنّت الغزوة برًا وبحرًا ، وجرت معركة كبيرة في ٢٧ تموز في دنسينين هيل ، بالقرب من بيرث . وهُزم ماكبث ، ولكن بلغ من دعم شعبه له في حربه أن جيش

سايوورد شُلَّ تمامًا ، واضطر الى الانسحاب دون تحقيق أي غاية حاسمة . وفقد سايوورد ابنه البكر في تلك العملية الحربية . وانسحب ماكبث شمالاً ،وحكم مدة ثلاث سنوات اخرى .

في السنة ١٠٥٧ ، كان مالكوم المعروف بلقب كانمور (أي الغُرور) ، قد بلغ سنًا تسمح له بأن يحارب شخصيًا ، فحاول مجددًا تأكيد حقه في العرش . وتقابل مع ماكبث في معركة لمفانان ، في آبردين . فقُتل الملك العظيم ، ووقعت المملكة بين يديّ المنتصر مالكوم . ولا يمكننا الشك في أن ماكبث ظل مقدامًا وباسلاً حتى النهاية . وورث مالكوم مملكة مزدهرة ومنظمة ، فبدأ بحكم شعب استعاد مجددًا كبرياءه الوطني .

ان الاسطورة التي خلدها شكسبير قد «أنزلت ظلمًا لا يمكن اصلاحه بذكرى ملك عظيم .» ومردّ ذلك ليس ، وحسب ، الى حقد شخصي ، ولكن الى الكره الحزبي ، ذلك بأنه كان في مصلحة المؤرخين اللاحقين ان يقدّموا سلسلة من الملوك تامة . ومع أن ماكبث كان في الواقع ، في سلسلة الخلافة ، فهو لم يكن الحلقة التي أرادها هؤلاء المؤرخون . لأنه لا يسعهم أن يغفروا لماكبث انه انتُخب ملكًا ، كأفضل امرئ مناسب لهذا العمل ، بدلاً من مجرد صبي أُفسد بتأثير من انكلترا ، ومن ذرية أب عاجز ، وفاسد . فاذا بهم يبتدعون قضية اغتصاب للسلطة لم تحدث قط في الحقيقة . وقد رسموا صورة زائفة لحياته العملية ، مختلفة جدًا عن الواقع ، وجمّلوها بالشعر ، والرومنسية ، والخرافة ، وهي مادة غالبًا ما لجأ اليها مؤرخو الاحداث الاخبارية ، الذين يحملون فأسًا يشحذونها ، والذين يفضّلون التحيز على المبدأ . وهكذا بات اسم ماكبث ، تاريخيًا ، مرادفًا للعنف ، والقسوة ، والغش ، والجريمة .

يمكن أن يكون هناك أساطير قليلة بعيدة جدًا عن الحقيقة . ولعل مأساة حياته الكبرى هي أن الخرافات ما تزال تُصدَّق ، إما لأن الوقائع الحقيقية ليست معروفة وشائعة ، وإما لأن الناس يفضّلون مسرح شكسبير على مسرح الحياة الحقيقية . في أي حال ، تبقى الاسطورة برمّتها تحريفًا فظيعًا للتاريخ .

ان الوقائع ، كما نعرفها ، تبرّر تمامًا الحكم الذي اطلقته السيدة كارمايكل

ستوبس ، صاحبة كتاب «ماكبث الاسكتلندي والانكليزي» : «إنه شهير كملك صالح ، مكرَّم من الكنيسة ، ومحبوب من شعبه ، مرهوب الجانب من أعداء بلاده !»

هل قُتل الأمير آرثر، دوق بريتانيا؟

اذا مات أمير شاب في ظروف غامضة ، وغالبًا ما يتسبّب هذا الغموض عن عجز أو عدم رغبة في التحقيق بالوقائع والتدقيق فيها ، فان المؤرخين يبحثون عن شخص رهيب يمكن ان يكون قضى عليه ، اولاً بين أنسبائه ، ثم بين حرسه . وعندما يخفق ذلك ، يخترعون عدواً ، واذا لم يكن ثمة أي دافع او مناسبة ، فإنهم يخترعون هذين الدافع والمناسبة ، أيضًا . وتكون النتيجة عادة اسطورة رائعة ، وأساسًا لرواية أو قصة فيلم جيدة . ولكنها ، ايضًا ، هراء تاريخي .

عندما أُثبت أن ابنَي الملك ادوارد الرابع (إدوارد الخامس ورتشارد يورك قد صُرعا في سجنهما ، في برج لندن في ما بعد) ، وخلفه بحق رتشارد الثالث على العرش ، السنة ١٤٨٣ ، تجاهل المؤرخون التيودريون دليل اللاشرعية ، ولفّقوا بعض التفاصيل عن الجريمة المزعومة التي ارتُكبت في برج لندن ، وألقوا اللوم والتبعة على رتشارد . ومعالجة موت آرثر ، دوق بريتانيا ، وابن دجيفري بلانتدجينيت (الأخ الأكبر لدجون) كانت شبيهة بها . ولكننا لا ندري أن رتشارد او دجون قضيا على ابنَي اخيهما . أما القضية ضد الملك دجون فنفيها أصعب ، ذلك بأن آرثر توفي في القسم الاول من حكمه ، في حين ان الاميرين في البرج كانا ما يزالان حيّين بعد معركة بوزويرث (حيث قُتل رتشارد غيلة) . وإن المرء ليحسب أنه كان هناك ما فيه الكفاية من الاغتيالات السياسية والدينية في كل جيل ، لارضاء كل روائي رومنطيقي ، أو مؤرخ خيالي ، دونما حاجة الى إضافة جرائم قتل منافية للطبيعة والعقل وغير ضرورية في الأسر المالكة .

أبصر آرثر النور عقب وفاة والده (في احدى المبارزات) ، في ٢٩ آذار ١١٨٧ .

وكانت امه كونستانس ، ابنة كونان ، كونت بريتانيا ، ووارثته . وتوفي هنري الثاني السنة ١١٨٩ ، وبات آرثر ، مذذاك ، حجر شطرنج مهمًا في اللعبة السياسية . وخلف رتشارد الاول هنري هذا ، ولم يكن له اولاد . وكان توفي اخوه الأصغر دجيفري ، وكان آرثر وارثه ، وكان دجون الأخ الأصغر . فاذا كنا نسلّم بمبدأ الخلافة الوراثية الدقيق ، إذًا ، علينا الإقرار بأن آرثر هو وارث رتشارد ما دام هذا الأخير ظل بلا اولاد . إلا أن تدقيقًا في العادات والاعراف المعاصرة ستُظهر لنا أنه لم يكن ثمة اي نظام من هذا النوع ساري المفعول .

وعندما توفي رتشارد الأول السنة ١١٩٩ نتيجة الغنغرينا التي أُصيب بها بسبب التهاب جرح ، خلفه دجون كملك على انكلترا دون اي قلق مادي . وسنبيّن أن البارونات كانوا يفضلون دجون ، ولم يفكروا حتى في آرثر كمنافس محتمل . واعترفت النورماندي كذلك بدجون ، ذلك بأن البارونات النورمانديين اعتبروه واحدًا منهم ، في حين كان آرثر أجنبيًا . ولكن نبلاء آنجو ، ومين ، وتورين في فرنسا ، اعترفوا بآرثر وارثاً ، وأعلنوا تأييدهم له .

وأرسلت والدة آرثر ابنها هذا لكي يحميه الملك فيليب الثاني الفرنسي ، الذي منحه لقب فارس ، ثم استولى على عدد من القلاع بحجة الاحتفاظ بها لهذا الفتى . وقلده رتبة دوق بريتانيا ، ومنحه بقية الأراضي الخاضعة لسيطرة رتشارد . وبعد بضعة أشهر بايع آرثر عمه دجون بريتانيا وممتلكات اخرى ، ولكنه بقي في رعاية الملك فيليب . وبعد سنة ، ثار بارونات بواتو ، كذلك ، على دجون ، وسارع فيليب الى وضع آرثر على رأسهم . وهبط دجون فرنسا ، طالبًا مزيدًا من مبايعة ابن أخيه له ، ولكن آرثر ردّ بمحاصرة قلعة ميرابو حيث كانت تقيم جدّته – ام دجون ، اليانور داكيتين . وكانت اليانور شغوفًا بدجون ، وقد دعمته وأيّدته في كل أزمة وثورة ، في حياته ، حتى وفاتها السنة ١٢٠٤ . وكانت فعّالة بصورة خاصة ، في تشجيع دجون في نزاعاته مع الملك هنري الثاني . وكان يمكن أن تسقط قلعة ميرابو ، لو لم يفاجئ دجون القوات المهاجمة ، ويأسر آرثر الذي كان وُضع في رعاية وليام دو براوز ، في فاليز ، ويُقال إنه عومل معاملة لطيفة . وفي السنة ١٢٠٣ ، سلّم وليام هذا آرثر الى

دجون الذي أرسله إلى روان . وهناك توفي في وقت ما في مطلع شهر نيسان . ولما لم تُعرف طبيعة وفاته بالضبط ، فقد رُجّح (أ) أنه قُتل و (ب) أن دجون هو المذنب ، سواء أأقدم على هذا العمل شخصيًا وبيده ، أم بواسطة شخص آخر مجهول .

أن يكون لفيليب الثاني الدافع والفرصة للتخلُّص من آرثر قضية تجاهلها اولئك الذين يمكن أن يضيفوا هذه الجريمة الى اللائحة الطويلة من الجرائم التي يزعمون ان دجون ارتكبها ، في حين يبدو أنه لم تخطر قط ببالهم إمكانية ان يكون ثمة انتحار او حادث ما . ولم تُدرس بجدية قضية ما اذا كان دجون قد تخلّص بالفعل ، من ابن أخيه ، فلأن ثمة مبررًا ما لذلك . ذلك بأن آرثر ارتكب خيانة بمهاجمته دجون في ميرابو وعقاب الخيانة هو الموت . وليست تلك أول مرة قاد فيها نسيب احد الملوك ثورة ضد ملك . وإذا لم تكن المرة الأولى التي نال فيها نسيب العقاب عندما قُبض عليه .

إذًا ، فهناك ثلاثة حلول بديلة لاختفاء آرثر ، لم تؤخذ في الحسبان . فالاقتراحان الأول والثالث مقبولان ظاهرًا ، ولكن لا يمكن إقامة الدليل عليهما . والاقتراح القائل بأن الانتحار او الحادث العرضي وارد ، يمكن أن يكون الحقيقة .

إذا اهتممنا بالنظرية القائلة إن آرثر قُتل على يد دجون ، فينبغي لنا ايجاد الدافع . فليس ثمة فائدة في التمسك بالاعتقاد بأن الجريمة ارتُكبت في سورة غضب لا سبيل إلى ضبطه أو السيطرة عليه . والدافع الوحيد الذي قُدِّم بجدّية هو أن آرثر كان خصمًا لخلافة رتشارد الاول السنة ١١٩٩ في ممتلكاته في أنجو ، وقد جُزم بأن دجون اغتصب الارث «الشرعي» الذي هو من حق آرثر ،وعمل على قتله لإزالة نقطة بؤرية للثورة . وقد لجأ المؤرخون التيودريون الى مثل هذا السياق من الحجج بالنسبة الى مقتل الاميرين في البرج المزعوم ، وقد ذكرت هذه الجماعة أن ثورة بكنغهام كانت حركة لإزاحة الملك رتشارد الثالث وإعادة الأخ الاكبر بين الاميرين إلى العرش . وكل حركات التمرّد التي قادها آرثر ، او نُظّمت باسمه ، أثارها ، كما سنرى في ما بعد ، فيليب الثاني الفرنسي . إن السبب الذي قُدِّم قبلاً لم يكن له اي وجود ، بالفعل ، وسيُظهر ذلك كشف نقدي لمشاكل خلافة رتشارد الأول .

إن مبدأ البكورة - اي خلافة الابن البكر ، الذي حمل معه حق خلافة الابن البكر لذلك الابن البكر ، بدلاً من الأخ الثاني ، لم تُعتبر قابلة للتطبيق بصورة عامة . فالقانون الاقطاعي اعترف حقًا بمبادىء خلافة كثيرة مختلفة ، أما الشعور العام في انكلترا والنورماندي لدى وفاة رتشارد ، فيمكن الاطلاع عليه من ترجمة وليام ذي مارشال (احد الاوصياء على العرش في انكلترا خلال غياب رتشارد في الحملة الصليبية الثالثة) ، وكان مؤيداً قويًا لدجون .

كان وليام في روان عندما أعلن نبأ موت رتشارد . فخفّ من فوره الى هيوبرت ولتر ، كبير أساقفة كانتربري ، لمناقشة قضية خلافة الملك الراحل . وقد اورد كاتب السيدة دجون ديرلي ، موجزاً لهذه المناقشة ، ننقله في ما يلي :

وليام : «ينبغي لنا اختيار احد ليكون ملكًا عندما نستطيع إلى ذلك سبيلا .»

هيوبرت : «أنا موافق ، واعتبر ان آرثر الشاب ينبغي ان يكون الخلف .»

وليام : «هذا لا يجدي . سيكون الأمر سيئًا بالنسبة الى انكلترا ، لأن آرثر محاط بالخونة وأعداء انكلترا (اي فيليب الثاني الفرنسي) . وهو فوق ذلك ، متغطرس ، وسريع الغضب ، فاذا كنا سنختاره ، فلا يمكننا أن نتأكد من أنه لن يصيب البلاد بأذى كبير ، لأنه لا يهتم بالانكليز ، ما دام لا يعرف عنهم إلا القليل . أنا شخصيًا أُفضل دجون . إنه صاحب حق واضح ، بصفته أقرب إلى الأرض التي كانت لأبيه هنري وأخيه رتشارد ، ولذا ينبغي ان يكون مليكنا .»

هيوبرت : «أهذا حقًا ما تفضله؟»

وليام : «اجل . إنه الصواب . ليس ثمة شك في أن حق الابن في أرض أبيه يتقدّم على حق الحفيد .»

هيوبرت : «لا يمكنني الموافقة على حجتك ، ولكن عليَّ أن أُضيف أنك ستعيش لتندم على قرارك .»

الواقع أنه لم يكن ثمة أي رغبة في انكلترا والنورماندي لتأييد مطالب آرثر ، وفضّل النبلاء في البلدين دجون ، مهما تكن آراؤهم الشخصية في سلوكه . وفضلاً عن ذلك ، عندما توفي رتشارد ، كان آرثر تحت تأثير فيليب الثاني الفرنسي ، وكان

في رعايته منذ زمن طويل . وكل إمكانية للخلافة بدلاً من دجون ، كان يمكن أن تضع سلطان امبراطورية آل بلانتدجينيت عند قدميّ ملك فرنسا . وهذا الخوف حثَّ رتشارد الأول على تبديل رأيه في نهاية حياته ، وإجبار نبلائه على القبول بدجون .

لقد أثار المؤرخون اعتراضًا على اسلوب المناقشة بين وليام ذي مارشال وهيوبرت ولتر ونتيجتها . فقد أكدوا أن الرجلين أبديا تجاهلاً تامًا للناحية القانونية من الخلافة . ولكن يبدو أنهما تجاهلا حقيقة ان العادة التي كانت ما تزال في النورماندي آنذاك تقضي بأن الابن الاصغر كان ينبغي أن يكون الوارث الأقرب الى وراثة والده بدلاً من ابن الأخ البكر الذي يكون قد توفي قبل والده ، في حين أن قانون الخلافة على العرش الانكليزي لم يكن قط محدَّدًا بوضوح . لقد كانت تمرّ عبر حقبة من التغيير البطيء ، وحتى يتم توضيح ذلك ، كان من الطبيعي جدًا التمشّي على العادة القديمة . وكان الملوك الانكلو سكسون يُنتَخبون هكذا دومًا ، ولكن الانتخاب كان ، عادةً ، يقتصر على الاسرة المالكة ، مع أن استثناءَات جرت في انتخاب الملكين كانيوت وهارولد الثاني . وطبّق الملوك النورمانديون عادات الخلافة التي كانت سائدة في دوقيتهم نفسها ، وفي قضية انتخاب هنري الاول ، أُجبر البارونات على الاعتراف بابنه وليام وارثًا ، وبعد وفاة وليام على السفينة البيضاء السنة ١١٢٠ ، اضطروا الى تأييد ماتيلدا ، ابنة هنري . وبتربُّع هنري الثاني على العرش لم يكن قد أُنشئ بعد أي قاعدة واضحة للوراثة . ولم تظهر قط خلال حكمه ، على الرغم من جهوده لتتويج ابنائه أثناء حياته ، وحتى السنة ١١٩٩ لم تكن قط قد أُنشئت .

إذا ما وضعنا جانبًا المسائل القانونية ، فإن هناك أسبابًا وجيهة لماذا اختار البارونات دجون . فقد كان واحدًا منهم ، بينما لم يكن آرثر كذلك . كان في الثانية والثلاثين في حين كان آرثر في الثانية عشرة . وكان صلب العزيمة قوي الارادة ، مهما قيل غير ذلك فيه . وأخيرًا ، كان آرثر تحت تأثير فرنسا ، عدوة انكلترا التقليدية ، ولم يكن قط مرحَّبًا به ، فضلاً عن أنه سيصطحب جماعة من الأجانب ، كما لا يُستبعد .

وينبغي إضافة كلمة هنا حول الاعتقاد السخيف بأن الملك رتشارد الأول أراد ان يخلفه ابن أخيه . وفي طريقه الى الأراضي المقدسة ، في الحملة الصليبية الثالثة ، عقد

رتشارد معاهدة مع تانكريد ، ملك صقلية ، تحدَّث فيها عن آرثر كوارث له . ولكنه لم يصدر بعد ذلك اي اعلان محدد حول هذا الموضوع طوال حياته . وثار دجون على أخيه السنة ١١٩٤ ، ولكنهما تصالحا في غضون سنة . ثم نشب نزاع بسيط مجددًا السنة ١١٩٩ ، سرعان ما سُوِّي على الفور . ويذكر رودجر دو هوفدون ، المؤرخ الإخباري المعاصر ، ان رتشارد استدعى بعض مؤيديه الى سريره وهو مشرف على الموت ، وأعلن أن دجون هو وارثه ، طالبًا اليهم أن يُقسموا يمين الولاء له . وكان في جملة الحاضرين آنذاك وليام دو باروز ، وبيتر دو ستوك ، وجيرارد دو فرنيفال . ومن المهم ان نذكر ، أنه خلال حكم دجون ، مُنح مزيدًا من الاراضي ليضيفها الى ممتلكاته الواسعة أصلاً ، وأصبح دو ستوك قهرمانًا لقصر دجون ، وحصل دو فرنيفال على وارثة غنية زوجة لابنه .

ليس ثمة اي دليل على حدوث اضطرابات خطيرة في انكلترا لدى وفاة رتشارد . والقلاقل الثانوية التي حدثت يمكن ان تكون من عمل المشاغبين المعتادين الذين رأوا في الفترة الفاصلة بين موت رتشارد وخلافة الملك التالي ، فرصة سانحة لخرق القانون . ولما عُرف مرض الملك ، ارسل مارشال من فوره علماً الى دجيفري فتزبيتر كبير القضاة في انكلترا ، لكي يتأهب لخلافة دجون ، وقمع كل أعمال الشغب ، ومحاولة تسوية شكاوى البارونات المستائين . فقد كان هناك دوماً جماعات من الأقطاب غير الراضين في كل حقبة من التاريخ في القرون الوسطى . فأقبل دجون عندئذ الى انكلترا ،وتوِّج في ٢٧ أيار ، على يد كبير الاساقفة ولتر ، وأصبح هكذا ملك انكلترا ، غير المنازع . وبعد حفلة التتويج مباشرة بات فتزبيتر إيرل إيسكس ، ومارشال إيرل بمبروك ،في حين عُيِّن ولتر في منصب قاضي القضاة . وسرعان ما بايع آرثر الملك دجون على بريتانيا ، متخلصاً هكذا من اي سبب لإزاحته عن ارض يبسط دجون عليها سلطانه .

ثم انه لم يكن ثمة اي اغتصاب للعرش ، ولم يكن ثمة اي دافع لإزاحة آرثر بصفته مطالباً خطراً بالعرش . ولنفرض جدلاً أنه كان هناك شيء من ذلك ،فمن المستبعد ان يكون دجون أحمق الى درجة كبيرة لكي يؤجل التخلّص منه الى ما بعد

ثلاث سنوات .

من العقبات التي ينبغي التغلّب عليها في محاولة حل أسرار التاريخ ، طريقة الاستنتاج من الوقائع الغريبة التي يلجأ اليها المؤرخون عندما يجدون نقصاً في المعلومات الدقيقة او روايات الشهود العيان للأحداث ، وهي الاحداث التي يحجبها بالتالي النسيان . وهناك حدود لما يمكن ان يبلغه الاستنتاج ، ومع أنه من المستحب دوماً تقديم النظريات ، او الاقتراحات ، فليس من الصواب ان تعتبر هذه الاقتراحات وقائع راهنة . وفي ما خصّ اختفاء آرثر ، قال احد المؤرخين إن العبارة الاكثر دقة وصحة عما هو معروف ، هي من مؤرخ إخباري انكليزي ، مؤداها أن آرثر نُقل من فاليز الى روان بأمر من الملك دجون وأنه اختفى على حين غرة بعد فترة من الزمن غير قصيرة . وليس ثمة اي خلاف على ذلك ، لأن بالوسع اثباته . ولكن ما لم يثبت هو الطريقة الدقيقة للاختفاء ، ومن المستغرب أن نقرأ أبعد قليلاً في ذلك الكتاب نفسه : «من المؤكد أن آرثر قُتل إما بناء لأمر من دجون ،او بيده شخصياً .» وليس ثمة اي تفاصيل بين ذكر الاختفاء والقناعة بأن دجون قضى على آرثر . ليس هناك اي شائعات ،وخناجر دامية ، ولا حبال ، ولا زجاجات سُمّ ، او حتى لطخات دم ، وليس ثمة اي أحداث يمكن ان تكون جرت بين تاريخ وصول آرثر الى روان واللحظة الاولى التي عُلم فيها انه لم يعد حياً . وإذا لم يكن هناك تفاصيل ، فلا يسع المرء أن يبتدعها ببساطة ، أو ان يقول «من المؤكد» انه قُتل .

ليس هناك ما يمنع المؤرخين من تقديم الاقتراحات ، شرط ألا ينقلها مؤرخون آخرون على علاّتها ، او يترجموها الى وقائع وحقائق . وبالوسع استخلاص بعض الاستدلالات التي يمكن ان تؤدي الى استخلاص استنتاج كهذا ، ولكن الاستدلالات نفسها يمكن كذلك ان تؤدي الى استنتاج آخر تماماً . ولا يستتبع اختفاء آرثر ، وانتشار الشائعات الفظيعة في الخارج في هذا الصدد ، أنه قُتل ، كما لا يستتبع كذلك ، أنه لم يُقتل . وهذا هو التمييز بين الاسطورة والتاريخ .وليس اختفاء آرثر ، بحال من الأحوال ، المثال الوحيد الذي مورست فيه مع التاريخ تجاوزات للحدود الطبيعية سخيفة .

ان الكاتبين اللذين يقدّمان ما يمكن أن يُعتبر رواية تفصيلية لموت آرثر هما «الحوليّ (مؤرخ يسجل الاحداث عاماً فعاماً) مارغام «ووليام اوف آرموريكا . فالأول يخبرنا ان دجون قتل آرثر عقب العشاء بيده شخصياً ، وبعد ان شدَّ صخرة الى جسمه ، قذفه الى نهر السين . وقد التقطه في ما بعد أحد الصيادين بواسطة شبكته ، وتم التعرّف اليه ، ودُفن سراً . أما الرواية الثانية ، فتبتدع قصة مؤادها أن دجون يصطحب آرثر ليلاً في قارب في نهر السين ، ويطعنه بالسيف ، ثم يجدّف مسافة بضعة أميال ، ويلقي بالجثمان في النهر . وليس هناك اي إشارة الى تقديم دجون اي احتجاج على هذا النوع المحقّر من الاغتيال ! ومن الصعب أن نصدّق أن دجون كان بوسعه القيام بذلك بمفرده ، ولعلّ النقطة الوحيدة التي يتفق حولها هذان المؤرخان الإخباريان هي المكان الذي حدثت فيه الواقعة ، اي روان . ورالف دو كوغشال ليس أكيداً ، بل يذكر وحسب أن فيليب ، ملك فرنسا ، كان سمع أن آرثر أُغرق في نهر السين . واكثر غموضاً منه المؤرخ الإخباري الآخر رودجر دو وندوفر . فقد اختفى آرثر على حين غرّة . ويضيف وليام اوف آرموريكا ان دجون كان في روان ، او قريباً منها ، قبل ثلاثة أيام من تاريخ الاغتيال المزعوم . وقد حُدّد هذا التاريخ على عدة صور : ٣ نيسان ، او ٤ منه ، او ٥ منه ، «يوم الاثنين ، الخميس» ، او «قبل عيد الفصح ، وحسب» «السنة ١٢٠٣ . كان دجون هناك ، ولكن ذلك لا يُثبت شيئاً .

هناك أسباب وجيهة للاعتقاد بأن البارونات الإنكليز كانوا يحثون دجون على إسكات إبن أخيه ، لأنه ـ على ما يقولون ـ لن يتوقف البريتانيون عن الثورة ما دام لدى الملك فيليب الفرنسي مثل هذه الاداة لقيادتهم . وهناك طرق مختلفة «غير القتل ، للإسكات ، وشلّ مصدر أذى دائم ، من مثل السجن ، أو التشويه ، أو النفي . ولعلّ هناك بعض الحقيقة في القصة التي مسرحها شكسبير في ما بعد ، ومفادها أن هيوبرت دو برغ ، ياور الملك دجون ، أُوفد الى روان لسمل عينيّ الأمير ، وجعله هكذا غير ذي فائدة بالنسبة الى فيليب ودجون . ولم يكن التشويه ممارسة غير مألوفة في تلك الأيام ، وكان قبل قرن من الزمن يعتبر عقاباً لكثير من الجرائم ، وكان وليام الفاتح يفضّل دوماً التشويه على القتل . ولا ندري ما اذا كان برغ قد نفّذ الأمر ام لا .

وقد أعلن برغ بعد ذلك بقليل ان الفتى آرثر توفي وهو يقوم بسمل عينيه . وقد أثار ذلك سخط سكان بريتانيا ، وأقسموا بألا يدعوا دجون ينعم بالراحة والهدوء في ما تبقّى من حياته . وكان غضبهم من الحدة والشدة بحيث شعر هيوبرت بأنه مجبر على الاعتراف بأنه إنما اخترع القصة ، في النهاية ، وأن آرثر ما زال حياً ، ولم يُمس بأذى . عندها يُعتقد أن دجون تولّى الأمر بنفسه ، وقد قتل إبن أخيه عقب نقله من فاليز إلى روان .

وذكر بعض المؤرخين ان الملك فيليب ، نزولاً عند طلب بارونات بريتانيا ، استدعى الملك دجون للمثول أمام نبلاء البلاد ، والردّ على اسئلة تتعلّق بما حدث لآرثر .

وأُرسل الاستدعاء لكي يقدّم دجون ابن أخيه حياً ، أو لكي يحاكَم بتهمة القتل . ويُعتقد أن هذه المحاكمة تمّت قبيل عيد الفصح ، وهو تاريخ اختفاء آرثر . وتجاهل دجون الاستدعاء ، وحُكم عليه غيابياً بالموت ،وصودرت أراضيه وألقابه في فرنسا . وأعلن فليب السنة ١٢١٦ أن دجون قتل آرثر ، مضيفاً انه سبق أن استدعي للمحاكمة . ولما لم يُذكر قط أن دجون قد كذّب الشائعة ، فقد اعتُبر حتماً أنه مذنب ، وتحوّلت الحكايات التي كانت في البدء ثرثرات ، الى اسطورة هائلة ومخيفة ، دُوِّن معظمها على أنه تاريخ . وسنرى أنه لم تجرِ مثل هذه المحاكمة .

هناك نقاط عدة بالنسبة الى قصة اختفاء آرثر ينبغي تفحّصها ودراستها قبل استخلاص أي استدلال كان . أولاً ، لقد رأينا أن هيوبرت لما أعلن كذباً أن آرثر قضى نتيجة التشويه (رالف دو كوغشال) ثارت ثائرة البريتانيين . وبلغت حدة غضبهم أنه سارع الى سحب أقواله . وبدا عملاً أحمق تماماً ، من جانب دجون ، آنذاك ، بعد أن تبيّن ميلاً من البريتانيين الى الغضب بسبب مصرع الامير الفتى المزعوم ، أن ينفّذ بكل هدوء ما أخفق هيوبرت فيه . ثانياً ، إذا كانت قصة هيوبرت صحيحة ، فإنها تكون قد جرت في نهاية السنة ١٢٠٢ ، ذلك بأن دجون نقل آرثر الى فاليز في كانون الثاني ١٢٠٣ . ويُزعم أن آرثر قُتل في نيسان ١٢٠٣ . فما اسباب ابقاء الفتى مسجوناً طوال ثلاثة أشهر ،ثم التخلُّص منه فجأة في عيد الفصح؟ فالسجن المحكم ، مضاف اليه كره

الموت كانا كفيلين بإسكات آرثر ، وهو المطلب الاساسي للبارونات الانكليز . ولم تكن المذبحة ضرورية ، فضلاً عن كونها عملاً جنونياً . واذا كانت تلك التواريخ صحيحة ، فإن فترة الأشهر الثلاثة عندئذ تفسير لها بصورة مقنعة اكثر من ذي قبل . ولكن اذا كانت خاطئة ، فما مبلغ صحة التفاصيل الاخرى التي قدّمت حول المصرع من المؤرخين أنفسهم الذين شوَّشوا عامل الزمن؟ وثالثاً ، يُعتقد أن محاكمة دجون غيابياً المزعومة ، تمّت بُعيد عيد الفصح . غير أن رالف دو كوغشال ودو لايل ، في كتالوغه عن أعمال فيليب الثاني الفرنسي ، يؤكدان ان فيليب كان يجهل ما اذا كان دوق بريتانيا كان حياً او ميتاً ـ وكان ذلك بعد عيد الفصح بسبعة أشهر ، السنة ١٢٠٣ . ويعتقد رالف دو كوغشال ان المدة كانت اكثر من سنة . وهذا ينفي الاقتراح القائل بأنه كان هناك محاكمة مبكرة ، ويفسّر لماذا شنَّ فيليب الحرب على النورماندي في نيسان ١٢٠٣ ، ليس من اجل الثأرلموت آرثر ، بل من اجل التوسع الإقليمي . وينبغي أن نتذكّر ان فرنسا وانكلترا كانتا على عداوة في ما بينهما منذ سنوات عدة . وأخيراً ، كان في مصلحة دجون ـ على افتراض أنه علم ماذا حلَّ بآرثر ـ الابقاء على الوقائع سرية ، والسماح بانتشار الشائعات الفظيعة ، لأن لا البارونات البريتانيون ، ولا الملك فيليب الثاني الفرنسي ، سيشنون الحرب لمجرد الانتقام لمصرع الامير المزعوم ، عندما يكون هذا المصرع ، في الحقيقة ، موضوع ثرثرة !

من الممكن أن يكون فيليب قد نوى اجتياح النورماندي قبل نقل آرثر من فاليز الى روان ، وأنه كان ينتظر وحسب إزاحة آرثر عن المسرح السياسي . فلما اختفى آرثر ، دون ان يترك اي دليل على القضية ، كان من المناسب لفيليب أن تذيع الشائعات حول المصرع . فمثل هذه الشائعات لا تُضعف وحسب وضع دجون كثيراً في فرنسا ، بل إنها تطلق الحرية التامة لفليب في بريتانيا . ومن هنا ، يكون موت آرثر ، إذاً ، العنيف ، في مصلحة كل من فيليب ودجون معاً ، إذا لم يكن في مصلحة فيليب بصورة اكبر . ولكن هذا الخط من الجدل لا يمكن مواصلته أكثر من ذلك ، لأنه ليس ثمة اي دليل او اقتراح في اي من التواريخ او الوثائق المعاصرة ، بالنسبة الى

ضلوع فيليب في قضية اختفاء الامير الدمية السّيىء الطالع من قلعة روان .

وبمعزل عن التفاصيل المثيرة ، ولكن البعيدة الاحتمال ، عن هذا المصرع ، كما قدّمها مؤرخون عديدون ، هناك نظريتان تستحقان الدراسة والتفحُّص . فماثيو باريس ، في كتابه «تاريخ انكلترا» (نُشر بعد نحو خمسين سنة من هذا الحدث) يسجّل أن أصدقاء الملك دجون عرفوا بعض الوقائع ، وكانت روايتان تُتداولان . فقد توفي آرثر إما بالسقوط من قمة قلعة روان ، في محاولة للهرب من السجن ، وغرق في النهر ، وإما بسبب المرض الذي اصابه من فرط الحزن العميق . الرواية الأولى أخذ بها شكسبير ، إن لم يكن بحرفية كلماتها ، فعلى الأقلّ بالتلميح . والرواية الثانية هي سبب ممكن للموت ، ولكنها تبدو بالاحرى مشكوكاً فيها . فالموت حزناً هو النهاية المثلى لحكايات الابطال الاسطوريين . إلاّ أن ما نعلمه عن شخصية آرثر ، يجعل ذلك غير محتمل . ويستحق اقتراح الانتحار الدرس ، لأنه اذا ما كان رمى بنفسه من أعلى القلعة ، فإن ذلك يرتبط بإحكام بقضية العثور على جثمانه في نهر السين ، وقد اشتُبه بالغرق . ولا يغربنّ عن البال أنه خلل التفاصيل المثيرة ، ولكن الخاطئة ، عن المصرع ، فان الاشارة الى العثور على الجثمان في النهر ، تبرز دوماً .

إن نظرية الحادث لهي أفضل من نظرية الانتحار ، ذلك بأنها تبدو متلائمة مع شخصيته . إن شاباً متعجرفاً يُنتظر منه ان يقوم بمحاولة للهرب بدلاً من الاستسلام الى مشاعر الرثاء الذاتي . فقد كان ممكناً ، في اي وقت ، أن يستولى فيليب الثاني على القلعة ، وقد حدث ذلك ، بالفعل ، بعد ذلك بسنة (٢٤ حزيران ١٢٠٤) ، ولذا كان يُستحسن إما التعلّق بالحياة ، او محاولة الهرب ، بدلاً من النحول والهزال .

وهذا ما كتبه هولنشيد ، في كتابه التاريخي الضخم : «والآن ، لدى التحدّث عن نهاية آرثر ، يقدّم الكتّاب تقارير قوية . ولكن ، مع ذلك ، فإن الأمر المؤكد أنه في السنة التالية ، نُقل من فاليز إلى قلعة روان . بعضهم كتب يقول إنه حاول الهرب من السجن فتسلّق جدران القلعة ، وسقط في مياه نهر السين ، وغرق . والبعض الآخر كتب يقول إنه من فرط الحزن والضنى ، هزل ومات من مرض طبيعي . وحامت الشبهات حول الملك دجون ، ولكن ، هل له ضلع في ذلك ، ام لا ، اللّه أعلم ! ومع

ذلك ، لكم عامل إبن أخيه بقسوة ، وقد أطلق سراح العديدين من اولئك اللوردات الذين أسروا معه ، وهم هيو لو بران ، ودجيفري دو لوزينيان ، وغيرهم . . .»

عندما فك دجون الحصار عن قلعة ميرابو ، وفاجأ القوة المهاجمة ، أسر ، مع ابن أخيه ، كلاً من هيو لو بران ، آندرو دو شافيني ، البارون سافيريك دو مانيلون ، ريموند دو توار ، ودجيفري دو لوزينيان ، وجميع هؤلاء الأسرى أطلق الملك دجون سراحهم في ما بعد ، ودخل سافيريك في خدمته ، وظل وفياً له طوال حياته .

من المستحيل اتهام دجون بقتل ابن اخيه ، الامير آرثر ، دوق بريتانيا ، لأنه ليس ثمة أي دليل موثوق به لإثبات مقتله . فاذا ما أخذنا بعين الاعتبار كل الثغرات والمتناقضات في الروايات حول هذا العمل المزعوم ، وعندما نتذكّر أن فيليب الثاني الفرنسي كان كذلك معنيًا ، كذلك ، بتدبير موت آرثر ، عندها لا يعود ثمة اي قضية بحقّ ملك انكلترا . فهل مات آرثر نتيجة حادث ، او نتيجة الانتحار؟ - لن يُعرف ذلك أبداً . ولكن الوقائع يبدو أنها تقترح ان السبب الاول هو الحلّ المعقول القابل للتصديق !

من قتل الأميرين في برج لندن ؟

يقول الكاتب المؤرخ ماركهام في كتابه «الملك رتشارد الثالث : حياته وشخصيته» :

«حكمت سلالة بلانتدجينيت انكلترا أكثر من ثلاثة قرون ، عندما سقط الأخير في هذا السباق الملكي في ساحة المعركة في بوزويرث . وتحت حكم آل آنجو ، انصهر النورمانديون والسكسون معاً . وتعتبر انتصارات آل بلانتدجينيت اكثر تقاليد الشعب الانكليزي مجداً وشهرة . وقد تكللت هامة آخر افراد هذه الاسرة المالكة بهالة من الرومنطيقية ، بالطبع ، ذلك بأنه كان الملك الانكليزي الوحيد منذ الغزو النورماندي الذي سقط وهو يحارب بشهامة وبسالة في سبيل تاجه وبلاده .»

أمضى رتشارد الثالث (١٤٥٢-١٤٨٥) ـ الذي حكم انكلترا من السنة ١٤٨٣ الى ١٤٨٥ ـ السنوات الثلاثين الاولى من حياته متميزاً بالشرف . كان فارساً مغواراً ، وقديراً كقائد عسكري . وفي فرنسا حافظ على شرف بلاده ضد الجماعة الفاسدة التي كانت تحيط بأخيه ادوارد الرابع . وكان إدارياً حازماً في منطقة المستنقعات الشمالية ، وكان اول من ادخل نظام الخدمة البريدية بواسطة الخيول التي كانت تُستبدل في محطات معينة بسواها لأخذ قسط من الراحة . وكان يتمتع بشعبية في البلاد بأسرها حتى الى يوم وفاته ، وكان محبوباً بخاصة في الشمال . ولما بلغت انباء وفاته يورك ، غرق السكان في حزن عميق . وقد دوِّنت هذه العبارة في سجل المدينة : «هذا اليوم كان الملك رتشارد الراحل يحكمنا برحمة . . . قُتل غيلة . . . وبلا شفقة ، لفرط ألم هذه المدينة .»

أحب رتشارد بلاده . كان حازماً في سحق حوادث العصيان المسلحة ، ولكنه

كان متسامحاً مع الثوار الى درجة التعقل ، في حين ان سخاءه على أُسر العصاة المجرّدين من حقوقهم المدنية لامثيل له في التاريخ الانكليزي ، ولا يماثله في السماحة الا يوليوس قيصر .

ويعتبر برلمانه أفضل برلمان عرفته انكلترا منذ عهد الملك إدوارد الثالث . وقضى على الفساد في الدوائر الحكومية ، ورفض المبالغ المالية التي كانت تُقدّم اليه ، وسعى دوماً الى توفير الرفاهية لشعبه . وأبدى اهتماماً خاصاً بالشؤون القانونية ، وغالباً ما كان يحضر جلسات «محكمة النجمة» حيث كان يبدي رأياً في القضايا القانونية . وهذه المحكمة كانت تلتئم وتصدر احكامها دون هيئة محلّفين ، وقد عُرفت بمداولاتها وتحقيقاتها الاحتياطية . وعرفت بهذا الاسم ، ربما ، لأنها كانت تعقد في قاعة في قصر وستمنستر ، كان سقفها مزخرفاً بالنجوم . وقد ألّفها البرلمان سنة ١٦٤١ . وانشأ رتشارد نظام الكفالة للمسجونين ، وأمر بتدوين كل قوانين انكلترا بالانكليزية للمرة الاولى في التاريخ ، وحمى شعبه من مظالم المحاكم الخاصة بالبارونات .

وشجع رتشارد التجارة ، وخصوصاً المصايد حول آيسلندا . وكان يتمتع بشعبية في ايرلندا ، حيث كان حالفه النجاح ، وأبدى الكثير من الحكمة في سياسته الخارجية ، بتوطيده السلام مع اسكتلندا ، وإقامة علاقات ودية مع اسبانيا .

وكان ملكاً ذا ذوق أدبي ، وراعياً للكاتب والطابع الشهير كاكستون الذي قدّم اليه اولى مطبوعاته بالعبارة التالية : «الى سيدي ومليكي المهيب .» وقد أسس «كلية ابتكار (وصنع ومنح) شعارات النبالة وتحقيق الأنساب وتدوينها» ، وشجع إقامة المواكب والمهرجانات جملةً ، وكانت حفلة تتويجه أفضل مثال نابض بالحياة على ذلك .

وكان متديناً ورعاً ، وقد سعى دوماً الى تعزيز الاخلاقيات في ما بين رجال الدين . وتُظهر بياناته ورسائله ـ والاولى منها تتجاوز الألفي رسالة عداً ، أنه كان يرغب في الحصول على مشورات شعبه ، وتوجيهاته كلما أمكن ذلك . وكانت إدارته أكثر الإدارات إنسانية منذ عهد الملك ألفريد الكبير ، ولم يكن يُفسدها تأثير سياسة القوة الايطالية التي كان خلفاؤه يسترشدون بها بشكل واضح . ويقول ماركهام : «إن الصورة الحقيقية لآخر ملوكنا من أسرة بلانتدجينيت هي مرضية عندما يُزال ما تراكم

فوقها من كلام تافه وقذر عبر قرون من الافتراء وتشويه السمعة .»

اتُّهم رتشارد بسلسلة من الجرائم البشعة ، ولعن الخلف اسمه ، وتبارى المؤرخون في ما بينهم في تكديس الخزي والعار على ذكراه . وينبغي فحص هذه الاتهامات بدقة وعن كثب ، ذلك بأن أهم نقطة ينبغي فهمها ، منذ البدء ، هي أن خليفة هنري السابع لم يكن له ادنى حق شرعي بالتربع على العرش . وكان حتماً أن يسوق هنري تيودر اتهامات فظيعة ضد سلفه ، وكان ضرورياً ألاّ يستطيع احد أن يدحضها . والكتّاب الوحيدون إذاً ، الذين سُمح لهم بكتابة الهراء الذي سُمّي تاريخاً ، كانوا اولئك الذين استخدمهم هنري نفسه ، او كانوا متعاطفين مع قضيته . وقد مضى أكثر من مئة وخمسين سنة قبل أن يُسمع رأي الطرف الآخر .

من هم الثقات الذين يرتكز على شهادتهم جرم رتشارد الثالث؟ إنهم برنارد آندر ، وبوليدور فرجيل ، والكاردينال مورتون ـ وهم جميعاً كانوا في خدمة هنري تيودر . وتقبّل راوس وفيبيان رعاية هنري . وكان «تاريخ رتشارد الثالث» الذي نشره غرافتون السنة ١٥٤٣ – وعُزي الى السر توماس مور – من وضع مورتون على وجه التاكيد ، تقريباً . وقد ذكر السر جورج باك ، اول المدافعين عن رتشارد أن السر توماس هوبي أخبره أنه رأى النسخة الاساسية من الكتاب ، وقد وضعها مورتون باللاتينية . ويبدأ هذا الكتاب بوفاة ادوارد الرابع ، وينتهي فجأة لدى وصول رتشارد الى العرش . ولذا ، لا يمكن أن تكون تفاصيل مصرع الاميرين في برج لندن قد كتبت بيد مورتون ، بل يبدو من الادلة أنها أضيفت بناء على تعليمات هنري الشخصية . وقدأبرز بايكون ذلك ولم يكن صديقاً شخصياً لرتشارد ، وذلك لما وجد إشارات في الكتاب الى أحداث جرت بعد وفاة مورتون السنة ١٥٠٠ . ولكن لما كان هذا التاريخ المزعوم من وضع مور ، فقد اعتُبر صحيحاً ومستقيماً ، في حين أنه ليس الا مجرد دعاوة . وقد شرع هنري في مهمة الطعن والمدح برتشارد في وقت مبكر جداً من حكمه . وكان ذلك ضرورياً ، لأن القبول العام بما نسب الى رتشارد من شرور وأذى سيعزّز وضعه .

كان أكثر المؤرخين المأجورين وأشهرهم رجلاً من ايطاليا ، أصله من بلدة اوربينو ، ويدعى بوليدور فرجيل ـ وهو شخصية تختلف كثيراً وبشكل غريب عن اسم

شخصية سميّه اللاتيني الشهير الشاعر فرجيل . اوفده البابا الكسندر السادس الى انكلترا ، فكلّفه هنري مهمة كتابة تاريخ الاحداث الاخيرة ، ووضع تحت تصرّفه الكثير من الوثائق الرسمية .

وبرهن فرجيل عن أنه اداة ملائمة ، وكوفىء بسخاء . وقد تسلّم ،في جملة الانعامات التي تسلّمها رئاسة شمامسة ولز . وكان رجلاً عالماً ، ولكنه لم يتردد في تشويه الحقائق في سبيل ارضاء سيده . وروايته اغتيال ادوارد لانكستر الصغير ، حسب تعبيره ووصفه ، ايطالية بحتة . فقد يكون خُصَّ باستخدام كل الوثائق والرسائل الرسمية ، ولكنه أتلف معظمها . وقد شاهده كايوس ولا بوبلينيير ، يحرق حمولات شاحنة من الاوراق ، ولكن من حسن الطالع ، أن وثيقة واحدة مهمة بقيت من هذه المحرقة . وهي المسودة الفعلية «تيتولوس ريجيوس» ، وهي ايضاح كامل لحق رتشارد القانوني بالعرش .

عرف دجون راوس ، وهو كاتب آخر متملّق لهنري ، رتشارد شخصياً ، إلا أنه عندما كان يرى مناسباً ، كان يكدس المفاسد والمظالم على ملكه ، وقدَّم في ما بعد كتابه «تاريخ الملوك الانكليز» الى هنري . وكان قد جهّز مخطوطتين تصويريتين ترحيبيتين لنسب ايرلات أسرة وورويك ، في وقت ما خلال حكم رتشارد . في النسخة الأولى ، وصف رتشارد بما يلي : « . . .ملك قدير ، وسيد طيب بصورة خاصة . هو الملك رتشارد الثالث المنتصر . في مملكته كان يُطرى لأنه كان يُعاقب مُخالفي القوانين ، وبخاصة مضطهدي عامة الشعب ، ويعزّز اولئك الذين يتمتعون بالفضيلة ، فضلاً عن أن قيادته الحكيمة اكسبته الشكر العميم وحبّ رعاياه جميعاً ، الفقراء والاغنياء على السواء ، وتمجيد الكثيرين من سكان البلدان الاخرى .» وقد بقيت هذه المخطوطة غير مشوهة في «كلية شعارات النبالة» ، ولكن النسخة الأخرى احتفظ بها راوس . فلما سقط رتشارد في بوزويرث ، حذف هذا المقطع من هذه النسخة ، وانتزعت صورتا الملكين اليوركيين ، وسُلب تاج الملكة آنّ نيفيل . ومعظم شهادة راوس غير جديرة بالاعتماد ، ولكنه غالباً ما يهمل إبراز الحقيقة حول نقاط يرى المؤرخون من معاصريه صعوبة في إخفائها .

وأصدر روبرت فيبيان تاريخاً كانت متعته الرئيسية فيه تزوير التواريخ . وقد استخدم فرجيل عمل هذا النصير التيودري ، ويمكن الحكم على قيمته من مجرد معرفة أن مورتون ساعده في كتابته .

سيظهر معنا ، في ما بعد ، أن كلاً من مورتون ، وفرجيل ، وفابيان ، ووراوس كانوا مضلّلين ومتضاربين ، ولكن التاريخ الذي وضعه راهبان في دير كرويلاند ـ احد المراجع الوحيدة المستقلة للمعلومات عن تلك الأيام ـ يتضمّن قدراً من الدّقة لا توجد لدى سائر الكتّاب بالنسبة الى التواريخ المؤدية الى اعتلاء رتشارد العرش . وقد زوّر مورتون وأدواته هذه التواريخ دون إبطاء . ولكن ، حتى هذا التاريخ ، فيه ثغرات ، ويذكر في احدى الحالات ان رتشارد تُوّج مرة ثانية في يورك . وقد أبطل هذا القول المؤرخ ديفيس ، عقب تنقيبه في سجلات يورك . ويذكر التاريخ هذا أيضاً شائعة راجت اثناء حكم رتشارد ، مفادها ان الاميرين قُتلا . ولكن ، لما كانت هذه الشائعة بدأت بواسطة العميل الاجنبي لورتون ، ويُدعى مانتشيني ، المشكوك كثيراً بصدقه ، فبالوسع تجاهلها . وربما كان مورتون نفسه على مقربة من كاتب التاريخ عندما أُقحمت الشائعة . فاذا كان الأمر كذلك ، فان الشك قد حُلّ . ونعرف ان مورتون كان يقيم بالقرب من إللي وكرويلاند عقب هربه من السجن في قصر دوق بكنغهام في بريكنوك .

كان دير كرويلاند ملجأ ملائماً لمورتون ، والمؤرخ كان كالطين بين يديّ الخزّاف . مثال ذلك ان الراهب أخبر أن إليزابيث ، ابنة الملك إدوارد الرابع ظهرت في البلاط مرتدية ثوباً يشبه ثوب الملكة (آنّ نيفيل) . ولكن ، بدلاً من استخلاص النتيجة الطبيعية ، وهي أنها إنما أقرضت هذا الثوب للمناسبة ، ترانا نتعرض لاشارات مشوّومة تفيد أنها أصبحت منافسة للملكةعلى حب رتشارد . وكان ممكناً أن يجد مورتون مثل هذا الرجل المستعد لتقبّل كل شيء .

تلك هي الشواهد المُساقة ضد رتشارد . علينا أن نختبر حقيقتها . فقد ارادوها حسبما يشتهون ، وعلى طريقتهم الخاصة ، ولم يكن بوسع احد تسفيهها ، لأن عقاب ذلك كان إما السجن او الموت . وهكذا سوّدوا ذكرى الملك رتشارد الثالث الى الأبد .

يكمن الدليل الذي هو في مصلحة رتشارد ، بصورة رئيسية ، في التناقضات ، والثغرات غير المتعمدة في النقل الصحيح للوقائع ، وقمع المفترين من أنصار آل تيودر . ويمكن العثور على بعض الأدلة من وثائق معاهدة قليلة لم تُتلف . وفضح تزوير التواريخ يتم بسهولة بمراجعة مخطوطات هارليان ، وفي المجلد ٤٣٣ منها كل الاوراق الرسمية التي اقترنت بخاتم الملك خلال حكم رتشارد . وقد كوّن هذه المجموعة قاضي القضاة لدى رتشارد ، الدكتور راسل ، فكانت كنزاً حقيقياً من البيّنات التي لا تُدفع . وهناك ايضاً مخطوطات البرلمان المعاصرة ، ومخطوطات باتنت ، «وفيديرا» لرايمر .

إن اول زعم ضد رتشارد هو انه كان بشعاً الى ابعد حدّ ، والسبب في هذه التهمة واضح ـ ذلك بأن المسخ في شكله البشري مفروض أن يرتكب الجرائم المعزوة اليه أكثر من الشخص الطبيعي . ويُطلب إلينا ان نصدق أن رتشارد وُلد بعد أن بقي في رحم أُمه سنتين (على حدّ قول راوس) ، وأنه خرج بقدميه أولاً (مورتون) ، وأن أسنانه كانت مكتملة ، وشعره يصل الى كتفيه ، فضلاً عن كونه أحدب ، وله ذراع مشلولة (راوس) .

الحقيقة أن رتشارد أبصر النور بعد ثلاث سنوات من مولد جورج ، دوق كلارنس ، السنة ١٤٥٢ ، وكان هناك طفل آخر ، توماس ، بين الاثنين . وقد أكد ثلاثة من مشاهير علماء التشريح أن الظواهر الجسدية المذكورة مستحيلة . فضلاً عن أن السر جورج باك يسجّل أنه قابل المؤرخ ستو ، الذي تحدَّث الى شيوخ عرفوا رتشارد ، فأكدوا له أنه كان طبيعياً من الناحية الجسدية . وفي الرسوم الموجودة له ليس ثمة أي علائم للتشويه ، باستثناء ان احدى كتفيه أدنى قليلاً من الاخرى . وفي طبعة مدوّنات يورك ، يُظهر ديفيس أن رجلاً مثل أمام القضاة في يورك السنة ١٤٩١ ، بعد وفاة رتشارد بست سنوات ، لأنه أثار شغباً في المدينة عندما أشار الى رتشارد بقوله «ذلك الرجل المنحني الظهر» . «ولم يتسبّب في التحامل غير المعقول على رتشارد مثل الانطباع عن بشاعته الشخصية .»

ثم إن رتشارد متهم بقتله ابن هنري السادس الوحيد ، إدوارد اوف لانكستر .

في تاريخ فليتوود (مخطوطات هارليان رقم ٥٤٣) أورد الشاهد العيان رواية عن معركة تيوكسبري (٤ أيار ١٣٧١) ، تنتهي بهذه الكلمات : «وقد أُسر إدوارد وهو هارب الى المدينة ، وقُتل في ساحة المعركة .» وقد أرفق ذلك بصورة حصان راكع ، وفارسه يتلقى الضربة المميتة ، وقد نشرت الصورة في مجلة «آركيولوجيا» - ٢١ ، الصورة رقم ٢ . وكل الدلائل المعاصرة تدعم ذلك . ولكن ما هي الروايات التيودرية؟ يقول فيبيان إن إدوارد قُتل على يد خدم إدوارد الرابع . ويضيف فرجيل اللمسة الايطالية بتأكيده وجود كل من كلارنس وغلوستر . ويجعل هولنشيد رتشارد يضرب الضربة الأولى . لكم باستطاعتهم أن يكونوا كاذبين ! ومن المذهل أن يوافق آندر المعاصرين في زمنه ، في حين أن راوس ومورتون يلزمان الصمت . والحقيقة ان صمت مورتون يفجّر الحكاية ، لأنه كان حاضراً في معركة تيوكسبري .

بعض المؤرخين يقولون ان رتشارد قتل هنري السادس .

هذا سخف ! ذلك بأنه ليس ثمة أي دليل على أن هنري السادس مات غيلة . وهناك مدوّنات تفيد أن رتشارد كان في لندن يوماً واحداً وحسب ،في أيار ١٤٧١ ، وأن ذلك اليوم كان الحادي والعشرين منه . وعلى ذلك كان يتحتّم على المؤرخين التيودريين القول ان هنري قُتل في ذلك اليوم . ولكن بالوسع تسفيه ذلك بمراجعة الحسابات الخاصة بإعالة هنري في أيامه الاخيرة في برج لندن . ويمكن الرجوع الى هذه الحسابات في كتاب «فيديرا» لرايمر . وقد عارض فرجيل معاصريه عندما اعترف بأن الوفاة حدثت في نهاية أيار .

ولم يكن هنري عجوزاً ، ذلك بأنه كان في السابعة والاربعين ، ولكنه كان في معظم حياته عليلاً جسدياً وعقلياً ـ ومرضه العقلي كان إرثاً من جده المجنون شارل السادس الفرنسي . ولقد طعنه أحد السفاحين خلال عودته القصيرة إلى العرش السنة ١٤٧٠ . ولم تكن فترة نقاهته ، على ذلك ، دائمة . ووصلت زوجته مرغريت دانجو سجينة الى برج لندن في ٢١ أيار ، في اليوم نفسه الذي زُعم أن رتشارد قتل فيه هنري . وكان زوجها ما يزال حياً يُرزق . أما الحسابات المشار اليها فقد قدّمت لإعالة

هنري طوال مدة أربعة عشر يوماً ـ ابتداءً من ١١ أيار ،وفترة الأسبوعين تجعل وفاة هنري اما في ٢٤ أو ٢٥ أيار ، وقد كان رتشارد في ذلك الوقت في ساندويتش . وقد أرسل كاتب معاصر رسالة الى سكان بروج ذكر فيه ان هنري توفي في ٢٣ أيار . لذا أمكن تبرئة رتشارد من هذه التهمة .

هل أجبر رتشارد إبنة عمه آنّ نيفيل على الاقتران به ضد إرادتها؟

هذا اقتراح وقح ، وخصوصاً لأنه سبق وزُعم ان رتشارد قتل زوجها ، إدوارد اوف لانكستر ، اولاً . وهناك حقيقة بسيطة هي أن إدوارد وآنّ لم يتزوجا قط . فقد كان هذا الاتحاد المرتقب يتوقّف على بعض الشروط ، ولم يلبِّ والدها ووريك الذي قُتل في بارنيت السنة ١٤٧١ ، أياً من هذه الشروط . وكان راهب كرويلاند يشير اليها دوماً بعبارة « الآنسة » او «العذراء» . لقد تربّى رتشارد وآنّ وترعرعا معاً ، وكان اتحادهما طبيعياً . وكانت رفيقته الدائمة في كل أزمة في حياته ، في حين أنه أظهر لطفاً كبيراً تجاه أسرة حميه المجردة من الحقوق ،حتى أنه دبّر أمر وراثة الورثة العقارات والألقاب (مخطوطات البرلمان ،المجلد ٦ ،الصفحة ١٢٤)

الجميع يعرفون الاسطورة القائلة ان جورج ، دوق كلارنس ، أُغرق في برميل كبير من النبيذ الحلو (الممزي) وقد وضعه هناك أخوه رتشارد .

معظم مؤرخي آل تيودر صامتون إزاء هذه النقطة . والذين كان يمكن أن يفيدوا أكثر من سواهم من موت كلارنس هم آل وودفيل ، وليس مستبعداً أن يكون إدوارد الرابع قد استخدمهم في عملية الاغتيال . وليس ثمة اي دليل على أن رتشارد كان في لندن في شباط ١٤٧٨ ، وهو الشهر الذي توفي فيه كلارنس ، لأننا نعلم جميعاً أنّه كان آنذاك في ميدلهام ، في مقاطعة يوركشير في مطلع آذار ، وفضلاً عن ذلك هناك مدوّنات تُظهر أن رتشارد احتجّ على تجريد كلارنس من حقوقه ، والحكم عليه بالموت .

أُتّهم رتشارد باستمرار بأنه اغتصب التاج بتزويره حقاً شرعياً بالعرش .

هذه هي أهم تهمة تُساق ضد رتشارد ، ولكنها كذلك التهمة الاسهل بالنسبة الى

دحضها . فعبارة حق رتشارد الشرعي وضعها وأقرّها الاسياد الروحيون والزمنيون ومجلس العموم او العوامّ بعد مراجعتهم الدليل الذي وضعه وقدّمه اليهم الاسقف الدكتور ستيلنغتون ، بين ٨ حزيران و٢٥ منه . ويُستحسن أن نورد بإيجاز الوقائع المتعلّقة بتربّع رتشارد المفاجئ على العرش بعد أن أعطيت الأوامر بتتويج إدوارد الخامس . فقد توفي فجأة الملك إدوارد الرابع في ٩ نيسان ١٤٨٣ . وكان في الاربعين من عمره ولا أحد يتوقّع موته المبكّر . وكان رتشارد آنذاك على الحدود الاسكتلندية . فذهب من فوره الى يورك ، ودبّر جنّازاً ، وأقسم يمين الولاء للأمير الصغير ، وأعلنه ملكاً باسم إدوارد الخامس . وتاق آل وودفيل الذين رُفعوا من أصلهم المتواضع جداً الى وضع مقام رفيع بفضل ادوارد الرابع الى احتكار كل السلطات في الدولة . وقد سبق أن شاطروا إرث كلارنس المجرّد من حقوقه ، وهم يرون الآن في قصور الملك ادوارد الخامس فرصة لإشباع مطامحهم أكثر فأكثر . وكان إدوارد الخامس في لادلو ، في رعاية عمه ريفرز . وكانت غايته حمله إلى العاصمة ، وتتويجه ، وملء المجلس بالانصار ، وفوق ذلك كله ، إبعاد رتشارد وأصدقائه . وكان ذلك مناقضاً تماماً للشروط التي اوردها إدوارد الرابع في وصيته . ففي تلك الوثيقة ، عُيّن رتشارد وحده حامياً وحارساً للاميرين الصغيرين . فسارع من فوره الى لندن ، بعد إقامة مراسم الدفن في يورك ، برفقة ستمائة رجل في لباس الحداد ، وليس ببزات عسكرية . وكان تصرُّف آل وودفيل مختلفاً جداً . وانطلق ريفرز من لادلو مع ألفي رجل مسلّح من اجل مواكبة إدوارد الى لندن . وأصدر المجلس لدى وصوله امرين باسم ريفرز ، وغراي دونما ان يكون هناك أي ذكر لرتشارد اللورد الحالي المعيَّن ، وهو أمير من أسرة بلانتدجينيت ذات الدم الملكي . إذاً ، ليس ثمة اي شك ، في هذه المرحلة المبكرة ، بوجود مخططات خيانية من جانب حشود ريفرز . بالطبع ، يقول راوس وراهب كرويلاند إنهم كانوا قد وضعوا خططاً لاغتيال رتشارد . وسارع دوق بكنغهام ، ابن عم رتشارد ، لملاقاة الحامي في رحلته السلمية الى لندن ، لكي يحذّره من نيات آل وودفيل . واجتاز رتشارد الريف والتقى ريفرز في ستوني ستراتفورد حيث قبض عليه ، وأرسله الى أحد القصور في يوركشير . وبدّل جنود ريفرز ولاءَهم على الفور

الى الحامي الشرعي ، وتابع الجميع طريقهم الى لندن ، فبلغوها في ٤ أيار ١٤٨٣ . وذهب إدوارد ليقيم في قصر الاسقف في سنت بول ، مع شقيقه رتشارد اوف يورك ، في حين ذهب الحامي لينضمَّ الى أمه سيسيل نيفيل ، في قصر بينارد . فلقد أُعلن ، في الواقع ، حامياً قبل وصوله الى لندن (المخطوطات ، ٤ ,٢١ و ٥ ، ٢ ، ١٤٨٣ .)

وفي ١٣ أيار أصدر دعوة الى البرلمان للالتئام في ٢٥ حزيران . وكانت الأمور حتى ذلك الحين تسير سيراً طبيعياً ، باستثناء ارتداد ريفرز . وكانت كل القضايا المتعلقة بتتويج الملك الصغير قيد التحضير . وفي ٥ حزيران أُصدرت أوامر مفصّلة لكي يجري التتويج يوم ٢٢ حزيران ، وأرسلت دعوات الى اربعين من المرشحين لرتبة فارس ـ وتلك عادة في تقليد الرتب في المناسبات المماثلة . وفضلاً عن ذلك يذكر كومينز ان ملابس التتويج تمّ التوصية عليها ، ويؤكد ذلك كل من المؤرخين رايمر ، ونيكولاس ، وإيليس .

وعلى حين غرّة بدّل حدث ذو أهمية تاريخية الوضع . فقد كشف الدكتور ستيلنغتون ، أسقف باث وولز امام المجلس ، في ٨ حزيران ، الحقيقة التي كُتمت طويلاً ، وهي ان إدوارد الرابع ، قبل زواجه باليزابث وودفيل ، كان عقد على اللايدي إليانور تالبوت ، ابنة الإيرل اوف شروزبري . وقد شهد ستيلنغتون شخصياً على العقد ، وأبرز ، إذ ذاك ، الوثائق التي تدعم أقواله وقد أجبره ادوارد الرابع على عدم كشفه ذلك ، وخصوصاً بعد زواجه السري باليزابث . وعلمت أم إدوارد بالعقد الأول ، وغضبت كثيراً عندما أعلن إدوارد هذا «الأمر الواقع» وانسحبت اللايدي إليانور الى الدير ، وتوفيت السنة ١٤٦٦ . ولعل كلارنس دفع حياته ثمناً لمعرفته هذه الامور . ولم يكن بوسع رتشارد أن يعلم شيئاً من ذلك لأنه كان بعد في الحادية عشرة من سنيّه .

لم يكن ستيلنغتون مجبراً على البوح بالسر في حياة إدوارد ، ولكن لما توفي هذا الأخير فجأة السنة ١٤٨٣ ، كان ينبغي منع إمكانية وصول ابن غير شرعي الى العرش . لذا رأى أن الواجب يقتضيه التقدم وعرض الحقائق .والقول إن رتشارد صُعق لاطلاعه على هذه المعلومات لهو تصريح مكبوح ـ اي أنه تصريح مقصود به تصوير

الفكرة على نحو أضعف وأقل مما تقتضيه الحقيقة ـ إلا أنه كان على مستوى الاحداث ، ودقّق في القضية تدقيقاً شاملاً . ومجرّد اضطراره الى استدعاء الجنود من الشمال عندما كشف ستيلنغتون النبأ ، يحمل على الاقتناع ببراءة رتشارد من اي مخطط لاغتصاب العرش . ذلك بأنه لو كان على علم مسبق بالإعلان لكان جاء بالجنود معه . وحاشيته من الرجال غير المسلحين الذين ذكروا آنفاً تدلّ على أنه فوجىء شخصياً باعلان ستيلنغتون . أما باقي المتآمرين فقد قُبض عليهم متلبسين بالجريمة . وقد حوكم هيستنغز ونفّذ فيه الحكم بعد اسبوع من القبض عليه ، حسبما ورد في رسالة من ستولويرث الى السر وليام ستونور . وحتى هنا تتجلّى سماحة نفس رتشارد عندما نعلم انه أعاد مباشرة إلى أرملة هيستنغز وورثته عقاراتهم وألقابهم ـ وقلما يحدث مثل ذلك في حالة الخيانة .

ودفع ريفرز الغرامة . فقد أيقن أنه كوفىء جيداً على ما بذل من جهد ، وخسر الرهان أخيراً عندما عيّن رتشارد مشرفاً على وصيته ، التي ما تزال موجودة الى اليوم . ثم إن رتشارد ارتكب الخطأ الذي كلّفه العرش وحياته ، فقد رفض معاقبة مورتون . واكتُفي بارسال هذا الأخير الى ممتلكات دوق بكنغهام في بريكنوك .

وعقد البرلمان جلسة في ٢٥ حزيران ، وأعلن أن الأمير الصغير لا يمكنه التربّع على العرش نظراً لإثبات عدم شرعيته ، ولا وورويك ، وارث كلارنس أيضاً ، لأنه مجرّد من الحقوق . ولما كان البرلمان ، وفي الحقيقة البلاد بأسرها ، يخشيان القصور ، استدعي رتشارد لتقبّل العرش بصفته الوارث الحقيقي . وعندها سُجّلت الوقائع المتعلّقة بحقه الشرعي في وثيقة «تيتولوس ريجيوس» التي ما تزال مسودتها الاصلية محفوظة الى يومنا هذا . وقد عيّن رتشارد إذ ذلك وورويك وارثه بعد ابنه نفسه .

وتذكر مدوّنات يورك ان آخر الملوك من آل بلانتدجينيت ، تربّع على العرش في ٢٦ حزيران . وقد ألقى الدكتور شو ، وهو اسقف معروف ،عظة على جماعات المصلّين صباح الاحد في ٢٢ حزيران ، في لندن يوضح فيها حق رتشارد ، والقى بكنغهام خطاباً في غيلدهول (دار النقابات في مدينة لندن) ، في ٢٤ حزيران .

هذه هي الوقائع ، كما تقدّمها الكتابات المعاصرة والدلائل التوثيقية . ولنرَ الآن

كيف شوّه آل تيودر التفاصيل .

عندما تسلّم هنري السابع العرش ، نقض من فوره وثيقة «تيتولوس ريجيوس» ثم أمر بإتلاف كل الوثائق المتعلقة بحق رتشارد بالعرش ، دون أن تُقرأ ، تحت طائلة الغرامة الكبيرة والحبس . ولكن يبدو أن راهب كرويلاند ، استطاع ، على ما يبدو ، أن يفرَّ بها ، ذلك بأنه سجل نصّ «تيتولوس ريجيوس» . فقدّم مورتون وفرجيل رواية مفادها أن الدكتور شو كان قد ذكر في عظته أن ادوارد الرابع وكلارنس كانا ابنين غير شرعيين ، وأن رتشارد الثالث وحده كان ابناً شرعياً . ثم إنه يُطلب الينا ان نصدّق ان رتشارد دعا والدته لتقيم في منزله ، وأنها قبلت بذلك ، علماً منها بأنه سمح للدكتور شو بأن يطعن بسلوكها الاخلاقي واستقامتها . اي نوع من المؤرخين هم هؤلاء التيودريون؟ ويذهب مرتون الى ابعد من ذلك . فهو يؤكد أن شو ذكر ، أيضاً ، أن إدوارد الرابع تزوج فتاة تدعى اليزابث لوسي . وتناقض سائر السلطات التيودرية هذا عندما تعلن ان اليزابث لوسي اعترفت بأنها لم تكن زوجة ادوارد . والحقيقة ان لا أحد الا مورتون من ذكر ذلك . إذاً ، فهو قد اسقط بنفسه حجته ، واخفق في صرف النظر عن إخفاء الاسم الحقيقي وهو اللايدي إليانور تالبوت . ثم إنه يضيف أن أم ادوارد احتجت بشدة عندما أبدى رغبته في الزواج باليزابث وودفيل سوى اننا نعلم أن أمُه لم تسمع بالزواج إلا بعد أن تم . وتمضي هذه الأقوال الغامضة والمشوهة بعيداً لإظهار ان عقد اللايدي إليانور تالبوت كان في الواقع ، حقيقياً ، وأن حق رتشارد ، بالتالي ، بالعرش كان سليماً . ويناقض فيبيان وفرجيل احدهما الآخر حول هذه النقطة ، ومن هنا نراهما يفضحان التركيبة بكاملها .

امضى مورتون وقته في إثارة الاستياء في انكلترا خلال حكم رتشارد . وكانت قضية حياة و موت بالنسبة الى مورتون أن يبقى رتشارد متربعاً على العرش ، لأنه اذا ما فعل ذلك ، لانتهت حياة مورتون العملية . فلن يعود هناك شيء ، لا قبّعة الكاردينالية ، ولا منصب رئيس الاساقفة . ولا يبقى له اي من المناصب الراقية ، فيعود كاهناً فقيراً معدماً . أما اذا استطاع مساعدة هنري لتسلُم العرش ، فإن كل شيء سيصبح في متناول يده ، كما ثبت ذلك خلال حكم هنري . وقد عملت جهود

مورتون الحثيثة لإظهار رتشارد بمظهر المغتصب بدلاً من التأكيد أنه لم يكن كذلك .

رفض رتشارد عريضة إبن عمه بكنغهام الخاصة بأملاك بوهان .

أساء مورتون تفسير الوقائع المتعلقة بثورة بكنغهام . فحاول أن يُظهر للخلق أن بكنغهام ، وهو من أسرة بلانتدجينيت ، اراد ان يدعم ثورة في مصلحة هنري تيودر . فلم يرفض رتشارد عريضة نسيبه لأن «بارونية دغديل» تُظهر لنا أن أملاك أسرة بوهان مُنحت الى بكنغهام منذ ١٣ تموز ١٤٨٣ .

ومن الصعب جداً أن نصدّق ان يهتمّ بكنغهام بتعريض حياته للخطر من أجل مطلب أحد التيودريين ممن جُردوا من حقوقهم ، واعتُبر خارجاً على القانون ، عندما يكون هو شخصياً متحدراً من توماس ، الابن الخامس لإدوارد . فأي امرئ من هذه السلالة مباشرة يساند تحرّكاً لإبعاد نفسه ووضع امرئ على العرش يعرف أن أسلافه متحدرون من أبي جدّه ، وهو ابن غير شرعي ؟ من الواضح أن مورتون لم يفهم قط آل بلانتدجينيت فلم يسعه أن يرى انهم أسرة ولدت للقيادة ، ولا يمكن أن يشوهوا سمعتهم ويلوثوا دمهم . فلقد بات بكنغهام ، بالطبع ، طموحاً جداً ، ورغب في الجلوس على العرش . فساند حق رتشارد بالعرش . ووافق على تجريد كلارنس من حقوقه ، ولكنه لم يسعه الانتظار .

دسّ رتشارد النسم لزوجته لكي يحاول الاقتران بنسيبته اليزابث .

لا يمكن أن يُقذف أي امرئ أو تشوه سمعته بشيء أسوأ من ذلك . وهذا هو النوع من القصص الذي يوفّر الحبكة لمسرحيات يوربيديس عن الميثولوجيا الإغريقية . ولكن ذلك لا يصنع تاريخاً . وسعادة رتشارد وآنّ التامة كافية لنفي هذه الرواية . وليس ثمة أي دليل ادبي معاصر ، او الكثير من المؤرخين التيودريين لدعم ذلك . ومن جهة اخرى ، نحن نعلم من رسالة كتبتها اليزابث الى ابن عمها ، دوق نورفوك ، أنها رحّبت بالفكرة . وما إن سمع رتشارد شائعة حول ذلك ، حتى اصدر إنكاراً رسمياً عاماً . وذلك من طريق الاعلان في البرلمان ، والرسائل الى الكثير من القصبات والاقضية .

هذه آخر التهم وأخطرها . رتشارد قتل الاميرين الصغيرين ، ابنَي شقيقه ، في سجن برج لندن .

لمحاولة درس قضية مصير الأميرين دراسة غيرمتحيزة ينبغي لنا أن نتذكّر ان الحجج الرئيسية ضد عمهما إنما وجدت لتقوم على حقيقة الجرائم المزعومة التي اتُّهم بها ، وتشوُّهه او عاهته الجسدية . وقد انتفى هذا الخط من الحجج منذ البداية ، اذا كان بوسعنا القول إننا قد صرفنا النظر بنجاح عن الاتهامات السابقة لكونها زائفة تماماً . وقد بيّنا أنها قُدّمت من كتّاب سلالة جديدة تقوم على الخوف ، من أجل تسويد شخصية آخر ملوك أُسرة بلانتدجينيت ، وبالتالي جعل تهمة قتل ابنيّ شقيقه مقبولة اكثر . ذلك بأن إبعاد الولدين من طريقه كان قضية ذات اهمية حيوية بالنسبة الى هنري السابع ، وفضلاً عن ذلك ، الاعتقاد بأنهما قُتلا على يد سلفه . ويمكن الآن ايراد القضية لما فيه مصلحة رتشارد .

ينبغي للقرّاء ان يعتبروه رجلاً يختلف تمام الاختلاف عما صوّرته الاسطورة التي نقلها آل تيودر الى الخلف ، فالانطباع عن المسخ القاتل المتعدد الوجوه قد أزيل . ولم يسبق لرتشارد ان اضطلع من قبل بأي جريمة ، وكل الاتهامات التي سيقت بحقه هي تلك التي يمكن أن تساق ضد اي أمير او ملك عادي ، في القرن الخامس عشر .

كان رتشارد وإدوارد الرابع مخلصين احدهما للآخر ، وهذا وحده يقلّل من اي دافع لقتل ابنيّ الآخر . ولكن ، في الواقع ، لم يكن ثمة أي دافع مطلقاً ، ذلك بأن الاميرين ثبت أنهما غير شرعيين ، وبالتالي سيُبعدان عن الخلافة . ولم يكونا يشكّلان أي خطر على أحَد ـ باستثناء هنري تيودر .

شهد كل النبلاء واللوردات في انكلترا حفلة تتويج رتشارد ، ما عدا بعض النبلاء اللانكستريين ، واولئك اللوردات الذين كانوا إما متقدمين في السن او صغار السن كثيراً . ولم يكن هناك اي فريق مع الاميرين ، ولما كانت جريمتا القتل قد تمّتا كما زُعم ، قبل ثورة بكنغهام ، فليس ثمة اي عذر للتأكيد أن بكنغهام كان يمثّل في وقت من الاوقات اي فريق يعمل لمصلحة الاميرين .

انتقل إبنا إدوارد الرابع للاقامة في المساكن الملكية في البرج ، في حزيران ١٤٨٣ .

ويخبرنا هنري السابع وملفقوه أن الاميرين صُرعا في آب التالي ، ولكن ثمة دليلاً على انهما كانا ما يزالان في قيد الحياة حتى آذار ١٤٨٥ . ففي الاوامر الصادرة الى الاسرة المالكة ، والمؤرخة بعد وفاة امير ويلز السنة ١٤٨٤ ، نجد غير مرة ، ذكراً لأولاد من ذوي الرتبة الرفيعة ، ينبغي خدمتهم قبل سائر اللوردات . وكلمة «أولاد» لا ينبغي أن تشير ، وحسب ، الى وورويك الصغير ، بل كذلك الى الاميرين . وفي «فيديرا» لرايمر ، هناك مذكرة بتاريخ ٩ آذار ١٤٨٥ ، هذا مضمونها : «يُطلب الى هنري دايفي أن يُسلم غودستاند ، خادم اللورد الزائف ، صدرتين حريريتين ، وسترة حريرية ، وعباءَة من القماش ، وقميصين ، وقلنسوتين .» وهناك مذكرات اخرى بخصوص دفع ثمن المؤن ، ولكنها لا تدع أي مجال للشك في أن احد الاميرين كان ما زال حياً قبل خمسة أشهر من معركة بوزويرث . ومن السخف أن يعمد رتشارد الى قتلهما في وقت متأخر جداً ، فيما لو كانا يشكلان خطراً قبل ذلك بسنتين اثنتين . وفضلاً عن ذلك لو انه كان ثمة سلوك غير أخلاقي ، أو عنف ، فإنه لا يُعقل ان نصدّق ان إليزابث وودفيل ، أرملة إدوارد الرابع ، توافق على وضع سائر اولاده في رعاية الرجل الذي قتل من قبل الأميرين . ومعلوم أنها بقيت على وفاق تام مع رتشارد ، وعوملت ، في الواقع ، معاملة أفضل من تلك التي لقيتها على يديّ خليفته . وكانت بناتها يحضرن الحفلات في البلاط الملكي ، وهناك حسابات وقيود تتعلق بملابسهن واثوابهن . وقد كتبت احدى البنات ، وتدعى اليزابث - وقد اقترنت في ما بعد بهنري السابع - الى دوق نورفوك ، وأشارت الى رتشارد بعبارة « عمّي ، بهجتي وصانعي في العالم .» فهل كانت تكتب مثل هذا عن عم قتل أخويها؟

إذاً ليس ثمة اي دليل على انهما كانا ميتين ، غير الشائعة الواردة في تاريخ كرويلاند ، التي ربما حشرها مورتون حشراً . فلو أن سوءاً إصاب الولدين ، لكانت محاولة طمسه عملاً طائشاً جداً .

ان الشائعة الاولى التي يُعتمد عليها لا تظهر ، في الواقع ، إلا لدى اعتراف تايريل المزعوم السنة ١٥٠٢ . وقد حرص آل تيودر على أنه ينبغي تصديق قضية مقتل الاميرين على يد عمهما . إلا ان التدقيق المحكم في رواياتهم يكشف سلسلة غريبة من

القصص المشوشة والمحرّفة حول الجريمة المزعومة ، وهي وافرة ، ومختلفة ، وسخيفة . فآندر يذكر انهما قُتلا بالسيف ، في حين ان راوس وفرجيل لا يعرفان كيفية القضاء عليهما . والقصة الخليط التي يعرفها كل تلامذة المدارس الانكليزية لا تظهر في التواريخ المبكرة على الاطلاق . وقد أكتسبت قبولاً بفضل رجلين من الثقات في مقال لهما في مجلة «آركيولوجيا» (العدد ٨٤ ، السنة ١٩٣٥) هما تانر ، ورايت . ويزعم هذا المقال أنه يحدّد سن الاميرين الحقيقية لدى وفاتهما استناداً الى فحص بعض العظام في كاتدرائية وستمنستر ، يُعتقد أنها عظام الاميرين . ولم تكن الطريقة للتأريخ الدقيق متطورة بعد في ذلك الزمن ، ولم تثبت أنها عظام الولدين ، ولذا فإن هذه النظرية يمكن إهمالها لأنها مشكوك فيها . ونحن ننبذها جملة وتفصيلاً لأنها توائم رواية آل تيودر تماماً . ومجرد بدء التحقيق مع العلم التام بالسن المزعومة لدى وفاة الاميرين ، يجعل هذا التحقيق بأسره يبدو أنه تم بهدف تأكيد ما لم يثبت في الواقع ، في الدرجة الاولى .

لم يُعلن هنري على الملأ هذه التهمة الفريدة في نوعها ضد رتشارد خلال السنة الاولى من حكمه . والسبب الوحيد لذلك ينبغي أن يكمن في كون الاميرين كانا ما يزالان في قيد الحياة . وبالفعل ، يقول مؤرخو هنري ، إنه لم يكن شيء معروفاً ، مثبتين بذلك أن قول السفير الفرنسي السنة ١٤٨٤ إن الاميرين قتلهما عمّهما زائف بشكل صريح . فقد اتهم هنري رتشارد بعدد كبير من الجرائم ، ولكنه أهمل إيراد هذه الجريمة . ولا بدّ ان يكون ثمة سبب واحد لذلك .

معروف أن أناساً من ذوي الاخلاق الحميدة قد ارتكبوا جرائم قتل ، ولكن ليس مثل هذا النوع من الجرائم ، ولا لمثل هذه الاسباب السخيفة . فماذا كان سيكسب رتشارد غير الكره العام؟ فابنا شقيقه غير شرعيين ، ولذا فلا يقفان عائقاً في سبيل الخلافة . وينبغي تبرئة رتشارد من ذلك لانعدام الدليل الكافي .

وعلينا أن نبحث عما اذا كان هناك في الحقيقة ، اي دليل على أنه كان بوسع هنري تيودر قتل الاميرين الصغيرين في البرج .

ماذا نعرف عنه؟ لقد أبصر النور في السنة ١٤٥٧ ، زمن وصول رتشارد الى

العرش . وكان مجرّداً من حقوقه ، ومنفياً ، ومجرّداً من لقبه ، وقد أُعدم والده ، وعمه كان خارجاً على القانون ولم يكن لحقه في العرش اي قيمة تقريباً ، كما سبق له أن اعترف حقاً بذلك . وكان يكره الحرية الانكليزية ، ولم يفهم قط معنى الاتصال الحقيقي بالشعب ، مما جعل لآل بلانتدجينيت الشعبية العريضة . وكان اول ملك يتخذ حرساً شخصياً له ، كما كان يبدو عليه دوماً أنه يستمتع بالظهور بمظهر التكتم والغموض . ولدى اغتصابه العرش ، أمّن رعاية الاميرة اليزابث ، وقرّر تعزيز وضعه الضعيف باقترانه بها ، موحّداً هكذا أسرتَي يورك ولانكستر . ثبت أنها ابنة غير شرعية ، بموجب القانون نفسه الذي جعل أخويها غير شرعيين ، كذلك . ولتصحيح هذا الوضع أبطل هنري معفول القانون ، واتلف الدليل على اللاشرعية ، وأمر بإحراق كل الوثائق المتعلقة بالقانون دون أن تُقرأ . وتمّ الصفح عن ستيلنغتون بالنسبة الى مسؤوليته في إثبات اللاشرعية . ثم اعيد توقيفه مباشرة بتهمة ملفّقة ، واختفى في غياهب السجن ، الذي لم يخرج منه حياً .

وبالغاء هنري القانون ، جعل اليزابث ابنة شرعية ، وكذلك أخويها ، وهو أمر كبير الدلالة ، ذلك بأنه يبدو انهما كانا حيّين ، ولا ريب . ولكن هذا الوضع كان مستحيلاً . فقد كان لهنري منافسان على العرش . ولذا كانت الضرورة تقضي بأن يموتا ، وينبغي تنفيذ ذلك في ظروف تكتنفها السرية التامة . ثم أثار هنري شعبه بنقض تجريده من الحقوق ، وتجريد انصار رتشارد من حقوقهم ، بالمقابل ، وقد صادر ممتلكاتهم ، وأرّخ مفعول «الخيانة» ابتداءً من اليوم الذي سبق معركة بوزويرث .

ينبغي التشديد على قضية وضع هنري لائحة بجرائم رتشارد ، ولكنه اغفل اهم جريمة ، الجريمة التي كان يمكن ان تثير من الاستياء اكثر مما يثير سواها ، وهي قتل الاميرين في البرج . لماذا؟ بالطبع لأنهما لم يكونا قد قُتلا بعد !

هل كان لدى هنري الدافع الكافي؟ الجواب عن ذلك بالايجاب . فبعد ان جعل شقيقَي زوجته شرعيين ، بات وضعه على العرش حذراً للغاية . ويمكننا ان نرى ماذا حدث لسائر الاشخاص الملكيين الذين كانوا تحت «رعايته» . فدجون ، إبن رتشارد غير الشرعي ، زُجّ في السجن ، ولم يخرج حياً . وووروِيك أُعدم في ظروف جد

دنيئة . وسافوك ، وآكسيتر ، ومونتاغيو ، وساري ، وبكنغهام ـ دون أن نذكر الكونتيس اوف سولزبري ـ جميعاً قضوا إما على يديه أو على يديّ ابنه .

ان تقريراً تقريبياً لتاريخ مقتل الاميرين يبدو أنه يصادف في وقت ما بين ١٦ حزيران و١٦ تموز ١٤٨٦ . وقد تم تقديم التفاصيل الأولى للجريمة التي زُعم ان رتشارد ارتكبها السنة ١٥٠٢ ، بعد إعدام تايريل . ويُعتقد أنه اعترف بحدوث الجريمة على النحو التالي : رفض السر رويرت براكنبري ، حاكم البرج ، ان يرتكب الجريمة التي أمر بها رتشارد . فأخذ تايريل عندئذ مفاتيح البرج لمدة اربع وعشرين ساعة ، ودبّر أمر قتل الاميرين على يد كل من مايلز فوريست وبلاك وِل سليتر . ثم تلقّى تايريل من رتشارد لقب فارس .

هذه القصة ملفقة من الألف الى الياء ! فقد تقلّد تايريل لقب فارس قبل ذلك باثنتي عشرة سنة ، من الملك إدوارد الرابع . وكان المسؤولون في البرج على علم بما يجري ، وكذلك لا بدّ ان يكون براكنبري قد اطلع مرؤوسيه على الأمر . فهل يُعقل أن يموت من أجل رتشارد في معركة بوزويرث؟ ولما لم يُعرف شيء من التفاصيل قبل السنة ١٥٠٢ ، فإن قصة الاعتراف هي زائفة بالطبع .

وقد قُطع رأس تايريل بسبب جريمة أخرى ، هي التآمر من أجل مساعدة شخص من آل بلانتدجينيت على الهرب .

زُعم أن قصة الاعتراف صحيحة ، وأن رتشارد ـ على ما قيل ـ كافأ اولئك الذين تورطوا فيها ، فحصل براكنبري وتايريل على هبات ، ولكن ثمة دليلاً على أن هذه الهبات مُنحت قبل زمن طويل من الجريمة المزعومة . ولم يتلقَّ بلاك وِل سليتر اي مكافأة من رتشارد قط ، حسبما ورد في السجلات ، ولكننا سنرى أنه تلقّى مكافأة من هنري . فقد كان يُمنح رشوة حتى السنة ١٤٨٨ ، ونجد في مذكرات هنري السابع أنه دفع مكافأة لسليتر قدرها خمسة ماركات (المارك هو وحدة نقد انكليزية قديمة تعادل ١٣ شلناً و٤ بنسات) .

ولا يذكر مايلز فوريست أو سليتر ـ وهما شخصان مهمان في الروايات الاخرى . واذا لم تُفْشَ طريقة القتل ، فإن الاعتراف لم يكن ليحدث ، لأنه التفصيل الوحيد

الذي كان يمكن أن يُكشف . وقد تلقى غرين ، الخادم الذي يُعتقد أن رتشارد اوفده ليطلب الى براكنبري تنفيذ جريمة القتل ، هبة في ١١ آذار ١٤٨٦ ، هي نصف قصر بيننغتون . ومن اجل ذلك كان ينبغي القيام بأمر ما بحيث أنه يتلقى النّصف الآخر عقب التنفيذ . وقد قلّد هنري السابع تايريل لقب فارس في فرقة حرس الملك ، وفي ١٦ حزيران ١٤٨٦ ، مُنح عفواً عاماً . وليس هذا بحدّ ذاته امراً غريباً ، ولكن عندما مُنح تايريل بعد ذلك بشهر عفواً عاماً آخر ، فإن ذلك يجعل الظنون تساورنا . والمعتقد ان هذا يساعد على تحديد تاريخ تقريبي للجريمة . لقد ارتكبت في وقت ما بين حزيران وتموز ١٤٨٦ .في السنة ١٤٧٨ ،أصبح تايريل حاكم غزنيس ، ربما ، لإبقائه خارج البلاد ، لأنه كان يعرف اكثر مما ينبغي . وظل حتى بعد مضي احدى عشرة سنة يُخاطَب بـ «الخادم الوفي والمستشار» . ثم خرج من إطار التاريخ بخفّة عندما حاول الإيرل اوف سافوك ، وهو من اسرة بلانتدجينيت ، الهرب .

ومع ذلك ،ظل هنري الرابع حتى ذلك الحين يهلع بسبب وجود مُطالب آخر بالعرش .

يقول هنري ان الاميرين لم يكونا في البرج لما تسلّم العرش ، ولكن الغريب في الامر أنه لم يذكر شيئاً من هذا في ذلك الوقت .

ولو ان ذلك كان صحيحاً ، لماذا لم يُعدّم فوراً كل من تايريل وغرين ،وفوريست ، وسليتر ، عقاباً لهم على الجريمة المنكرة ـ جريمة قتل ولدين بريئين؟ ولماذا ، كذلك ، أغفلت هذه الجريمة في القرار ضد رتشارد؟ إن الاجوبة عن هذه الاسئلة ينبغي ان تكمن في كون الولدين لم يكونا ميتين يوم معركة بوزويرث (٢٢ آب ١٤٨٥) .

واذا كان الملك رتشارد الثالث لم يصرعهما ، فإن الشخص الآخرالذي يمكن ان يكون فعل ذلك ، وكان لديه الدافع والفرصة لذلك ، هو الملك هنري تيودر ! . .

شكسبير: سر عمره ثلاثة قرون

كتب بن دجونسون على ضريح وليام شكسبير :

« لم يكن ابن عصره ولكنه ابن جميع العصور . »

كان دجونسون على حق في ما قال ، فجميع الذين قرأوا ما خطته يراعة شكسبير من المسرحيات والقصائد ، ودرسوها دراسة وافية ، يعرفون جيداً ان للروائي الشهير آراء صائبة في السياسة والاقتصاد والاجتماع تنطبق على مختلف العصور .

لقِّب شكسبير بأديب الطليعة الحق الذي نفذ ببصره وببصيرته الى المستقبل فصوَّره ، في اغلب الاحيان ، بأدق ما يمكن بشراً ان يصوره . وقد ألمح شكسبير في مسرحياته الى الكثير من الاحداث المعاصرة .

أبصر وليام شكسبير النور في بلدة سترتفورد اون ـ ايفن سنة ١٥٦٤ . ولم يُعرف بالضبط اليوم الذي وُلد فيه ، وكل ما هومعروف عنه انه عمِّد في السادس والعشرين من نيسان من السنة نفسها . والذين يقدرون الثالث والعشرين يوم مولده دون ان يوردوا أي مستندات تثبت ما يذهبون اليه ، انما يحملهم على هذا التقدير والتحديد الخاطىء كون شكسبير قد توفي في ٢٣ نيسان ١٦١٦ ، وهذا التاريخ ثابت . وعلى أي حال لا يمكن ان يكون مولده بعد ٢٣ نيسان ما دام قد نقش على ضريحه انه في ٢٣ نيسان ١٦١٦ دخل سنته الثالثة والخمسين ! . .

وليس ثمة معلومات راهنة عما تخلل صباه . والمرجح انه تأثر خطى والده فعمل في دار البلدية ردحاً من الزمن .

وفي العام ١٥٨٢ تزوج شكسبير من آن هاثاوي ورُزقا ابنة سمياها سوزانا . ومما يذكر ان هذه الابنة البكر كانت تجهل القراءة والكتابة . . . وحلّت سنة ١٥٨٥ فرُزقا

توأمين انثيين هما هامنيت ودجوديث .

ويروى ان شكسبير اضطر الى مغادرة مسقط رأسه بسبب فضيحة سرقة أيّل . . .

غير ان الذين اتهموه بالسرقة لم يستطيعوا اقامة أي دليل يصح الركون اليه . . .

لم يتبوأ شكسبير مقامه في عالم التمثيل والتأليف المسرحي الا بعد ان انفصل عن أسرته ، وعاش وحده في لندن حيث انضم الى فرقة تمثيلية هي «فرقة تشمبرلن» التي اصبحت في ما بعد «فرقة رجال الملك» ،وقد اصابت الفرقة نجاحاً عظيماً طوال الوقت الذي كانت تضم فيه شكسبير .

وطارت شهرة هذه الفرقة التمثيلية ووجدت طريقها الى القصر الملكي حيث قدمت أكثر من ثلاثين رواية في عهد الملكة اليزابيث . أما سائر الروايات فكانت تقدَّم على مسرح الفرقة الخاص المعروف بمسرح «الكلوب» .

وكان شكسبير يتقاضى أكبر حصة من الارباح بصفته شريكاً في المسرح . وفي اواخر ايامه عاد الروائي الى مسقط رأسه ستراتفورد اون ـ ايفن حيث امضى زمنا غير قصير في القصر الفخم الذي ابتاعه وسمَّاه «القصر الجديد» . وكان له من العمر عندما قضى نحبه في ٢٣ نيسان ١٦١٦ اثنان وخمسون عاماً .

ويقدِّر العارفون ان هناك نصف مليون شخص بين ناشر ، وصاحب مكتبة ، ومحاضر ، ومدرِّس ، وأمين متحف ، ودليل سياح ، وسواهم يكسبون ارزاقهم بفضل شكسبير .

يقول الفيلسوف الاميركي جورج سانتايانا ، في احدى قصائده : «إن الله قد ضاعف الخليقة عندما خلق شكسبير .»

سر عمره ٣ قرون !

قضية شكسبير وحقيقة شخصيته تقفز الى المسرح

جريمة قتل مع إبدال الضحية ، واختطاف ، ونبش القبر - لغز بوليسي بدأ منذ ٣٧٠ عاماً ، في دبتفورد في انكلترا . (كُتب هذا المقال في الستينات) .

فالسلطات الاكليريكية في مقاطعة « كنت » أجازت لدجون مارشام تاونزند ،

صاحب الاملاك المعروفة في سيدبيري (في منطقة تشيزلهيرست) ان ينبش قبر احد اجداده . ويدعى توماس وولسنغهام ، وكان معاصراً لشكسبير .

والمعتقد ان هذا القبر يضم وثائق تثبت ان مسرحيات شكسبير كتبها ، في الحقيقة ، الاديب كريستوفر مارلو ، وهي نظرية يعتنقها ويدافع عنها بحرارة وايمان الكثيرون من المتخصصين في دراسة شكسبير وأدبه .

وتثبت هذه الوثائق ، فضلاً عن ذلك ، ان كريستوفر مارلو لم يُقتل في أيار سنة ١٥٩٣ في دبتفورد ، والذي قُتل بدله امرؤ آخر ، وأن توماس وولسنغهام ، حامي مارلو وراعيه «اختطفه» .

وينتظر الشكسبيريون هذا الحدث بفارغ صبر من سنوات وسنوات . وينتظر معهم ، منذ حوالى ثلاثين سنة ، صحفي وروائي مسرحي اميركي هوكالفن هوفمان الذي يدّعي ان كريستوفر مارلو ، بعد الجريمة التي ارتُكبت في احدى حانات دبتفورد سنة ١٥٩٣ ، عاش في الخفاء لدى حاميه ، وراح يكتب المسرحيات باسم ممثل شاب هو شكسبير .

ولكن هذه القضية لا تروق لبعض الانكليز الذين يرون بعين الهلع هذا الاميركي « يمزّق تاريخنا بيديه !» – على حد تعبيرهم . . .

عندما أعلن الروائي الاميركي هوفمان عن عزمه على نبش قبر وولسنغهام ، تلقت الصحف اللندنية الرئيسية كتاباً مفتوحاً من ايطالي اسمه سانتو بالادينو ادهشت محتوياته محرري الصحافة البريطانية . ذلك بأن الكتاب تضمَّن تأكيدات تفيد ان شكسبير كان ايطالياً . ويقول بالادينو ان الشكوك في شخصية واضع مسرحيات شكسبير بدأت تساوره عندما كان يقلّب منذ بضع سنوات مؤلَفاً من مؤلفات القرن السادس عشر كتبه اديب يدعى ميشيل آنيولو فلوريو .

ولقد ادهشته آراء وافكار في هذا المجلد تشابه الآراء الواردة في « هامليت» ويرجع تاريخ نشر هذا المجلد الى عام ١٥٤٩ ، اي الى خمس عشرة سنة قبل مولد شكسبير . ودفع الفضول بالادينو الى التنقيب الدقيق في موضوع ميشيل آنيولو فلوريو . فعرف انه ابصر النور حوالى سنة ١٥٢٥ ، فدخل سلك الكهنوت ولكنه طورد من قبل

محكمة التفتيش لوضعه كتاباً منافياً لتعاليم الكنيسة ومبادئها . فاضطر للفرار الى الدانمارك بعد خلع الثوب الرهباني ، ثم استقر نهائياً في لندن حيث تزوج ورزق ابناً دعاه جيوفاني ، وذلك سنة ١٥٥٣ .

واشتهر جيوفاني فلوريو اكثر من ابيه . وكان صديقاً حميماً لشكسبير ، نما وترعرع في الوسط اللندني الرفيع ، وأصبح من علماء اللغة المرموقين ، واستاذاً في الايطالية والفرنسية . ونقل الى اللغة الانكليزية كتاب «المقالات» لمونتاين ، ونشر مجلدين هما «الثمرات الاولى» و«الثمرات الثانية» وليسا سوى ترجمة المجلد الذي دفع بالادينو الى القيام بأبحاثه حول قضية والد جيوفاني ، ميشيل آنيولو فلوريو .

ويستفاد من نظرية بالادينو ان ميشيل آنيولو هذا ، المطارَد من محكمة التفتيش ، والراهب الفارّ - ولعله اعتنق المذهب البروتستانتي - كانت مصلحته تقضي بالبقاء في الظل .

وهكذا يكون قد كتب مؤلفاته بالايطالية ، طالباً في ما بعد ، الى ابنه ترجمتها ثم نشرها حاملة اسم صديقه وليام شكسبير .

وقد عثر بالادينو في مخلفات ماسينا على صحيفة تحمل اعلاناً عن تقديم مسرحية باللهجة الصقلية عنوانها هو العنوان نفسه الذي تحمله المسرحية الشهيرة المعزوة الى شكسبير «جعجعة بلا طحن» .

وانطلاقاً من هذه النقطة التي وصل اليها بالادينو ، تراه يتساءل كيف اتفق ان انسحب وليام شكسبير من الحياة الادبية في السنة نفسها التي توفي فيها ميشيل آنيولو فلوريو ، وكيف اتفق ان ظهر شكسبير في مسرحياته ، متضلعاً من معرفته بهؤلاء الكتّاب الايطاليين وقصصهم : بانديللو ، بوكاتشيو ، ماسوكيو ، ساليرنيتانو ، لويجي دا بورتو ، مع انه لم يخلّف لدى وفاته اي مكتبة؟ ولكن ميشيل آنيولو فلوريو ترك لابنه جيوفاني مكتبة عامرة تضم كل هؤلاء المؤلفين وقد اهداها هذا في ما بعد الى لورد وليام هربرت ، من بمبروك ، وهو الشخص الغامض الشهير بالحرفين «و . هـ .» في قصائد شكسبير . فمن ناحية بالادينو ، تكون مؤلفات شكسبير قد كُتبت بقلم ميشيل آنيولو بالتعاون مع ابنه جيوفاني ! . .

وهذه اشهر مؤلفات شكسبير المسرحية :

* حلم ليلة صيف
* رتشارد الثالث
* روميو وجولييت
* سمبيلاين
* هامليت ، امير الدانمرك
* هنري الثامن
* العاصفة
* يوليوس قيصر
* انطوني وكليوباتره
* عطيل
* الملك لير
* هنري الخامس
* هنري السادس
* ترويلوس وكريسيدا
* ماكبث
* حسنٌ هو ما ينتهي حسناً
* رتشارد الثاني
* كوريولانوس
* تيتوس أندرونيكوس
* الملك دجون
* كوميديا الأخطاء
* تدبير لقاء تدبير
* النبيلان من فيرونا
* ترويض النمرة
* تيمون الآثيني
* يوليوس قيصر
* حكاية الشتاء
* جعجعة بلا طحن
* هنري الرابع
* بريكليس ، أمير صور
* تاجر البندقية

* * *

في ذات يوم دار النقاش امام الاديب الساخر الفونس آلليه حول من كتب روايات شكسبير ، اهوحقاً ، وهل عاش؟ فقال أحدهم :

– انها قضية تافهة ومهينة بحد ذاتها ، فالمهم قبل اي شيء انها كُتبت ، ووجدت .

فقال الفونس آللية حاسماً الجدال بسخريته المعهودة :

– شكسبير لم يوجد قط . . . وكل مسرحياته وضعها رجل آخر كان يدعى كذلك شكسبير ! . .

رجل بلا قيمة يدعى شكسبير!

بعد ٢٠ سنة من التحقيق ، يُلقي شرلوك هولمز الأدب الانكليزي «قنبلة» ترجرج شكسبير!

ونعود الى حادثة الحانة في دبتفورد في لندن ، في ليل ٣٠ أيار ١٥٩٣ . فقد شجر خلاف على حين غرة بين اربعة متشردين ، والتمع خنجر . فأمسك احد الرجال بالسلاح الذي كان جاره يحمله فوق حقويه ، مشدوداً الى حزامه ، وما إن ادار له هذا الاخير ظهره ، حتى ضربه على أمّ رأسه مرتين ، وجن جنون الجريح ، فانتزع الخنجر من يديّ المعتدي عليه وقتله بطعنة واحدة في عينه اليمنى .

لم يستغرق المشهد الا بضع ثوانٍ ولم يفكر اي من الثلاثة الذين بقوا في قيد الحياة في الهرب ، وأُخطر رجال الدرك بالحادث . وفي اليوم التالي شرع ضابط المباحث (قاضي التحقيق) وليام دانبي ، في التحقيق ، ووضع تقريره . اسم الضحية : كريستوفر مارلو . اسم قاتله : انغرام فرايزر . والشاهدان الآخران هما : نيكولاس وروبرت بولي .

وسجن إنغرام فرايزر ، ولكن ليس مدة طويلة . فحالة الدفاع المشروع عن النفس واضحة جلية ، على ما يبدو ، وقد منحته الملكة العفو .

من هم هؤلاء الرجال؟ ماضيهم ليس باهراً البتة . نعلم ذلك لأنه عثر على سجلاتهم العدلية . فرايزر امرؤ سلوكه مريب ، وضع مواهبه كجاسوس في خدمة شخص من طبقة النبلاء الصغيرة ، ولكنه غنيّ ، والسر توماس وولسنغهام ، له علاقة وثيقة بالدوائر الخاصة بالملكة اليزابث . وقد وُجد متورطاً بسلسلة من حوادث الاحتيال التي كان لسيده منها بعض المكاسب . وسكيرز كان لصاً وقاطع طرق معروفاً ، وبولي كان مجرماً محكوماً عليه سابقاً ومن النمط نفسه : وكلاهما في خدمة وولسنغهام ، ومثلهما مثل فرايزر ، كان عملهما الأشرف التجسس على الكاثوليك الذين يسعون إلى رفع ميري ستيوارت الى العرش .

أما مارلو ، الضحية ، فمن العجب ان يكون احد اعظم الأدباء في عصره متورطاً في هذه المشاجرة ، لو لم تكن حياته الخاصة المضطربة تحتوي في قرارتها على كل أسباب هذه النهاية الفذّة !

هذا الخبر التافه في العصر الاليزابثي ، على الرغم من شخصية مارلو ، لم يكن مع ذلك ، ليتجاوز قط إطار التاريخ الصغير ، لو لم يعمد كاتب اميركي هو كالفن هوفمان الى جعله موضوعاً للاثارة في كتاب غريب حقاً هزَّ لدى صدوره في نيويورك أركان الأدب الانكليزي . اما عنوانه فهو «مصرع الرجل الذي كان شكسبير» .

تصدّىّ هوفمان ، مثل الكثيرين سواه ، الى «قضية شكسبير» التي تشكل منذ القرن الماضي عملاً صعباً حقاً بالنسبة الى كل المؤرخين في العالم أجمع . وطرح هو أيضاً على نفسه هذا السؤال البسيط : كيف يمكن شكسبير ، الذي نعرف بكل تأكيد أنه لم يكن إلا ممثلاً عادياً وغير مثقّف ، أن يصبح على حين غرَّة ، السنة ١٥٩٣ ، في سن التاسعة والعشرين ، دون أن يبدي في السابق أي دليل على موهبة ، صاحب هذا العمل الأدبي الضخم الذي يُعزى اليه؟

ومثل من سبقوه ، لم يسع هوفمان إلا الانحناء والاجابة : «لم يكن شكسبير من كتب أعمال شكسبير !»

ولكن ، اذا كان المنطق البدائي يقود الى صياغة مثل هذا التأكيد ، فإن مهمة إعادة تعميد مؤلف «روميو وجولييت» تبدو ، على النقيض ، صعبة . فقد أطلقت اسماء عدة :

الفيلسوف فرنسيس بايكون ، الذي تربطه بشكسبير الصلات الوحيدة وهي انهما عاشا في الحقبة نفسها ، وانه كان أديبا كبيراً ، الأمر الذي يحمل على القول ـ استناداً الى الأسس نفسها ـ ان يكون بوالو قد كتب مؤلفات راسين . . .وتكلموا كذلك عن الكونت راتلند ، أو الكونت داربي اللذين كانا ، كما هو معلوم ، من النوابغ ، ولكن لا يُعرف بالضبط إذا ما كانا كاتبين موهوبين . بالاختصار ، انهارت هذه الفرضيات وسواها مما قُدّم ، وحسب ، انطلاقاً من توافق التواريخ ، امام التدقيق الموسّع .

كان ثمة ، مع ذلك ، صدع في جدار الشك هذا ، ولكن أحداً لم يفطن قط الى

سبر الغور لأن التحقيقات كانت تصطدم على الفور بعقبة مطلقة ، يصعب تجاوزها : فالرجل الوحيد في العالم الذي كان يمكن ، من الناحية الادبية ، ان يكون مؤلف مسرحيات شكسبير ، قد مات قبل أربعة أشهر من نشر اول عمل أدبي موقّع من شكسبير . . . اسم ذلك الرجل؟ كريستوفر مارلو ، الذي قُتل في دبتفورد ، يوم ٣٠ أيار ١٥٩٣!

كان كريستوفر مارلو عبقرية أدبية حقيقية ، وقد كان يمكن أن يخلد اسمه بتوّهُج كبير ، لو لم يكن هناك اسم يكسفه . . . هو اسم شكسبير . وقد كانت مهارته تجلّ عن كل نزاع بحيث أنه اعتُبر دوماً ذا تأثير كبير في الأدب الانكليزي في عصره ، وبخاصة في شكسبير ، الذي تتضمّن أعماله محاكاة غريبة لأعمال مارلو .

ولفت نظر كالفن هوفمان كذلك التشابه الغريب في الاسلوب ، والصيغ ، ومصادر الوحي في أعمال الرجلين ، ولكنه ، هو أيضاً ، اصطدم بهذا السرّ الهائل ، الذي يبعث على اليأس : موت مارلو في لحظة التفتح الشكسبيري نفسها .

وهكذا ، في السنة ١٩٣٦ ، كانت بداية هذا التحقيق المثير الذي بدأه هوفمان طوال عشرين سنة تقريباً بنفاد صبر وبحدس الشرطي السرّي ، فكانت النتيجة التي تكمن في التأكيد البسيط :« كريستوف مارلو لم يُقتل في دبتفورد . إنه شكسبير الحقيقي !»

ودعماً لهذه الفرضية المتفجرة ، أعاد هوفمان ، بعد ثلاثة قرون ، وبفضل وثائق صحيحة ، تركيب قصة حقيقة بروايات الفروسية المفعمة بالحركة ، وكذلك بالروايات البوليسية الاكثر براعة .

كريستوفر مارلو

قبل اي شيء ، ولتدشين معرض الشخصيات ، ماذا نعرف بالضبط عن كريستوفر مارلو؟ أبصر النور في شباط ١٥٦٤ (قبل شهرين من مولد شكسبير) ، وكان من حسن طالعه أن يرى نور الحياة في كانتربري . فالواقع أن كانتربري كانت تفتخر وتعتز بأنها تضم احد أعرق المعاهد التعليمية في انكلترا ، وقبل ظهور جامعتي

اوكسفورد وكيمبريدج . وكانت مدرسة كانتربري مخصصة لابناء الموسرين . ومع كون مارلو ابن إسكافي ، إلا أنه دخلها ، وقد أبدى في صف التعليم الديني ذكاء خارقاً جعل راعي الابرشية يحدّث اسقفه عنه ، واستحصل هذا الأخير على منحة لمارلو الفتي .

وواصل مارلو دراسته في كيمبريدج بفضل المنحة أيضاً . وكان شديد الشغف بالمؤلفين اليونانيين واللاتينيين ، وبصورة خاصة بأوفيد الذي أثاره منه مذهب المتعة ، وهو المذهب القائل بأن اللذة هي الخير الأوحد أو الرئيسي في الحياة .وفي أثناء تحضيره لشهادة الدكتوراه ، ترجم كتاب « فن الحب» لكاتبه هذا المفضّل ، ونشر مسرحيات وقصائد يتفق الجميع على انها رائعة .

وعندما أزف في حزيران السنة ١٥٨٧ ، موعد تسلّم مارلو شهادته علم أن رؤساء الجامعة قرروا رفض تسليمه إياها . السبب : أشير إلى وجوده في مدينة رانس الفرنسية قبل ذلك ببضعة أشهر . ورانس هي مركز تجمّع الانكليز «المرتدين عن الدين» أصدقاء ميري ستيوارت .

وما هو إلا اسبوع واحد حتى بُرّئ مارلو من كل ريبة . وفي هذه الأثناء ، تلقّى ، رئيس الجامعة ، في الواقع ، رسالة من مجلس الملكة الخاص ، جاء فيها «صحيح أن مارلو كان في رانس ، ولكنه ، بعمله هذا ، أدّى خدمة جُلّى لصاحبة الجلالة والبلاد .»

وهكذا لم يكن مارلو خائناً ، بل كان عميلاً خاصاً . فلما اتُّهم هرع يشكو أمره الى «سيده» السر فرنسيس وولسنغهام ، وزير الدولة ، ورئيس الشبكة الرئيسية لمكافحة التجسس ، وعضو المجلس الخاص ، ولم يكن بوسع السر فرنسيس إلا أن يدافع عن «مبعوثه الخاص» .

وانقضت سنتان اثنتان . وراح مارلو يحيا حياة بحبوحة . ووجد «الطالب» السابق في شخص السر توماس وولسنغهام ، ابن عم السر فرنسيس ، حامياً وصديقاً . وبفضل هذا الراعي ، بات بوسعه نشر أعمال سيقول عنها الشاعر تشارلز سوينبرن ، بعد قرون ثلاثة «انها كتبت بقلم الشاعر الاول الانكليزي ، أبي التراجيديا

الانكليزية ، «مبتكر ابيات الشعر غير المقفّاة .»

لم يكن مارلو عازف القيثارة الاثيري . كان متحللاً سكّيراً ، مشاغباً مستعداً دوماً لاستلال خنجره لدى أدنى تحدٍّ أو تحريض . وكان يجابه المشاكل باستمرار ، ولكنه لم يكن ليبالي في قليل او كثير ، علماً منه أن بوسعه الاعتماد على السر توماس وولسنغهام لانقاذه من أي ورطة : وكان للسر توماس أصدقاء حتى في وسط الحاشيةالمقربة من الملكة .

سيناريو «روميو وجولييت»

في ايلول ١٥٨٩ ، تورّط صاحبنا في «قصة قذرة» . ففي هوغ لاين ، الشارع القريب من المسرح الذي تقدَّم فيه إحدى مسرحياته ، التقى مارلو صاحب حانة عمره ٢٦ سنة ، يدعى وليام برادلي ، وقد سبق أن شجر بينهما نزاع . لماذا يتبادل الشابان الكره؟ ذلك لأن برادلي هو العدو اللدود للشاعر توماس وطسن ؛ ومارلو ووطسن صديقان حميمان منذ أمد بعيد .

وتبودلت الشتائم . وما لبث الخصمان أن تجابها وجهاً لوجه ، السيف بيد ، والخنجر باليد الاخرى . وحولهما تحلّق المتسكّعون الذين راق لهم المشهد . ويدأ النزال لحظة ظهر وطسن ، وكان شاهراً سيفاً كذلك ، ولكن للفصل بين المتبارزين (ذلك كان على الأقل ، التوضيح الذي أدلى به في ما بعد أمام ضابط المباحث) .

ما إن لمح برادلي وطسن حتى انقضّ عليه صائحاً به :«آه ! هذا أنت ! حسناً ! معك ينبغي أن أتعارك !»

عند ذاك انسحب مارلو . وفجأة انزلق وطسن . ولمسه خصمه بخنجره ونزف الشاعر الكثير من الدم ، فهرع شطر حفرة وانهار . ووافاه برادلي الى حيث سقط ، واستعد لتسديد الضربة القاضية اليه . وعندها لمح وطسن فتحة ، فاستجمع قواه ليطعنه بسيفه في ناحية الرئة . وما هي إلا دقائق حتى أسلم صاحب الحانة الروح .

وقُبض على مارلو ووطسن ، ثم أطلق سراحهما ، الأول بعد اثني عشر يوماً ، وصديقه بعد خمسة أشهر .

هذا النزال الذي انتهى هذه النهاية غير المتوقعة ، ما كان ليثير اهتماماً كبيراً لو لم يسترجعه بالضبط شكسبير ، بعد ذلك بتسع سنوات (١٥٩٧) في احد المشاهد الشهيرة من مسرحيته «روميو و جولييت» . فيا للمصادفة العجيبة ، حقاً ! وهناك مصادفة اخرى : موت مارلو في دبتفورد السنة ١٥٩٣ ، الا يشبه بصورة غريبة موت برادلي؟

لماذا؟ كيف؟

الى هذا الحد يُخرج هوفمان تأكيدات مراجعة لكي يخمّن وماذا اذا كان مارلو لم يُقتل في نزاع دبتفورد؟ وماذا اذا كان هذا النزاع لم يكن إلا إخراجاً ذكياً الغاية منه إخراج مارلو من الحالة المدنية ، ولكن ليس من عالم الأحياء؟ واذا كان قد واصل حياته باسم مستعار في الخارج ، ولا ريب ، أفلا يجوز ان يكون هو مؤلف «روميو وجولييت» ، وقد استرجع في هذه المأساة المشهد الذي لا يُنسى الذي كان فيه شخصياً الممثل والشاهد؟ إنه بالطبع ، مؤهل اكثر بالنسبة الى ذلك ، من شكسبير ، شكسبير الجاهل .

غير أن هذه الفرضية الجريئة ما كانت لتُعتبر إلا وهماً فيما لو لم يعمد كالفن هوفمان الى الاجابة عن السؤالين التاليين : لماذا؟ كيف؟

اولاً ، ما الضرورة «لإخفاء» مارلو ، بالمجاز؟ فمارلو لم يكن ، بالطبع ، امرأ موثوقاً به . فصلاته بالدوائر السرية ، وصداقته لوولسنغهام افقدتاه ، نوعاً ما ، حسّ الحقائق .

واعتقاداً منه أن كل شيء مسموح به بالنسبة اليه ، لم يكن ليرى أي ازعاج من ابداء رأيه بتعالٍ في المسائل المقدسة جداً . كان ملحداً ، ويبشر بالالحاد . وكان يتفوّه بالتجديف المروع ، ويعلن أن العهدين الجديد والقديم من الكتاب المقدس ليسا إلا كدسة من السخافات والخرافات . حتى أنه ذهب الى حدّ الادعاء بأن له الحق ، مثل الملكة ، بسك العملة ، وكان يتبجح بأنه اتخذ كل الاحتياطات للقيام بهذا العمل .

ومن حسن الطالع أن وولسنغهام كان ساهراً ، ولم يكن طيش مارلو الذي يحميه

يتجاوز قط حلقة صغيرة من الاصدقاء المتسامحين . وكان يوم وجد مارلو نفسه فيه مهدّداً وغدا مستحيلاً على وولسنغهام ان يتدّخل مباشرة .

كان مارلو يشاطر صديقاً يدعى توماس كِدْ ، غرفة في لندن ، وكان هذا الأخير ملحداً مثله ، إلا أنه ، لسوء طالعه ، لم تكن له العلاقات القوية التي كانت لرفيقه .

في ١٢ أيار ١٥٩٣ ، ألقي القبض على كِدْ ، وسجن بتهمة الالحاد . ونتيجة التعذيب ، اعترف بأن ثلاث صفحات من وثيقة تجديفية عثر عليها لديه كانت من كتابة مارلو .

بعد ستة أيام اعتُقل مارلو نفسه في سكادبري ، في أراضي وولسنغهام . واستحصل له محاميه على اطلاق سراحه بصورة مؤقتة بانتظار المحاكمة ، ولكن كان من المستحيل الحؤول دون أن يأخذ العدل مجراه . إلا أنه ، في ذلك الوقت ، كانت تهمة الالحاد المثبت تقود المتهم بها الى التعذيب اولاً ، ثم الى المشنقة في ما بعد . إذاً ، فمارلو كان مهدداً بالموت !

وعندها ، في ٣٠ أيار ، «قُتل» مارلو في دبتفورد . . . مصادفة غريبة ، وتحمل على التفكير في هذه «الاختفاءات» المفاجئة وفي أوانها معاً بالنسبة الى بعض العملاء السريين في العالم الحديث . من جهة اخرى ، ألم يكن كل من مارلو ، وولسنغهام ، وفرايزر ، ورفاقهم ينتمون جميعاً الى دائرة الاستخبارات لدى الملكة أليزابث؟

ثغرات وحماقات كثيرة

إلا أن كالفن هوفمان يحرص على عدم استباق الأمور . فالمحاضر الرسمية المتعلقة بقضية دبتفورد ما تزال موجودة ، ويكفي مراجعتها لمعرفة ظروف المأساة وملابساتها . سوى أن الظروف ، في الواقع ، كانت غير منطقية على الإطلاق ، وأحياناً غامضة ، بحيث يصعب عدم رؤية التحريف في ذلك ، هذا التحريف الذي بدّل قدر مارلو .

لنأخذ ، مثلاً ، تقرير رئيس المباحث . بالنسبة الى هوفمان ، يمثل هذا التقرير الكثير من الثغرات ، ويشتمل على الكثيرمن الحماقات لكي لا يعود موضع شبهة :

ففرايزر ، المتنازع مع مارلو ، هل أدار ظهره ، في حين كان يحمل خنجره على وسطه؟

ما هذا؟ ! ويا للطريقة النادرة لحمل الخنجر ! وفرايزر الذي تلقّى ضربتين اثنتين على أم رأسه من مارلو الخارج عن طوره ، لم يصب إلا بجراح تافهة؟ هذا أمر غير معقول ! وفي هذه الأثناء ، أكان الشريكان يشهدان المشاجرة دون تحريك ساكن؟ حتى بالنسبة الى الانكليز ، فان ذلك مبالغة في البرودة .

ونقطة نقطة ، فكّك هوفمان ، هكذا ، تقرير دانبي . وأخيراً وليس آخراً . . . في السنة ١٨٢٠ ، كتب تاجر عاديات (انتيكا) لندني الى راعي كنيسة دبتفورد يسأله اذا ما كان هناك ، مصادفةً ، إشارات في سجلاته ، الى دفن مارلو . وعلى سبيل الردّ ، تلقّى هذه المعلومة : «في سجلّنا الخاص بالوفيات في كنيسة القديس نقولا في دبتفورد ، تبرز الاشارة التالية : الاول من حزيران ١٥٩٣ ، قُتل كريستوفر مارلو على يد فرنسيس آرتشر .» إذاً ، من كان القاتل؟ فرنسيس آرتشر (الذي لا نعرف شيئاً عنه) ام انغرام فرايزر؟ شك غريب !

أما في ما يختص بنعش مارلو ، فلا أحد يدري ، ولن يدري أحد مطلقاً اين هو . على اي حال ، هل كان هناك ضريح؟ ربما ، لا ، إذا كان ما يؤكده هوفمان صحيحاً ؛ ذلك بأن كريستوفر مارلو ، حسب رأيه ، لم يُقتل . فقد تمّ تركيب قضية دبتفورد كلياً من جانب وولسنغهام ورجاله المتعصبين لأن الضرورة قضت بتجنيب مارلو يد العدالة .

مؤامرة دبتفورد

انطلاقاً من هذا المعطى ، كان من السهل اعادة تركيب سيناريو «المشاحنة في دبتفورد» بشكل يرضي اكثر الفهم السليم والمعقول مما يرضي نصها الرسمي .

كان وولسنغهام يعرف ويقدّر الموهبة الادبية الفذة التي يتمتع بها مارلو . ينبغي تجنيب هذا الأخير حبل المشنقة المهدد به نتيجة اعترافات كِدْ ، ولكن يصعب القيام بذلك جهاراً ستراً للفضيحة . فقد كان مارلو ، أو ما يزال ، على علاقة بدوائر

الاستخبارات ، ويستطيع الاحتفاظ بسر المؤامرة التي ستنقذ حياته .

وهناك ثلاثة أشخاص جديرون بالثقة ، أيضاً ، كتومون ومتمرسون بمثل هذا النوع من العمل ، كُلّفوا تنفيذ الخطة التي وضعها وولسنغهام ، او ربما ، مارلو نفسه الذي يتذكر جيداً حقائق التسوية المرضية له ولصديقه وطسن في قضية برادلي .

كان على هؤلاء الاشخاص الاهتمام بإيجاد «جثة» ، ويستحسن أن تكون من نواحي دبتفورد . وكان وولسنغهام يعرف تمام المعرفة رئيس المباحث الذي يشرف على هذا القطاع ؛ ويعرف أن وليام دانبي مستعد للظهور بمظهر الساذج السريع التصديق الى أبعد حدّ ممكن ، شرط ، بالطبع ، أن يُدسّ له بضعة اكياس من الذهب . . .

وكانت التتمة بسيطة جداً . فدبتفورد ميناء مزدهر يتردد عليه دوماً بحّارة غرباء . ولذا لا يصعب على فرايزر وأصدقائه أن يجدوا الضحية التكفيرية في احدى الحانات ، وجرّها الى منزل يطرون ضيافته ؛ فيُسكرون المسكين ، ويشربون هم انفسهم . وعندما يقدّرون أن المهزلة طالت بما فيه الكفاية ، ينتقلون الى العمل . ولا يتبقّى على فرايزر إلاّ أن يتصرّف . . .

او حتى ـ وهذه ، رواية أبسط كثيراً ، ،من شأنها ان تفسّر عدم العثور على ضريح مارلو ـ لم توجد اي جثة بتاتاً؟ فيُسجن فرايزر ، في حين أن بولي او سكيرز يخفّان الى كنيسة القديس نقولا يحملان اليها نبأ وفاة مارلو . ويتمّ هكذا تمثيل الدور . ويقال لأصدقاء الراحل إنه ذهب ضحية الطاعون ـ وهذا ما سيصدّقه الكثيرون ، في الواقع ـ وقد ألقي على عجل في احدى المقابر العامة .

عند الفجر كان مارلو قد بلغ ميناء دوفر . حتى أنه ربما استقل مركباً شراعياً واتجه شطر كاليه (في فرنسا) ، الى المنفى الأبدي .

وعقب خروجه من السجن بعد شهر من الزمن ، متمتعاً بالعفو ، لم يقضِ فرايزر وقتاً طويلاً في لندن . فمن الغد عاد الى مكانه في قصر وولسنغهامَ ، في تشيزلهيرست . فالسر توماس ليس حاقداً عليه كثيراً لـ «قتله» أفضل صديق له ومحمّيه !

وشكسبير الخالد؟

ما إن وصل مارلو الى القارة الاوروبية حتى بات بوسعه الاقامة حيث يريد . وأي بلاد يمكن ان تغريه اكثر من موطن فرجيل واوفيد ، إيطاليا؟ هذه البلاد التي كانت موئلاً للكثير من مسرحيات شكسبير ، والتي يبدو أنه يعرفها تمام المعرفة .

ولا يستبعد فضلاً عن ذلك ، ان يكون مارلو ، بعد بضع سنين ، قد عاد سراً الى انكلترا ، وانهى حياته في منطقة تشيزلهيرست .

بالنسبة الى هوفمان ، ليس من المشكوك فيه أن يكون مارلو قد ارسل بانتظام مخطوطاته الى وولسنغهام ، واهتم وولسنغهام بتقديمها على المسرح أو بنشرها . ولم يكن النص الاصلي هو ما كان يقدمه السر توماس الى الممثلين او الناشرين ؛ فقد كان خط مارلو معروفاً جيداً في اوساط المسارح والأدب . وكانت الضرورة تقضي بلجوء هذا الراعي الى خدمات أحد النسّاخ .

هذا الناسخ الذي لولاه لانهارت الصقالة التي نصبها هوفمان في لحظة واحدة ، نعرف اسمه . كان يدعى توماس سميث وقد اكتشفه هوفمان وهو يطالع وصية السر توماس وولسنغهام ، وكان في جملة الورثة ولكن ، في خمسين وصية مختلفة تعود الى تلك الحقبة من الزمن درسها هوفمان ، لم يعثر قط على اي إرث اوصي به لناسخ . ومن هنا ينبغي الافتراض أنه كان لوولسنغهام اسباب وجيهة لمكافأة هذا للباقته ، ومن أجل كتمانه السر . . . ولا ريب .

وشكسبير الخالد؟ حسناً ! إلى كل هذه الروائع التي كان وولسنغهام يضعها في التداول ، كان ينبغي حتماً ، بين وقت وآخر ، تقديم «أب» فقبل ممثل من الطبقة الثانية ـ مقابل مبلغ نقدي ـ القيام بهذا الدور . ويصبح محتملاً ، بالاحرى ، أن يكون شكسبير ، في رأي هوفمان ، في وضع يمكّنه من كتابة أعمال . . . شكسبير (او مارلو) . هو ذا دليله !

إن كاتباً ، وكاتباً من عيار شكسبير خصوصاً ، ذا المعارف الموسوعية ، لا يظهر في العالم الأدبي بضربة عصا . فمؤلف «هامليت» وخمس وثلاثين مسرحية اخرى ، ومائة وخمسين سونيتة (قصيدة من ١٤ بيتاً) ، وملحمتين ، «يتضلع من» القدامى

كلياً : فهو لا يتقن ، وحسب ، اللاتينية واليونانية ، ولكن الفرنسية والايطالية؟ فضلاً عن ان الصرف والنحو ، والفن الشعري ، والفلسفة لم تكن جميعاً سراً مغلقاً عليه ؛ وأخيراً فهو متمكن من التاريخ ، والفلك ، والقانون و . . . البستنة .

أين أمكن شكسبير أن يكتسب كل هذه المعارف؟ لم يكن في انكلترا في عصر النهضة إلا جامعتان : اوكسفورد ، وكيمبريدج ، ونعرف بصورة جازمة أنه لم يتردد الي اي منهما ، وأنه لم يدرس قط في معهد كانتربري .

أتراه اكتسب ثقافته وحده؟ مستحيل . فالقاموس الأول ، وكتاب الصرف والنحو الاول لم يكونا قد ابصرا النور بعد . وحدهم الطلاب كان يحق لهم ـ ولم يكن بالمجان ـ الاطلاع على الكتب في المكتبتين الجامعيتين . وكانت هذه الكتب من الندرة والقيمة بحيث أن معظمهم كان يُشدّ الى المقرأ !

ولكن ماذا لو كان شكسبير قد نعم بمساعدة راعٍ سخيّ من رعاة الآداب والفنون؟ ألم يكتشف واحد من هؤلاء الرعاة ومضة العبقرية في هذا الفتى ، ابن احد تجار ستراتفورد؟ ألم يكن في وسعه أن يوفّر له المربين ، وينزله في أحد قصوره ، ويجعله يحيا في الجو الارستقراطي الذي برع شكسبير كثيراً في وصفه؟

اسئلة كثيرة يجيب عليها هوفمان بـ «لا» جازمة . ذلك بأنه من غير المعقول ، حتى في مثل هذه الظروف ، أن ينتظر كاتب من وزن شكسبير سن التاسعة والعشرين لكي يبرز بطريقة ما ، في حين أن مارلو ، في العصر نفسه كان قد نشر عدداً من الاعمال الرائعة .

موهبة متأخرة جداً

في الواقع ، كان اول عمل أدبي موقّع من شكسبير قصيدة «عشتروت وأدونيس» ، المنشورة في أيلول ١٥٩٣ ، بعد أقل من أربعة أشهر من اختفاء مارلو ، لكأن شكسبير تسلّم العبقرية الأدبية من يديّ «المختفي» من دبتفورد المتخاذلتين .

وكان شكسبير في تلك الفترة يقترب من العقد الثالث . وفي عصر كان البشر يودعون هذا العام ، في المتوسط ، في حوالى سن الاربعين او الخامسة والأربعين ،

بلغ ، وحتى تجاوز «ربيع الحياة» وطبيعياً ، كان ينبغي ان يكون جعل الناس يتحدّثون عنه ، ولكن ، ماذا نعرف بصورة دقيقة عن شكسبير حتى صدور «عشتروت وادونيس»؟ ثلاثة أمور ، وحسب : تاريخ تنصيره (٢٦ نيسان ١٥٦٤) ، وتاريخ زواجه (من آنّ هاثاوي في السنة ١٥٨٢) ، وتواريخ مولد بناته الثلاث (الاخيرة ابصرت النور في شباط ١٥٨٥) .

بين السنة ١٥٨٥ و ١٥٩٣ ، بين سن الحادية والعشرين والتاسعة والعشرين ، أثناء الحقبة التي يعبّر فيها المرء بأكثر ما يمكن من البلاغة ، إن لم يكن بأكثر ما يمكن من الموهبة ، ألم ينجز شيئاً ، شيئاً يستحق الاشارة اليه في وثيقة ما؟ في المقابل ، وفي السنوات التي تلي اختفاء كريستوفر مارلو ، ومنذ تلك اللحظة ، وحسب ، يا للفيض والبروز الهائل بالنسبة إلى الروائع الأدبية !

نُشرت اول مسرحية حملت توقيع شكسبير «جهد الحب الضائع» في السنة ١٥٩٨ . وهكذا أيكون شكسبير انتظر لكي يصبح في السادسة والثلاثين لكي يُعرف ككاتب مسرحي؟ ! الواقع هو انه منذ نشر «عشتروت وأدونيس» ، لم يترك إلا آثاراً قليلة في الحوليات . واذا عرفنا انه امتلك منزلاً في ستراتفورد ، وأقرض مبلغ ثلاثين ليرة استرلينية امرأً يدعى رتشارد كويني ، وأنه أُسند اليه دور في احدى مسرحيات بن دجونسون ، فإننا لا نجد أي اشارة الى نشاطاته الأدبية .

بعد ذلك ،سيقترن اسم شكسبير ، وهو حيّ يرزق ، بثماني مسرحيات ايضاً . ومع «جهد الحب الضائع» سيصبح العدد تسعاً . غير ان المجموعة الرسمية لمسرحياته المنشورة عقب وفاته تضم ثلاثين مسرحية .

حتى هذا الحساب لا يقيم اعتباراً لغرابة اخرى . فقد ظهرت ثماني مسرحيات بين السنة ١٥٩٥ و١٦١١ ، موقّعة إما باسم شكسبير ، وإما بالحرفين الاولين من اسمه . واحدة منها «بيركليس ، أمير صور» شملتها مجموعة المسرحيات الكاملة . فلماذا هذا الامتناع ، إذا لم يكن محضّرو المجموعة أنفسهم قد ترددوا في ضم أعمال يبدو أصلها أو مصدرها اكثر من مشكوك فيه؟

وأخيراً ، ثمة واقعة مؤكدة : حتى بعد وفاة شكسبير ، لم يتكلم احد من

معاصريه عنه بصفة كونه مؤلفاً !

صمت على طول الخط

في ٢٥ آذار ١٦١٦ ، حبّر شكسبير وصية مفصلة تماماً . فيها ترك ممتلكاته الى نحو عشرين شخصاً . زوجته ، بناته ، أسرة زوجته ، أحفاده ، أصدقائه ، ولم ينسَ أحداً . وقد بلغ من اهتمامه أنه حدّد من سيرث هذا القدح ، وذلك السيف ، وتلك الصحون . وأورث أناساً كانت له ذكريات طيبة معهم ، مبالغ ضئيلة من المال لكي يبتاعوا بها خواتم يتذكرونه بها .

إلا أن وثيقة كهذه ، على ما يلاحظ هوفمان ، تكفي وحدها لتحطيم اسطورة شكسبير الكاتب . كيف؟ هو ذا كاتب « يشعر بأن نهايته باتت وشيكة» ، يوزع في وصيته الأشياء الاكثر ابتذالاً ولا يشير أي إشارة الى مسرحياته ، وقصائده ، وحتى الى مخطوطاته .حتى ولا أدنى إشارة الى كتبه القيّمة جداً آنذاك : ألم يكن لدى شكسبير شيء من ذلك؟ ولكن ، لكي يكتب روائعه الأدبية الخالدة ، كان ينبغي ان يكون في متناول يده عدد من المؤلفات ، على الأقل للتوثق بالمستندات عن تاريخ انكلترا ، وروما القديمة أو ايطاليا المعاصرة .

عندما انطفأ سراج شكسبير كان له من العمر اثنتان واربعون سنة . وبالنسبة الى زمن كان الناس فيه يقضون ، في المتوسط ، في حوالى سن الاربعين او الخامسة والاربعين ، فقد كان ذلك أمراً لافتاً للنظر نوعاً ما .

وباختفائه ، مع ذلك ، لم يتميز سشكسبير إلا بسنّه المتقدمة .ويلاحظ هوفمان ان احداً لم يهتم بكتابة تكريم للمناسبة يحيّي فيه الراحل الشهير . ومع ذلك ، فإن امرأً مثل شكسبير كان ينبغي له أن يعاشر جماعة من المثقفين ـ اذا كان بالوسع استعمال هذه المفارقة التاريخية ، هذا الصمت يبعث على القلق . ولا ننسى ، في الواقع ، ان العادات الاليزابثية كانت تفرض ان يُظهر اصدقاء الميت حزنهم بقصيدة ما ،أو برثاء ، أو حتى ببيتين من الشعر متكاملي المعنى . وقد كان من حق البنّاء الماهر أو الصائغ الموهوب ان يُنقش على ضريحهما بعض الابيات الشعرية .

ان النص الوحيد الذي عثر عليه حول هذا الحدث الجلل كان في مذكرات صهر شكسبير دجون هول ، وكان طبيباً في ستراتفورد . فيه نقرأ : «توفي حموي يوم الخميس .» وبالنسبة الى التأبين فمن الصعب ان يكون المرء اكثر ايجازاً . فبعد سبع سنوات من وفاته ، وفي السنة ١٦٢٣ ، ولدى ظهور المجلد الأول من «أعماله» ، شرعوا في بعض الأوساط ، يتعرفون الى شكسبير الكاتب ، ومن السنة ١٦١٦ الى السنة ١٦٢٣ ، يا للنسيان التام ! فكيف نفسّر هذه الظاهرة بغير القول انه بالنسبة الى معاصريه ، وخصوصاً اولئك الذين عرفوه ، لم يكن شكسبير يستحق البتة الخلود .

ثمّ ، مع مرور الزمن ، اصطُنعت الاسطورة . وغدت الاسطورة التقليد . وكان ينبغي انتظار السنة ١٧٠٩ ـ قرابة القرن من الزمن ـ لكي تظهر ، على سبيل المقدمة لمسرحياته «سيرة شكسبير» . وماذا كان بوسع المترجم نيكولاس رو ، أن يفعل غير ترديد «يقولون» ، مع احتمال المغالاة لكي يمنح عمله نوعاً من التماسك . ومع ذلك ، لو كان شكسبير حقاً العبقري كما نعتقد ، فكيف يمكننا أن ندرك اننا انتظرنا هذه المدة الطويلة لكي نكتشفه؟ واولئك الذين كان يمكن ان يهتموا به قليلاً قبل ذلك ، ما كانت لتعوزهم مصادر المعلومات . فاحدى بنات شكسبير ، سوزانا هول ، عاشت في ستراتفورد حتى السنة ١٦٤٩ ، والثانية دجوديث كويني عاشت حتى السنة ١٦٦٢ . ولم تمت حفيدته إليزابث هول ناش إلا السنة ١٦٧٠ . ولم يكلّف أحد قط نفسه عناء التحدُّث الى أحد من ذرية «بل» الكبير (بل ، هو الاسم الذي يطلق على كل من يدعى وليام للتحبّب) . . . كان ينبغي ان يكون شكسبير أمياً كاملاً ، وإلا لما حدثت الامور على الوجه الذي حدثت فيه .

إن القطع التي تؤلف الاحجية ، تتشابك ، الآن ، بعضها مع بعض تماماً . ولكن ذلك لا يكفي لاعتبار ان اللغز قد جُلي : فليس هناك بعد براهين ، وكل ما هناك افتراضات وتخمينات !

بالنسبة الى هوفمان ، مع ذلك ، لم يُقفل الملفّ . فقد كان سنة كتب هذا المقال المثير (في الخمسينات) قرب مكان العمل ، في تشزلهيرست ، ينتظر السماح له بفتح نعش السر توماس وولسنغهام . فإذا كانت أعمال شكسبير الاصلية التي وضعها

مارلو فيه ، مصادفة ، فيا للحدث الخطير ! وإذا لم تكن موجودة فيه ، فإن هوفمان يبقى مصمماً على متابعة تحقيقه .

لم يُسمح بعد لأحد بالقاء نظرة على بعض أوراق أسرة وولسنغهام . ولن نعرف ما إذا كان شرلوك هولمز الادبي قد اكتشف اكبر تضليل في كل العصور ، او اذا ما كان قد «طبّل وزمّر» لقاء لا شيء – اي جعجعة بلا طحن ـ على حدّ قول شكسبير . . . أو مارلو ـ إلا بعد تفحّص أوراق وولسنغهام !

مصادفات ، أو انتحال ، أو تذكّرات مبهمة؟

بمقارنة أعمال مارلو وشكسبير ، بيّن كالفن هوفمان اكثر من ألف من المحاكات والمشابهات بارزة جداً بحيث تُبعد كل امكانية للمصادفة . ومن جهة اخرى ، اذا كان من المشكوك فيه أن ينحطّ مؤلف من عيار شكسبير فيرتكب سرقة أدبية من مارلو ، فإنه من الممكن ، بالمقابل ـ إذا كانت نظرية هوفمان صحيحة ـ أن يكون مارلو ضمّن بعض أعماله تذكّرات من اعماله السابقة .

وهذه على سبيل المثال ، ترجمة نصّين تُبرز ما يذهب اليه هوفمان من التشابه الغريب لدى الشاعرين : من مارلو في «الراعي المغرم ، لحبيبته» ، ومن شكسبير في «ارامل وندسور المرحات» (الفصل الثالث ، المشهد الأول) نثبتهما بالانكليزية لإبراز التشابه هذا :

MARLOWE : "LE BERGER PASSIONNÉ
A SON AMOUR".

"By shallow rivers to whose falls
Melodious birds sing madrigals.
And I will make thee beds of roses,
And a Thousand fragrant posies."

«بالقرب من الأنهار الضحلة التي تُنشد
العصافير الشجية لشلالاتها قصائد غزلية .
وسأصنع لك أسرّة من الورود ،
وألف باقة زهر عطرة .»

SHAKESPEARE: "LES JOYEUSES
COMMÈRES DE WINDSOR"
(Acte III, scène I).

"To shallow rivers, to whose falls
Melodious birds sing madrigals;
There will we make our beds of roses
And a Thousand fragrant posies."

«للأنهار الضحلة ، التي تُنشد العصافير
الشجية لشلالاتها قصائد غزلية ؛
هناك سنصنع أسرّتنا من الورود
وألف باقة زهر عطرة .»

فضيحة تزوير كتابات شكسبير
تودي بحياة الكاتب صمويل آيرلند

يبدو ان الخزي والعار اللذين لحقا بالكاتب والنحات وتاجر التحف والكتب النادرة صمويل آيرلند ، عجّلا في وفاته ، بعد ان ورّطه ابنه وليام هنري آيرلند بفضيحة كبرى . وعلى الرغم من الاعتراف الصريح الذي ادلى به الابن بعد توريط

ابيه ليرفع عنه تهمة التزوير ، واقراره سنة ١٧٩٦ صراحة بارتكابه شخصياً هذا التزوير المتقن في منشورة بعنوان «رواية صحيحة عن مخطوطات شكسبير» ، فإن الموت حسرة عاجل الأب في تموز من السنة ١٨٠٠ .

والآن ما هي قصة هذه الفضيحة الأدبية الكبيرة؟

سنة ١٧٩٤ زار وليام آيرلند مع والده بلدة ستراتفورد ، مسقط رأس شكسبير ، حيث التقى دجون دجوردان ، وهو شاعر محلي قام بتزوير وصية والد شكسبير . ولما تبيّن الابن وليام اهتمام والده الساذج ، نسخ بحبر له كل الدلائل التي تميّز قدَمَهُ ، اسلوب شكسبير وخط يده ، وابرز عقود ايجار ، واتفاقات مع ممثلين ، وفواتير ، وايصالات ، واعلاناً للوفاء بعهد ، وحتى رسالة غرام الى آنّا هاثاوي (التي تزوجها) ، مع خصلة شعر . فسرّ والده ايما سرور بهذه اللقيا ، وانخدع بها الكثيرون من الادباء والباحثين في الشؤون المتعلقة بشكسبير .

وابتكر وليام آيرلند جَدّاً هو وليام هنري آيرلند ، وصلت اليه تلك الوثائق عن طريق الارث ، اعترافاً من شكسبير نفسه بفضله عليه وإنقاذه من الغرق . وأخيراً ، أعلن المزور الماهر عن اكتشافه مسرحية كاملة بعنوان «فورتيجرن» ، فابتاعها شيريدان لعرضها على خشبة مسرح دروري لاين . والتأم في ٢ نيسان ١٧٩٦ عقد جماعة حاشدة لاعطاء الرأي في هذه المسرحية الجديدة ! غير ان هذا العرض الأول والوحيد قوبل بالصراخ والضحك الرنّانين .

وكان الأب صمويل آيرلند قد نشر سنة ١٧٩٥ «أوراق وصكوك قانونية» بخط يد وليام شكسبير وبخاتمه ، بما في ذلك مسرحية الملك لير وجزء صغير من مسرحية هامليت (مؤرخة سنة ١٧٩٦) . وكان مقتنعاً تماماً بصحتها ، ولكن النقد العدائي الذي قدّمه ادموند مالون وسواه من الكتّاب ، والرواية غير المرضية التي قُدمت في ما يتعلق بمصدر هذه الأوراق ، حمله على مطالبة ابنه وليام بكشف الحقيقة كاملة .

وكان ما كان من إقرار الابن بالتزوير ، ووفاة الأب لفرط التأثر مما لحقه من عار وخزي لم يكن له يد فيهما !

هجوم فرقة الخيّالة الخفيفة
خطأ في القيادة أرسل الخيّالة البريطانية الى الانتحار في «وادي الموت»

قرن من الجدل

تحالفت كل من بريطانيا العظمى ، وفرنسا ، وتركيا ، وبييمونتي من اجل مهاجمة شبه جزيرة القرم بغية صدّ توسّع روسيا القيصرية في البلقان .

وكانت قوات هؤلاء الحلفاء مرابطة في بالاكلافا ، وهو ميناء صغير على البحر الاسود يقع جنوب غرب قلعة سيباستوبول الحصينة الروسية . وكان ينفتح على مسافة ثلاثة كيلومترات وادٍ شمال بالاكلافا يمرّ على طوله طريق يصل ما بين سيباستوبول ويالطا التي كانت في ما بعد مكان أشهر مؤتمر عقد في الحرب العالمية الثانية .

حول هذا الوادي تمّت المجابهة بين الجيشين المعاديين صباح يوم ٢٥ تشرين الاول ١٨٥٤ . فاستولى الروس على أربعة معاقل مسلحة من مدفعية البحرية البريطانية ، وتقدموا شطر بالاكلافا . ولكنهم صُدّوا بفضل مقاومة باسلة أبداها الايرلنديون من فوج «النجاد» ٩٣ ، وبهجوم معاكس قامت به الفرقة الثقيلة التابعة للخيّالة البريطانية : فانسحبوا ، وأقاموا مواقع مدفعية على المنحدرين وفي أسفل الوادي ، جاعلين من هذا الوادي «وادي الموت» حقاً ، الذي خلّده لاحقاً الشاعر ألفريد تنيسون بقصيدته الشهيرة «هجوم فرقة الخيّالة الخفيفة» . وكانت هذه الفرقة تتألف من أفواج الخيالة التالية : الثامن والحادي عشر من الخيّالة ويعرفون بالهوصار ، والرابع والثالث عشر من الدراغون ، والسابع عشر من الرمّاحين . وكانت تنتظر

الأوامر ، محتشدة لدى مدخل الوادي ، بقيادة الجنرال دجيمس توماس برادنل ، الكونت السابع كارديغان .

وعلى احد المرتفعات ، كان الجنرال فتزروي دجيمس هنري صمرسيت ، البارون الاول راغلان ، وهو ضابط شجاع فقد احدى ذراعيه في معركة وترلو ، يراقب سير العمليات الحربية . ولدى رؤيته الروس يتأهبون لحمل المدافع التي استولوا عليها ، قرّر إعطاء أمر الى الجنرال قائد الخيالة لورد لوكان . وكان على احد المرافقين نقل الأمر ، ولكن النقيب لويس ادوارد نولان كان فارساً أفضل ، فتطوع للقيام بالمهمة ، وكلّف ذلك . وكانت الرسالة بالنص التالي : «لورد راغلان يرغب في أن تتقدم الخيّالة بسرعة نحو الجبهة وتحاول منع العدو من حمل المدافع .» وبينما كان نولان يهمز حصانه لمضاعفة السرعة ، صاح راغلان مضيفاً : «قل للورد لوكان ان الخيّالة ينبغي ان تهاجم على الفور .»

من اسفل الوادي ، كانت رؤية لوكان ساحة القتال محدودة جداً اكثر من رؤية راغلان على قمة تلّته . وعندما نقل اليه نولان الأمر ، سأله : «مهاجمة من؟ اية مدافع؟» فأجاب عن ذلك بقوله :« هذه هي مدافعكم ، يا سيدي اللورد !» مشيراً لا الى مدافع المعاقل البريطانية المستولى عليها بل الى المدافع الروسية المركّزة في أسفل الوادي . وبينما خفّ لوكان الى التشاور مع كارديغان ، طلب نولان الى أحد الضبّاط من أصدقائه السماح له بالانضمام الى فوج الرماحين السابع عشر للاشتراك في الهجوم ، وهو أمر لم يجبره أحد على القيام به . وقد قتل النقيب نولان في الهجوم . ومهما يمكن أن تكون مسؤولياته في الهجوم ، فلا احد يجادل في أنه قضى ببسالة الجندي المقدام . وتجدر الاشارة هنا الى أنه بعد مرور اكثر من قرن من الزمن على هذه القضية ، فإن المؤرخين الانكليز لم ينجحوا بعد في الاتفاق على نصيب كل من هولاء الاربعة راغلان ، ولوكان ، وكارديغان ، ونولان الذين تنتهي اسماؤهم جميعاً باللاحقة المشتركة في المسؤولية الحقيقية ، والذين يبدو أن القدر حتّم وجودهم مجتمعين من اجل هذه المناسبة الغريبة .

الانضباط البريطاني

ثمة أمر أكيد هو البسالة الفائقة الطبيعة التي أبداها لورد كارديغان في الهجوم الشهير . ففي الساعة ١٠ ، ١١ صباحاً ، قُرع نفير مفرد . فشهركارديغان سيفه ، وأعلن ببساطة : «فرقة الخيّالة الخفيفة ستهجم الآن .» ثم اندفع على صهوة جواده ، متقدماً خط فرسانه الأول بمسافة تناهز الخمسين متراً . وكان عدد هؤلاء الفرسان ٦٧٣ بالضبط . إلى يسارهم ،كان العدو قد نشر ١٤ مدفعاً ، و٤ سرايا من الخيّالة ، و٨ أفواج من المشاة . وإلى يمينهم كان هناك ١١ كتيبة من المشاة ، وبطارية ميدان ، و٣٠ مدفعاً ضخماً . وأمامهم كان هناك ١٢ مدفعاً ، و٦ سرايا من الرمّاحين ، وحوالى ١٠ آلاف فارس روسي . كل هذه الجيوش كانت بإمرة الجنرال ليبراندي .

معاً ، اندفعت خطوط فرقة الخيّالة الخفيفة في «وادي الموت» في بالاكلافا . وخلال لحظة طويلة ، كانت الاصوات الوحيدة التي تُسمع صليل السيوف وأطقم جياد الفرسان البريطانيين وحوافرها . وعلى حين غرّة خيّم صمت غريب على كل الخطوط المعادية .لقد ذهل الروس ، بلا ادنى ريب ، بسبب جنون هذا الهجوم . وكان طول الوادي نحو فرسخ تقريباً (الفرسخ هو أربعة كيلومترات تقريباً) . ولما صعدت طليعة فرقة الخيّالة الخفيفة نصف فرسخ ـ اي حوالى ٢٥٠٠ متر على ما يردد تنيسون ببلاغة في قصيدته العصماء ، فتح الروس النار من كل مدافعهم وبنادقهم .

وبينما تساقط الرجال والجياد بالدزينات ، ممزّقين بكُرات المدافع والبنادق ، استمر لورد كارديغان في التقدم بهدوء ، على متن جواده الأشقر رونالد ، وخلفه كانت خطوط الفرسان المبادين تتشكّل وفقاً للنظام ، في عرض رائع للنظام البريطاني الرصين . لم «تهجم» فرقة الخيّالة الخفيفة ،بالمعنى التقني للكلمة ، لقد «تقدمت» كما أمر قائدها . . . الذي لم يبقَ لديه الآن نافخ بوق واحد لقرع نفير الهجوم ، على أي حال . ولدى مشاهدته هذا الهجوم ، لفظ الجنرال الفرنسي بوسكيه وهو لا يصدّق عينيه هذه الملاحظة التاريخية : «إنه أمر رائع ، ولكن ذلك ليس حرباً !»

عندما بلغ الى مسافة حوالى ثلاثين متراً من البطارية الروسية في أسفل الوادي ،

غرز كارديغان مهمازيه في جنبي رونالد ، واندفع مباشرة بين ومضات مدفعَي الوسط ، فكان اول الداخلين في صفوف العدو . وتبعه الرماحون السبعة والثلاثون التابعون لفرقة الرمّاحين ١٧ ، والثلاثة عشر فارساً من كتيبة الدراغون الثالثة عشرة الذين بقوا أحياءً ، ضاربين بسيوفهم جنود المدفعية الروس ، مسكتين بذلك قطع المدفعية . وانضم اليهم فرسان من كتائب اخرى ، وجرى اشتباك وتلاحم مشوَّشان مع الخيّالة الروس ، اشتباك سرعان ما أخذ البريطانيون في نهايته بالانسحاب ، وفي الساعة ٣٠ ، ١١ لم يعد ثمة اي وجود لفرقة الخيّالة الخفيفة .

نجدة تنيسون

من الفرسان الـ ٦٧٣ الذين اندفعوا في الهجوم في الوادي ، قبل عشرين دقيقة ، عاد وحسب ، ١٩٣ الى نقطة انطلاقهم ، وكثيرون منهم من دون جيادهم . واعتبر ١١٣ قتلى ، و١٣٤ جرحى ؛ والباقون كانوا إما اسرى أو مفقودين . وقضى ٤٩٧ حصاناً في الهجوم ، او قضي عليها عمداً . وفي عرض المساء ، لم تستطع كتيبة الدراغون الا تقديم عشرة فرسان على جيادهم في الصفوف . ولم يُصب لورد كارديغان بأي خدش ، على الرغم من أن رمحاً روسياً اخترقت رجل بنطلونه بلون الكرز . وكذلك بقي رونالد سالماً بصورة عجيبة . . .

وبينما كان لورد كارديغان يخيّل نحو الخلود ، لم يبقَ لورد لوكان مكتوف اليدين . فلما شاهد فرقة الخيّالة الخفيفة تهرع نحو الهلاك ، اندفع لنجدتها على رأس الفرقة الثقيلة . ولكنه سرعان ما أيقن ان الهجوم كان خطأ فادحاً ومرعباً .وقد جُرح في ساقه ، وأُصيب حصانه مرتين اثنتين ، وقتل الى جانبه أحد المرافقين .ولقد قرر بكل حكمة ألا ينحر فرقة ثانية بعد الاولى ، وتراجع مع رجاله . وفي الوقت نفسه كان الفرسان الفرنسيون التابعون للفوج الرابع من القناصة الافريقيين ، يهاجمون الروس ويسكتون بطارياتهم من الجهة الشمالية للوادي . وبفضل هذا العمل الذي سقط فيه قناصة كثيرون ، لم يُقصف الذين نجوا من فرقة الخيّالة الخفيفة إلا من ناحية واحدة خلال انسحابهم من «وادي الموت» ، ولولا ذلك لكانت خسائرها أفدح بعد .

فضلاً عن «الإخفاق» الجميل الذي حصده كارديغان شخصياً ، كانت حصيلة اليوم هزيمة مكلفة بالنسبة الى الحلفاء . ولكن الفصول الثلاثة الباهرة في المعركة . . . معركة الاسكتلنديين ، وهجومَي فرقتي الخيالة البريطانية والفرنسية . . . منحت اسم بالاكلافا هالة النصر . وعندما انضم الشاعر تنيسون بقصيدته الشهيرة الى ما حدث ، وعندما تضمنت البرامج المدرسية هذه القصيدة ، لم يتأخر الطلاب الشبّان في بريطانيا العظمى والامبراطورية في الاقتناع بأن لورد كارديغان ورونالد هزما وحدهما جيش قيصر روسيا .

مساء المعركة ، انسحب كارديغان المحتفظ بهدوئه دوماً كما لو كان عائداً من عرض عسكري ، الى يخته الخاص «درایاد» الراسي في ميناء بالاكلافا . وبعد استحمامه بالماء الساخن ، تناول عشاءه الشهي ، واندس بين اغطية سريره الحريرية البيضاء . ثم استغرق في النوم طوال الليل كالطفل ، دون أن يكون بحاجة بعد الى الحلم بمجد حوّله الى حقيقة . ولما عاد إلى انكلترا بعد شهرين ، استُقبل كبطل قومي ، واستقبلته الملكة فكتوريا في قصر وندسور ، وعيّن مفتشاً عاماً لفرقة الخيّالة .

الغباء المقدام

عاش لورد كارديغان حتى سنة ١٨٦٨ ، وهي السنة التي قضى فيها إثر سقطة عن جواده ، وهو في الحادية والسبعين . وعاش لورد لوكان أطول منه بعشرين سنة في أملاكه في ايرلندا ، وتوفي عن ٨٨ عاماً . أما لورد راغلان فكان أول المتوفين منهم ، وذلك عن ٦٧ عاماً ، في سنة ١٨٥٥ .

وفي سنة ١٨٥٦ ، فُتح تحقيق عسكري حول كارثة بالاكافا ، وقد نال الاسياد والنبلاء الثلاثة جميعاً بعض اللوم . وكانت رسالة راغلان غامضة نوعاً ما ، ويمكن أن تتيح أية أخطاء ممكنة . أوَ لم يكن ينبغي للورد لوكان ان يطلب ايضاحات؟ ولورد كارديغان ، ألم يكن يتوجب عليه أن يعرف أنه لم يهاجم الهدف الصحيح؟

إن ما نعاه الرأي العام البريطاني ، من جهته ، على هؤلاء الارستقراطيين ، هو استخفافهم الكلي بسلامة جنودهم وصحتهم . . . فأكثر من نصف الذين أُنقذوا من

فرقة الخيّالة الخفيفة قضوا من جراء البرد ، والحرمان ، والمرض ، في شتاء ١٨٥٤ - ١٨٥٥ . وفي مناسبة حرب شبه جزيرة القرم كان الخلود من نصيب الصحفي وليام هاورد راسل والممرضة فلورنس نايتنغيل اللذين قادا الحملة من اجل جعل الحرب انسانية . أما اسم النقيب نولان ، فقد ظهر في النص الأول من قصيدة تنيسون الذي اضطر إلى شطبه في ما بعد . فقد كان من قلة الذوق الكشف أمام طلاب المدارس الصغار أنه يمكن ان يتفق لضابط بريطاني ان يصدر امراً بنحر جنود خطأ! . . .

وانه من المؤكد ، مع ذلك أن الرأي العام البريطاني يفضّل أن يرى الأمور هكذا ، على اي حال . ونذكر في هذا الصدد ، في الختام ، عبارة موجهة بذكاء للمؤرخ العسكري الانكليزي ف . ج . هدلستون : «إن الانطباع الذي خلّفه تصرّف فرقة الخيّالة الخفيفة تم التعبير عنه في قصيدة تنيسون ، والحقيقة الأعمق تنطوي عليها ملاحظة الجنرال بوسكه : «إنه أمر رائع ، لكن ذلك ليس حرباً» ، خلق تأثيراً اقل في الجمهور البريطاني الذي طالما اعتاد على اعتبار الغباء المقدام فوق المهارة الاقتصادية في حولياته العسكرية . . . وأسهم هكذا في ضمان تكرار مثل هذه الحماقات .»

جانب مجهول من حرب القرم

بصرف النظر عن أهميتها العسكرية ، تستحق حرب القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦) أن تُذكر بشيء آخر ، أو بصفة اخرى : طابعها الغريب ! فلم يسبق ان جرت حرب ارتجالية مثلها ، فضلاً عن ان النوادر العجيبة الغريبة كثيرة وتميّزها . وقبل كل شيء ، هرع حشد كبير من السيّاح الى مسرح العمليات ، على سبيل التسلية ، كما لو كانوا يشهدون تظاهرة رياضية .

وقد اندمج هؤلاء «المسافرون الجنتلمن» في حياة الجنود . وصلوا الى الجبهة حاملين مختلف أنواع الهدايا : حساء معلّب ، وحلوى الميلاد ، والمشروبات المنوعة . وزاروا الخنادق ، كما زاروا مواقع بطاريات المدفعية ! ولم يكن أحد يضطر الى تكرار القول هناك .

يروي احدهم أنه وأخوه قرّرا إقامة مخيّمهما مع الفوج ١٨ من المشاة . فتوجها بطلبهما الى احد الضباط :

– نود إقامة خيمتنا في معسكركم !

فأبدى الضابط منتهى اللطف ، وقال :

– حسناً سأحاول أن أجد لكما مكاناً .

وكان القطاع خلف الخطوط الأولى مباشرة ، تحت رحمة نيران المدفعية الروسية ؛ ولم يكن المكان مريحاً البتة . وفي المكان نفسه الذي كانا سيقيمان عليه خيمتهما ، فقد أحد الرجال ساقه . وقال لهما الضابط بكل تأدب :

– أرجو ألا يؤثر ذلك فيكما !

هذه الفورات من التهذيب غير المتوقعة في مثل هذه الظروف ، ميّزت حرب

القرم . فقد جرى حادث غريب خلال معركة إنكرمان الغامضة ، التي نشبت وسط ضباب كثيف . ذلك بأن احد الضباط الانكليز ، باتت مفرزته على وشك أن تكون ضحية مناورة التفاف ؛ شاهد جماعة من الجنود ، من الجنسية نفسها ، فهرع نحو ضابطهم ، قائلاً :

– المعذرة ، ولكننا في موقف حرج ورهيب . هل بوسعك انجادنا؟ لقد كان لي شرف التعرّف اليك في الصيف الماضي لدى اللايدي بامرستون .

وهبط القرم امرؤ يدعى هيوبرت اوف برغ على متن يخت صديقه لورد كارديغان الذي يرتبط اسمه بهجوم فرقة الخيّالة الخفيفة التي تشكّل فصلاً من اكثر فصول التاريخ البريطاني من حيث البطولة التي لا جدوى منها . وقد روينا تفاصيلها في ما سبق . . .

ونعود الى لورد كارديغان ، الذي حصل على الإذن بتناول العشاء والنوم على متن يخته ، على مسافة ١١ كيلومتراً من مقرّ قيادته . وقد رافقه برغ في جولاته التفتيشية ، معتمراً قبعة التشريفات المسطحة الأطراف ، ومرتدياً الردنغوت ، وواضعاً الطماقين (والطماق هو كساء للساق من جلد أو قماش) فوق الحذائين المطليين بالبرنيق) . وبينما كان يتوالى قصف ميناء سيباستوبول ، قام برغ ولورد كارديغان على صهوة جواديهما بزيارة مواقع البطاريات لتفقّد ما يجري . وأقبل كثيرون آخرون بدافع الفضول البحت . وقام ضابط من سلاح الهندسة ، واعتبر طبيعياً وجود هذا الحشد من المشاهدين الأغراب والمجهولين خلال قصف عنيف وعلى جانب كبير من الأهمية ، بشرح خطة العمليات . فقال لورد كارديغان :

– آه ! فهمت . هؤلاء الأشخاص من هناك ، هم جماعتنا ، وهم يطلقون النار على الروس . الروس هم الذين يطلقون النار علينا . ولكن ماذا ننتظر لزحزحتهم من هناك؟

وكثيرات من زوجات الضباط رافقن أزواجهن ، بدافع الحب ، وبدافع حب المغامرة في آن .

ووصلت اللايدي إرول ، زوجة لورد إرول ، النقيب في فوج البنادق الملكية ،

بواسطة البحر برفقة زوجها . حتى أنها اصطحبت كذلك وصيفتها الفرنسية ! ولما نزلت القوات الانكليزية واتجهت شطر آلما ، رافقتها اللايدي إرول على صهوة جوادها . وشاطرت زوجها خيمة لم يكن فيها سوى سرير واحد . وبعد زمن طويل سألها احد أحفادها عما إذا كان السرير مريحاً . فأجابته :

– لست ادري . إن جدّك هو من احتلّ السرير . أنا رقدت على الأرض !

كانت اللايدي إرول امرأة شديدة البأس . فعقب معركة آلما ، برزت فكرة إيفاد مندوب لمفاوضة الروس في أمر عقد هدنة تتيح دفن الموتى . ولكن التردد كان السائد لأن الانطباع كان أنه لا يمكن الوثوق بالروس مطلقاً . فكانت اللايدي إرول من امتطت جوادها واعتمرت بقبعة ذات ريش ، واجتازت ساحة الوغى ، رافعة العلم الأبيض .

كان الروس في معركة آلما يحتلّون موقعاً حصيناً جداً . وقد حفر النهر ممراً بين التلال التي كانت ترتفع كالشرفات المنحدرة الوعرة التي يصعب تسلّقها ! وكانت مياه النهر تتدفق بسرعة ، وذات أعماق متفاوتة . وتحت الشرفات ، حفر النهر طريقاً في سفح احدى التلال ، وجرت مياهه على سفح جدار عمودي .

كان الروس على هذه المرتفعات . ولم يحسبوا أن بوسع اعدائهم الانكليز ايجاد الرجال القادرين على مهاجمة التلال . فالذين سيحاولون الهجوم سيهلكون على بكرة ابيهم ، بكل تأكيد .

وكان الامير منشيكوف قد دعا حوالى ثلاثين امرأة صبية للذهاب الى سيباستوبول ليشاهدن ، وهن يتنزهن ، تدمير الجيش البريطاني . وكان الطقس رائعاً . وكانت النسوة يرتدين الأثواب الصيفية وقد حملن المظلات ، وأقبلن في عربات مكشوفة ، ومعهن الكثير من السلال التي تضم المؤن والمشروبات ، لتناول الطعام في الهواء الطلق .

وندت منهن صيحات الاعجاب وهنّ يرين الى جنود المشاة البريطانيين يتقدّمون عبر السهل ـ كتلة قرمزية تزيّنها حمّالات السلاح البيضاء .

وتلت ذلك أروع المعارك من جانب القوات البريطانية . وأنجزوا المستحيل ،

وهاجموا مرتفعات آلما . أما المتنزهات الحسان فقد هربن ، تاركات سلال الطعام والشراب والمظلات .

لعلّ أشهر النساء اللواتي شهدن العمليات الحربية في القرم ، السيدة دابرلي ، زوجة النقيب دابرلي ، من فرقة الهوصار الثامنة (الخيّالة) . كانت مرحة ، بشوشة ، وذات حيوية ، فضلاً عن كونها فارسة من الطراز الأول . ولم يكن يُسمح لها بمرافقة زوجها ، فوجدت السبيل للصعود الى متن سفينة نقل . وفي بالاكلافا ، عاشت على متن زورق حربي . وكانت ، في كل يوم ، تنزل الى اليابسة لرؤية زوجها الذي كانت ترافقه على ظهر جوادها لدى قيامه بأعمال الدورية . وصباح يوم المعركة كانت على متن السفينة لما أرسل اليها زوجها هذه البرقية ، ولعلها فريدة في نوعها في الحوليات العسكرية والحربية :

«بدأت معركة بالاكلافا ، وهي تعد بأن تكون حامية الوطيس . أرسل اليك جواداً . لا تضيعي الوقت : تعالي بأسرع ما يمكن . لا تنتظري حتى تتناولي ترويقتك !»

وهرعت السيدة دابرلي من فورها .

وشهدت هجوم فرقة الخيّالة الخفيفة الشهيرة ! . . .

مخاوف بالنسبة الى الأميرة

تنشئة الملكة فكتوريا المنضبطة كانت نتيجة رغبة والدتها في حمايتها من «عمّ شرّير»!

مرّ اكثر من قرن ونصف من الزمن على صبيحة ذلك اليوم من حزيران من السنة ١٨٣٧ عندما كتبت الملكة فكتوريا : «ايقظتني أمي في الساعة السادسة صباحاً . فنهضت من فراشي وذهبت الى حجرة جلوسي ، وأنا بعد في ملابس النوم ، ووحدي .»

وكتبت كذلك : «ما دام سرَّ العناية الالهية ان تضعني في هذا الموقع ، فسأبذل قصارى جهدي لكي أقوم بواجبي نحو بلادي .»

لم يكن هناك تواضع ، وحسب ، بل كان هناك ألم ايضاً ، والكلمة التي كشفت مشاعرها هي « وحدي» . ومضت تقول في يومياتها : «في الساعة التاسعة جاء لورد ملبورن ، الذي قابلته في غرفتي ، وبالطبع ، وحدي تماماً ، كما سأقابل كل وزرائي . . . ونزلت الى الطبقة السفلى ، وعقدت مجلساً في القاعة الحمراء ، وقد دخلت ، بالطبع ، وحدي . نزلت وتمنيت لأمي ليلة سعيدة .»

وفي تلك الليلة ـ عقب اليوم الأول لحكمها كملكة انكلترا ـ نامت في مخدعها ، وللمرة الاولى ، وحدها ! هذه الكلمة غدت تحدّياً .

ان السنوات التي بدت كأنها السجن بالنسبة اليها ـ و«المشاهد المؤلمة والكريهة» ، التي تذكّرتها ،انتهت الآن . استبداد أمها المزعوم التي لم تكن تسمح لها بأن تغيب عن ناظريها ؛ طعامها الذي كان يُتذوّق قبل أن يُسمح لها بمدّ يدها اليه ؛ السرير الابيض الصغير الذي كانت تُجبر على الرقاد فيه ، ودوماً بجانب امها ـ الانضباط

انتهى اخيراً .

كانت فكتوريا ملكة ، وعندما انتقلت إلى قصر بكنغهام ، خُصِّص لوالدتها ، دوقة كنت ، غرف في جناح بعيد من المبنى الكبير . ولما كانت تودّ رؤية ابنتها ، كان عليها طلب موعد للمقابلة ، كما لو كانت غريبة ، تقريباً .

لقد حكم كتّاب اليوميات والسِيَر المعاصرون ، منذ ذلك الحين بقسوة على دوقة كنت لتصرّفها خلال تلك السنوات الاولى . وغالباً ما وُصفت بعبارة «تلك المرأة البغيضة» .

وإننا لنتساءل لماذا تصرّفت هذه الأرملة الوحيدة ، المضلّلة أحياناً ، كما تصرّفت ؛ وهل كانت الطاغية التي تصوّرتها الملكة فكتوريا والكثيرون من معاصريها؟

ونرانا اكثر حيرة من اي وقت عندما نقرأ قصصاً عن دوقة كنت في سنواتها الاخيرة ، السعيدة تماماً مع ابنتها ، وأحفادها .

كانت محبوبة كثيراً ، وهي سيدة عجوز لطيفة ، منهمكة في التطريز ، في حديقة قصرفروغمور ، او وهي تعزف مع احدى وصيفات الشرف لحناً من الالحان ، لقد كان خريف حياتها لطيفاً جداً .

في السنة ١٨٥٩ ، كتبت الملكة فكتوريا عن أمها ، بعد أن كانت مريضة : «أنا شخصياً لم ادرِ كم احببتها ، او كيف كان وجودي كله مرتبطاً بها .»

وعندما ماتت الدوقة ، تذكّرت الملكة «رقتها اللامحدودة» بالنسبة اليها . ولفرط حزنها الشديد ، كان هناك ، لفترة من الوقت ، ما وصفه زوجها الامير ألبرت بـ«الشائعات المروّعة الحقيرة» عن انها فقدت عقلها .

يقول الكاتب هكتور بوليث ، الذي عقد هذا الفصل عن الملكة فكتوريا ، إنه كان ثمة حقبة في حياة ملكة انكلترا ، في ما بعد ، لم تشر هي اليها في يومياتها ، ولا حتى في الرسائل التي عُثر عليها . وقد اخبرته احدى حفيداتها ما يمكن ان يساعد على توضيح ممكن لتصرّف دوقة كنت ، والخلاف المبكر الغريب ، مع ابنتها .

ينبغي لنا العودة قليلاً الى الوراء ، وتذكّر الظروف التي توفيت فيها الاميرة تشارلوت وهي في حالة الوضع ، في تشرين الثاني ١٨١٧ ، عندما كانت في الحادية

والعشرين من العمر . كان ابنة الامير الوصي على العرش ، أميرة ويلز ، بعد ابيها ، وفي المقام الثاني في تسلسل الخلافة على العرش .

وكان منافسوها «أعمامها الشريرين» - ابناء الملك جورج الثالث الآخرين - واشرّهم جميعاً ، في نظر الرأي العام في ذلك الزمان ، كان دوق كمبرلاند . لم يكن ثمة اي خطيئة رهيبة جداً تلصق به . ونعرف اليوم أنه افتُري عليه ، وتثبت ذلك السيرة التي أصدرها الكاتب ج . م . ويليس . ولكن في ذلك الوقت ، اشتهر الدوق بأنه كان وغداً ، وحتى قاتلاً ـ قاتل خادمه الخاص .

ونأتي الى الحقبة في حياة الملكة فكتوريا اللاحقة ، التي تحملنا الى قضية دوقة كنت .

في ذات يوم بلغ قصر وندسور طلب غريب من أمرأة عجوز تعيش في ملجأ للفقراء . طلبت ان يُسمح لها بالكتابة الى الملكة فكتوريا ، فتلبّي بذلك وعداً قطعته لأمها التي كانت ممرضة الاميرة تشارلوت لدى وفاتها . وقد وعدت العجوز بأنها ستطلع أحد أفراد الأسرالمالكة على سرّ غير عادي : وهو أن والدتها علمت ان سُمّاً وُضع في الدواء المنبّه الذي كان يُعطى لتشارلوت ، للتعجيل في موتها ، بايعاز من دوق كمبرلاند - بقصد مضاعفة حظه في أن يصبح ملك انكلترا .

وتراسل هكتور بوليث مع الآنسة د . م . ستوارت ، مؤلفة كتاب «ابنة انكلترا» ، وهو الأفضل بين الكتب التي تناولت سيرة الاميرة تشارلوت . فلقد تفحّصت كل الوثائق المتعلّقة بالقضية ، والتقارير الطبية ، ولا تعتقد ان ثمة ادنى دليل على أن للدوق كمبرلاند علاقة بوفاة الاميرة ـ وأن ذلك لم يكن إلا اشاعة ، وان المرضة ، ربما خُدعت وحسبت الأمر حقيقة .

ولكن ، في الاوساط المحيطة بالاسرة المالكة ، في السنة ١٨١٧ ، صدقوا ، بلا ريب ، القصة ، أو شكّوا بالأمر . إذاً ، من المحتمل أن تعتقد دوقة كنت بغدر دوق كمبرلاند . فموت الاميرة تشارلوت قدّمه خطوة من عرش انكلترا المشتهى . وعقب تسلّم وليام الرابع هذا العرش ، لم يعد يقف بينه وبين التاج إلا الأميرة فكتوريا . ولذا فإن موتها مرغوب فيه كذلك من جانب امرئ كان يُعتبر وغداً طموحاً .

تأملوا ظروف دوقة كنت التي كانت تعيش كما في المنفى في قصر كنزنغتون ، تصارع قضية تنشئة ابنتها . كانت مكروهة من الملك وليام الرابع واخوته . ولم تكن الاسرة المالكة ، ولا البرلمان يخصّانها ببنس واحد من اجل العناية بالاميرة . وكانت من الفقر بحيث ان ديون دوق كنت لم تسدّد الا بعد انقضاء سبع عشرة سنة على وفاته ـ عندما اعتلت الملكة فكتوريا العرش في السنة ١٨٣٧ .

كان بوسع دوقة كنت أن تعود إلى الاقامة في اموورباك ، حيث كان يمكن ابنها من زواجها الأول ، أن يوفّر لها مسكناً ، او الى كوبورغ ، مسقط رأسها ، حيث كانت تستطيع الاستمتاع بالأمن والمحبة من جانب اسرتها . ولكنها بقيت في انكلترا ، وحيدة ، فقيرة ، وغالباً طائشة ، غير حكيمة ، ولكنها ، مع ذلك عنيدة من حيث القرار بأن تنشّىء ابنتها تنشئة اميرة انكليزية .

وضاعف عزلتها مسلك الملك جورج الرابع ، ومن بعده وليام الرابع . وكان ذلك المشهد المؤلم عند تنصير فكتوريا ، عندما تصرّف الوصي بخشونة وقساوة انفجرت معها الدوقة باكية . وبعد ذلك كانت الحقبة خلال العشاء في قصر وندسور عندما اشار اليها وليام الرابع بقوله «تلك المرأة» ، وقد حِيلَ بينها وبين العودة على جناح السرعة الى لندن ، للتحرر من هذه الرفقة الرهيبة . وكان في رأس محنها خوفها من أن يكرر دوق كمبرلاند الجريمة التي كانت تعتقد انه ارتكبها في تشرين الثاني ١٨١٧ .

اذا كانت تعتقد ان الدوق صرع خادمه ، وأنه كان مسؤولاً عن موت الاميرة تشارلوت ، فمن السهل أن نفهم لماذا بنت والدة فكتوريا مثل جدران الحماية هذه حول ابنتها ، ولماذا لم تكن تريد ان تزور الاميرة قصر وندسور ، وأن تكون في حضرة أعمامها ، من دون أن تكون هي إلى جانبها ، ولماذا ألحّت على السرير الابيض الصغير بقربها ، ولماذا كان كل طعام يقدّم اليها في حجرة الحضانة يتمّ تذوقه سلفاً .

في أي سنة علمت الملكة فكتوريا بذلك؟ لا ندري ، ولكن علينا أن نقرأ يومياتها ورسائلها لكي نتبيّن أن قلبها رقّ تجاه والدتها ، وأنها أدركت أن هناك حباً واخلاصاً وراء الانضباط القاسي الذي قاسته ، في ايامها الاولى في قصر كنزنغتون . وقد شجّع

هذا التبدّل تأثير الامير ألبرت الذي اجتذب الدوقة الى نمط حياتهما ـ نمط «الحب والاجماع» ، كما وصفه .

من جهة اخرى ، استمر بغض الملكة فكتوريا الدوق كمبرلاند حتى بعد أن أصبح ملك هانوفر ، وحتى وفاته السنة ١٨٥١ ؛ عندها ، وحسب ، تأكدت الملكة أنها ، وحتى اولادها ، باتوا في منجىً من شره المزعوم .

في السنة ١٨٤٣ ، عندما هبط الدوق ـ ملك هانوفر ـ انكلترا لحضور حفلة تنصير الاميرة أليس ، جرى مشهد مذلّ يصفه الأمير ألبرت في رسالته إلى أخيه . فقد كتب يقول : «كاد الأمر يبلغ حدّ المشاجرة مع الملك . فقد أُجبرت على دفعه بشدّة ، وإنزاله بضع درجات من السلّم .»

وكان ثمة مشهد آخر عندما جاء دور التوقيع على السجل . « وضع ملك هانوفر قبضة يده فوق السجّل» في محاولة لمنع الأمير ألبرت من التوقيع قبله . «وغادر الحفلة فريسة للغضب الشديد ،» وقد سرَّ الامير ألبرت ، بعد ذلك ببضعة أيام ، عندما «سقط الملك فوق بعض الحجارة في حدائق كيو الشهيرة ، وحطم بعض الأضلاع .»

بعد عدة سنوات ، وعندما اتُهمت الملكة فكتوريا بالقسوة في تنشئة بكر اولادها ـ وقد اصبح في ما بعد الملك ادوارد السابع ـ قالت لأحدى حفيداتها : «لا يدرك الناس أنه لم يكن هناك سواي ، بين ادوارد وعمه الشرّير .»

ينبغي ألا يُخدع احد بتمويه التاريخ ، ولكن يبدو أن هذه القصة تسمح لنا بأن ننظر الى دوقة كنت في ضوء اكثر رقة ولطفاً . بالوسع النظر الى ما وراء واجهة سلوكها ، الى مصادر شجاعتها ، وندرك انها مثّلت دوراً مهماً في توطيد الملكية التي نهضت من رماد الملوك الجورجيين !

الحقيقة عن القبطان بلاي والتمرّد على السفينة باونتي

قصة الربّان بلاي والتمرّد على متن السفينة «باونتي» مشهورة جداً ، وحمل الشريط السينمائي الذي اضطلع بدور البطولة فيه تشارلز لوتون ، الحكاية المثيرة الى الملايين من عشّاق الافلام ، ومعظمهم تقبّل الصورة التي رُسمت للضابط البحري الصارم والقائد المتوحش على انها صحيحة .

صحيح أنه حدث تمرّد ، ولكن أن يكون نتيجة قسوة بلاي ليس إلا اسطورة ، وعلى أي حال كان بلاي ملازماً في ذلك الوقت ، لا نقيباً ، وقد سها عن البال أنه كان صديقاً للقبطان دجيمس كوك والسر دجوزف بانكس ، رئيس الجمعية الملكية ، وأن نلسون هنّأه على شجاعته وقيادته الحكيمة في معركة كوبنهاغن السنة ١٨٠١ ، في حين أن القليلين يعلمون أن فلتشر كريستيان ، الذي قاد التمرّد ، إنما شجّعه بلاي وهو بعد شاب ، وعلّمه معظم ما يعرف حول شؤون الإبحار وفن الملاحة ، واختير شخصياً وكيلاً للربّان في سفينة «باونتي» ، من قِبل الرجل الذي قذفه الى متن قارب في المحيط الهادئ .

لم يكن وليام بلاي المولود في بليموث في ٩ أيلول ١٧٥٤ متشرباً كل الخصال التي تجعل منه ضابطاً بحرياً شعبياً وناجحاً . ولم يكن عبقرياً ، ولا يتمتع إلا بالقليل من مزايا سائر الربابنة الشهيرين في عصره . ولم يكن له أي أصدقاء متنفذين في البحرية مثلما كان لنلسون ، ولم يكن موهوباً مثل كوك ، له حكمته ومخيلته . وبالطبع ، جرَّ اليه طبعه النزق وعدم لباقته انعدام الشعبية ، ولكنه كان ، مع ذلك ، محترماً بسبب بسالته وكفايته . وكان ، بلا ادنى ريب ، بحّاراً ممتازاً ، كما سيمرّ معنا ، غير أن إخلاصه المفرط للواجب غالباً ما أدّى إلى إساءَة تفسير دوافعه وأعماله . يمكن

أن يكون نكداً ومستبداً ، ولكن هذه المشاعر كانت عادة نتيجة عدم تسامحه مع العجز المهني . فكانت النتيجة نوعاً من سمعة القسوة التي ألصقت به . سوى أنه ينبغي ان نتذكّر أن هذه الصراحة كانت ميزة معظم الضباط البحريين في زمنه ، وأنه كان ، بالفعل ، أقل وحشية من اي من زملائه المعاصرين . فالضباط البحريون كانوا اكثر استبداداً من أرباب العمل الخصوصيين والمدنيين ، لأنهم اعتادوا على الصدمات القاسية في أيامهم الاولى في البحر . فضلاً عن أن الضبط الناجح للسفن المصنوعة من الخشب وذات الأشرعة كان يتوقف كلياً على الحفاظ على مستوى عالٍ جداً من الانضباط ، ولا يمكن أن يلام ربابنة هذه السفن دوماً إذا انهار بعض رجالهم أحياناً تحت الضغط والشدة .

احتفظ بلاي بثقة الاميرالية خلال حياته العملية العاصفة ، ومجرد أنه بلغ ، رغم ثورتين على سلطته ، رتبة نائب لواء بحري ، يُظهر بوضوح الاحترام والثقة اللذين كان يتمتع بهما . فلم يشكّ أحد قط في مهارته كملّاح ، أو في قدرته كرسّام خرائط ، أو بسالته كبحّار في حين أن استقامته لم يرقَ اليها الشك البتة .

لا يُذكر بلاي إلا بالتمرّد على سفينته «باونتي» ، وقد تجاهل الكثيرون تقريباً بقية ما يميّز حياته الرائعة من أعمال . فقليلون يعلمون انه هو من حمل نبتة ثمرة الخبز من تاهيتي الى جزر الهند الغربية ، وأنه هو من استكشف معظم تاسمانيا ، واكتشف طريقاً جديداً وأكثر أماناً عبر مضيق لوتريس (القناة بين غينيا الجديدة الجنوبية والطرف الشمالي الاقصى لكوينزلاند ، في اوستراليا) ، ومن أكتشف جزر فيجي . ولم يكن وحسب ، احد أبرز الملّاحين في عصره وأمهرهم ، ولكنه أسهم كذلك كثيراً في علم النبات الذي انتُخب من اجله زميلاً في الجمعية الملكية . إن الرجال اللامعين غالباً ما يعانون من عادة المؤرخين الذين يفردون حدثاً واحداً مظلماً في حياتهم ، لا فرق أكان هاماً ام غير هام ، من دون سائر الاعمال التي هي أهم بكثير . وهذا حدث لبلاي ، وما يزال اسمه مرادفاً للوحشية .

أبصر بلاي النور في بلدة شهيرة بأحواض السفن ، وقرّر والده منذ البدء انه ينبغي له ان يعمل في البحر . ويبدو أن دراسته في المدارس المحلية كانت شاملة ،ذلك بأن

سجلات السفن ، ويومياته ، ورسائله ، وأوراقه تُظهر أنه كان مرتّباً ، ودقيقاً ، وكانت حساباته مضبوطة وصحيحة . وقد التحق بالبحرية السنة ١٧٧٠ ، بحّاراً على متن السفينة «هنتر» ، وهي سلوب (مركب شراعي وحيد الصاري) مزوَّد بعشرة مدافع ، فخدم عليه اكثر قليلاً من سنة .

بعد ست سنوات من الخدمة القديرة ، ولكن غير المثيرة ، عُيِّن وكيلاً للربّان على متن السفينة «ريزوليوشن» تحت إمرة القبطان كوك . ويبقى سراً لماذا اختار هذا المستكشف الشهير بلاي ، ذلك بأنهما لم يلتقيا قط من قبل ، ولم تكن شهرة بلاي آنذاك قد عمّت بحيث يتاح لكوك أن يسمع به . ولكن ، من الممكن ، مع ذلك ، أن يكون قد اختير لكونه تخصّص في صباه ، في فن الملاحة وعلم المحيطات ، وقام بعمل جيد ، وربما بحث كوك في أحواض بناء السفن عن شاب ذي مؤهلات طيبة في هذه الشؤون ، يُعزّزها الطموح وحسن الانضباط والنظام . وكان بلاي يتمتع بكل ذلك .

بدأت رحلة كوك الثالثة السنة ١٧٧٦ ، وقد نُظِّمت بهدف العثور على ممر شمالي غربي ، فضلاً عن مواصلة الاكتشاف في البحار الجنوبية . وخلال سنوات الرحلة الأربع ، التي قطعها اغتيال كوك بصورة مأساوية ، على يد السكان الاصليين الذين أبدى نحوهم اللطف والرقة دوماً ، تعلّم بلاي الكثير . اكتسب خبرة حول المياه الاستوائية والقطبية ، واجتاز خط الاستواء مراراً ، واسهم في كل اكتشافات كوك . وتعلّم كيف يتعامل مع البحّارة في الرحلات الطويلة ، ووجد أن أفضل طريقة لإبقائهم سعداء ومنضبطين تماماً ، هي العناية الدقيقة بصحتهم وتغذيتهم . وأفهمه كوك كيف يعامل السكان الاصليين بلطف ، وهو مثال احتذاه بلاي خلال مغامراته البحرية في تلك المياه .

وكان لديه فرص للملاحة العملية ، وقام بمسح الجزر المعروفة بالجزر الصديقة وساندويتش ، ورسم خريطة لجزء من خط الساحل الاميركي الشمالي . ولم تُظهر روايات كوك خلال رحلته الأخيرة أي انتقادات غير ملائمة لسلوكه . وقد نشأت بين الرجلين صداقة حميمة . واكتأب بلاي كثيراً لما قُتل كوك .

لدى عودة الناجين من تلك الرحلة ، نُشرت القصة رسمياً ، وتلقّى بلاي حوالى

الف استرلينية لقاء اسهامه فيها .تزوج إليزابث بيندام ، السنة ١٧٨١ ، وكان عمها دانكن كامبل ، ابن عم الاميرال دجون كامبل ، الذي كان مفيداً جداً بالنسبة الى تكليف بلاي مهمة خطيرة السنة ١٧٨٧ .

بعد خدمة طوال بضع ستين في الداخل والخارج ، عيّن بلاي قائداً للسفينة «بريطانيا» حيث قابل للمرة الأولى فلتشر كريستيان . وكان هذا من بلدة مانكسمان ، وابن محامٍ . تحدَّث عن قدرة بلاي ، ولطفه معه ، وسجّل بوضوح كيف أنه علّمه اصول الملاّحة ورسم الخرائط البحرية . واهتم بلاي ، من ناحيته ، بالشاب ، وأوصى به الاميرالية عندما عادا من الرحلة .

في السنة ١٧٨٧ ، وافق الملك جورج الثالث على مشروع لإرسال حملة الى جزيرة تاهيتي للحصول على أشجار ثمرة الخبز ، وإعادة زرعها في جزر الهند الغربية . وعندها قدَّمت الجمعية الملكية وساماً ذهبياً الى كل من ينجز هذا العمل بنجاح . وطلب الرئيس ، السردجوزف بانكس ، الى الملك أن يأمر الاميرالية بتوفير سفينة لهذه الغاية . وكان المشروع يقضي بأن يُحمل من تاهيتي عدد من النباتات الصغيرة . ويُرسل إلى جزيرتَي جامايكا ، وسنت فنسنت اللتين كانتا تقريباً على خط العرض نفسه . ووافق الملك ، واختار بانكس سفينة حمولتها ٢٢٠ طناً ، فأعاد بناءَها وتسليحها ، وسمّاها «باونتي» (ومعناها سخاء) ، اعترافاً منه بفضل الملك . عندها أوصى كامبل بأن يقودها بلاي ، ووافق بانكس كلياً على هذا الاقتراح . وعيّن بلاي ملازماً في آب ١٧٨٧ ، وعيَّن هو بدوره من فوره فلتشر كريستيان ، وكيلاً للربّان . وأبحرت «باونتي» في نهاية تلك السنة ، باتجاه جزر سوسايتي من طريق رأس هورن .

ولكي يُمنح البحّارة ساعات ثمانٍ للنوم بدلاً من الأربع ، تخلّى بلاي عن العادة المتبعة ، وأنشأ ثلاث فترات مناوبة . ثم عيَّن كريستيان ملازماً بالوكالة ، وفوق ربّان السفينة فراير . وربما كان في هذا العمل عدم لباقة ، ولكن ذلك لا يمكن أن يملأ نفس كريستيان بأي عاطفة غير عاطفة الشكر وعرفان الجميل . وهكذا يصبح أصعب علينا فهم سبب تورّط كريستيان في التمرّد .

وعلى نقيض الاعتقاد السائد ، لم يُنزل بلاي أي عقوبات صارمة بحق أحد خلال الرحلة بكاملها . وحدثت أول عملية جلد في الاسبوع السابع للرحلة ، ولم يحدث كثير غيرها بعد ذلك . وكان الجلد العقوبة المعتادة لمعظم الذنوب .

ويُزعم أن أشهر الحوادث التي أدّت الى التمرد كانت قضية الجبنة . وهذه هي رواية المتمردين : أمر بلاي بحمل صندوق الجبنة الى سطح السفينة . فلما فُتح تبيّن أن قطعتَي جبنة ناقصتان منه . وعلى الفور انفجر بلاي في ثورة غضب شديد ، وصاح أنهما سُرقتا . ولكن صانع البراميل قال ان الصندوق فُتح سابقاً ، وأرسلت قطعتا جبنة إلى مقر بلاي نفسه . عندها أمر هذا الأخير بوقف تقديم الجبنة الى كل البحّارة من مختلف الرتب ، حتى يُعاد النقص .

أما رواية بلاي للحادث ، وهي على ما يبدو ، الأقرب إلى الحقيقة ، فكانت التالية : فُتح صندوق الجبنة على سطح السفينة للتأكد من سلامتها وصلاحيتها للأكل ، وتم ذلك أمام الجميع ، ثم أُغلق الصندوق بإحكام ، وأنزل الى مستودع المؤونة . وخلال الغداء سُرقت قطعتا جبنة . فاعتبر بلاي ذلك سرقة ، ،ظن أنها تمت بعلم معظم الرجال . عندها أمر بمنع تقديم الجنة حتى يظهر اللص ويعيدهما . وفضّل وقف تقديم الجبنة على الحسم من مرتّب كل بحّار .كانت تلك طريقة غير موفقة في العقاب ، ولكنها كانت خرقاء اكثر منها قاسية . وينبغي أن نتذكّر ان صانع البراميل سبق أن جُلد قبل بضعة أسابيع لتمرّده .

في آبَ ١٧٨٨ بلغت «باونتي» أرض فان ديمن ، وتوقفت للتزود بالماء والمؤن .

وحتى ذلك الوقت لم يكن قد ظهر أي أثر للحفر أو الاسقربوط ـ وهو داء من أعراضه تورُّم اللثّة ونزف الدم منها ـ أو للحمّى ، كل ذلك بفضل ادارة بلاي الفعّالة والواعية لنظام الأكل ، والتغذية . وكانت أمراض البحر غالباً ما تتسبّب عن سوء التغذية ، والاصابة بالزكام الشديد نتيجة البرد . ولمنع ذلك ، لم يكتفِ بتغذية رجاله جيداً وحسب ، بل إنه كان يدع النيران دائمة الاشتعال تحت لتعزيز التهوية بين الاسطح ، وللتزود بالهواء النقي المنعش . وكان يأمرهم بتبديل ملابسهم وأغطية أسرتهم وفرشهم لكي يبقوا أصحّاء البدن .

ولما كان مهتماً ببلوغ تاهيتي بأسرع ما يمكن ، أبحرت السفينة على الفور . وأثناء الرحلة جرى حادث آخر . استدعى بلاي الربّان فراير الى حجرته للتوقيع على الحسابات ، فرفض ، وتناول قصاصة ورق طلب الى بلاي توقيعها قبل أن يوقع هو على الحسابات . وكانت القصاصة تتضمن أن فراير لم يأتِ أي عمل سيّئ خلال الرحلة ، حتى ذلك اليوم . ورفض بلاي بدوره التوقيع ، وكان محقاً في رفضه . ثم إنه قرأ على فراير المقاطع المناسبة في مواد الحرب التي تنطبق على سلوكه وتصرّفه ، ولكنه لم يعاقبه قط .

وصلت السفينة «باونتي» إلى تاهيتي في نهاية تشرين الأول ١٧٨٨ ، بعد أن قطعت مسافة ٢٧ ألف ميل منذ مغادرتها انكلترا . وكان بلاي قد اجرى فحوصاً طبية لكل بحّارته من أجل حمايتهم وحماية الفتيات من السكان الاصليين ، فوجدهم جميعاً خالين من الأمراض . ثم خاطب الرجال ، وأرشدهم الى كيفية التصرّف على الجزيرة . وشدَّد أن يُعامَل السكان الأصليون بلطف ، وألا تُطلق النيران إلا دفاعاً عن النفس . وأشار الى ان كل عملية تجارية مع هؤلاء السكان ينبغي أن تتمّ بواسطة ضابط مشرف ، مع الحرص على عدم ارتكاب اي اختلاس .

وأفضل دليل على الطريقة التي عامل بها كوك وبلاي السكان الاصليين في البلدان التي نزلوا اليها في السابق ، أظهرها السرور الذي استُقبلت به سفينة بريطانية اخرى . فقد غُمر بلاي باللطف ، ومن جهته ، كان يدعو الزعماء الى تناول الطعام الى مائدته ، كل يوم تقريباً . وكان يعاملهم دوماً كأنداد ، ويشهد رقصاتهم ، ويدرس لغتهم وعاداتهم . وبعد فترة من الزمن ، شعر أنه بات مناسباً أمر مفاتحتهم بقضية ثمرة الخبز . فقدَّم اليهم العروض فوافقوا من فورهم . وجُمعت إذ ذاك النباتات ، وخُزنت في عنابر خاصة في السفينة .

حتى بداية السنة ١٧٨٩ ، لم يظهر ثمة أي استياء عام ، ، وكانت الحوادث معزولة ، وتفصل بينها عدة أسابيع . غير أن الطقس الجميل ، والضيافة الحارّة من قِبل السكان الأصلين ، والروابط التي نشأت بين بعض البحّارة والفتيات من هؤلاء السكان ـ كل ذلك أسهم في إفساد المعنويات بصورة عامة .

واعترى التراخي النظام ، وبات محتماً أن بعض الرجال يودّ الفرار ، وهذا ما فعلوه . ولكن قُبض على الجميع ، وعوقبوا . وبينما كانت تُنقل نباتات ثمرة الخبز ، رأى بلاي ان يدّخر للمستقبل كمية من لحم الخنازير كان حصل عليها من السكان الاصليين بالمقايضة . فاتُّهم على الفور بأنه سرق هذا اللحم ، في حين أنه ، في الواقع ، كان بعد نظره قد حمله على شرائها ، لكي تكون متوفرة كطعام في الرحلة الطويلة الى جزر الهند الغربية .

إن غلطة بلاي الرئيسية خلال كل هذا العمل هو أنه تأخر طويلاً في تاهيتي . فذلك لم يؤدِ إلا الى إفساد الرجال أكثر فأكثر . ولكن «باونتي» رفعت أخيراً المرساة ، وغادرت الجزيرة في نيسان ١٧٨٩ . وما أن ابتعدت بضعة اسابيع عن الجزيرة ، حتى جرى الحادث الأخير ، الذي كان السبب للتمرد المكشوف ، على الرغم من تفاهته ، بحدّ ذاته . كان كريستيان قد قرّر قطف بعض جوز الهند ، ولكنه فوجىء ببلاي الذي نعته باللص . وكان يمكن أن يكون فقد وعيه ونعته بشتى النعوت القبيحة ، التي لم يكن يعنيها البتة . وواضح أنه ندم على استسلامه الى الغضب ، لأنه دعا كريستيان الى العشاء الى مائدته في تلك الليلة بالذات ، آملاً أن يطوّق ما حدث . فرفض كريستيان مقدماً العذر الأعرج بأنه ليس على ما يرام .

وفي وقت متأخر من ذلك المساء همس الأكثر تمرّداً من بين طاقم البحّارة في أُذن كريستيان «إن الرجال مستعدون لكل شيء .» فوضع كريستيان إذ ذاك مؤامرة لإلقاء القبض على بلاي ، والاستيلاء على السفينة . فماذا دفعه في الواقع ، الى مهاجمة الرجل الذي فعل الشيء الكثير من اجله؟ لن نعرف ذلك أبداً . لعلّ تهمة السرقة التي كانت أمام كل البحّارة ، قد جرحت كبرياءَه !

صباح يوم ٢٨ نيسان ، قبض كريستيان وثلاثة رجال على بلاي ، وهدّدوه بالموت إذا لم يطع آسريه ، وقيّدوا يده وقدمه ، وسجن البحّارة الذين لم يساعدوا «الثّوار» في حجراتهم . وأُنزل ، بعد ذلك ، قارب إلى البحر ، وأُلقيت فيه المؤن التالية : ١٦ قطعة من لحم الخنزير ، و ١٥٠ رطلاً من الخبز ، وغالون ونصف من شراب الرَمّ ، وست زجاجات خمر ، و ٢٨ غالوناً ماءً ، وبعض البسكويت البحري . ثم أمر كريستيان بأن

ينزل الى القارب أنصار بلاي الثمانية عشرة ، بمن فيهم فراير الذي لا بد أنه اصطلح مع بلاي ، والجرّاح . وأُعطي سجلات السفينة ، وأوراقه ، ومذكّراته ، من دون خرائطه ، ورسومه البيانية ، وصوره ، وأدواته التي احتفظ بها ، وعندها دُفع القارب لتتلاعب به الامواج . وبقي على متن السفينة «باونتي» كريستيان مع خمسة وعشرين من المتمردين . وتُرك بلاي وبحّارته الى قدرهم !

كان القارب مزدحماً منذ البداية ، وكانت المياه تغمر حافته العليا ، الأمر الذي كان يتطلب جرفها باستمرار . ولم يكن الطعام ليكفي أكثر من اسبوعين وحسب ، وواجهت البحّارة رحلة بضعة آلاف ميل عبر المجهول ، مع أمل ضعيف جداً بالبقاء أحياء . وبدا أمراً محتماً الموت بسبب الجوع والتعرّض للعوامل الجوية .

وسرعان ما طمأنتهم مزايا بلاي الممتازة كبحّار وكقائد ، وتولّى تسلُّم زمام الوضع . ففرض عليهم تقنيناً في الأكل يتلخص بتناول بضع بسكوتات ، ونصف باينت (ثمن غالون) من السوائل في اليوم الواحد ، وقطعة لحم ، مرة في الأسبوع . ورجاهم ان يثقوا به ، مؤكداً لهم أن بوسعه إنقاذهم من هذا الكابوس بسلام . ومعروف تماماً أنه إنما فعل ذلك ، وتُعتبر رحلته البالغة ٣٦٠٠ ميل في قارب مكشوف أحد أعظم المنجزات في حوليات البحر . فقد أبحر بلا أدوات أو خرائط طوال ستة اسابيع ، فبلغ جزيرة تيمور ، في الهند الغربية . وبفضل شجاعته واستخدامه المتفوق النظام ، استطاع ان يعود بالبحّارة جميعاً الى شاطىء الأمان والسلامة . لم يَقضِ اي رجل منهم ، ولم يُصب احد بداء الاسقربوط او بالحمّى . وما هو أهم ، فقد بَقِي معهم ماء وطعام . وقد عانى البحّارة كل أنواع المصاعب البحرية باستثناء المرض : العواصف ، والبرد ، والحرارة ، والهدوء المغضب الذي يجعل الملاحة مستحيلة تقريباً . وخلال الرحلة أكتشفوا جزر فيجي ، وكانوا أول من اجتاز قناة أمير ويلز ، جنوب غينيا الجديدة .

وانتهى عذاب بلاي في ١٢ حزيران عندما بلغ ورجاله جزيرة تيمور ، ومنها سلك طريق العودة الى لندن . فقدّم تقريراً الى الاميرالية . وحظي بالاعجاب العام لبراعته في الملاحة وبسالته الرائعة ، وبالعطف على ما اصابه من أذى وإهانة . وقُدِّم الى

الملك ، وتلّقى تهنئته الشخصية . وعُقدت محكمة عسكرية للتحقيق في فقدان «باونتي» . وناصره كل الرجال الذين كانوا معه على متن القارب المكشوف ، على الرغم من أنه تشاحن وإياهم . وتقرَّر ان السفينة «باونتي» قد تم الاستيلاء عليها بصورة غير مشروعة ، وأنه ينبغي ارسال سفينة اخرى لإلقاء القبض على المتمردين .

وعلى نقيض الاسطورة الشعبية ، فإن سمعة بلاي لم تتأثر قط . لم يكن قبطاناً متوحشاً . وقد أُثبت أنه كان دائم الاهتمام بصحة رجاله ورضاهم . وكانت عقوباته ليّنة ، ومن الذين جُلدوا بسبب تمرّدهم او عصيانهم ، تسعة وحسب انضموا الى المتمرّدين ، ولم يكن سلوكه سبب التمرّد ، ولا كان السبب في نزاعه مع الرجال . ولو أن كريستيان كان سيداً ماجداً حقاً ليلبي الدعوة الى العشاء ، لما حدث التمرّد قط . وقد كانت لهجة بلاي القوية ، والمفرطة أحياناً ، جزءاً من طباعه ، ولكن ، على حد قول المترجم ماثيو فلندرز : «لم يكن الضباط البحريون في تلك الحقبة مدمنين مخاطبة رجالهم بالطريقة التي تخاطب بها السيدات عصافير الكناري التي يربّينها .»

بعد اسابيع ثلاثة من التحقيق ، عُيِّن بلاي لقيادة السلوب «فالكون» ، ونُقل بعد شهر واحد الى السفينة «ميديا» برتبة نقيب . وفي السنة ١٧٩١ ، نيطت به قيادة السفينة «بروفيدانس» ، من أجل القيام بما فشل في القيام به بالسفينة «باونتي» . وفي الرحلة الثانية حالفه النجاح التام ، ونال الوسام الذهبي للجمعية الملكية السنة ١٧٩٤ .

وواصل بلاي خدمة بلاده ، فقاد السفينة «دايركتور» ، تحت إمرة الأميرال دنكن ، في معركة كامبرداون السنة ١٧٩٧ ، حيث أنزل الاميرال الهولندي دو ونتر ، لما هُزم ، علمه وقدَّم الى بلاي سيفه . وفي التمرد في تور ، في السنة نفسها ، تصرّف بكرامة ، واكتسب الاحترام بسبب انسانيته . وفي السنة ١٨٠١ ، قاد السفينة «غلاتون» في كوبنهاغن ، واستقبله نلسون لخدماته البارزة . وقال القائد البحري الانكليزي الاشهر انه لولا بلاي لما تمّ كسب الحرب هناك .

خلال مواعيده وعطلاته على اليابسة ، كان بلاي يقضي معظم وقته منصرفاً الى هواياته في مجال علم النبات وعلم الملاحة ، وقد اكسبته بحوثه الزمالة في الجمعية

الملكية . وكانت حياته العائلية نموذجاً مثالياً ، ويستفاد من رسالته الى زوجته أنه كان يحبها حباً حقيقياً ، حتى وفاتها . وكان معبود أولاده ، وأحبّه اصدقاؤه والكثيرون منهم كانوا ذوي نفوذ ـ واحترموه . وقد تقدّم السرد جوزف بانكس مجدداً ، وأمّن له منصباً كحاكم نيوساوث ويلز في (اوستراليا) ، السنة ١٨٠٥ .

أُوفد بلاي لإدارة مستعمرة كانت أحوالها في حالة يُرثى لها . وكانت العناصر الرئيسية فيها المحكومين بالسجن وفرقة جيش نيوساوث ويلز . وقد حُرم هؤلاء المستوطنون اسباب الراحة الحضارية ، وتمحور اهتمامهم حول احتساء شراب الرّم . وكانت النتيجة أن نشأ نظام بات فيه هذا الشراب المُسكر العملة في المستعمرة .

فكانت الاجور تُدفع بهذه السلعة ، وكان المستوطنون يقايضون مواسمهم ببراميل منه ؛ وباع احدهم زوجته لقاء اربعة غالونات من الرَّم ! وكان الضباط المدنيون والعسكريون في وضع يسمح لهم بضبط هذه التجارة ، وقد فعلوا ذلك ، لمصلحتهم أنفسهم . وكثيرون جمعوا ثروات طائلة بإقامتم احتكارات للشراب . وقد اخفق سلف بلاي كلياً في تنظيم هذه التجارة ، لأن تطبيق الأنظمة كان بين ايدي الضباط الذين كانوا متورطين كثيراً في هذه التجارة غير القانونية .

علم بلاي بذلك ، وهبط نيوساوث ويلز السنة ١٨٠٦ ، وقد صمَّم منذ البدء على تنظيف المستعمرة . ولدى وصوله الى سدني ، رحّب به الميجور دجونستون ، بالنيابة عن الجيش ، وممثل النيابة العامة آتكنز ـ وهو امرؤ مدمن الخمر ـ ودجون ماك آرثر ، ممثل «السكان الأحرار» ـ كما كان يدعو نفسه . وقد مثّل هؤلاء الثلاثة ادواراً رئيسية في الثورة التي تلت . وكان ماك آرثر مزارعاً يربي الماشية ، وقد جعلته مقدرته وذكاؤه أبعد رجال المستعمرة نفوذاً . وكان ينتج صوفاً ممتازاً ، وقد شجعت الحكومة الانكليزية تجارته .

لم يكن بلاي وماك آرثر على وفاق في بداية الأمر ، وعندما قام ماك آرثر ، بعد بضعة أسابيع من وصول بلاي الى البلاد ، بزيارته لمناقشة مشاريعه الصوفية ، استشاط بلاي غضباً ، واتهم ماك آرثر بالفساد ، والممارسات الاحتيالية . وكانت هذه التهمة ، صحيحة ، بلا أدنى شك ، ولكنها بذرت بذور العداوة المريرة . وكان ماك آرثر يجني

أرباحاً من الاتجار بالرّم ، والصوف ، والماشية ، ولم يكن محبوباً من المستوطنين . ورأى بلاي أين هي العقبة التي تعترض سبيله ، فلما قدّمت اليه عريضة وقّعها ثمانمائة من المستوطنين لحمايتهم ، انتصر لحقوقهم ، وأعاد اليهم حريتهم في التجارة . وكان معارضاً بعناد لتجارة الرّم ، ففرض تقنيناً على حصة الضباط منه ، وجعلها ثلاثين غالوناً وحسب في السنة . فكانت تلك ضربة جدية لتجارتهم غير المشروعة ، وتسبّبت في توسيع شقة الخلافات بين الحاكم وجيش نيوساوث ويلز ، الذي دعم ماك آرثر ردحاً من الزمن .

حدثت اولى علائم الاضطراب السنة ١٨٠٧ عندما هرب احد السجناء المحكوم عليه بالسجن مدى الحياة ، على متن احدى سفن ماك آرثر الى تاهيتي . واكتفى بلاي بالانتظار ليرى ما إذا كان السجين سيعود مع السفينة . وفي هذه الأثناء قاضى ماك آرثر بلاي في دَيْن زعم أن له بذمته . ورفض بلاي الدفع ، وفضلاً عن ذلك استنكر أن تُرفع القضية الى المحكمة .

وكانت تلك خطوة خطرة ـ حتى لو كانت مبرَّرة ـ لأنها استعدت أبرز مدني في المستعمرة . وكان الأسوأ ينتظره في الطريق ، إذ تدّخل بلاي في ادارة جيش نيوساوث ويلز ، وكتب الى انكلترا مشيراً باجراء تبديلات في الواجبات العسكرية ، لأن ذلك ـ حسب زعمه ـ كان السبيل الوحيد لمنع الجيش الثابت من أن يصبح ميليشيا خطرة .

خلال مدة ولايته كحاكم ، كان بلاي يتمتع بالدعم الكامل من وزير الخارجية كاسلري ، والحكومة ، في حين كان سكان المستعمرة مذهولين تماماً من ادارته الحكيمة . فتقدموا اليه باعلان يمتدحون فيه حكمه ، ويوافقون على تدابيره الصارمة ضد المحتكرين .

حوالى نهاية السنة ١٨٠٧ ، عادت السفينة التي أقلّت السجين الهارب ، دون أن يكون هذا على متنها . عندها ألقى بلاي القبض على ماك آرثر ، وعيّنت جلسة للمحاكمة برئاسة آتكنز . ولكن مع الأسف ، اختير ستة ضباط من جيش نيوساوث ويلز للنظر في الدعوى مع آتكنز ، فرفضوا . وألحّوا على تعيين ممثل للنيابة العامة غير آتكنز ، حتى أنهم هددوا بتوقيفه . ورفضوا تسليم أوراق الدعوى التي كان آتكنز قد

تركها على المكتب وهو يسارع الى مغادرة قاعة المحكمة . واستدعى بلاي دجونستون الذي كان وراء هذا التلكؤ ، فرفض هذا الأخير المجيء . وقد تأكد الآن أن دجونستون وماك آرثر كانا متواطئين .

وبات بلاي وحيداً ؛ والواقع أن تصرّفه يستدعي الاعجاب . وقد اصبحت الآن العدواة بينه وبين ماك آرثر قضية بين السلطة الرسمية والتحدي المدني . وفي ٢٦ كانون الثاني ١٨٠٨ ، أمر غور ، قائد الشرطة العسكرية ، بالقبض على ماك آرثر . إلا ان هذا الأخير أُفرج عنه بكفالة ، بانتظار المحاكمة ، وذلك بأمر من دجونستون الذي كان قد أصبح لقبه «نائب الحاكم» . فكان ذلك اول عمل من أعمال الثورة المكشوفة . ذهب ماك آرثر لتوه ، بعد الافراج عنه ، الى مكتب دجونستون ، وقرّر الاثنان فيما بينهما توقيف الحاكم وعزله . ولكي يجعلا ذلك مقبولاً اكثر من المستوطنين ، كتب ماك آرثر رسالة الى دجونستون طالباً فيها عزل بلاي لأن في ذلك مصلحة السكان ، وأخذ تواقيع أنصاره عليها . وبعد ذلك أعلن دجونستون الأحكام العرفية في المستعمرة . وراحت الحشود تتجمّع في ساحة دار الحكومة ، وشقّ الجنود طريقهم الى الدار ، وقبضوا على الموظفين المدنيين ، والقضاة ، والخدم ، بمن فيهم غور وآتكنز . وفي هذه الأثناء ، صعد بلاي الى الطبقة العليا كسباً للوقت ، ولدراسة ما يمكنه عمله لإعادة النظام . وعمد الى إخفاء وثائق يمكن أن تبرئه وتدين الثوّار ، ولكنه أوقف وهو يقوم بذلك . وأصبحت المستعمرة الآن بين أيدي العسكريين ، يوجههم ماك آرثر . واتُّهم بلاي علناً بجرائم تجعله ، كما جاء في الاعلان ، غير ملائم لممارسة سلطته العليا في المستعمرة دقيقة أطول . وصرف كل من غور ، وآتكنز ، والقضاة من مناصبهم . وقال ماك آرثر : «في الحقيقة لم تجرِ قط أي ثورة مثلها من حيث الفعالية التامة والهدوء والانتظام .» ووُضع إذ ذاك بلايَ وابنته في الاقامة الجبرية في المنزل وتحت الرقابة المشدّدة .

لم يُسمح لبلاي في الاشهر الخمسة الاولى ، بكتابة اي رسائل أو باستقبال الزائرين . ولكن في أيار ، خفّف دجونستون من قيوده . عندها كتب بلاي الى كاسلري ، ووضع الرسالة ضمن رسالة اخرى بعث بها الى أحد التجار في لندن . ثم

بدأ بعد ذلك مراسلة متواصلة مع دجونستون في محاولة للحصول على الافراج عنه ، وأخيراً منحه دجونستون الإذن بالسفر الى بلاده شَرط ان يبقى محتجزاً على ظهر السفينة . وبالطبع رضي بلاي بهذه البنود ، ولكن لم يكن لديه اي نية في التقيد بها . وبعد بضعة ايام ، بدّل دجونستون رأيه ، وطوال الخمسة عشر شهراً التالية عانى بلاي وإبنته مرّ الاقامة الجبرية ، في عدد من الاماكن ، بما في ذلك قضاء فترة قصيرة السنة ١٨٠٩ في كوخ في ثكنة عسكرية ، مؤلف من غرفتين .

في ربيع السنة ١٨٠٩ عاد الكولونل فوفو ، نائب الحاكم في جزر نورفوك ، من عطلة قضاها في انكلترا ، وتسلّم على الفور حاكمية نيوساوث ويلز . ورفض مقابلة بلاي ، وأرسل تقريراً الى انكلترا كان في مصلحة دجونستون الذي كان تعيينه نائباً للحاكم قد صدر عن الحكومة . ورفض فوفو التصرّف حتى «تُعرف رغبة صاحب الجلالة» ـ على حدّ تعبيره . فلما وصلت رسالة بلاي أخيراً الى كاسلري ، تحرّكت الحكومة على الفور بسرعة ، وأوفدت الكولونل ماكاري الى نيوساوث ويلز كحاكم جديد ، مزوداً بالاوامر الصريحة لاعادة بلاي الى منصبه اولاً ، ثم لخلافته في المنصب . فحمل معه كتيبة من المشاة بقيادة الكولونل اوكونل ، لتعزيز جيش نيوساوث ويلز .

بلغ الكولونل ماكاري سدني في نهاية السنة ١٨٠٩ ، وتأهب لاعادة بلاي الى منصبه . وكان هذا الاخير قد أُنزل الى البحر في المياه الشمالية تحت الحراسة . وأُفرج عنه في النهاية ، وهبط سدني حيث استُقبل استقبالاً رسمياً . وقدّم اليه كل العون الذي طلبه لجمع الدلائل والعودة الى انكلترا . وقبل إبحاره تزوجت ابنته الكولونل اوكونل ، وبقي الاثنان في المستعمرة .

وصل بلاي إلى انكلترا في ٢٥ تشرين الأول ١٨١٠ ، وقدّم تقريره الى الحكومة . وشرع المستشارون القانونيون للتاج في تحضير دعوى ضد نائب الحاكم دجونستون ، الذي كان قد عاد الى انكلترا . وعادت الحكومة فأكدت دعمها بلاي ، وعزّز امير ويلز ذلك بدعوة القبطان والسيدة بلاي إلى استقبال الصباح .

وبدأت المحاكمة في المستشفى الملكي ، في تشيلسي ، في ٧ أيار ١٨١١ . وعقدت برئاسة الفريق كيبل و١٤ ضابطاً آخرين . واتُهم دجونستون بأنه «بدأ ، وأثار ، وسبّب

الاشتراك في تمرّد بوضعه نفسه على رأس جيش نيوساوث ويلز ، وبالقائه القبض على الحاكم .» وشُهِّر ببلاي ببعض الاتهامات ، بما في ذلك قضية التمرّد على السفينة «باونتي» . وبدا حقاً انه يُحاكَم كدجونستون . وأضاف الدفاع ان بلاي كان مذنباً إذ أظهر جبانة يوم أُلقي القبض عليه في سدني . ولكن ذلك أثقل على هيئة المحكمة عندما تذكرت بسالته في معركتي كامبرداون وكوبنهاغن ، وجلَده واحتماله فوق القارب المكشوف الذي تهادى على صفحة المحيط الاطلسي . وجُرِّم دجونستون وحُكم عليه بالصرف من الخدمة . ولما أُرسلت نتائج التحقيق القضائي في المحكمة العسكرية الى الأمير الوصي على العرش ، كانت ملاحظته أن الحكم لم يكن ملائماً البتة .

واجتازت سمعة بلاي بسلام حتى هذه المحنة ، ذلك بأن الاتهامات وُجدت غير صحيحة .

ورقي الى رتبة عميد بحري في ٣١ تموز ١٨١١ على أن يكون ذلك اعتباراً من تموز ١٨١٠ .

وانسحب بلاي من الحياة العامة ، وواصل هوايته في علم النبات .

وكان ما يزال يتمتع باحترام الاميرالية ، ذلك بأننا نراه يصبح لواء بحرياً ، او نائباً للأميرال ، على متن السفينة «بلو» السنة ١٨١٤ . وقد توفيت زوجته بتسي ، التي كانت له اكبر عون وتعزية خلال كل المحاكمات والمحن ، السنة ١٨١٢ ، فغادر لندن لقضاء ما تبقّى له من سنوات في الريف . وفي ٧ كانون الاول ١٨١٧ ، رحل عن هذا العالم بحضور أربع من بناته .

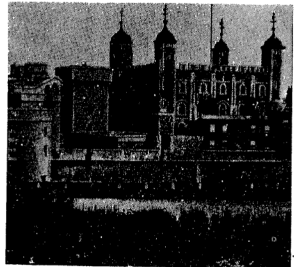
هذه الصورة لبلاي ، التي تستند الى الوقائع الصحيحة ، والتي لا تلتفت الى الاساطير السخيفة التي نُسجت حوله ، تختلف كثيراً عن الانطباع المقبول عامة من أنه كان طاغية جباناً . ويبدو لنا أن حياة عملية بمثل هذا التميّز والبسالة قلما تتفق مع صورة الطغيان والقسوة ، وما دامت تفاصيل حياته مثبتة في سجلات رسمية ، ووثائق وكتب معاصرة ، فليس ثمة اي مبرر لمواصلة قبول الاسطورة الشعبية إزاء مثل هذا الدليل الكبير على العكس تماماً .

ملحق مصوَّر

٢ ـ من التاريخ الانكليزي



بيتر جورج روبن صمرسيت فراي (١٩٣١ -
الملقب بلاتتدجينيت ، لتحدّره من الملك إدوارد
الثالث ، وشبهه به . وهو ابن القوماندر بيتر ك .
فراي ، مخترع المجنقة الهيدروليكية .
عنه ترجمت الاسرار والقضايا الغامضة من
التاريخ الانكليزي .



برج لندن .



عندما أصبحت فكتوريا ملكة ، وجاء لورد ملبورن لمقابلتها ، كتبت تقول فيما بعد : «نزلت الى الطبقة السفلى وعقدت مجلساً في قاعة الاستقبال الحمراء . دخلت ، بالطبع ، وحدي تماماً .» انتهت سنوات الحماية الأمومية المبالغ فيها ، والاستبداد المزعوم .



دوقة كنت ، في أيامها الاخيرة ، تقوم بأعمال التطريز في حديقة قصر فراغمور .



اعتقاداً من والدة الملكة فكتوريا ، دوقة كنت ، ان دوق كمبرلاند دسّ السم لأحد وارثي العرش ، أصدرت الامر بأن يتم تذوُّق كل طعام يقدَّم في غرفة الحضانة .

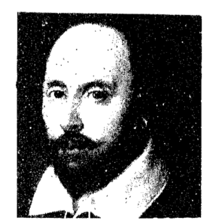


جانب مجهول
من حرب القرم .



هجوم فرقة الخيالة
الخفيفة .

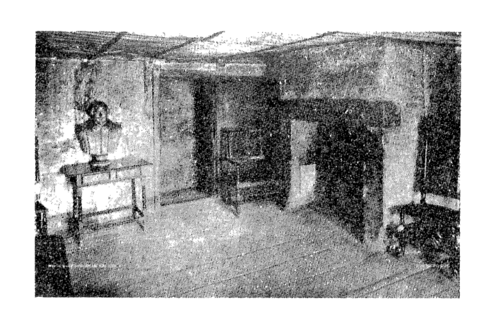
شكسبير سر عمره ٣ قرون

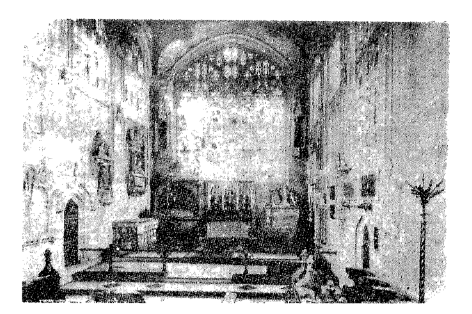


شكسبير



بيت شكسبير في بلدة
سترافورد ـ اون ـ ايفن ، وفيه
أبصر النور .





فوق : الغرفة التي وُلد فيها .

تحت : الكنيسة التي يرقد فيها شكسبير رقاده الابدي .



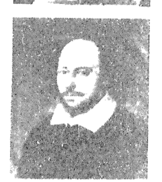
هناك مجال كبيرللاعتقاد بأن اللوحة الى اليسار التي عُثر عليها في كيمبريدج السنة ١٩٥٣ ، تمثّل كريستوفر مارلو . ولكن كالفن هوفمان يرى فيها شبهاً كبيراً لرسم لشكسبير ، حفره دروزهاوت ، ويُوجد على المجلد الاول من أعماله الأدبية ، وهو المنشور أدناه :











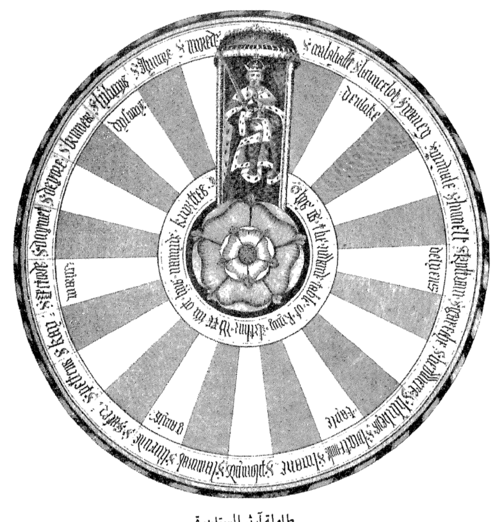
من فوق الى تحت :
صور شكسبير هذه موجودة في (١) مركز شكسبير ، في ستراتفورد -- اون - ايفن ؛ (٢) و (٣) في مكتبة شكسبير في فولغر ، و(٤) في قاعة الصور الوطنية ، في لندن .



دجيمس ، دوق مونموث



رتشارد الثالث



طاولة آرثر المستديرة

(قصة «الطاولة المستديرة اسطورية ، ولكن اللوحة هي أثر مهم من معتقد قديم جداً) .



إدموند الثاني (أيرنسايد) .



ماكبث ، ملك الاسكتلنديين



الملك دجون في ملابسه الرسمية .



روبن هود في غابة شروود



رتشارد الثاني .



رودريغو بورجيا ، البابا
ألكسندر السادس .



دجيمس الثاني



اللواء البحري وليام بلاي

الفهرس

المجلد الأول

١ ـ من التاريخ الفرنسي

٢ ـ من التاريخ الإنكليزي

من كواليس التاريخ
الجزء الاول

يتناول هذا الكتاب عددا من الاسرار التاريخية، علماً بأن الاقتراحات المقدمة فيها، على الرغم من أنها مختلفة، وربما متبرة للجدل، هي نتيجة النظر الى القضية من وجهيها وهي حلول، وليست الحلول، ويُترك للقارئ ان يقرر ما اذا كان يود قبولها او نبذها.

يضم الجزء الاول من هذا الكتاب ٢٨ قضية غامضة ومعقّدة في التاريخين الفرنسي والانكليزي لم تنجل بعد اسرارها مما يجعلها اقرب ما تكون الى الاساطير...

من أبرز هذه القضايا:

* من كان الرجل ذو القناع الحديدي؟
* هل قضى عاشق ماري ـ انطوانيت اغتيالا؟
* الكاتب الروائي اميل زولا ، هل مات مقتولا؟
* نابوليون على حقيقته.
* حلم الملكة اورتانس بيقظة المجد النابوليوني.
* ملك السكّر وامبراطور الصحرا. وعرشه الشائك.
* اختراع «قذائف ستالين» قبل قرن من اختراعها.
* هل أعدم الماريشال ناي أم ظل حيا؟
* ماكبث الحقيقي اي نوع من الرجال كان؟
* شكسبير: سرّ عمره ثلاثة قرون!
* حقيقة التمرّد على متن السفينة باونتي.
* من قتل الاميرين في برج لندن؟
* من كان روبن هود؟
* هل وُجد الملك آرثر حقاً؟
* المخاوف على الملكة فكتوريا من «عم شرير».